

الإنسان
رؤية قرآنية
الجزء الأول
تأليف
عبد الوهاب حسين
دار العصمة

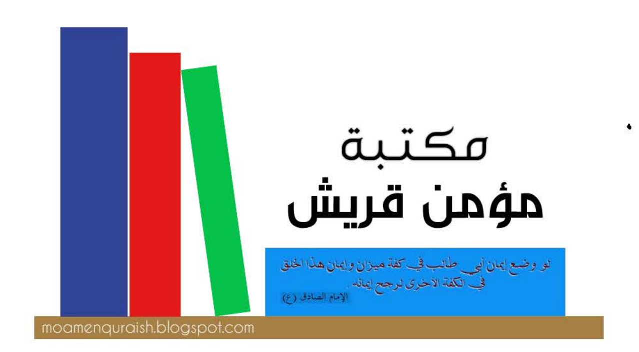
الإنسان

رؤية قرآنية

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م



دار العصمة / كتب - قرطاسية - ترجمة - طباعة - خدمات أخرى

مملكة البحرين - السنابس

daraleamah@hotmail.com – ٠٠٩٧٣/٣٩٢١٤٢١٩ – ٠٠٩٧٣/١٧٥٥٣١٥٦

الإنسان

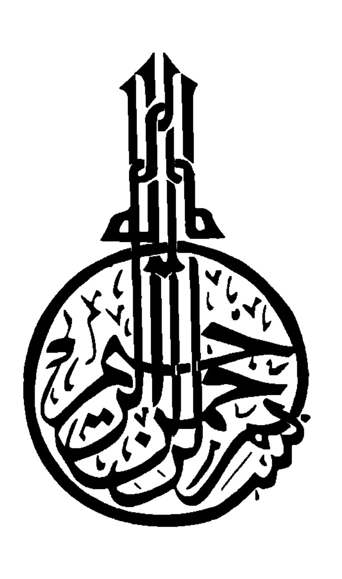
رؤية قرآنية

الجزء الأول

تأليف

عبد الوهّاب حسين

دار العصمة



المقدمة

كتاب الإنسان الذي بين يديك عزيزي القارئ، هو مساهمة متواضعة - بقدر صاحبها- لجذب الإنسان للتفكير في نفسه، وإخراجه من دوامة السلطة، والقوة، والحياة الحسية، والمنافع المادية، والأنانية، والدوافع الشخصية للحركة، وصنمية رأس المال، وقوى الانتاج، والهموم المعيشية البحتة، والجشع، والمتع الحسية، والاستهلاك المتزايد للسلع، والسعي الجنوني إلى السلطة، وصيحات العلوم الطبيعية والتكنولوجيا، التي أسرت الإنسان وقيدته في سجن الطبيعة، وشغلته - بسبب سوء التفكير في ظل مدارس فكرية وضعية متناقضة - عن نفسه، وخالقه، وطريقه الواقعي في الحياة، وعن غاية وجوده، وأغرقته في الظلام الدامس المميت الذي يسود باطنه، ومسخت الجوهر الإنساني السامي في حقيقة وجوده، وأطفأت الأنوار الإلهية التي تشع من أعماق فطرته، وجردته من القيم والدوافع الإنسانية: الروحية والمعنوية، وعطلتها عن العمل في حياته، وضيعت منه ملاك الاختيار، والقاعدة الأصيلة التي تقوم عليها القيم الإنسانية، والنظام الخالد للتمييز بين: الحق والباطل في الأفكار، والصواب والخطأ في السلوك والمواقف، وجعلته موجودا تافها يتردد بين عالمي: الشيطان والحيوان، بلا معنى ولا هدف، وأوردته بذلك موارد الردى والشقاء والهلكة.

يقول الكسيس كارل: « إن الإنسان ابتعد عن نفسه ونسيها بقدر ما اهتم بالعالم الخارج عن نفسه وتقدم فيه »[1].

---

(١) الإسلام ومدارس الغرب. شريعتي. ص٥٢.

ويقول البروفسور محمد عبد الهادي أبو ريدة رحمه الله: « والناس يتكلمون كثيرًا عن مصير الإنسان، ومصير حياته وحضارته، وقد أصبحت المسألة خطيرة وشديدة الوطأة، بعدما توصل الإنسان إلى وسائل القوة التي أصبحت تهدد وجوده، من غير أن يتقدم في إدراك معنى حياته ورسالته ومصيره بقدر يتناسب مع ما وصل إليه من سيطرة على الطبيعة »[١].

ويقول ديستويفيسكي: « لو رفعنا الله عن العالم، فكل عمل مجاز للإنسان »[٢].

ويقول رينه كانون: « ما لم يكن للعالم غاية ومعنى فالإنسان أيضا لا معنى له ولا غاية »[٣].

وذلك بسبب النظر إلى العالم والإنسان من جانب الشهادة (أي المادة) فقط، وتجاهل جانب الملكوت الذي يربطه بخالقه وربه المدبر له، قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[٤] فانزلق الإنسان بذلك عن طريق السعادة والفلاح، إلى طريق الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

(١) مبادئ الفلسفة والأخلاق. ص١٦٢.

(٢) الإسلام ومدارس الغرب. شريعتي. ص١١١.

(٣) نفس المصدر. ص١٢٨.

(٤) الأنعام: ٧٥.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

والخلاصة: أن الإنسان في حاجة ماسة إلى تفسير معنوي دقيق لنفسه والعالم من أجل الازدهار والإنماء الوجودي الشامل لنفسه، ولا سبيل لذلك إلا عن طريق الإسلام الحنيف الذي هو الطريق الوحيد لخلاص الإنسان وفلاحه في ظل عقيدة التوحيد الخالصة، التي هي رؤية كونية، وفلسفة أخلاقية، ومنهج تشريعي شامل لجميع شؤون الحياة الفردية والمجتمعية، أي: فلسفة الهداية الشاملة للإنسان في الحياة.

أهمية معرفة النفس: وتحظى معرفة النفس بأهمية بالغة في الرؤية الإسلامية للإنسان ومسيرته في الحياة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين »[2] والمراد بالمعرفتين

- بحسب الظاهر – هما:

- المعرفة بالآيات الأنفسية.

- والمعرفة بالآيات الآفاقية.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

أما كون معرفة الآيات نافعة، فذلك:

- لأن معرفتها موصلة إلى معرفة الله ذي الجلال والإكرام: وجوده

---

(١) الروم: ٩.٧.

(٢) الميزان. ج٦. ص١٧٠.

(٣) فصلت: ٥٣.

وصفاته وأسمائه وأفعاله، والانقطاع إليه عن كل شيء والفناء فيه.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[1] وهذا يدل على أن الغاية هو الله سبحانه وتعالى، وأن معرفة النفس هي الطريق إلى معرفة الله ذي الجلال والإكرام، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « أكثر الناس معرفة لنفسه، أخوفهم لربه »[2].

– وأن معرفة الله سبحانه وتعالى تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه من جهة تعلقها بالتوحيد والمعاد والنبوة، مما يهديه إلى التمسك بالدين الحق والشريعة الإلهية الحنيفة: قولا وعملا، ويحمل الإنسان نفسه على مجاهدتها وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات وتطهيرها من الرذائل الأخلاقية وعلاجها من الأمراض الروحية الخبيثة والسير إلى الله ذي الجلال والإكرام بقدم صدق في طريق بناء الذات وتكميلها بالفضائل، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « من عرف نفسه جاهدها، ومن جهل نفسه أهملها »[3] والعمل على تزودها بما تحتاجه من الزاد من أجل الوصول إلى الغاية العظمى في حياة الإنسان، وأن زادها هو الاعتقادات والأعمال، وأن خير الزاد التقوى (الإيمان الصادق بالحق والأعمال الصالحة) فلن تنوخ راحلتها في ساحة الراحة والسعادة والاطمئنان في الدنيا والآخرة إلا بالتقوى. وإدراك أن نسيان الغاية يؤدي إلى نسيان الطريق، وأن جهل الطريق يؤدي إلى الفشل في الوصول إلى الغاية.

وأما اعتبار الآيات الأنفسية أنفع، فذلك: لأنها تتصل – بصورة مباشرة – بإصلاح النفس وأعمالها، وأن عدم معرفة الإنسان بنفسه، يعني عدم معرفته

---

(١) الميزان. ج٦. ص١٦٩.

(٢) غرر الحكم. الحكمة: ٣١٢٦.

(٣) ميزان الحكمة. الري شهري. مادة: المعرفة.

بقيمة الحياة وغاية وجودها، مما يشعر الإنسان بالتفاهة والحقارة ويجعله في حالة ضياع، ويفشل في السيطرة على نفسه وحسن توجيهها، فلا تستقيم حياته ولا تتحقق له الراحة النفسية والسعادة - مهما تقدم في معرفة العالم الخارجي والتكنولوجيا ووسائل الترفيه - إلا بمعرفة النفس، وأن أكثر المشاكل تحدث للإنسان عندما يغترب عن ذاته بسبب الاستغراق في عالم الطبيعة والشهوات والسلطة ولا يولي نفسه الاهتمام اللازم.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « غير أن النظر إلى آيات النفس أنفع فإنه لا يخلو من العثور على النفس وقواها وأدواتها الروحية والبدنية وما يعرضها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها والملكات الفاضلة أو الرذيلة، والأحوال الحسنة أو السيئة التي تقارنها »[١].

أما الآيات الآفاقية فهي تتصل بإصلاح النفس وأعمالها بصورة غير مباشرة.

والخلاصة: أن معرفة الإنسان بنفسه مسألة حيوية تصل إلى درجة الضرورة، فيجب على الإنسان أن يشكل رؤية واضحة لنفسه عن نفسه، وأن يضع على ضوئها استراتيجية شاملة وثابتة لحياته، فهي الخطوة اللابدية في الطريق إلى الله ذي الجلال والإكرام، وإلى إصلاح النفس والتكامل الروحي والأخلاقي والمجتمعي، وتحصيل السعادة الأبدية الخالدة، ولكن أكثر الناس - للأسف - في حالة غياب عن معرفة أنفسهم، بسبب الانشغال بعالم الطبيعة واشباع حاجاتهم المادية، ولا يفكرون في غاية وجودهم، ولا بالقضايا المصيرية التي خلقوا من أجلها وترتبط بحقيقة وجودهم ومصيرهم الوجودي في الحياة، مما يصدق عليهم القول - بحق - أنهم: « فاقدون للمصير الوجودي الحقيقي

---

(١) الميزان. ج٦. ص١٧١.

في الحياة ».

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

ويقول العلامة السيد الطباطبائي: « فأمره تعالى المؤمنين بلزوم أنفسهم في مقام الحث على طريق هدايتهم، يفيد أن الطريق الذي يجب عليهم سلوكه ولزومه هو أنفسهم، فنفس المؤمن هو طريقه الذي يسلكه إلى ربه وهو طريق هداه، وهو المنتهي به إلى سعادته »[2].

وقد جعلت الانطلاقة في البحث من القرآن الكريم (ذلك الروح الواهبة للحياة) من أجل الاستفادة من هذا النور الرباني العظيم في تبصير الإنسان بنفسه وطريقه وغاية وجوده، ولم أغفل عن الاستفادة من الإنتاج البشري - بكل ألوانه وأطيافه - لتحقيق هذا الهدف الإنساني المتميز العظيم. وقد بذلت جهدي لأن تكون الكتابة بعقلية إنسانية وإسلامية منفتحة ومحايدة، وليست بعقلية مذهبية ومتحيزة، وقد حرصت على ذكر آراء المدرستين (الخلفاء وأهل البيت عليهم السلام) في المسائل الفقهية، ليجد فيه - إن شاء الله تعالى - كل إنسان وكل مسلم راحته ومتعته، وذلك مع الالتزام بإظهار الحقيقة كاملة وعدم تغييرها أو النيل منها أو إضعافها أو إخفائها أو انتقاصها أو تعويمها أو غير ذلك من أوجه التشويه والكتمان.

وقد جعلت مركز الاهتمام إظهار الرؤية الإسلامية وبسطها وتوضيحها، وسعيت إلى الاستفادة من كافة الأفكار التي وقفت عليها، وتجنبت الدخول في الجدال والمناقشات غير المفيدة لآراء الأشخاص والمدارس الفكرية

---

(١) المائدة: ١٠٥.

(٢) الميزان. ج٦. ص١٦٥.

المختلفة، ولم أتردد في استعارة الألفاظ من أصحابها من أجل إظهار الأفكار وإجلائها.

عبد الوهاب حسين

صباح السبت

بتاريخ: ٣ / ربيع الأول / ١٤٣٠هـ

الموافق: ٢٨ / فبراير - شباط / ٢٠٠٩م

البحرين - قرية النويدرات

الباب الأول

«خلق الإنسان»

الفصل الأول: حدوث خلق الإنسان

الفصل الثاني: خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة

الفصل الثالث: خلق نبي الله عيسى عليه السلام

الفصل الرابع: تكوين الجنين على ضوء القرآن الكريم

الفصل الخامس: مراحل تكوين الجنين على ضوء العلم الحديث

الفصل السادس: العوامل الخارجية المؤثرة في تكوين الجنين

الفصل الأول

حدوث خلق الإنسان

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾[1].

معاني الألفاظ

هل: حرف استفهام يدخل على الأسماء والأفعال وهو في الآية بمعنى قد.

حين: الحين: الوقت والمدة من الزمان غير محدودة، فقد تكون قصيرة وقد تكون طويلة، والجمع أحايين، وحان: هلك وقرب وقته ووقع في المحن.

الدهر: مدة الحياة كلها والزمن الممتد من دون تحديد بداية أو نهاية، والجمع: أدهر ودهور، والمداهرة: المعاملة لمدة طويلة وغير محددة، والدواهي: نوائب الدهر، وفي الحديث: " لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله " وذلك لأن العرب كانت تنسب إلى الدهر الحوادث والنوازل وليس فاعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، والدهريون: الذين يعتقدون أن ما في الكون من موجودات أزلية ولا خالق لها، فهم ملحدون ينكرون وجود الخالق.

---

(١) الإنسان: ١.

مذكورا: ذكر الشيء: حفظه في ذهنه واستحضره عند الاقتضاء، وذكر الحديث: قاله، وذكر الله: سبحه في قلبه أو بلسانه مستحضرا جلاله وجماله، وتذاكروا: تفاوضوا، والتذكرة: ما نستذكر به الحاجة وما يدعو إلى الذكر والعبرة، وليذكروا: ليتعظوا ويعتبروا، وأهل الذكر: أهل الكتاب والعلم، فاذكروني أذكركم: اذكروني بالصلاة والدعاء والتسبيح أذكركم بنعمتي ورحمتي وثوابي وفي ملأي، والمذكرة: دفتر يدون فيه صاحبه ما يريد أن يذكره، والجمع: مذكرات.. والمراد: قد أتى وقت من الزمن لم يكن الإنسان شيئا يذكر باسمه في المذكورات.

مضامين الآية الشريفة المباركة

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾.

الاستفهام في الآية الشريفة المباركة للتقرير والتقريب، فهو يفيد ثبوت معنى الجملة وتحققه في الواقع، من أجل استثارة الذهن للتفكر في هذه الحقيقة الوجودية العميقة في المعنى والشعور:

- فلا يدعي الإنسان لنفسه الأزلية والاستقلال في الوجود، وإنما يذعن بالتبعية لخالقه ومبدعه ومربيه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1].

- أن يتواضع كما ينبغي له في نفسه، حيث يحفه الفقر الذاتي من جميع الجهات، وحيث مادته وأصل وجوده: التراب والنطفة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « مال ابن آدم والفخر، أوله نطفة وآخره جيفة، لا

---

(١) فاطر: ١٥.

يرزق نفسه ولا يدفع حتفه »[1].

- أن يدرس كيف يتحرك في حياته على خط المسؤولية الربانية لتحقيق غاية وجوده على أساس علمي واقعي صحيح.

والمعنى الذي تفيده الآية الشريفة المباركة: لقد مضى على الإنسان - كجنس بشري - بعد خلق الموجودات وتكوينها، وقتا طويلا من الزمن، لم يكن له فيه وجودا يذكر باسمه كإنسان، في عداد الموجودات المذكورة بأسمائها، مثل: السماء والأرض، والبر والبحر، والنبات والحشرات والطير والحيوان، وغيرها من الموجودات السابق وجودها زمانا على وجوده، لأنه لم يكون موجدا بعد.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[2].

وهذه حقيقة علمية وعقلية ثابتة ولا تقبل الجدل والإنكار، فكانت الكرة الأرضية خالية من وجود الإنسان، ثم وجد بعد وجودها بزمن طويل يقدر بملايين السنين.

ولدلالة الاستفهام يقول العلامة السيد قطب: « هذا الاستفهام في أول السورة إنما هو للتقرير، ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه،،

ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا؟

ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها؟

ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئا من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة، وسلطت عليه النور، وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا؟

---

(١) النهج. قصار الحكم: ٤٥٤.

(٢) مريم: ٦٧.

إنها إيحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام، وهي إيحاءات رقيقة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى »[1].

خلاصة علميّة

وأذكر هنا بعض ما توصل إليه العلماء من خلال تجاربهم وبحوثهم العلمية، وهي كالتالي:

- يقدر عمر الكون بحسب نظرية الانفجار العظيم بـ (١٢ – ١٥: بليون سنة).
- ويقدر عمر مجرتنا درب التبانة بـ (١٠ – ١٣: بليون سنة).
- ويقدر عمر الأرض والمجموعة الشمسية بـ (٥٤، ٤: بليون سنة).
- ويقدر ظهور الحياة الطبيعية والكائنات الحية على الأرض بملايين السنين.
- ويقدر ظهور أول نوع إنساني (القبتاريخي) بـ (٢٠ – ٣٠: مليون) سنة.
- ويقدر ظهور الكائن منتصب القامة بمواصفات الإنسان البيولوجية بمليون سنة تقريبا.
- ويقدر ظهور الإنسان العاقل الحديث تشريحيا بـ (٤٠: ألف سنة).
- ويقدر خلق آدم وحواء عليهما السلام بحسب رأي علماء التفسير والسيرة والتأريخ بـ (٧ – ١٠: آلاف سنة).

---

(١) الظلال. ج ٦. ص ٣٧٧٩.

- ويقدر تاريخ الإنسان المدون بـ (٣ - ٤: آلاف) سنة قبل الميلاد، وكان في الشرق الأوسط.

وقول الله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾.

تفيد الآية الشريفة المباركة: أن وجود الإنسان مر بمرحلتين:

المرحلة (١): كان موجودا بمادته (شيئا) حيث كانت ذرات وجوده متناثرة في كل صوب، بين الأودية والجبال وأمواج البحار والأنهار والمحيطات والهواء، ولم يكن بعد إنسانا بالفعل يذكر باسمه.

المرحلة (٢): ثم وجد إنسانا بالفعل، وأصبح يذكر باسمه كإنسان بين الموجودات الفعلية المذكورة بأسمائها.

قال الإمام الباقر عليه السلام: « وكان الإنسان مذكورا في العلم (أي في علم الله) ولم يكن مذكورا في عالم الخلق »[١].

نتائج مهمّة

ومما سبق نتوصل إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإنسان حادث يحتاج وجوده إلى صانع يصنعه وخالق يخلقه، لا ينفصل وجوده عنه: حدوثا واستمرارا، وهذا يتطلب من الإنسان التفكر في القدرة التي أوجدته، والغاية التي وجد من أجلها، ولا تصح منه أبدا الغفلة والتجاهل!!

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « رحم الله امرءًا عرف من أين وفي أين وإلى أين »[٢].

---

(١) مجمع البيان. ج١٠. ص٦١٤.

(٢) التفسير الكاشف. مغنية. ج٧. ص٤٧٧.

النتيجة (٢): أن الذي أوجد الإنسان أول مرة، قادر على أن يحييه بعد الموت، وهو دليل على إمكان البعث والنشور للحساب.

قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

النتيجة (٣): لا تخلو إيحاءات الآية الشريفة المباركة من الربط بين غاية وجود الإنسان في الحياة على الأرض والنظام الكوني ككل، وما يضفيه وجود الإنسان وتجربته في الحياة – بحسب خصائصه – من غني روحي ومعنوي في الوجود بأسره، كما سيوضح في البحوث التالية.

النتيجة (٤): في ظل الحكمة الإلهية البالغة التي أوجدت الإنسان، يجب أن تكون لخلق الإنسان غاية محددة، فلم يخلق عبثا، يوجد ثم يموت وينتهي كل شيء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[2].

فالإنسان خلق لغاية محددة، ويجب عليه أن يتعرف عليها، ويمضي على طريقها في الحياة، إذ لا تنفصل الغاية عن الطريق والأدوات والوسائل التي تنجزها وتحققها على أرض الواقع.

ويتأكد هذا المعنى أكثر: إذا علمنا بأن وجود الكون بأسره وليس وجود الإنسان فحسب منتهي وليس بدائم الوجود.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ

---

(١) الروم: ٢٧.

(٢) الدخان: ٣٨ – ٣٩.

إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾[1].

فليس بحق: الاعتقاد بأن وجود كل جيل لاحق، هو غاية للجيل السابق، وهكذا دواليك بدون نهاية.

والخلاصة: لا بد - بحسب الحكمة - أن تكون هناك غاية مقصودة من خلق الإنسان، وأن وراء حياة الإنسان على وجه الأرض حياة باقية خالدة في عالم آخر، وسوف نتعرف في مستقبل البحث على هذه الغاية بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

---

(١) الروم: ٨.

الفصل الثاني

خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[1].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[2].

وقول الله تبارك تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾[3].

طوري خلق الإنسان

الآيات الشريفة المباركة تشير إلى طوري خلق الإنسان:

---

(١) غافر: ٦٧.

(٢) السجدة: ٧ – ٨.

(٣) المؤمنون: ١٢– ١٣.

- الخلق من التراب.
- الخلق من نطفة.

تعريف الخلق في اللغة

الخلق في اللغة هو: الإيجاد والإبداع من العدم، والخلق لا يكون إلا عن تقدير وحكمة، فأصل الخلق هو التقدير.

وهذا يدل على أن الخلق يعني إيجاد الأشياء وتركيب أجزائها والتأليف بينها بحيث تتناسب فيما بينها ومع غيرها من الأشياء لتحقيق الغرض المرجو من إيجادها.

أنواع الخلق

ينقسم الخلق إلى نوعين، وهما:

- الخلق قد يكون من مواد موجودة سابقا، وعن مثال سابق، كخلق الإنسان للآثار الفنية والمصنوعات والصور الخيالية في الذهن.

- وقد يكون الخلق من لا شيء، وبدون مثال سابق (الخلق المطلق) وهو بهذا المعنى ليس إلا لله وحده لا شريك فهو الخلاق العليم.

والخلاصة: أن الله جل جلاله قدر خلق الإنسان في الطور الأول من خلاصة أجزاء من الأرض (التراب) المخلوطة بالماء (الطين) ثم بدل طريق الخلق في الطور الثاني بجعله نطفة في رحم المرأة.

وسوف نقف هنا على الرؤية القرآنية لخلق الإنسان في هذين الطورين،،

الطور (١) خلق الإنسان من تراب

في إشارة إلى خلق الإنسان الأول: آدم وحواء عليهما السلام وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطور بألفاظ مختلفة،،

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[3].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[4].

وقول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[5].

معاني الألفاظ

التراب: ما تفتت ودق من جنس الأرض.

الطين: التراب المختلط بالماء.

---

(١) غافر: ٦٧.

(٢) السجدة: ٧.

(٣) الصافات: ١١.

(٤) الحجر: ٢٦.

(٥) الرحمن: ١٤.

لازب: لزب الشيء: ثبت، ولزب الطين: تماسك بعضه ببعض فلا هو لين ولا صلب.

الصلصال: الطين اليابس غير المطبوخ، فإذا طبخ بالنار صار فخارا، وسمي صلصالا: لأنه يصلصل (أي يصدر صوتا) إذا نقر أو اصطدم به جسم آخر.

حمإ: الحمأ: الطين المتغير إلى السواد، والذي تغيرت رائحته فأصبح عفنا أو منتنا، وذلك من طول مجاورته للماء، وعين حمئة: ذات طين أسود كأنها مظلمة لمن يراها من بعد.

مسنون: الطين المصور أو المصبوب على هيئة الإنسان، كأن الله عز وجل قد أفرغ الحمأ في صورة تمثال الإنسان.

الفخار: الطين الذي أحرق بالنار حتى تحجر.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتضمن الآيات الشريفة المباركة مجموعة حقائق أساسية، منها:

الحقيقة (١): أن الألفاظ المستخدمة: التراب، الطين، صلصال من حمأ مسنون، صلصال كالفخار، تدل على:

- أحوال مختلفة للمادة الأصلية التي خلق منها جسم الإنسان الأول (أدم وحواء عليهما السلام) وهو التراب، وقد أشير في كل موضع إلى واحدة من هذه الأحوال، وهو واضح من خلال التأمل في معاني المفردات.

- التدرج الزماني، بمعنى: أن خلق جسم الإنسان الأول من تراب، قد مر بمراحل بينها فواصل زمنية.. ولم يكن دفعة واحدة: فهو في البداية كان ترابا، ثم خلط التراب بالماء فكان طينا، ثم ترك الطين فترة من الزمن حتى أسود ونتن، ثم صب في هيئة إنسان، ثم ترك حتى أصبح كالفخار، ثم نفخت فيه الروح فكان

إنسانا كامل الهيئة والاستعدادات والملكات الخاصة.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1].

الحقيقة (٢): أن المني الذي يتكون منه الإنسان في الطور الثاني من الخلق أصله التراب، حيث أنه من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء سواء كان نباتا أو حيوانا مصدره التراب، لأن الحيوان يتغذى على النبات، والنبات مصدره التراب، فالنطفة من التراب.

نتائج مهمة: ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن خلق الإنسان في الطورين: الأول والثاني هو في الحقيقة من تراب، والفرق بين خلق آدم عليه السلام وخلق ذريته من التراب، أن آدم عليه السلام خلق من التراب بصورة مباشرة، وخلقت ذريته من التراب بصورة غير مباشرة (من النطفة التي مصدرها التراب) وذلك من خلال الأغذية التي خلقت من التراب بواسطة الزراعة في الأرض.

النتيجة (٢): أن التراب هو مصدر الحياة بجميع أشكالها (النبات والحشرات والطيور والحيوان والإنسان وغيرهم) وهذه لفتة قرآنية عجيبة إلى القرابة الوثيقة بين كافة أشكال الحياة المختلفة على وجه الأرض، وهي لفتة عظيمة في بابها، يعجز إنسان أمي (وهو محمد بن عبد الله ﷺ) عن أن يأتي بمثلها قبل أكثر من (١٤: قرن) من عند نفسه، مما يدل (قطعا) على أنها من الوحي، وهذه اللفتة تدل على:

- وحدة الإرادة الدافعة للحياة كلها على وجه الأرض.
- أن مصدر الحياة والوحي واحدا.

الحقيقة (٣): يعتبر التراب هو أصل الحياة كلها على وجه الأرض، ومنها الحياة

---

(١) الحجر: ٢٩.

الإنسانية - بغض النظر عن التفاصيل - إلا أنه لا يعلم إلا الله جل جلاله كيف تمت هذه الخارقة الربانية العظيمة: (ظهور الحياة في عالم الوجود) ولا يعلم أحد إلا الله جل جلاله مت تم هذا الحدث المتميز في تاريخ الأرض الذي يمتد إلى ملايين السنين، فلم يتجاوز قول علماء الطبيعة: بأن الخلية الأولى ظهرت في ظروف خاصة من الطين في قاع المحيطات عن طريق الطفرة - هكذا عن طريق الطفرة - ولم يبينوا كيف ظهرت بالتحديد، فسبحان الله أحسن الخالقين.

نتائج مهمة: ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): إن خلق الإنسان من تراب حقيقة لا مراء فيها، ويدل على ذلك:

- أن التراب هو مصدر جميع المواد الغذائية التي يتغذى عليها الإنسان والحيوان.

- وأن الإنسان يتحلل فيعود إلى التراب بعد الموت، وهذا معلوم بالحس.

وقد أثبت العلم الحديث: أن جسم الإنسان يحتوي على نفس العناصر التي يحتويها التراب، وهي: الكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والآزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم، وإن كانت بنسب مختلفة بين الإنسان والتراب، وبين إنسان وآخر.

النتيجة (٢): أن خلق الإنسان من التراب في الطورين: الأول والثاني، يدل على قدرة الله عز وجل، وأن القدرة لا تتجلى فحسب من خلال العمليات الحيوية التي يقوم بها الإنسان، وإنما تتجلى أكثر من خلال العمليات العقلية والنفسية والروحية، فهذا الكائن المخلوق من التراب، والذي يتغذى على التراب، ينتج أسمى الأفكار والمشاعر الإنسانية النبيلة مثل الحب والرحمة، ويتحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق، ويرتقي في سلم الكمال الروحي، ويعرج في عالم الملكوت، حتى لا يضاهيه

في ذلك أحد من الملائكة المقربين، كما هو الحال لدى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ في حادث المعراج.

وهذا يدل على خطأ التفسيرات المادية، مثل: التفسير الديالكتيكي (الماركسي) وغيره من التفسيرات المادية، كما سنتعرف بعد قليل.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

النتيجة (٣): أشار بعض المفسرين إلى الصلة بين خلق الإنسان من تراب الذي أخذت عينته من جميع الأرض كما يدل عليه لفظ السلالة في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[2] (السلالة: هي العصارة الخالصة لكل شيء) وبين اختلاف طبائع الإنسان وصفاته الجسدية والنفسية، مثل:

- قول الله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[3].

فهو ضعيف أمام الضغوط المادية والمعنوية، وأمام مغريات الشهوة والمال والرئاسة والوجاهة وغيرها من زخارف الدنيا وزينتها.

- وقول الله تعالى: ﴿ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[4] حيث ربط بعضهم من خلال هذه الآية الشريفة المباركة، بين سواد الطينة، وظلام النفس وكدارتها وسلوكها الطريق المنحرف في الحياة. وهو الظلام الذي يخرج الله جل جلاله عباده المؤمنين منه بواسطة هداية الأنبياء والكتب السماوية إلى نور الحقيقة والإيمان والعمل الصالح.

---

(١) السجدة: ٩.

(٢) المؤمنون: ١٢.

(٣) النساء: ٢٨.

(٤) الحجر: ٢٦.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[1].

وفي الحديث الشريف: « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب »[2].

النتيجة (٤): يستفاد من الآيات القرآنية الشريفة المباركة بأن الإنسان خلق من شيأين متباينين في الشرف والحقيقة، هما: التراب والروح. ويعتبر التراب مصدر الجانب المادي في الإنسان، من المأكل والمشرب والملبس والاستظلال (السكن) والنكاح وغيرها من الشهوات، والحركة على الأرض والصراع والتنافس وغيرها من أشكال السلوك المرتبط بالأرض. وتعتبر الروح مصدر الفضائل والإدراكات والتصورات والجانب الروحي في الإنسان الذي يسير به وراء الزمان والمكان ويتجاوز الحواس والنطاق المادي في الحياة. وهذا يجعل للإنسان خطين في الحياة:

- خط تصاعدي ينتهي به إلى ساحة القدس الإلهي.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[3].

- وخط تنازلي ينتهي به إلى الحضيض الأسفل.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[4].

وهذه هي ميزة الإنسان الاستثنائية بين جميع الكائنات في عالم الوجود بأسره، حيث يصنع ماهيته بنفسه من خلال أفكاره وأعماله التي يختارها بمحض

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) التفسير الواضح. الحجازي. ج١٤. ص١٢.

(٣) القمر: ٥٤– ٥٥.

(٤) النساء: ١٤٥.

إرادته، وسوف تتضح الفكرة أكثر في مستقبل البحث.

ومما سبق يتضح: أن مصدر شرف الإنسان وكرامته وعظمته هي الروح الإلهية التي أودعت فيه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1] التي تهيأ له الاستعداد والقابلية لاكتساب الفضائل، والاتصال بالملأ الأعلى، والتلقي عن الله عز وجل، والارتقاء في معارج الكمال، والوصول إلى ساحة القدس الإلهي، والفناء في الله ذي الجلال والإكرام.

والخلاصة: أن شرف الإنسان ومقامه، ليس بنسبه ولا بجمال منظره، ولا بخواصه وصفاته الجسمية، ولا بما يملك من المال والثروة والجاه والسلطة، وإنما بخواصه وصفاته العقلية والروحية.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3].

فالمطلوب من الإنسان:

- التواضع لأنه من التراب الذي لا قيمة له ولا وزن.

- أن يهتم بتقوية ضعفه وتكميل نفسه من خلال الانتصار للجانب الروحي باكتساب العلم والفضائل وعمل الصالحات، وذلك تقديرا للروح الإلهية التي أودعت فيه.

- أن يجعل الجانب المادي في خدمة الجانب الروحي - وليس العكس-

---

(١) الحجر: ٢٩.

(٢) الزمر: ٩.

(٣) الحجرات: ١٣.

في سبيل الوصول إلى ساحة القدس الإلهي وتحصيل رضوان الله جل جلاله.

- الحرص على إقامة العدل والمساواة بين الناس ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وعدم التقدم إلا على أساس الكفاءة: العلمية والمهنية والنفسية وبرضى الآخرين، وحفظ حقوق جميع الناس، والابتعاد عن التمييز بين البشر على أساس الجنس والعرق واللغة واللون وغيرها، والابتعاد عن إثارة الحروب والفتن والنعرات العرقية والقومية وغيرها.

يقول محمد حجازي: « الروح سر من أسرار الله لا يعلم كنهها إلا خالقها، ولكنها قوة في الإنسان لها الأثر الفعال في سلوك الإنسان واتجاهه في الحياة، هي مصدر الخير والهدى والتقوى والفلاح وكل صفة حسنة من صدق وإيمان وإيثار وتعاون وتساند وأخوة في الله، روح المؤمن هي مصدر فضائل الحق والخير والنور والهدى، بل هي الحياة التي يعنيها القرآن الكريم ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[1] »[2].

الطور (٢) خلق الإنسان من نطفة

في إشارة إلى تكاثر النوع الإنساني بواسطة التزاوج بين الذكر والأنثى، حيث يتم تلقيح بويضة المرأة في الرحم بواسطة الحيوان المنوي من الرجل واتحادهما، واستقرارهما في رحم المرأة في صورة علقة، لتبدأ مسيرة تكون الجنين المعقدة في الرحم عبر مراحل عديدة: (من انعقاد النطفة حتى الولادة) وسوف أبين هذه المراحل بالتفصيل بعد قليل على ضوء القرآن الكريم والعلم الحديث.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) التفسير الواضح. ج١٤. ص١٣.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطور بعبارات مختلفة:

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[2].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[3].

معاني الألفاظ

نطفة: نطفت القربة: قطرت وسال ماؤها قطرة قطرة، النطفة: الماء العذب الصافي وماء الرجل الذي يقذفه في رحم المرأة وهو المني.

نسله: نسل الشيء: انفصل عن غيره وسقط، والنسل: الولد والذرية، ونسل: أسرع وجاءت له ذرية، وتناسل القوم: توالدوا.

السلالة: سل الشيء: انتزعه وأخرجه برفق، وتسلل: انسحب في استخفاء، والسلالة: الذرية والولد والعصارة الخالصة المستخلصة من الكدر لكل شيء.

ماء مهين: الماء: معروف وهو عماد الحياة في الأرض، والمهين: الصغير والضعيف والحقير من كل شيء، ومن الإنسان: قليل الرأي والتمييز.

بشرا: الإنسان ذكرا وأنثى، وقد عبر القرآن الكريم عن الإنسان بالبشر، وذلك لظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر.

---

(١) غافر: ٦٧.

(٢) السجدة: ٨.

(٣) الفرقان: ٥٤.

نسبا: القرابة من جهة الرجل.

صهرا: القرابة من جهة المرأة.

والخلاصة: أن النطفة خلاصة مائية مكونة من الغذاء، وهي عصارة وجود الإنسان، ومنشأ تولد الذرية، واستمرار النوع الإنساني.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتحدث الآيات الشريفة المباركة عن خلق الإنسان في الطور الثاني، وذلك عن طريق التزاوج، حيث يقوم الرجل بتلقيح بويضة المرأة، فتنعقد النطفة في رحم المرأة، وتتكون الخلية الأولى لوجود الإنسان، لتبدأ بعد ذلك مسيرة تكوين الجنين في الرحم حتى ساعة الولادة.

قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾[1].

وتعتبر النطفة: من الآيات العظيمة الدالة على القدرة الإلهية والحكمة الربانية، حيث تختزن هذه النطفة جميع خصائص هذا الكائن العجيب: (الإنسان وصفاته الوراثية) الذي هو أعظم كائن على وجه الأرض، بل في الوجود، فيخلق من النطفة إنسانا كاملا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباينة. ويكون الخلق على قسمين:

- أفرادا: ذكورا وإناثا.
- توائما: توأمين أو أكثر.

قول الله تعالى: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ

---

(١) الطارق: ٥ – ٧.

يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾[1].

ليشكل بهذا التنوع الأساس للتناغم والحركة في المجتمع البشري وإقامة الحضارة الإنسانية على وجه الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

يقول العلامة مكارم الشيرازي: « لو حقق الإنسان وتأمل في مراحل انعقاد النطفة من بداية الجنينية إلى نهايتها، فسيشاهد الكثير من آيات عظمة الحق وقدرة الخالق فيها، حيث تكفي وحدها لمعرفة ذاته المقدسة تبارك وتعالى »[3].

ويقول العلامة السيد قطب: « ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يخلق منه الإنسان، لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة الكامنة في الأجسام الدقيقة البالغة الدقة، التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة »[4].

فالتعبير بـ ﴿ مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[5] لا يدل على الحقارة الفعلية، فهي ضعيفة وحقيرة ولا قيمة لها في الظاهر ولدى الناس البسطاء، أما في الحقيقة والواقع فهي تحمل أمرا خطيرا، لأنها تحمل أسرار وجود الإنسان، هذا الكائن العجيب العملاق في نوعه، بما يتمتع به من قابليات ومواهب وقدرات وخصائص نوعية لا

---

(١) الشورى: ٤٩ - ٥٠.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الأمثل. ج١١. ص٢٥١.

(٤) الظلال. ج٥. ص ٢٥٧٣.

(٥) السجدة: ٨.

يتمتع بها أي كائن آخر في الوجود.

وقد رتب الله عز وجل على كرامة هذه النطفة أحكاما شرعية، منها:

- إذا اتصل رجل بأنثى الحيوان جنسيا، وحملت منه أنثى الحيوان، وجب قتل أنثى الحيوان ودفنها.

- إجماع الفقهاء على حرمة الإجهاض (الإسقاط المتعمد للجنين) بعد نفخ الروح مع اختلافهم الشديد في حكمه بعد التكون في الرحم والاستقرار قبل نفخ الروح.

خلق الإنسان من ماء

أشارت الآية الشريفة المباركة من سورة الفرقان إلى خلق الإنسان من ماء، وقد استوقف هذا التعبير الكثير من المفسرين، وكما أشرت في خلق الإنسان من تراب إلى أن تكوين النطفة يعود إلى التراب، يمكن التوقف عند نكتة خلق الإنسان من ماء، وللمفسرين فيه أقوال عديدة:

القول (١): أن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خلق من ماء، لأن الماء مكون أساسي للطين (تراب + ماء).

القول (٢): أن مادة الحياة الأولى على وجه الأرض كانت من الطين التي يشكل الماء أحد مكوناتها الأساسية ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾(١).

فالماء مكون أساسي لجميع أشكال الحياة على وجه الأرض.

القول (٣): ذهب البعض إلى القبول بنظرية التطور، التي تقول: بأن الكائنات الحية

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

نشأت من بعضها البعض، وترجع جميعها إلى كائنات حية من خلية واحدة نشأت من تعرقات طين المحيطات في ظروف معينة، وأن الإنسان هو الحلقة الأخيرة الأكثر تكامل في سلسلة تطورها، ولا أعلم كيف يفسر أصحاب هذه النظرية خلق الإنسان من صلصال كالفخار!!

القول (٤): أن الماء يشكل النسبة الأكبر من المواد التي يتكون منها جسم الإنسان، مما يساعد على القول: بأنها تشكل المادة الأساس لوجود الإنسان، ولهذا فإن الإنسان لا يستطيع أن يقاوم العطش كثيرا، بينما يستطيع مقاومة الجوع لعدة أيام وأسابيع.

الفصل الثالث

خلق نبي الله عيسى عليه السلام

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

التعريف بمريم ابنت عمران

كان عمران أبو مريم رجلا شريفا في بني إسرائيل ومن أعاظم علمائها، ويتصل نسبه الشريف بنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام وكانت امرأته (اسمها حنة) عاقرا لا تلد وقد تقدم بها العمر، إلا أنها لم تيأس ولم تقنط من رحمة الله تبارك وتعالى، حيث الإيمان يعمر قلبها الطاهر، ويراودها الأمل الجميل بحسن الصنع من الرب الجليل.

وقد دأبت على مناجاة ربها الجليل والتضرع إليه، فكانت تخلو مع نفسها ساعات طويلة في الليل والنهار تعبد ربها سبحانه وتعالى، وتلح عليه في الدعاء بأن يمن عليها بمولود تقر به عينها، وقد نذرت لله سبحانه وتعالى، إن حقق رجاءها، أن تهب طفلها إلى العبادة، وأن تجعله خادما في بيت المقدس، وأن لا تستخدمه في

(١) آل عمران: ٥٩.

شيء، بل تجعله وقفا خالصا (محررا) لخدمة البيت المعظم.

وقد استجاب الله جل جلاله لدعائها الخالص، إلا أنه رزقها أنثى، وليس الذكر كالأنثى في القيام على شؤون العبادة وخدمة الهيكل، فالأنثى لا تصلح (عادة) لخدمة المعابد، لكنها شكرته على استجابته جل جلاله لدعائها، وتوجهت إليه بضراعة وابتهال: إني وضعتها أنثى، ورجت أن يقبل الله تبارك وتعالى نذرها رغم كون مولودها أنثى، وسمت أبنتها مريم (ومعناه العابدة والخادمة) تفاؤلا وطلبا للقربة إليه، ودعت الله سبحانه وتعالى أن يحصنها وذريتها من غواية الشيطان الرجيم ووسوسته، وجاءها إلهام من ربها، أن أوفي النذر، فسعت للوفاء بالنذر.

نشأة مريم عليها السلام

لقد قبل الله جل جلاله منها نذرها بالقبول الحسن، فأنبت مريم عليها السلام نباتا حسنا (إشارة إلى تكامل مريم أخلاقيا وروحيا) وقبل أن تكون في خدمة الهيكل وفاء للنذر، ولم يتقبل قبلها أنثى في خدمة الهيكل.

وقد توفي والد مريم عليها السلام وهي صغيرة في السن، وقيل وهي جنين في بطن أمها، واحتاجت لمن يكفلها ويقوم بتربيتها وشؤونها، فلما قدمتها أمها للأحبار بهدف رعاية الهيكل، اختلفوا فيما بينهم فيمن يكفلها منهم، وأجروا القرعة لحسم الخلاف بينهم، فجاءت القرعة لصالح زوج خالتها نبي الله زكريا عليه السلام وكان رئيس الكهنة وسيد الهيكل أنذاك. فأنشأها على العفة والصلاح، ووجهها إلى العبادة الصحيحة، فاتخذ لها محرابا في مكان عال من الهيكل، بعيدا عن عيون الناس وضوضاء الحياة، فكان لا يدخل عليها أحد سواه، لكي يستطيع أن يقوم على خدمتها على أحسن وجه وأكمله، لأنه رأى في حضانة تلك الطفلة المباركة

الميمونة وخدمتها سبيلا إلى مرضاة الرب الجليل والزلفى لديه، فتفرغت مريم عليها السلام لعبادة ربها ذي الجلال والإكرام، وقد أغناها ربها جل جلاله برزق الجنة عن كسبها له، فكلما دخل عليها زكريا عليه السلام المحراب وجد عندها طعاما خاصا، فيسألها متعجبا: من أين لك هذا الطعام؟ فتقول هو من عند الله جل جلاله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

الملائكة تحمل البشرى لمريم عليها السلام

وترعرعت مريم عليها السلام في بيت المقدس، في أجواء روحية صافية، مغمورة باللطف الإلهي والرعاية الربانية، ونشأت على العفة والقداسة والطهارة (طهارة العقل والروح والجسد) ومتحررة من ضغوط المادة والأنانية والحواس، متفرغة لعبادة ربها جل جلاله، تحرسها عناية الله عز وجل، وكانت الملائكة تحثها على الطاعة والعبادة والخشوع لله ذي الجلال والإكرام، وتقوي روحيتها الإنسانية المفعمة بالعشق الإلهي العظيم.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ

(١) آل عمران: ٣٥ - ٣٧.

عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[1].

وحديث الملائكة إليها: يدل على طهارتها الروحية العالية، وعلو مكانتها عند الله عز وجل - وهذا ما يثبته النص أيضا - فكانت محدثة (تحدثها الملائكة) وأفضل نساء زمانها على الإطلاق.

وكان مقامها في بيت المقدس بنية الإخلاص: سبيلا لجبل نفسها على الصلاح والتقوى والطهارة، فعاشت أيامها في بيت المقدس، عابدة، قانتة، واثقة من عطاء ربها وقدرته على كل شيء، فلم يكن لها نظير في النسك والتهجد، فكانت تصوم النهار وتقوم الليل وهي في التاسعة من عمرها، فظهر عليها من آثار التقوى ما غبطها عليه زكريا عليه السلام وفاقت في علمها الأحبار والعلماء في زمانها.

لذا اصطفاها ربها جل جلاله وطهرها وخصها بالكرامات السنية، وجعلها محلا لآية عظيمة من آياته في الخلق، بأن وهبها ولدا خلقه بكلمة (كن) على غير الطريقة العادية في التوالد بين البشر، وقد بشرتها الملائكة بذلك، وأعلمتها:

- بأن الولد سوف يكون آية للناس ودالا على قدرة الله جل جلاله ورحمة لعباده.
- وأن اسمه المسيح عيسى بن مريم.
- وأنه سوف يكون نبيا ومن الصالحين.
- وأنه ذا جاه وشرف ومكانة مرموقة عالية في الدنيا والآخرة.
- وأن الله جل جلاله سوف يعلمه الكتاب والحكمة، ويعلمه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام من قبله.
- وأنه سوف يكون مع الصفوة المقربين إلى الله جل جلاله في الآخرة.

---

(١) آل عمران: ٤٢- ٤٣.

- ومن مميزاته: أنه يكلم الناس وهو طفل في المهد كلاما حكيما، ويكلمهم وهو كهل في آخر الزمان، حينما يعود إلى الأرض في عهد الإمام المهدي عليه السلام ويعيش معه ويؤيده في دعوته.

ليشعرها حديث الملائكة بالحماية الإلهية والرعاية الربانية قبل أن تدهمها المفاجأة في التجربة والامتحان الصعب (الحمل بعيسى من غير أب) وهي الآية الكبري التي أختارها الله جل جلاله لها، وأعدها روحيا ومعنويا لحملها، وذلك لعلاج داء بني إسرائيل الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فتهالكوا على زخارف الدنيا وزينتها، واستغرقوا في حب المال والجاه والسلطة، وقد شمل هذا الداء العضال حتى الكهنة والوعاظ وسدنة الهيكل فضلا عمن سواهم من بني إسرائيل.

قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾(١).

جبرائيل ومريم عليها السلام

فيما كانت مريم عليها السلام ذات ليلة في شرقي المعبد تعبد الله سبحانه وتعالى، وقد أطالت الصلاة والابتهال، حتى انفصلت عن كل ما حولها، واستغرقت في سبحات الجمال والجلال، جاءها الروح الأمين: (جبرائيل عليه السلام) فظهر لها في صورة شاب على أحسن صورة من الفتيان، فلما رأته وهي بمفردها، حسبته آدميا غافل سكان الهيكل وتمكن من التسلل إلى حرمها المقدس، وأنه يريد بها سوء،

---

(١) آل عمران: ٤٥ - ٤٦.

فقالت له (وهي الطاهرة العفيفة): إني استعيذ بالله عز وجل من شرك، وألجأ إليه سبحانه وتعالى ليصون عفتي وطهارتي منك، فإن كنت تخشى الله جل جلاله وتتقيه، فأبتعد عني.

فقال لها الأمين جبرائيل عليه السلام مطمئنا ومطيبا لخاطرها: إنني لست بشرا كما تظنين، ولكني ملك من الملائكة أرسلني ربك لأهب لك غلاما زكيا (طاهرا من الأرجاس والأدناس ناميا على الخير والبركة) فاطمأنت إلى جبرائيل عليه السلام وسألته بدهشة: كيف يكون لي غلام وأنا غير متزوجة ولست - بحمد الله تبارك وتعالى - زانية؟

فأجابها: ذلك هين على قدرة الله جل جلاله، فهو يخلق ما يشاء كيف يشاء، وفق النظام الطبيعي المألوف في العالم، أو وفق نظام آخر تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى، فهو جل جلاله ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

وقضى الأمر كما أراده الله جل جلاله:

- ليكون عيسى بن مريم عليه السلام معجزة في طريقة خلقه من غير أب، وفي نموه العقلي والروحي: (يكلم الناس في المهد).

- وليكون حجة الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل إلى يوم الدين.

قول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ

---

(١) مريم: ٣٥.

وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[1].

الحمل بعيسى عليه السلام وولادته

حملت السيدة العذراء مريم أبنت عمران بنبي الله عيسى عليه السلام في اللحظة التي نفخ فيها الروح الأمين: (جبرائيل عليه السلام).

وخوفا من أقوال الناس وتجنيهم عليها لما سيخالط أنفسهم من الظنون والشكوك، فالناس أعداء ما جهلوا، وبعضهم من ذوي النفوس المريضة، فسوف يعتبرون حملها من المنكرات الكبيرة، خصوصا لمثلها: حيث كانت مضربا للمثل في الطهارة والصفاء والارتقاء، ونبراسا في التقوى والعبادة، قول الله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[2] فاعتزلت واتخذت لنفسها مكانا بعيدا عن أعين الناس والمتطفلين والفضوليين، لكي لا تلوكها الألسن الخبيثة وألسن الجهال، ولكي لا تنهار الثقة والفضيلة التي تمثلها في أعين الناس، وكان كل أملها أن لا يظن أحد بها سوء، لأنها تدرك القيمة الروحية والتربوية التي تمثلها في أعين الناس.

ولما حان وقت الولادة: كان وقع المحنة عليها أكبر، حيث مر بخلدها ما سترمى به من الفاحشة، فحز ذلك في نفسها الطاهرة، وتمنت لو أنها قد ماتت قبل ذلك اليوم العصيب، فأدركتها عناية الرب الرؤوف الرحيم، الذي لا يقطع حبله عمن تمسك به، وهذا يدل على تأثير العبادة في مواجهة المواقف الصعبة، ومقاومة مشاعر الضعف وعوامل القهر والظلم والاضطهاد، فناداها الطفل من تحتها

---

(١) مريم: ١٦ – ٢١.

(٢) مريم: ٢٧– ٢٨.

مطمئنا: كلي وأشربي وقري عينا، وإذا سؤلتي عن الذي تحملين، فلا تردي جوابا، وقولي إشارة: إني نذرت للرحمن صوما، فلن أكلم اليوم إنسيا، وأنه (أي الطفل) سوف يتكفل بالجواب على السؤال، تبرئة لساحتها عما قد تقذف به من الأمر المشين.

قول الله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1].

حقيقة خلق عيسى بن مريم عليه السلام

- لقد اتخذ البعض من تكوين عيسى بن مريم بدون أب حجة على ألهويته.

- واتخذه البعض الآخر سبيلا للطعن في عفة مريم أبنت عمران عليها السلام.

- واتخذه البعض الثالث سبيلا للشك في حقيقة وجوده عليه السلام.

---

(١) مريم: ٢٢ - ٣٣.

وسوف أسلط في هذا المكان من البحث ما يناسب من الأضواء على حقيقة خلقه عليه السلام.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[1].

بيان المفردات

إن مثل عيسى عند الله: مثل: كلمة تسوية بين شيئين، ومثله: شابهه، ومثل الشيء: صفته، والتمثال: الصورة وما نحت من حجر أو صنع من نحاس ونحوه محاكاة مخلوق من مخلوقات الطبيعة، والجمع: تماثيل، وتمثل الشيء: تصوره، وعند: ظرف زمان ومكان، وعندي: لدي وفي رأيي.. والمراد: شأن عيسى بن مريم عليه السلام الغريب في الخلقة من غير أب فيما يعلمه الله جل جلاله من كيفية خلق عيسى عليه السلام الجاري بيده سبحانه وتعالى.

كمثل آدم خلقه من تراب: الخلق: الإيجاد والإبداع للشيء عن تقدير وحكمة ومن غير أصل ولا مثال سابق، والخليقة: الطبيعة، والجمع: خلائق، والخالق: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي خلق المخلوقات كلها بذاتها ونوعها على مقتضى حكمته وإرادته وعلى غير مثال سابق.. والمراد: مثل خلق عيسى بن مريم كمثل خلق آدم عليهما السلام فقد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، حيث خلق الله جل جلاله قالبه من تراب، ثم أنشأه بشرا سويا، حينما نفخ فيه من روحه، وقد شبه الغريب بما هو أغرب منه ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس.

---

(١) آل عمران: ٥٩ – ٦٠.

ثم قال له كن فيكون: القول: الكلام أو الرأي أو المعتقد، والجمع: أقوال وأقاويل، وقال له: خاطبه، والكون: الحدوث، وكوّن الشيء: ركبه بالتأليف بين أجزائه، وكون الله الشيء: أخرجه من العدم إلى الوجود، والكون: الوجود المطلق بأسره.. والمراد: قال له كن بشرا، فكان بأمر الله عز وجل.

الحق من ربك: الحق: الثابت الذي لا يسوغ إنكاره من كل شيء والواجب والأمر المقضي والموجود حقيقة لا الموجود توهما والمطابقة للواقع في الأقوال والعقائد والآراء وما تسمح القوانين بفعله وضد الباطل واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الثابت الوجود، والجمع: حقوق، وحق الشيء: وجب ووقع وثبت، وأحقه: أحكمه وصححه، والقصص الحق: الذي لا شك في صحته، واستحقه: استوجبه، وحق الخبر: ثبت وصح وصدق، وحق عليها القول: وجب عليها العذاب، وأحقه: تحققه وصار منه على يقين، ويحق لك: يسوغ لك، وحقيق به: خليق وجدير به، وأنا حقيق: حريص، والحاقة: القيامة لأنها محققة الوقوع وفيها تظهر حقائق الأمور، والرب: المالك والسيد والمصلح والمدبر والمربي ومن أسماء الله الحسنى، ومعناه: مدبرهم ومصلحهم ومربيهم، والنسبة إليه: رباني.. والمراد: أن الذي أخبرناك به من أمر خلق عيسى بن مريم عليه السلام هو الحق الحقيق الثابت من ربك الذي لا شك فيه ولا ريب.

فلا تكن من الممترين: التير: التيه والكبر، والتيار: التائه المتكبر، وأتار الشيء: أعاده مرة بعد أخرى، والتارة: المرة من الأفعال المتجددة، والجمع: تارات، والممترين: الشاكين المترددين.. والمراد: النهي عن الشك والتردد في أي شيء مما أخبر الله سبحانه وتعالى بشأن خلق عيسى بن مريم عليه السلام فهو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب ولا تردد.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تشير الآيات الشريفة المباركة التي نحن بصدد البحث فيها إلى خلق عيسى بن مريم عليه السلام من غير أب، وتتضمن نقاط عديدة:

النقطة (١): أن حقيقة الأمر في خلق عيسى بن مريم عليه السلام من غير أب، هو كحقيقة الأمر في خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، حيث خلقه الله جلا جلاله من تراب، ثم نفخ فيه من روحه فكان بشرا سويا.

النقطة (٢): أن آدم وعيسى عليهما السلام خلقا بكلمة كن، وذلك من الأدلة على القدرة الإلهية التي لا يعجزها خلق شيء من الممكنات، مهما تنوعت خصائصه وأشكاله وبعد عن المألوف. وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الموضوع كثيرا، وضرب عليه أمثلة كثيرة، منها خلق ناقة صالح من الجبل، وقد سماها القرآن الكريم بناقة الله، قول الله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[1] والدليل قائم على قبول ذلك بحسب قواعد العقل السليم.

النقطة (٣): التأكيد على أن هذا هو الأمر الحق الذي يجب أن يطمئن إليه من يطلب الحق بشأن خلق عيسى عليه السلام وهو في غاية الوضوح من خلال الدليل الصحيح الذي تطمئن إليه النفوس والعقول السليمة.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن المألوف لا يمثل دائما القاعدة الصحيحة في الحكم على الشيء

---

(١) الأعراف: ٧٣.

بأنه حق أو باطل، وإنما الحكم المنطقي للعقل السليم. فقد يكون المألوف (في غير الخلق) باطلا، وقد يكون غير المألوف (في الخلق وغيره) حقا وصائبا. والمطلوب من الإنسان العاقل أن يبحث عن الحق والصواب في كافة الأمور والأشياء، بأن يدخل في جو التفكير العميق الواسع والشامل، من خلال التأمل الدقيق الفاحص، والنفاذ إلى عمق الأمور والأشياء، واللجوء إلى الأدلة والبراهين الصحيحة، وأن يحذر من التسرع ونقص المعرفة، وأن يتجاوز حدود السطح والمألوف، ولا يقف عند ضفافهما، التي قد تخدعه وتخفي وراءها الحق والصواب، فلا يكونا مشاهدين لديه.

وهذا الأسلوب والمنهج في التفكير: مما تريد التربية القرآنية العظيمة تركيزه لدى كافة المؤمنين، وهو الأمر الذي يخالفه واقع الكثير منهم، حيث تغلب على تفكيرهم العادة والمألوف والعاطفة والتفكير السطحي، وتسيطر عليهم الأساطير والعناوين الكبيرة والصغيرة، وغيرها من عوامل التضليل والتحريف والخداع، فيقعون فريسة السطحية والخداع والعاطفة والانفعال، وينكرون بذلك الكثير من الحقائق الأساسية في الدين والحياة، وهو السر فيما عانى منه الأنبياء والأوصياء والمصلحون، حيث تقف في وجوههم الصعوبات والمشقات والتحديات، وباسم الدين في أحيان كثيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

النتيجة (٢): أن الخلق الإلهي على قسمين:

- ما يجري بحسب الأسباب الطبيعية العادية المألوفة.
- ما يجري بأمره سبحانه وتعالى ولا يخضع للأسباب الطبيعية أو التدرج في الإيجاد.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١].

---

(١) يس: ٨٢

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[1].

فلا يحتاج إيجاده لأكثر من إرادة الإيجاد منه سبحانه وتعالى، فيوجد دفعة واحدة كما أراد جل جلاله.

والخلاصة: أن خلق الأشياء لا يختلف حالها لديه سبحانه وتعالى من جهة القرب والبعد والسهولة والصعوبة، فليس بعضها أسهل أو أصعب أو أقرب أو أبعد لديه من البعض الآخر، فخلق السماوات والأرض وما فيهن من الكائنات، ليس أصعب لديه من خلق حشرة صغيرة، وخلق ناقة صالح من الجبل، وخلق الإنسان من طين بدون أب ولا أم وخلقه بدون أب، ليس أصعب عليه من خلق الإنسان والناقة من نطفة، فما أراده وقال له كن فهو يكون لا محالة، بواسطة الأسباب الدخيلة المألوفة أو بدونها .

النتيجة (٣): أن مصدر الحق في كل مفرداته هو الله عز وجل ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[2] لأنه مصدر الخلق والوجود كله، والأمر كله بيده ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[3] وكل شيء مربوب إليه، ومكشوف لديه ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[4] وأن العقول البشرية فطرة على معرفته، وتلتقي عنده آيات التكوين والتنزيل، فلا مجال للشك فيما ينزله من الوحي على رسله، لأنها حقائق من الله عز وجل، فيجب أن تقبل العقول السليمة كل ما جاء به التنزيل بنفس راضية مطمئنة، وهذا هو اليقين لدى المؤمنين فيما يؤمنون به من عند ربهم الواحد القهار، مهما أثار الآخرون أمامهم من شكوك وشبهات ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾[5].. والخلاصة: أن الحق

---

(١) القمر: ٥٠

(٢) البقرة: ١٤٧.

(٣) النجم: ٤٢.

(٤) الملك: ١٤.

(٥) البقرة: ١٤٧.

هو الصورة العلمية للوجود الذي هو خلق الله عز وجل.

النتيجة (٤): أن خلق آدم عليه السلام أعجب من خلق عيسى عليه السلام فقد خلق عيسى عليه السلام من أنثى من نوعه، بينما خلق آدم عليه السلام من تراب من غير أب ولا أم. فخلق عيسى عليه السلام من غير أب لا يدل على إلوهيته، فقد خلق الله جل جلاله آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، فإذا كان عيسى عليه السلام ألاه أو ابن ألاه لأنه خلق من غير أب، فبالأولى أن يكون آدم عليه السلام كذلك، لأنه خلق من غير أب ولا أم، ولم يقل أحد بأن آدم عليه السلام ألاه أو ابن ألاه.. والخلاصة: لا يجوز أن يقول العقلاء في عيسى عليه السلام أكثر من أنه بشر كريم، خلقه الله عز وجل من غير أب، كما خلق آدم عليه السلام من تراب.

النتيجة (٥): أن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام على مراحل:

- فكان طين بلا روح.

- ثم نفخ فيه الروح في مرحلة لاحقة، ونفخ الروح هو المراد من قول: كن فيكون، حيث قال: أيها الطين!! كن أنسانا من لحم ودم وعاطفة وشعور وإدراك فكان.

النتيجة (٦): يجب - بحسب الرؤية الإسلامية - مخاطبة العقل في المخاصمات الفكرية وإقامة الدليل القاطع على الفكرة، وعدم اللجوء إلى التهويل والمغالطات، لأن هدف الدين هو إقامة الحق، والحق لا يحتاج إلى التهويل والمغالطات، لأنه ينكشف للعقول من خلال الدليل الصحيح الواضح، ولا يلجأ إلى التهويل والمغالطات إلا أهل الباطل، أما أهل الحق فيلجؤون إلى الدليل والبرهان وإقامة الحجة على صحة الأفكار والسلوك والمواقف.

الفصل الرابع

تكوين الجنين على ضوء القرآن الكريم

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[1].

معاني الألفاظ

الخلق: الإيجاد عن تقدير وحكمة ومن غير أصل ولا مثال سابق وقد سبق معناه.

سلالة: سل الشيء: انتزعه وأخرجه برفق، والسلالة: الخلاصة.. والمراد: خلاصة مائية مكونة من الغذاء، وقد سبق معناه.

نطفة: النطفة: ماء الرجل والمرأة، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

(1) المؤمنون: ١٢ - ١٤.

نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَـٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾[1] وسمي هذا الماء نطفة لقلته، لأن النطفة: هي القليل من الماء، والجمع: نطف ونطاف.. والمراد: ماء الرجل الذي يقذفه في رحم المرأة وهو المني، وقد سبق معناه.

قرار مكين: قر في المكان: أقام وثبت وسكن واطمأن، وأقر بالحق: اعترف به ورضيه وأمضاه، والقرار: مكان الاستقرار والمكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء، وتمكن: استقر وقدر على الشيء وظفر به، وذا مكانة: ذا شرف ومنزلة، والمكين: الثابت المتمكن وذو القدرة والمنزلة.. والمراد: أن الله سبحانه وتعالى خلق النطفة في مستقر متمكن ومهيأ وهو رحم المرأة الذي تستقر فيه النطفة، ووصف مكين يدل على تمكنه من حفظ النطفة من الضياع والفساد، أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيه.

علقة: العلق: الدم الغليظ الجامد، والعلقة: القطعة منه، وهي طور من أطوار الجنين، وهي أسم لدودة في الماء تمتص الدم.

مضغة: مضغ الطعام: لاكه، والمضغة: القطعة بقدر ما يمضغ من لحم وغيره، وقد جعلت أسما للحالة التي ينتهي إليها الجنين بعد طور العلقة.

كسونا: الكساء: اللباس، والجمع: أكسية، وكسا: ألبس، واكتسى: لبس الكسوة، فهو كاس، والجمع: كسى، والكاسي: ذو الكسوة (خلاف العاري) والجمع: كساة، واستكسى: طلب الكسوة، والأكسى: الأكثر كسوة والأكثر إعطاء للكسوة.

انشأناه: نشأ: حدث وتجدد، والمنشيء: الموجد، ونشأ الصبي: شب وتربى وترعرع، ونشأ عن: تولد.. والمراد: أحدثناه وربيناه.

---

(١) الإنسان: ٢.

خلقا آخر: الخلق: سبق معناه، والآخر: الغير واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي لا نهاية ولا انتهاء لوجوده سبحانه وتعالى والباقي بعد فناء كل شيء، والجمع: أخرون، والآخرة: يوم القيامة، وآخر الشيء: نهايته، وآخر الميعاد: أجله.. والمراد: أنشأناه خلاقا سويا مباينا في شكله وحقيقته للخلق الأول وذلك بنفخ الروح فيه.

تبارك الله: البركة: الخير والنماء، والجمع: بركات، وتبارك الله: تقدس وتنزه عن كل نقص وتعالى شأنه وقدره وتكاثر خيره ونعمه وإحسانه الذي أختص به ويجود به ويفيضه على كافة خلقه، والمبارك: الكثير الخير والنفع، والله: اسم الذات العلية الواجبة الوجود والمعبود بحق.

أحسن الخالقين: أحسن: أفضل وأجمل وأتقن، والخلق سبق معناه.. والمراد: أتقن الصانعين، مما يدل على عدم اختصاص الخلق بالله عز وجل.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

لقد سبق البحث في طوري خلق الإنسان:

- الخلق من تراب.
- والخلق من نطفة.

وموضوع الاهتمام من الآيات الشريفة في هذا المكان من البحث، هو مراحل تكون الجنين في الرحم، التي تبدأ بانعقاد النطفة في الرحم (لحظة الإخصاب الأولى) حيث ينجح حوين منوي واحد صحيح التكوين من بين (٤٠٠ مليون) خلية منوية في السائل المنوي (النطفة) الذي يقذفه الرجل في مهبل المرأة في تلقيح بويضة المرأة واتحاده معها واستقرارهما في الرحم في صورة علقة (نقطة

صغيرة لا تكاد ترى بالعين المجرد) لتبدأ بذلك مسيرة تكون الجنين عبر تطورات متسلسلة تسير بصورة تدريجية تصاعدية تكاملية، في مراحل عديدة من انعقاد النطفة وتشكل الخلية الأولى (العلقة) وحتى نهاية المرحلة الجنينية وحلول ساعة الولادة، ليخرج الجنين من الرحم بعد إتمام المرحلة الجنينية مخلوقا بشريا كامل النمو والخلقة، ويتراوح وزنه بين (٣ - ٣,٥ كلغ) وطوله بين (٤٥ - ٥٠ سم) تقريبا.

ونحن نعرف - ولله الحمد - في الوقت الحاضر الكثير عن رحلة الجنين في الرحم من خلال تقدم علم الطب وعلم الأجنة بشكل خاص، إلا أن إشارة القرآن الكريم إلى المراحل التي يمر بها الجنين بصورة دقيقة من لحظة انعقاد النطفة وتكون الخلية الأولى للجنين وحتى نهاية المرحلة الجنينية وحلول ساعة الولادة - وهي صورة لم يأتي العلم الحديث بما يناقضها أبدا - لهو أمر يستحق التوقف والنظر الدقيق، وإنه بحق لدليل على أن القرآن كتاب منزل من لدن خالق الأجنة من نطفة وهو اللطيف الخبير.

وقد وصف القرآن الكريم مكان انعقاد النطفة (الرحم) بالقرار المكين: مما يدل على تمكن الرحم من حفظ النطفة من الضياع والفساد.

ومن المعلوم: أن الجنين يتكون في كيس (المشيمة) وهذا الكيس فيه ماء قليل حامل للطفل، وحافظ له حال تقلبات الأم الشديدة وتحركاتها، ويقيه من سوء الصدمات العنيفة التي قد تتعرض لها الأم، ومع ذلك يتغذى الطفل ويتنفس، مما يدل على القدرة الإلهية والحكمة الربانية البالغة.

مراحل تكوين الجنين على ضوء القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم ست مراحل يمر بها تكون الجنين في الرحم، وهي:

المرحلة (١): النطفة

وذلك حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة المرأة، وتعلق بجدار الرحم، وتكون في غاية الصغر لا تكاد ترى بالعين المجردة في أول الأمر، وتتغذى من المح الذاتي (من المحاح وهو صفار البيض) في الأسابيع الأولى، وتأخذ في النمو السريع نسبيا، وهي تحمل جميع خصائص الإنسان المقبل واستعدادته وجميع صفاته الجسدية والعقلية والنفسية.

المرحلة (٢): العلقة

وتكون خلاياها كحبات التوت من حيث الشكل، وذلك حينما تكبر النطفة المتحدة (الحوين مع البويضة) وتتحول إلى قطعة ضئيلة من دم غليظ أو اللحم الرمادي اللون تقريبا.

وتسمى علميا: (موررولا) ثم تظهر عليها أخاديد التقسيم الصغيرة، التي هي بداية لتقسيم الجنين، ويطلق على الجنين في هذه المرحلة اسم: (لاستولا).

المرحلة (٣): المضغة

وهي على قسمين - بحسب الآية ٥: من سورة الحج:

- تامة الخلقة والتصوير (مخلقة).
- غير تامة الخلقة والتصوير (غير مخلقة).

وذلك في آخر الشهر الأول من الحمل، وطولها (٨ ملم) تقريبا، وتتكون من رأس وذنب، ويظهر فيها العمود الفقري ملتو على نفسه، ويبلغ الرأس ثلث المضغة،

وفي البداية لا تتضح على المضغة معالم الأعضاء، ثم تحدث تغيرات بصورة فجائية في قشرة الجنين، وتظهر أعضاء الجسم تدريجيا، ويسقط كل جنين لا يمكنه المرور بهذه المرحلة.

المرحلة (٤): خلق العظام

وذلك من بعض المضغة، بأن يتم تصليبها لتكون عمودا للبدن، وذلك على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة الربانية في خلق الإنسان ووظائف الجسم.

المرحلة (٥): كسوة العظام من اللحم

وذلك بالمقدار اللائق والكيفية أو الهيئة المناسبة ومد العصب وإجراء العروق من بقية المضغة، ليكون الجنين مع استمرار النمو في الرحم متكاملا في شكله وصورته.

وهنا ينكشف أحد إعجاز القرآن الكريم: حيث كشف علم الأجنة الحديث، أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وأن خلايا العظام تتكون أولا في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم، إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام الهيكل العظمي للجنين.

المرحلة (٦): نفخ الروح

وهي أهم المراحل، وقد تغير اللفظ في الآية الشريفة المباركة من الخلق إلى

الإنشاء ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[1] للتعبير عن هذه المرحلة، للدلالة على حدوث أمر جديد في هذه المرحلة من تكون الجنين يختلف تماما عما قبله من المراحل الخمس، حيث تم تبديل المادة التي تحمل خصائص الحياة النباتية، إلى موجود يسمع ويتحرك ويتنفس، ويحمل من حيث الاستعداد (بالقوة) علم وقدرة وإرادة، وهو تغير نوعي في الخلق بدون شك، تختلف فيه الذات والصفات والخواص عن سابقتها، ولا تعدو المراحل السابقة عن كونها مجرد أداة لحصول المرحلة الجديدة.

يقول العلامة السيد قطب: « هذا هو الإنسان ذو الخصائص المميزة. فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر، ويتحول إلى تلك الخلقة المتميزة، المستعدة للارتقاء، ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان، مجردا من خصائص الارتقاء والكمال، التي يمتاز بها جنين الإنسان. إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد، وهو ينشأ خلقا آخر في آخر أطواره الجنينية، بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص »[2].

والخلاصة: أن الاختلافات الحاصلة بين المراحل الخمس الأولى لتكوين الجنين اختلافات مهمة، إلا أنها ليست اختلافات جوهرية (نوعية) كالاختلاف الحاصل في المرحلة السادسة من التكوين، حيث نفخ الروح في الإنسان التي تمثل جوهر الإنسان، وبها يكون الإنسان إنسانا له حياة وعلم وقدرة وإرادة.

قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[3].

---

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) الظلال. ج٤. ص٢٤٥٩.

(٣) السجدة: ٩.

فأين التراب من الإنسان الذي يحلق بفكره وروحه في عالم الملكوت الأعلى وراء عالم المادة، ليسكن في ساحة القدس الإلهي؟!

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن المراحل الخمس الأولى لتكون الجنين في الرحم، تدل على دقة النظام الذي يتكون من خلاله الجنين، حيث أن التركيب الفسيولوجي للإنسان، يمثل ملايين الظواهر الطبيعية والفسيولوجية، وكل ظاهرة في تكوينها ودورها الفسيولوجي وترابطها مع سائر الظواهر تتوافق باستمرار مع مهمة تيسير الحياة وحمايتها.

وهذا يدل على وجود الخالق المدبر الذي ينقل تكوين الإنسان من مرحلة إلى أخرى بحكمة ودقة بالغة، وأنه ذا علم وإرادة واعية وقدرة.

يقول العلامة السيد قطب: « فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة، ولا خبط عشواء، بدون قصد ولا تدبير، ثم تسير هذه السيرة التي لا تنحرف، ولا تخطيء، ولا تسير في طريق آخر من شتى الطرق التي يمكن عقلا وتصورا أن تسير فيها. إنما تسير النشأة الإنسانية في هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق الممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة في هذا الوجود »[١].

إلا أن نفخ الروح يمثل نقلة نوعية في تكوين الجنين تختلف اختلافا جوهريا عن المراحل السابقة، وهي نقلة يستحيل تفسيرها من خلال العمل الآلي والعلاقات

---

(١) الظلال.ج٤.ص٢٤٥٧.

الميكانيكية للمادة، فالقاعدة العقلية تقول: كلما وجدت درجات متفاوتة من شيء ما، بعضها أقوى وأكمل من بعض، فليس بالإمكان أن تكون الدرجة الأقل كمالا والأدنى درجة ومحتوى هي السبب في وجود الدرجة الأعلى، لأن كل درجة أعلى تمثل زيادة نوعية على الدرجة الأدنى منها، وهذه الزيادة النوعية لا يمكن أن يمنحها من لا يملكها؟!.

النتيجة (٢): لقد أضاف الله عز وجل نفخ الروح إلى نفسه المقدسة سبحانه وتعالى وهذا يدل على أمور عديدة بشأن المخلوق، منها:

- عظمة خلقه وجمال الإبداع فيه.
- خطورة المخلوق وعظيم شأنه وشرفه في الوجود.
- أن عظيم شأن هذا المخلوق يقوم أكثر على أساس ما يمتع به من قابلية القرب من حضرة الربوبية المقدسة.

النتيجة (٣): تعتبر حكمة الصنع في تكوين جسم الإنسان وما اشتمل عليه من إتقان الوظائف ومن قدرات خارقة، ثم نفخ الروح التي هي الكرامة العظمى للإنسان، دليل على كمال الخلقة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[١] وهي من أعظم النعم الإلهية على الإنسان، التي لا يمكن تأدية حقها إلا بالشكر والطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى. فعلينا أن ننظر ونفكر بعمق:

- في خلق الإنسان وتكوينه.
- وفي صورته وهيئته.
- وفي عقله وإدراكه.

---

(١) المؤمنون: ١٤.

- وفي قواه وقابلياته واستعداداته ومواهبه وطاقاته: المادية والمعنوية.

لكي نعلم بسر هذا الكائن العظيم صاحب التاريخ والحضارات والذي يتقلب في عالم الملكوت حتى درجة الفناء في النور الأعظم، وما يجب علينا من الشكر للمنعم الذي أوجد الإنسان وهيأه للحياة والحركة والعمل على وجه الأرض، وما هي مسؤولياته في الحياة، وما هو المصير الذي ينتظره في نهاية المطاف (بعد الرحيل عن هذه الحياة) فقد جرى الأسلوب القرآني النير على السعي لإخراج الإنسان من ألفته والأجواء البليدة التي اعتاد عليها، إلى التفكر والتأمل في نفسه والموجودات من حوله.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

وذلك لكي يكون على اتصال بأسرار الوجود التي تشعره دائما بعظمة الخالق المبدع المصور، وليخضع إليه في إجلال وخشوع.

يقول العلامة محمد جواد مغنية: « أشار القرآن الكريم إلى خلق الإنسان في العديد من آي الذكر الحكيم، لا لنعرف من أين وكيف وجدنا، وما هي حقيقتنا والأدوار التي نمر بها وكفى، بل لندرك عظمة الخالق في خلقنا نحن، كما ندركها في خلق السماوات والأرض، فنؤمن به، ونسير على هداه طمعا في ثوابه، وخوفا من عقابه »[2].

وقال أبي السعود في تفسير ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾: « والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) الكاشف.ج٥.ص٣٦٠.

الألوهية للإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لا حظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالا وإعظاما لشؤونه تعالى »[1].

---

(١) تفسير أبي السعود. ج٦. ص١٢٦.

الفَصْلُ الخَامِسُ

مراحل تكوين الجنين على ضوء العلم الحديث

اتفق علماء الأجنة على تقسيم حياة الجنين في رحم الأم إلى ثلاث مراحل، وهي:

المرحلة (١): الخلية الجرثومية

وهي مرحلة الإخصاب، وتمثل الأسابيع الثلاثة الأولى بعد التلقيح، وفيها يعتمد الجنين في غذائه على محه الذاتي (من المحاح وهو صفرة البيض) وتتكون فيها الأغشية الجنينية، حيث يبدأ تكوين الجنين بحدوث عملية الجماع بين رجل وامرأة ناضجين، وفيها يقذف الرجل مجموعة كبيرة جدا من الحوينات المنوية يتراوح عددها (من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ مليون خلية منوية) في الجهاز التناسلي للمرأة (المهبل) ويقوم أحدها بالاندماج مع بويضة الأنثى فتحصل بذلك عملية التلقيح، ويكون شكل البويضة مستديرا، وهي محاطة بطبقة خارجية جامدة رقيقة وشفافة لوقايتها، وداخل هذه الطبقة طبقة أخرى من المواد الغذائية، وفي قلب الطبقة الأخيرة حلقة صغيرة تسمى بالنواة، ويبلغ حجمها: (١ / ٨٠ من السم) ولهذا فهي

لا ترى إلا بالميكروسكوب.. أما الحوين: فهو أصغر من البويضة بمرات عديدة، ويتكون من رأس وعنق وذيل، ويتحرك بواسطة الذيل بسرعة (٣: سم) في كل عشر دقائق تقريبا.

ويشترط لحدوث عملية التلقيح أن تكون العوامل الداخلية لكل من الرجل والمرأة مناسبة.

ففي الإخصاب الطبيعي:

- يجب أن تكون البويضة التي تخرج من المبيض الذي ينتج بيضة واحدة في وقت محدد تقريبا (اليوم الرابع عشر قبل حدوث الحيض) من كل شهر في قناة المبيض (قناة فالوب) في طريقها من المبيض إلى الرحم، فإذا لم تلقح البويضة وهي في قناة المبيض، فإنها تموت وتخرج مع السائل الحيضي (الطمث التالي).

- أن يصل الحوين المنوي إلى البويضة قبل أن يفقد نشاطه وقوته، وهو يستطيع الوصول إلى البويضة في غضون ساعة بعد الجماع، فإن وجدت بويضة حية هناك أصبح التلقيح أمرا محتمل الوقوع، وإذا لم توجد فإن الحوينات المنوية التي دخلت القناة تموت في مدة أقصاها ثلاثة أيام. فالفترة التي يمكن أن ينتظر فيها الحوين المنوي الصحيح في عضو الأنثى التناسلي قبل أن يفقد قدرته على اختراق البويضة تقدر بـ (٣٦ ساعة) وأقصاها ثلاثة أيام، وبعدها يضعف ويفقد قدرته على اختراق البويضة فلا تحدث عملية الإخصاب، ولهذا فإن عملية الإخصاب لا تحدث إلا فترة يومين من كل شهر في الأيام الوسطى من دورة الحيض عند الأنثى.

ومن الملاحظ أن معظم الحوينات المنوية التي تقذف في المهبل تموت في غضون (٢٤: ساعة) بعد انطلاقتها بسبب المناخ الحمضي هناك، ولا يبقى منها إلا القوي الذي يمر داخل عنق الرحم.

ويبلغ عدد الحوينات المندفعة إلى الرحم حوالي (٢٠٠٠ حوين) تكافح ليصل العديد منها إلى الغلاف الصلب للبويضة، ولا يزيد عدد من ينجح منها في الوصول إلى البويضة عن المائة حوين، وواحد منها فقط هو الذي يخترق الجدار (الطبقة الخارجية الواقية) بإدخال رأسه ويسقط ذيله، حيث يكون الحيوان المنوي مزودا بمادة كيميائية تذيب الغلاف الخارجي للبويضة ليتسنى له الدخول، ثم يمر الحوين السعيد في طبقة المواد الغذائية، وله نواة في رأسه، وعند اللقاء تتحد محتويات النواة الموجودة في الحوين المنوي مع محتويات النواة الموجودة في البويضة، لتحدث عملية الاندماج في خلال نصف ساعة تقريبا، مكونة خلية واحدة جديد قادرة على النمو والتكامل، وهي تمثل البداية الأولى لتكون الجنين.

وتحمل الخلية الجديدة جميع الخواص التي يرثها الطفل من أبويه، والحيوان المنوي هو الذي يحدد جنس المولود: (ذكرا أو أنثى) حيث يوجد نوعان من الحوينات المنوية:

- النوع الأول ينتج الأطفال الذكور.
- والنوع الثاني ينتج الأطفال الإناث.

فيكون الأب هو المسؤول عن جنس المولود.

مع التنبيه إلى سد منافذ البويضة بعد دخول الحوين إليها، ليصبح دخول غيره بعد ذلك غير ممكن، وتموت جميع الحوينات في الخارج من الإرهاق، وهنا تبرز حالتان:

- أن ينجح حوينان أو أكثر في دخول البويضة في نفس الوقت، فينتج عن ذلك تكون توائم بعدد الحوينات التي دخلت إلى البويضة وتكون متشابهة.

- أن تخرج بيضتان من احد المبيضين بآن واحد، وتلقح كل منهما بحوين أو أكثر، فينتج عن ذلك تكون توأمين أو أكثر بحسب حالة التلقيح، وتكون غير

متشابهة.

نموّ الجنين في الرحم

ذكرت أن الاندماج بين خلية الذكر وخلية الأنثى يؤدي إلى وجود خلية واحدة جديدة قابلة للنمو وتحمل جميع الخواص التي يرثها الطفل من أبويه، حيث يحمل كل من الحوين المنوي والبويضة أجساما رفيعة تشبه الخيوط تسمى بـ (الكروموزومات) وعددها في كل واحد منهما (٢٤) فمجموعها فيهما (٤٨) وهي ذات قيمة كبيرة في تكوين الجنين، لأنها تحمل أجساما أصغر منها هي المورثات التي تحمل الصفات والعلامات الوراثية المميزة التي يُوّرثها الآباء للأبناء، وحالما تحدث عملية التلقيح (اندماج الكروموزومات) تبدأ حياة بشرية جديدة، ومنذ تلك اللحظة تتحدد ثوابت لا يمكن تغييرها: وهي:

- صفات الطفل وملامح وجهه.
- جنس الطفل: (ذكر أم أنثى).
- لون الطفل وقوامه: (طويل أو قصير، نحيف أو سمين).
- فصيلة الدم وقابليته للأمراض.
- وقدراته العقلية والعاطفية.

الجدير بالذكر: أن الجنين يرث من صفات الأب والأم وصفات سلفهم القريب والبعيد، إلا أن بعضها تكون سائدة أكثر من غيرها، وقد تظهر في الجنين صفات وراثية من أحد الأجداد رغم عدم ظهورها في أحد الأبوين المباشرين.

ثم تتواصل عملية نمو سريعة معقدة تهدف إلى تكوين الجنين: أهمها تلك

الطريقة المنظمة التي تتحد بها كروموزومات الخليتين، إذ تنتظم هذه الكروموزومات طوليا في منتصف الخلية المتحدة، ثم تنقسم طوليا بصورة فورية، وتتحد نصف الكروموزومات الذكورية مع نصف الكروموزومات الأنثوية مكونة خلايا جديدة متحدة في الموروثات التي تحملها، وتسير البويضة الملقحة بهدوء من قناة المبيض نحو الرحم بواسطة سائل خاص تفرزه القناة بسرعة تقدر بـ(٢,٥ سم) تقريبا كل ثمان ساعات، وفي سيرها هذا تحدث عملية الانقسام إلى خلايا متعددة بصورة متتالية، فتنقسم الخلية إلى خليتين، والخليتين إلى أربع، والأربع إلى ثمان، وفي نهاية الأسبوع تصبح كرة تحتوي أكثر من مائة خلية يتوسطها تجويف ممتلئ بسائل معين، إلا أنها لا ترى بالعين المجردة، وتستغرق رحلة السفر السعيد إلى الرحم (من ٣ إلى ٥ أيام تقريبا) وتعتمد في غذائها في هذه المرحلة على المواد الغذائية المخزونة في الطبقة الوسطى من خلية الأنثى، وتمضي أيامها الأولى عائمة في تجويف الرحم الذي يحتوي على سائل مائي غني بالسكريات والأملاح، يمثل مصدرا لغذاء الخلايا وعاملا على حمايتها، حيث تتغذى بنفس الطريقة التي تتغذى بها البذور في التربة المبللة، ثم تطمر نفسها بعد ذلك في جدار الرحم (الغشاء السميك المبطن للرحم) الذي يكون مستعدا لاستقبالها لتستقر فيه حتى موعد الولادة، ويزول بعد هذا الاستقرار خطر الإجهاض الذي يترقب الجنين قبله.

وفي اليوم التاسع تختفي الطبقة الخارجية للخلية، ويحل محلها نمو غير منتظم ذو أهداب أسفنجية صغيرة تشبه الأصبع تأخذ في حفر جدار الرحم للارتباط بأوعية الأم الدموية، حيث تشكل فيما بعد الحبل السري والأغشية التي تحمي الطفل، وعندما تصبح البويضة وثيقة التعلق بجدار الرحم يكتمل الحمل.

وفي هذه المرحلة: تنقسم المجموعة الأصلية من الخلايا إلى ثلاث

مجموعات مختلفة:

- بعضها يتحول فيتكون منها الجنين.

- وبعضها يتحول فيتكون منها الجزء الملتصق بالرحم (المشيمة) التي يمتد منها الحبل السري، وهو الذي يقوم بتغذية الجنين وإمداده بالأكسجين، ويكون الجنين معلقا بالحبل السري في سرته، وهو حبل شفاف يبلغ طوله عند الولادة حوالي (٥٠ سم) وقد يزيد أحيانا، وتجري في خلاله الأوعية الدموية التي تتصل بالمشيمة، ويمتص الجنين من خلالها غذاءه، وتساعده على التنفس بواسطة والدته.

- ويعضها يتحول فتتكون منها أغشية تحيط بالجنين لوقايته.

وفي الأسبوع الثالث: تظهر مجموعة الخلايا التي تكون الجنين على شكل قطعة مفلطحة مستطيلة بها قناة في الوسط أو نتوء، ويكون في حجم يمكن رؤيته بالعين المجردة، وتكون بدايات الأعضاء قد ظهرت، وينمو الجزء الذي يكون الرأس والمخ بسرعة فائقة، ويظهر انخفاضات قليلة الغور في موضع العين، بهذا تنتهي المرحلة الأولى في تكوين الجنين.

المرحلة (٢): الجنين الحاوي

وتبدأ من أول الأسبوع الرابع، إلى نهاية الأسبوع الثامن، وبدايتها ما يعبر عنه القرآن الكريم بـ (المضغة) وتكون بطول (٨ ملم) تقريبا، وتتكون من رأس وذنب يظهر فيها العمود الفقري ملتو على نفسه، ويبلغ الرأس ثلث المضغة، وفيها يعتمد الجنين في غذائه على أمه بواسطة المشيمة، وتكون هذه المرحلة أقل خطرا على نمو جسم الجنين وتطوره، حيث يقوي استقراره في الرحم، وتتضاءل أخطار الإجهاض

والأمراض البكتيرية والفيروسية، وتتميز هذه المرحلة بالنمو السريع للجنين، حيث يكتمل فيها تكونه (الأعضاء والأجهزة) فتأخذ الأعضاء في التميز بعضها عن بعض من حيث التركيب والوظيفة، وتظهر كل الصفات الأساسية للجسم الخارجي للجنين، حيث تتخصص كل مجموعة من الخلايا في أنتاج أجزاء معينة من جسم الإنسان، حيث تنقسم كتلة الخلايا إلى ثلاث طبقات:

الطبقة (١) الخارجية: وهي الخلايا التي تكون بشرة الجلد والشعر والأظفار وبعض أجزاء الأسنان والجهاز العصبي كله.

الطبقة (٢) الوسطى: وتسمى (ميزودرم) وهي الخلايا التي تكون فيما بعد الجلد والعضلات وأعضاء أجهزة الإخراج كالكلية والحالب والمثانة وأعضاء الجهاز الدوري كالقلب والشرايين والأوردة.

الطبقة (٣) الداخلية: وتسمى (الأندودرم) وهي الخلايا التي تكون القناة الهضمية كالمعدة والأمعاء والكبد والبنكرياس والغدد اللعابية والغدة التيموسية.

فيتكون للجنين في الأسبوعين الخامس والسادس:

- دماغ بسيط وعمود فقري وجهز عصبي مركزي.
- وتظهر أربع بقع على الرأس، فتتطور لتغدو لاحقا: عينين وأذنين.
- ويتكون للمضغة جهاز هضمي أولي بالإضافة إلى الفم والفك، وتكون المعدة والصدر في مرحلة التطور.
- ويظهر القلب على شكل انتفاخ في مقدمة الصدر، ويصبح باديا للعين، وعند نهاية الأسبوع السادس يبدأ بالخفقان، ويتكون جهاز من الأوعية الدموية، وتبدأ الأطراف (الذراعان والساقان) بالظهور.

وفي الأسبوع السابع:

- يتكون الصدر والبطن وتتضح العينان.
- وتبدأ الأصابع بالظهور.
- ويبدأ القلب في ضخ الدم في داخل جسد المضغة.
- ويشارف تصميم الجهاز العصبي على الاكتمال.
- وتبدأ الخلايا العظمية بالتكون.
- وتتكون الرئتان والمعى والكبد والكليتان وأعضاء جنسية داخلية، لكنها جميعا غير مكتملة.
- ويبلغ طول الجنين (٣،١ سم).

وفي الأسبوع الثامن:

- تتحول المضغة إلى جنين، وتتكون جميع الأعضاء الداخلية الأساسية، إلا أنها تكون بسيطة، وقد لا تبدوا في موضعها النهائي.
- ويبدأ الأنف بالتشكل.
- ويتشكل الفم ويتكون اللسان.
- وتبدأ الأعضاء الداخلية للأذنين بالتكون.
- وتبدوا أصابع اليدين والقدمين أكثر وضوحا.
- ويمكن تمييز كتفين ومرفقين وركبتين.

وبهذا تنتهي المرحلة الثانية، وبانتهائها يكون حجم الجنين قد ازداد بمقدار (٢ مليون في المائة) من حجمه في وقت الإخصاب، وتكون جميع أجزاء جسم الجنين قد تكونت.

المرحلة (٣): الجنين

ويبدأ من أول الأسبوع التاسع (بداية الشهر الثالث) وحتى الميلاد، وفيها يعود الجنين لأخطار الأمراض والإجهاض، ويخشى ولادته قبل أوانه، لاسيما في حالة الأسفار البعيدة والأعمال الشاقة، مما يؤثر على مستقبله وتقليل حظه في الحصول على صحة جيدة، وتتميز هذه المرحلة بالنمو السريع، إلا أنه لا يحدث فيها تمييز جديد، لأن كل الأجهزة قد تم تأسيسها في المرحلة السابقة، وهي في الواقع فترة تكميل للمرحلة السابقة، وفيها يتم تحديد المعالم الرئيسية والحدود المختلفة بين أجزاء الجسم.

ففي نهاية الشهر الثالث:

- تظهر الأظافر والأذنان.
- ويكتمل نمو الأطراف.
- ويصبح طول الجنين (٧ - ٨ سم) تقريبا.
- ويبدأ بالحركة الخفيفة.
- وتتكون الكلى وتبدأ تفرز قليلا من البول.
- ويلاحظ كبر حجم الرأس بالنسبة إلى الجسم.
- ويكون بالإمكان معرفة نوع الجنين (ذكر أو أنثى).

ومع نهاية الشهر الرابع:

- يظهر الشعر الوبري على الجلد والرأس.
- وتسمع حركات الجنين ودقات قلبه.
- ويبلغ طوله (١٦ سم) ووزنه (١٢٥ - ١٥٠ غرام) تقريبا.

وفي نهاية الشهر الخامس:

- يبدأ الجنين بالتنفس برئتين في طور النضج، ولكنهما لا تمكناه من العيش في خارج الرحم لأكثر من دقائق أو ساعات على أكبر تقدير.
- ويستطيع الطبيب أن يسمع دقات قلب الجنين بسماعة.
- وتبدو حركاته أكثر وضوحا.
- ويصبح طوله (٢٥ سم) ووزنه (٣٥٠غرام).

وفي نهاية الشهر السادس:

- يصبح الجنين طفلا كاملا أحمر الجلد.
- وينمو شعر رأسه.
- وتنفتح العينان.
- ويصبح طوله (٣٥ سم) ووزنه حوالي (٧٥٠ غرام).

وفي نهاية الشهر السابع:

- يصبح طوله حوالي (٤٠ سم) ووزنه حوالي (١ كيلو).
- وتزداد حركته بحيث يمكن رؤية تأثيرها من الخارج.
- ويتخذ الوضع النهائي الذي سيولد به.
- وعادة يكون الرأس إلى الأسفل.
- وله أمل بالحياة لو قدرت له الولادة في هذا الوقت، ولكنه يبقى ضعيف الجسم.

وفي نهاية الشهر الثامن:

- يبلغ طوله (٤٥ سم) ووزنه (٢ كيلو).

وفي نهاية الشهر التاسع:

- تنتهي مدة الحمل.
- ويبلغ طوله حوالي (٥٠ سم) ووزنه (٣ – ٣,٥ كلغ).
- ويصبح لون الجلد أبيضا، حتى الطفل المولود من أسرة سمراء.
- وتكسوه طبقة سميكة من المادة الدهنية اللينة.
- وتبرز الأظفار.
- وينبت في الرأس شعر رفيع.
- ويبلغ قياس محيط الرأس قياس محيط كتفيه تقريبا.

وبهذا تكون جميع أجهزته على استعداد للعمل، ويستعد للعبور إلى دنيا الحياة والكفاح البشري على وجه الأرض.

وفي نهاية الشهر التاسع أيضا:

- يسبح الجنين في بطن الأم في سائل يدعى بـ (السائل الأمنيوسي) ولهذا السائل فائدة كبيرة، إذا يمنع الجنين من الاختناق، ويسمح له بالتحرك بحرية، ويحفظ درجة الحرارة، وحماية الجنين من الصدمات والهزات.

- وتبدأ استعدادات الجنين للعبور منذ فترة باكرة، فهو يتعلم كيف يمتص ويبتلع وهو في بطن أمه، وذلك بابتلاع السائل الأمنيوسي الذي أثبتت الدراسات أنه يبتلع منه أكثر من ليترين، ويتحرك داخل الرحم ويجرب قدميه باللمس بهما على جدار الرحم، كما يتعلم الاستجابة للصوت واللمس.

- وقبل الولادة بأسابيع: تتكون للطفل طبقة من الأنسجة وتتشكل طبقة

دهنية تكفل له الدفء وتحميه من البرد عندما يخرج من الرحم.

المخاض لحظة بلحظة

وهو الإشارة لاستعداد الطفل للخروج من الرحم، ويصعب على الأم والطبيب معرفة موعد الخروج، فلا يعرف أحد ما الذي يحدث ليجعل عملية الولادة تبدأ، ويبدأ الطفل بالاستعداد للخروج بأمر من الله عز وجل وقدرته، حيث تبدأ عملية المخاض بانفجار الأغشية المحيطة بالطفل، وتظهر أعراضه بتقلصات قوية في عضلات الرحم تعرف بـ (الطلق) تدفع الجنين خارج الرحم من خلال قناة الولادة، ومنها إلى العالم الخارجي.

وتشعر المرأة عند الطلق بألم خفيف في الظهر، وتحصل تقلصات الطلق كل ربع ساعة أو أقل، ثم تأخذ التقلصات بمعاودة المرأة في فترات أقل وبشدة أكثر ومدة أطول، فكلما قربت ساعة الولادة، تزداد التقلصات قوة وعددا، ويبدأ عنق الرحم بالانتفاخ والتوسع ليسهل عملية خروج الطفل إلى قناة الولادة، ومنها إلى العالم الخارجي من خلال فتحة المهبل، التي تتمدد بدورها لتمكن الطفل من الخروج.

ومن أعراض المخاض: ظهور قليل من الدم في المهبل.

فكلّ شيء يؤدي مهامه بهمة ونشاط من أجل تحقيق الغاية بكل دقة وأحكام.

وتبلغ فترة المخاض عند الحامل للمرة الأولى (١٥:ساعة) وتقل لتبلغ (٨- ١٢:ساعة) للمرات التالية.

وتدل الدراسات الحديثة: على أن السيدات اللواتي يحظين بطعام جيد

وعناية دقيقة في أثناء الحمل تستغرق ولادتهن مدة أقصر.

كما أن الحالة النفسية للأم تلعب دورا كبيرا في ذلك، فكلما حافظت الأم على رباطة جأشها، كانت الولادة أسرع وأسهل.

وقد نصح المشرع الإسلامي المرأة الحامل بتناول الرطب أو التمر من أجل تسهيل الولادة، ومن فوائده جعل المولود حليما.

جاء في الحديث القدسي قول الله عز وجل: « وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني، لا تأكل نفساء يوم تلد الرطب فيكون غلاما إلا كان زكيا حليما، وإن كانت جارية كانت حليمة »[١].

وعلامة اقتراب الولادة: سرعة حصول التقلصات،،

فعندما تصبح المدة الفاصلة بين كل طلقة وأخرى حوالي الدقيقتين،،

وعندما تبلغ مدة التقلص حوالي الدقيقة،،

فهذا نذير ببدء الولادة.

وقد ينفجر جيب المياه في أول المخاض،،

وقد لا ينفجر إلا قبل ولادة الجنين مباشرة،،

وكثيرا ما ينفجر جيب المياه مبكرا في الولادة الأولى.

وسواء انفجر جيب المياه مبكرا أو متأخر، فإن هذا لا يؤثر على طول مدة المخاض،،

كما أنه لا يسبب أية متاعب للأم أو الطفل في الحالات الطبيعية.

---

(١) الوسائل. ج١٥. ص١٣٤

وفي حالة الولادة: يبدأ رأس الطفل (عادة) بالبروز من فتحة المهبل الخارجية، ومتى برز الرأس بدرجة كافية، يساعد الطبيب في إخراج الطفل، ويستعمل أحيانا الآلة للمساعدة (جفت الجذب: الفورسيس) ولا تستخدم إلا بعد التخدير العام أو الموضعي لمنطقة الحوض.

ومتى أصبح الطفل بالخارج وبدأ بالتنفس يقطع الحبل السري.

وتعتبر أول الأنفاس التي يتنفسها الطفل أصعبها عليه، ثم يصبح التنفس أسهل، ويظل غير منتظم لمدة يومين أو ثلاثة أيام.

وفي هذه الفترة يتم تنظيف الممرات الهوائية من بعض السوائل، ولهذا من المفيد أن يصرخ الطفل من أجل سرعة التخلص من هذه السوائل.

ومع أول تنفس يبدأ القلب في العمل، ويدفع الدماء إلى الرئتين لتحصل على الأكسجين، وتنقطع الدورة الدموية عن الحبل السري مع تعرضه للهواء، ولهذا لا تسيل الدماء عندما يقطع الحبل السري.

وبعد أن تتم الولادة يصبح المولود في عالم النوم، فقد كانت رحلته إلى الدنيا رحلة شاقة ومجهدة، يجب أن يستريح بعدها، ليبدأ رحلة الحياة التي تحتاج إلى جهد كبير.

وعند تعسر الولادة أو ظهور خطر يهدد الأم أو الطفل: يتدخل الطبيب لإجراء الولادة بواسطة الجراحة (القيصرية) وهي عبارة عن شق فتحة في الجزء الأسفل من جدار البطن، ثم في الرحم، وإخراج الطفل والمشيمة منها، وبعد ذلك تخاط الجروح بالغرز كأية عملية جراحية أخرى.

وتستخدم هذه الجراحة: في حالة المخاض الطويل، وصغر حجم حوضي الأم، ووجود تسمم حبلي أو تنافر دموي بين الأم والطفل.

والقاعدة: كلما تعبت الأم، تعب المولود.

وتحتاج العملية القيصرية إلى دور نقاهة أطول من الولادة الطبيعية، ومع التقدم العلمي والطبي، فقد أصبحت العملية القيصرية آمنة، ولا تشكل أي خطر على حياة الأم، ولكنها في بعض الحالات القليلة، تحتم على المرأة الولادة بنفس الطريقة في المرات التالية، وذلك بسبب انفتاح الجرح.

صياح الطفل قول لا إله إلا الله

التذكير ببعض الحقائق في الحمل والولادة:

- يتكون الجنين من اندماج خلية الذكر بخلية الأنثى، خلية الذكر مزودة بذيل يتحرك به نحو قناة الأنثى وبمادة كيميائية لاختراق جدار خلية الأنثى، وخلية الأنثى مزودة بمواد غذائية لتوفر الغذاء اللازم للطفل قبل مرحلة الوصول للرحم، فكل من خلية الذكر وخلية الأنثى على حدة ناقصتين وغير قابلتين إلى النمو، والخلية المتحدة هي وحدها القابلة للنمو وتحمل جميع الخصائص الموروثة من الأبوين.

- القناة مزودة بسائل يدفع البويضة الملقحة نحو الرحم، وجوف الرحم مليء بسائل يحتوي على سكريات وأملاح تتغذى عليها البويضة الملقحة - كما تتغذى البذور في التربة المبللة - قبل أن تلتصق بجدار الرحم وتتكون المشيمة.

- تتكون أصابع أسفنجية تحفر في جدار الرحم للاتصال بالأوعية الدموية للأم.

- بعد اكتمال الجنين يتهيأ للخروج من الرحم تلقائيا، وتؤدي جميع

الأجهزة والأعضاء عملها بدقة وإتقان من أجل تسهيل عملية الولادة.

- يكون رأس الجنين ليس صلبا، حيث أنه مكون من خمس صفائح من العظام غير صلبة يفصل بينها فراغ ضيق من أجل تسهيل عملية خروج الجنين، وعند الولادة يحدث نوع من الضغط على رأس الجنين وهو في طريقه إلى الخارج ويرى وهو في شكل مستطيل تقريبا عند خروجه من المهبل، وبعد أيام من الولادة يستعيد الرأس شكله الطبيعي، وبعد أشهر تلتحم الصفائح العظمية بعضها ببعض وتصبح أكثر صلابة.

- يولد الطفل وهو مبلل من السائل الذي يحيط به، إلا أنه يولد نظيفا، ولا يكون عليه أثر من الدماء.

- متى أصبح الطفل بالخارج وبدأ بالتنفس يقطع الحبل السري، ومع أول تنفس يبدأ القلب في العمل، ويدفع الدماء إلى الرئتين لتحصل على الأكسجين، وتنقطع الدورة الدموية عن الحبل السري مع تعرضه للهواء، ولهذا لا تسيل الدماء عندما يقطع الحبل السري.

- تعتبر أول الأنفاس التي يتنفسها الطفل أصعبها عليه، ثم يصبح التنفس أسهل، ويظل غير منتظم لمدة يومين أو ثلاثة أيام، وفي هذه الفترة يتم تنظيف الممرات الهوائية من بعض السوائل.

- ولهذا من المفيد أن يصرخ الطفل من أجل سرعة التخلص من هذه السوائل، وهذا ما يحدث فعلا.

ومع كل هذه الحقائق العظيمة، وكل التفاصيل التي وقفنا عليها حول تكون الجنين والولادة!!!

هل تعجب إذا قيل لك: أن صياح الطفل هو قول لا إله إلا الله؟!

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لا تضربوا أطفالكم على بكائهم، فإن بكائهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله »[1].

(١) الوسائل.ج١٥. ص١٧١.

الفصل السادس

العوامل الخارجيّة المؤثّرة في تكوين الجنين

الجدير بالذكر: أن تكوين الجنين لا يتأثر بالعوامل الوراثية فحسب، وإنما يتأثر أيضا ببعض العوامل الخارجية بصورة لا يمكن تجاهلها، منها:

العامل (١): غذاء الأم

تزداد حاجة الجنين إلى الغذاء كلما قرب من مرحلة الولادة، والجنين يعتمد في غذائه على الأم، ولهذا: فإن الأمهات اللواتي يعانين من نقص في الغذاء، غالبا ما يلدن أطفالا يعانون من نقص جسمي أو عقلي أو اضطراب نفسي شديد، وقد يؤدي سوء التغذية إلى الإجهاض، فينبغي على الأم أن تتناول من الغذاء ما يكفي لصحتها وصحة الطفل أثناء الحمل، وتبدأ حاجة الأم لوحدات حرارية إضافية بدءا من الشهر الرابع، وخاصة المرأة التي تعمل وتتحرك.

وهناك بعض الأطعمة المفيدة التي ينبغي أن تتناولها الأم، مثل:

- الخضار والحبوب والفواكه.

- الحليب ومشتقاته.
- واللحوم والأسماك والبيض.

ويجب التقليل من الملح، والأطعمة المقلية، والتوابل، وبعض أنواع الحلوى والفطائر.

وقد قدم المشرع الإسلامي توصيات متنوعة للمرأة الحامل بخصوص التغذية، وأوضح تأثير التغذية على السمات الجسمية والعقلية والنفسية للطفل، فأوصى الحامل مثلا بأكل الرطب والسفرجل واللبان.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « أطعموا حبالكم اللبان، فإن الصبي إذا غذي في بطن أمه باللبان أشتد عقله، فإن يك ذكرا كان شجاعا، وإن ولدت أنثى عظمت عجزتها فتحظى عند زوجها »[1].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: « أطعموا حبالكم اللبان، فإن يكن في بطنها غلام، خرج زكي القلب عالما شجاعا، وإن تكن جارية، حسن خلقها وخلقتها وعظمت عجزتها وحظيت عند زوجها »[2].

عن شرحبيل بن مسلم أنه قال في المرأة الحامل: « تأكل السفرجل، فإن الولد يكون أطيب ريحا وأصفى لونا »[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « أطعموا البرني (نوع من التمر) نساءكم في نفاسهن تحلم أولادكم »[4].

والحلم يعني القدرة على التحكم في الانفعالات وضبطها.

---

(١) الوسائل. ج١٥. ص١٣٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر. ص١٣٣.

(٤) نفس المصدر. ص١٣٤.

العامل (٢): الصحة

إن أي مرض يؤثر على عمليتي البناء والهدم (الاستحالة) يؤثر بالتالي على نمو الجنين:

- فالزهري قد يسبب الضعف العقلي أو الصم أو العمى.
- والحصبة الألمانية تسبب أمراض القلب أو الصمم أو التخلف العقلي وربما تسبب وفاة الجنين.
- واضطرابات إفرازات الغدد الصماء وخاصة الغدة الدرقية قد يعوق النمو العام للجنين.

فالأم مطالبة بالحذر من الاختلاط مع الآخرين أثناء تفشي الأمراض الفيروسية المعدية، والحذر من التعرض للإشعاعات لاسيما في الأشهر الثلاثة الأولى، فإنها قد تؤدي إلى إحداث أضرار وتشوهات في الجنين، وربما يؤدي بعضها إلى موته، وقد تكون الأم في حاجة لممارسة بعض الأنشطة الرياضية من أجل المحافظة على صحتها وأفضلها المشي وبعض الحركات الخفيفة، ويجب عليها الابتعاد عن مزاولة الرياضة المرهقة وحمل الأجسام الثقيلة والسفر البعيد لاسيما أثناء الأشهر الأربعة الأولى، وتجنب الحذاء العالي والثياب الضيقة، وتجنب الإرهاق والسهر والجهد العقلي والبدني الزائد.

العامل (٣): المكيفات

مثل التدخين والخمور، فإن إفراط الأم فيها يؤدي إلى إعاقة نمو الجنين ويجعله عرضة للأمراض الجسمية والعقلية والنفسية، وذلك نظرا لتأثيرها على غذائه وتنفسه:

- فالتدخين يرتبط بزيادة خطر الإجهاض ووفاة الطفل الفجائية ونقص وزن الجنين وزيادة الإصابة بالأمراض التنفسية ويعيق نمو الطفل جسميا وعقليا.

- وأن أي مشروب كحولي تشربه الأم أثناء الحمل يمر إلى مجرى دم الطفل عبر المشيمة مما قد يسبب له الأذى، فقد كشفت الدراسات عن تأثير الخمر في الجنين، فهو يؤدي إل ضعف جسدي ونفسي وإلى نقص في الوزن والحجم وإلى صغر حجم الرأس والدماغ والفك والعينين وإلى عيوب خلقية في القلب وملامح غير طبيعية في الوجه وإلى تشوهات في الجنين ويضعف التناسق الحركي وربما يؤدي إلى التخلف العقلي والاضطرابات العقلية، حتى البيرة والنبيذ الخالية من الكحول قد تحتوي على مواد كيميائية ضارة بالجنين.

- وللكافيين الموجود في القهوة والشاي والشوكولاتة الساخنة تأثير ضار على الجهاز الهضمي للأم، لذا يجب عدم الإفراط في تناولها، ويجب تجنب تناول الأدوية حتى وإن كانت قبل الحمل دون استشارة الطبيب.

العامل (٤): الحالة النفسية للأم

ويرجع تأثيرها نتيجة لاضطرابات إفرازات الغدد في الحالات الانفعالية الشديدة التي تتعرض لها الأم.

حمل المرأة بعد سن الأربعين

يعتبر سن الأربعين عند المرأة بداية مرحلة حرجة، حيث تقف على عتبة ما يسمى بـ (سن اليأس) وتحدث تغيرات في جسمها، وأنها تشعر بالانحدار من ربيع الحياة والأنوثة والجمال إلى الكبر والشيخوخة، مما يصيبها بالتوتر العصبي

والنفسي وهذا يترك بعض التأثيرات على الحمل والولادة.

فالحمل بعد سن الأربعين:

- قد يجعل الأم عرضة للإجهاض نظرا لضعف القدرة على استقبال واحتضان الجنين ونموه نموا طبيعيا داخل الرحم كما هو الحال لدى المرأة صغيرة السن.

- وقد يجعل الطفل عرضة لتأخر النمو الجسمي والعقلي أو حدوث تشوهات في الجمجمة والفم والأطراف والقلب أو إصابة الطفل بالمرض المنغولي.

- بالإضافة إلى احتمال إصابة الأم بأمراض القلب أو السكري والتسمم الحملي الذي يؤدي بدوره إلى ارتفاع الضغط الشديد وتورم الساقين والزلال في البول مما يترك آثاره على صحة الجنين وحجمه وضعفه وولادته قبل الأوان.

- وقد تتعرض الأم لتعسر الولادة.

ورغم كل هذا: فقد حدثت ولادات عديدة بعد تخطي الأم سن الأربعين، وجاء فيها المولود بصحة جيدة، وحجم ممتاز، وذكاء عادي وربما متقدم، دون أن تكون هناك أية أخطار أو مساوئ على الأم أو الطفل مما سبق ذكره.

وما سبق كله: يفرض على الأسرة والمجتمع والدولة مسؤولية توفير الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية للأمهات الحوامل، حتى يحاط الأجنة بأحسن الظروف المناسبة لأفضل عملية نمو ممكنة وأكملها، فمن هنا تبدأ مسؤولية الرعاية والتنمية للمجتمع.

الباب الثاني

« آداب وأحكام شرعية تتعلق بالأولاد »

الفصل الأول: آداب وأحكام عامّة

الفصل الثاني: أحاديث حول فضل الأولاد وحقوقهم

الفصل الثالث: أقلّ الحمل وأكثره

الفصل الرابع: العقيقة

الفصل الخامس: الختان والخفاض

الفصل السادس: الرضاعة

الفصل السابع: الحضانة

الفصل الأول

آداب وأحكام عامّة

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

- يستحب غسل المولود عند وضعه مع الأمن من الضرر.

- ويستحب أن يؤذن في أذنه اليمنى ويقام في أذنه اليسرى، فإنه - بحسب الحديث الشريف - عصمة له من الشيطان الرجيم.

- ويستحب تحنيكه بماء الفرات إن وجد وإلا بماء عذب وبتربة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام وذلك بأن يخلط الماء بشيء من التربة المطهرة للإمام الحسين عليه السلام ويدخل إلى حنكه (أعلى داخل الفم).

- كما يستحب تحنيكه بالتمر - على رأي بعض الفقهاء - بأن يمضغ ويجعل في حنكه حتى يتخلل إلى حلقه.

- ويستحب تسمية الطفل بعد الولادة محمدا إلى مدة سبعة أيام - على رأي بعض الفقهاء - ثم إن شاء الأب تغيير الاسم بعد ذلك فله أن يغيره.

- ويستحب اختيار الأسماء الحسنة، ويعد ذلك من حقوق الولد على الوالد، وأفضل الأسماء ما يتضمن العبودية لله جل جلاله، مثل: عبد الله وعبد الرحيم وعبد الجبار، ويليها أسماء الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأفضلها محمد، بل يكره

ترك التسمية به لمن ولد له أربعة أولاد. قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « من ولد له أربعة أولاد ولم يسم باسمي فقد جفاني »[1].

- ويستحب اختيار كنية للطفل مخافة النبز (من التنابز بالألقاب) وهو اللقب السيئ.

- وتكره الأسماء التالية: حكم، وحكيم، وخالد، وحارث، ومالك، وضرار، وأبي مرة، وتكره الكنيات التالية: أبي الحكم، وأبي مالك، وأبي عيسى، وأبي القاسم لمن أسمه محمد.

- ويستحب حلق رأس الطفل في اليوم السابع من ولادته، والتصدق بوزن شعره ذهبا أو فضة.

- ويكره حلق موضع من رأس الطفل وترك موضع آخر.

- ويكره أن يكون الحلق والعقيقة في موضع واحد - على رأي بعض الفقهاء- .

- ويستحب ختانه أيضا في اليوم السابع.

- وتستحب الوليمة عند ولادة المولود، ويجوز تأخير الوليمة عن يوم الولادة بأيام، وتستحب الوليمة أيضا عند الختان، وإذا أولم في يوم الختان بقصد امتثال الاستحباب للولادة وللختان، فقد حصل الامتثال لهما.

(ب) في مدرسة الخلفاء

- تستحب مبادرة المسلم بالبشارة إلى أخيه المسلم إذا ولد له مولود ذكرا

---

(١) الوسائل.ج١٥.ص١٢٦.

أو أنثى، وذلك لإدخال السرور إلى قلبه، وتقوية أواصر المحبة بين العوائل المسلمة. وقد بشرت الملائكة السيدة سارة زوجة نبي الله إبراهيم بإسحاق ويعقوب (عليهم جميعا السلام) قول الله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾[1] كما بشرت زكريا بيحى عليه السلام قول الله تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

- كما تستحب التهنئة والدعاء للأبوين والمولود، فيقال مثلا: « شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، وبلغ أشده، ورزقت بره ».

- ويستحب الأذان في الأذن اليمنى للمولود، والإقامة في الأذن اليسرى، ليكون أول ما يقرع سمعه كلمات النداء العلوي المتضمنة لكبرياء الله وعظمته، وفي الحديث: « من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، لم تضره أم الصبيان »[3] وقيل عن أم الصبيان: أنها مخلوق خرافي شديد البشاعة وتنسب إليها بعض الأعمال، مثل: صرخة تسبب الموت أو الجنون، وأكل البشر خصوصا الأطفال، وقيل: هي التابع والتابعة، أي جنية تتبع الرجل وتحبه، وجني ينبع المرأة ويحبها، وقيل: هي الغول (ساحرة الجن) وقيل: هي أحد أشكال السعال، وقيل: البوم.

- ويستحب تسمية الأبناء بأسماء الأنبياء عليهم السلام وخير الأسماء وأحبها إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن، وأصدق الأسماء - بحسب الأحاديث في مدرسة الخلفاء - حارث وهمام. ويجوز التسمية بأسماء الملائكة، ويحرم تسمية كل اسم معبد لغير الله عز وجل، مثل: عبد العزى، وعبد هبل، وعبد الكعبة، ماعدا:

---

(١) هود: ٧١.

(٢) آل عمران: ٣٩.

(٣) فقه السنة. ج٣. ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

عبد المطلب. ويكره التسمية بالأسماء التالية: يسار، ورباح، ونجيح، وأفلح، لأنها قد تكون وسيلة من وسائل التشاتم.

- ويستحب تحنيكه بالتمر، وذلك بوضع جزء منه بعد مضغه على الأصبع، وإدخال الأصبع في فم المولود، ثم تحريكه يمينا وشمالا بحركة لطيفة حتى يبلغ الفم كله، وإن لم يتوفر التمر، فبأي مادة حلوة. ويفضل أن يقوم بعملية التحنيك من يتصف بالتقوى والصلاح تبركا وتيمنا بصلاح المولود إن شاء الله تعالى. في الصحيحين عن أبي موسى قال: « ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إلي ».

- ويستحب حلق رأس المولود في اليوم السابع والتصدق بوزن شعره فضة.

- ويكره حلق بعض الرأس وترك البعض الآخر.

الفصل الثاني

أحاديث حول فضل الأولاد وحقوقهم[1]

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « الولد الصالح ريحانة من رياحين الجنة » وقال: « نعم الولد البنات المخدرات، من كانت عنده واحدة جعلها الله سترا من النار »[2] وقال: « إن لكل شجرة ثمرة، وثمرة القلب الولد »[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « ميراث الله من عبده المؤمن ولد صالح يستغفر له » وقال: « البنات حسنات والبنون نعم، والحسنات يثاب عليها والنعم مسؤول عنها »[4].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « من نعم الله على الرجل أن يشبه ولده ».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « من سعادة الرجل أن يكون له الولد يعرف فيه شبهه: خلقه وخُلقه وشمائله »[5].

---

(١) مكارم الأخلاق. الطبرسي. ص٢١٨- ٢٢٣.

(٢) البحار. ج١٠٤. ص٩١.

(٣) الكنز. الحديث: ٤٥٤١٥.

(٤) البحار. ج٧٨. ص٢٠٦.

(٥) الكافي. ج٦. ص٤.

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم » وقال: « أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم »[١] وقال: « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن »[٢] وقال: « اعدلوا بين أولادكم كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف »[٣] وقال: « أحبوا الصبيان وأرحموهم »[٤] وقال: « قبلوا أولادكم فإن لكم بكل قبلة درجة في الجنة »[٥] وقال: « يلزم الوالد من الحقوق لولده ما يلزم الولد من الحقوق لوالده »[٦] وقال: « من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محايج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنه من فرح أبنته فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقر عين ابن فكأنما بكى من خشية الله، ومن بكى من خشية الله أدخله الله جنات النعيم ».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « إن الله عز وجل ليرحم الرجل لشدة حبه لولده " وقال: " بر الرجل بولده بره بوالديه ».

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ : « سموا أولادكم أسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن » وقال: « من حق الولد على والده ثلاثة: يحسن أسمه، ويعلمه الكتاب، ويزوجه إذا بلغ »[٧].

---

(١) الكنز. الحديث: ٤٩٤٠٩.

(٢) الكنز. الحديث: ٤٥٤٠٩.

(٣) الكنز. الحديث: ٤٥٣٤٧.

(٤) البحار. ج١٠٤. ص٩٢.

(٥) الوسائل. ج١٥. ص٢٠٢.

(٦) الكنز. الحديث: ٤٥٣٤٤

(٧) البحار. ج٧٤. ص٨٠.

الفصل الثالث

أقلّ الحمل وأكثره

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

أقل مدة الحمل ستة أشهر، وفي أكثره ثلاثة أقوال:

- تسعة أشهر وهو المشهور.
- عشرة أشهر.
- سنة وهو شاذ أو مترك.

ولا تضرّ زيادة أيام قليلة.

فلا يلحق الولد شرعا بالأب إذا تولد طفلا حيا كاملا قبل أن تمضي على حمله أقل مدة الحمل: (ستة أشهر من حين الدخول بأم الولد) ولا يكون ولده شرعا إذا ولد الطفل بعد ما تجاوز أكثر مدة الحمل: (تسعة شهور إلى سنة - بحسب اختلاف أقوال الفقهاء) من حين دخول الزوج بأم الطفل أو ما هو بحكم دخوله بها، كما إذا اعتزل الرجل عنها أو غاب عنها أو سجن أو غيره ثم ولدت الطفل بعد ذلك.

(ب) في مدرسة الخلفاء

وافقت المذاهب الأربعة في مدرسة الخلفاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مدة

أقل الحمل، وهي: ستة أشهر، واختلفت معها ومع بعضهم البعض حول أكثر مدة الحمل.

فقال الحنفية: أكثر مدة الحمل سنتان[1].

وعند الشافعية: أكثر مدة الحمل أربع سنوات[2].

وعند الحنابلة: أكثر مدة الحمل أربع سنوات[3].

وعند المالكية: خمس سنين[4].

وقال بعض فقهاء مدرسة الخلفاء: أكثر مدة الحمل: سبع سنوات[5].

فلو فارقت امرأة زوجها لطلاق أو وفاة أو غيره ثم جاءت بولد قبل انقضاء مدة أكثر الحمل، فإن الولد يكون ولدا شرعيا، وينسب لزوجها السابق، إلا إذا تزوجت بغيره، وكان زوجها الثاني قادرا على الوطء، وولدت لأكثر من ستة أشهر من وطء الثاني، فإن الولد ينسب إلى زوجها الثاني، أما إذا كان الزوج الثاني غير قادر على الوطء لصغر أو غيره، فإن الولد ينسب للزوج الأول، لأن الزوج الثاني كعدمه.

(حـ) مدة الحمل علميا[6]

- أقصر مدة للحمل: (١٩٤ يوما) ويسمى المولد بـ(الطفل الخديج).

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ج٤. ص٥٢١.

(٢) نفس المصدر. ص ٥٢٤.

(٣) نفس المصدر. ص٥٢٧.

(٤) نفس المصدر. ص ٥٢٣.

(٥) نفس المصدر.ص٥٢٣.

(٦) موسوعة العائلة. ص ١٠٩.

- مدة الحمل العادي: (من ٢٦٦ إلى ٢٩٤ يوما) والمتوسط (٢٨٠ يوما).
- وسجلت أطول مدة حمل (٣١٢ يوما).
- وأغرب مدة حمل سجلت علميا (٣١٥ يوما).

وهذا التقدير العلمي لمدة الحمل ينسجم مع أقوال مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الرابع

العقيقة

العقيقة في اللغة

تطلق على الذبيحة التي تذبح عن المولود.

العقيقة في الاصطلاح

ما يذكى عن المولود تقربا لله سبحانه وتعالى وشكرا له سبحانه على إنعامه على الوالدين بالمولود، وعلى المولود بنعمة الحياة، وذلك وفق شرائط مخصوصة. وليس لها وقت معين من العام، فهي مرتبطة بولادة المولود في أي وقت من العام.

أحكام شرعية تتعلق بالعقيقة

وهذه بعض الآداب والأحكام الشرعية المتعلقة بها:

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

- يستحب للإنسان استحبابا مؤكدا إذا ولد له مولود أن يعق عنه عن الذكر بذكر وعن الأنثى بأنثى. وذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها على من كان غنيا، ومن كان فقيرا إذا أيسر فعل، فإن لم يقدر فلا شيء عليه.

- لو لم يعق الوالد عن ولده، استحب للولد أن يعق عن نفسه إذا بلغ مهما بلغ من العمر. في الحديث: « المولود مرتهن بعقيقته فكه أبوه أو تركه »[1].

- قيل: تستحب العقيقة عنه بعد موته إذا لم يعق عنه في حياته. وقيل: وإذا مات الطفل في اليوم السابع قبل الظهر لم يعق عنه، وإن مات بعد الظهر استحب أن يعق عنه.

- تجزى فيها الشاة والبقرة والإبل والأفضل الكبش. ويفضل أن تكون سالمة من العيوب وسمينة، وقيل: يستحب أن تجتمع فيها شروط الاضحية.

- لا تقوم الصدقة بثمن العقيقة مقامها.

- يستحب أن تكون العقيقة في اليوم السابع للمولود.

- ويستحب أن يطبخ اللحم ويدعى عليه جماعة من المؤمنين (عشرة فما زاد وكلما كثر العدد كان أفضل) ليأكلوا منها ويدعوا للولد. ويجوز تفريق اللحم. وقال بعض الفقهاء: في حالة تفريق اللحم يستحب أعطاء القابلة ربع الذبيحة، ولم يقيد البعض. فإن لم يكن له قابلة أعطي الأم الربع تتصدق به ولا تأكل منه. وإن كانت القابلة ذمية أعطيت ثمن الربع ولا تعطى اللحم. وإن كانت القابلة أم الرجل أو من هو في عياله لم تعطى من العقيقة شيئا.

- لا يجوز للوالدين أن يأكلا من العقيقة البتة. وقيل: يكره. وقيل: يكره أن

---

(١) الوسائل.ج١٥ .ص١٧٣.

يأكل منها أحد من عيال الأب.

- يكره أن تكسر العظام بل تفصل الأعضاء ويقطع اللحم جداول.

- قال الإمام الصادق عليه السلام: « إذا أردت أن تذبح العقيقة فقل: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2] وقيل: إذا أردت أن تذبح العقيقة فقل: اللهم منك وإليك بسم الله والله أكبر، اللهم صل على محمد وآل محمد، تقبل من فلان بن فلان » ويسمي المولود باسمه، ثم يذبح باسم الله.

(ب) في مدرسة الخلفاء[3]

- كره بعض الشافعية تسميتها عقيقة، وقالوا: يستحب تسميتها: نسيكة أو ذبيحة.

- قال الشافعية والحنابلة: بأنها سنة مؤكدة، واستدلوا على ذلك بالحديث عن الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « الغلام مرتهن بعقيقته، يذبح عنه يوم السابع ».

- وقال الحنفية: يعق تطوعا بنية الشكر لله تعالى.

- وقال المالكية: أنها مندوبة، والمندوب عندهم أقل من المسنون.

- وقال الشافعية والحنابلة: أن وقتها يبدأ من تمام انفصال المولود

---

(١) الأنعام: ٧٩.

(٢) الأنعام: ١٦٢- ١٦٣.

(٣) الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف الكويتية. ج٣٠. ص٢٧٦ - ٢٨٠.

لا قبله.

- وقال الحنفية والمالكية: أن وقتها في سابع الولادة لا قبله.

- وقال المالكية: أن وقتها يفوت بفوات اليوم السابع.

- واتفق الفقهاء على الاستحباب في اليوم السابع.

- وقال الشافعية والحنابلة: يستحب أن يعق عن المولود الذكر بشاتين متماثلتين وعن الأنثى بشاة ويجوز العق عن الذكر بشاة واحدة.

- وقال الحنفية والمالكية: يعق عن كل من الذكر والأنثى بشاة.

- وقال الحسن البصري: لا عقيقة عن الأنثى.

- وقال الشافعية: أن العقيقة لا تفوت بتأخيرها ولكن يستحب ألا يؤخر عن سن البلوغ، ومن بلغ من الأولاد ولم يعق عنه يندب له أن يعق عن نفسه، ولو مات المولود قبل اليوم السابع استحبت العقيقة عنه كما تستحب عن الحي.

- وقال الحسن البصري ومالك: لا تستحب العقيقة عنه.

- وقال الشافعية: أن المطالب بالعقيقة هو من تلزمه النفقة بشرط أن يكون موسرا بأن يكون قادرا عليها فاضلة عن مؤنته ومؤنة من تلزمه نفقته قبل مضي أكثر مدة النفاس وهي ستون يوما، فإن قدر عليها بعد ذلك لم تسن له.

- وقال المالكية: أن المطالب بها الأب.

- وقال الحنابلة: لا يعق غير الأب إلا إن تعذر بموت أو امتناع، وأنها تسن في حق الأب وإن كان معسرا، فإن فعلها غير الأب لم تكره ولكنها لا تكون عقيقة، وإنما عق الرسول الأعظم الأكرم ﷺ عن الحسن والحسين لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

- واتفق الفقهاء على القول باستحباب طبخ العقيقة كلها حتى ما يتصدق به.
- وقال الحنفية: يجوز تفريقها نية ومطبوخة.
- وقالوا جميعا: أنه يشترط في العقيقة عند الذبح ما يشترط في أي ذبيحة.
- ويستحب أن يقال: بسم الله والله أكبر، اللهم لك وإليك، هذه عقيقة فلان.

الفصل الخامس

الختان والخفاض

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام[1]

- يجب ختان الولد الذكر، وهو من الفطرة الحنيفة.

- يستحب أن يكون الختان في اليوم السابع للولادة، في الحديث: « طهروا أولادكم يوم السابع فإنه أطهر وأطيب وأسرع لنبات اللحم »[2] فإن أخر لم يكن فيه حرج إلى وقت البلوغ، فإذا بلغ وجب ختانه ولا يجوز تركه.

- إذا أسلم الرجل الكافر وهو غير مختون، وجب عليه أن يختن نفسه وإن كان شيخًا كبيرًا.

- إذا أدرك الرجل الموت بعد البلوغ ولم يختن سقط وجوب الختان بالموت وأثم بالتأخير إذا كان عامدا بتركه في حياته.

- الختان للذكر واجب لنفسه وشرط لصحة الطواف في الحج والعمرة (واجبين أو مندوبين) فإن طاف الرجل وهو غير مختون بطل طوافه، ولا تبطل سائر العبادات إذا أتى بها وهو غير مختون، إلا إذا أوجب ذلك خللا في طهارته من

---

(١) مكارم الأخلاق.الطبرسي.ص٢٢٩- ٢٣٠.

(٢) الوسائل. ج٧. ص١٦١.

النجاسة أو في غسله من الجنابة فتبطل صلاته من هذه الناحية.

- الحد اللازم في الختان: أن تقطع الجلدة الساترة للحشفة حتى تبدو الحشفة كلها، ولا يقدح بقاء بعض الجلدة إذا كانت الحشفة ظاهرة. وإذا ولد الطفل ولا غلفة له كفى ذلك، ويستحب إمرار الموسى على الموضع لإصابة السنة.

- قال الإمام الصادق عليه السلام: « إذا اختن يقول: اللهم هذه سنتك وسنة نبيك صلواتك عليه وآله وأتباع لمثلك وكتبك ولنبيك بمشيئتك وإرادتك وقضائك، لأمر أردته وقضاء حتمته وأمر أنفذته، فأذقته حر الحديد في ختانه وجعلته لأمر أنت أعرف به منا، اللهم فطهره من الذنوب، وزد في عمره وادفع الآفات عن بدنه والأوجاع عن جسمه وزده من الغنى وأدفع عنه الفقر، فإنك تعلم ولا نعلم ».

- يستحب خفض البنات. وفي الحديث: « أنه فيهن من المكرمات » فإن فعل كان فيه فضل كبير وثواب جزيل، وإن لم يفعل لم يكن بذلك بأس. وينبغي للمرأة الخافضة أن لا تستأصل وإنما تشم. قال الإمام الصادق عليه السلام: « لما هاجرت النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هاجرت فيهن امرأة يقال لها: أم حبيبة، وكانت خافضة تخفض الجواري، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها: يا أم حبيبة! العمل الذي كان في يدك هو في يدك اليوم؟ قالت: نعم يا رسول الله إلا أن يكون حراما فتنهاني عنه، فقال: لا، بل هو حلال فادني مني حتى أعلمك، فدنت منه فقال: يا أم حبيبة! إذا أنت فعلت فلا تنتهكي أي لا تستأصلي واشمي (أشمت الخافضة البظر أي أخذت منها قليلا) فإنه أشرق للوجه واحظي عند الزوج ».

- يستحب أن يكون الخفض بعد سبع سنين من عمر الفتاة.

(ب) في مدرسة الخلفاء

الختان من الفطرة ومن شعائر الإسلام، وقد اختلف فقهاء مدرسة الخلفاء

في الختان إلى أقوال:

- ذهب الشافعية والحنابلة إلى القول بوجوبه وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه سنة عند الرجال وليس بواجب.

- يكون الختان بقطع الجلدة التي تغطي الحشفة (تسمى القلفة والغرلة) بحيث تنكشف الحشفة كلها. وفي قول عند الحنابلة: إذا اقتصر على أخذ أكثرها جاز. وقال ابن كج من الشافعية: يكفي قطع شيء منها وإن قل بشرط أن يستوعب القطع تدوير رأسها.

- من ولد بلا قلفة: فلا ختان عليه، وإن وجد من القلفة شيء يغطي الحشفة أو بعضها وجب قطعه كما لو ختن ختانا غير كامل. وقال بعض المالكية: إنه تجري عليه الموسى، فإن كان فيه ما يقطع قطع.

- ذهب الشافعية والحنابلة إلى القول: بأن وقت الوجوب هو ما بعد البلوغ، لأنه من أجل الطهارة وهي لا تجب قبل البلوغ، ويستحب الختان في الصغر إلى سن التمييز لأنه أرفق به، ولأنه أسرع برءا فينشأ على أكمل الأحوال. وقال الشافعية: يستحب في اليوم السابع. وقال الحنابلة والمالكية: المستحب ما بين العام السابع إلى العاشر من عمره، لأنها السن التي يؤمر فيها بالصلاة. وقال الحنفية: العبرة بطاقة الصبي، إذ لا تقدير فيه، فيترك تقديره إلى الرأي. وقال الحنفية والمالكية والحنابلة: يكره الختان في اليوم السابع، لأن فيه تشبها باليهود من أهل الكتاب.

- من مات وهو غير مختون، قيل: لا يختن لأنه تكليف وقد زال بالموت، ولأن المقصود منه التطهير من النجاسة وقد زالت الحاجة بالموت. وقال بعض الشافعية: يختن الكبير والصغير. وقال البعض الثال منهم: يختن الكبير ولا يختن الصغير، لأنه واجب على البالغ وغير واجب على الصغير.

- تستحب الوليمة للختان.

- خفض البنات واجب عند الشافعية، ومندوب عند المالكية، وعند الحنفية والحنابلة مكرمة وليس بسنة للحديث عن ابن عباس: " الختان سنة للرجال، مكرمة للنساء " وقال بعض الحنفية بأنه سنة ومستحب. ويكون بقطع ما يطلق عليه الاسم من الجلدة التي كعرف الديك فوق مخرج البول. والسنة فيه أن لا تقطع كلها بل جزء منها لحديث أم عطية أن امرأة كانت تختن بالمدينة فقال لها الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لا تنهكي فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى الزوج ».

- والسنة إظهار ختان الذكور وإخفاء ختان الإناث. وقال الشافعية: لا بأس بالوليمة في الأنثى للنساء فيما بينهن[1].

---

(١) الموسوعة الفقهية.وزارة الأوقاف.الكويت.ج١٩.ص٢٦- ٣١.

الفصل السادس

الرضاعة

الرضاعة في اللغة

اسم لمص الثدي لامرأة أو لحيوان، فيقال لمن مص ثدي بقرة أو شاة: أنه رضعها، فإذا حلب اللبن وشربه فلا يقال له رضعه، ولا يشترط في المعنى اللغوي أن يكون الراضع صغيرا.

الرضاعة شرعًا

وصول لبن امرأة إلى جوف طفل لم يزد عمره على حولين (٢٤: شهرا) ولا فرق بين وصول اللبن إلى الجوف عن طريق الفم بمص الثدي، أو بصبه في حلقه، أو إدخاله في أنفه، فمتى وصل اللبن إلى معدة الطفل أثناء مدة الحولين المذكورين بالشروط الآتية كان رضاعا شرعيا.

أما إن كان كبيرا زائدا على الحولين ورضع فإن رضاعه لا يعتبر، وذلك لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[١]

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

ولقول الرسول الأعظم ﷺ: « لا رضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الحولين »[1].

الأحكام الشرعيّة للرضاعة

وهذه أهم الآداب والأحكام الشرعية المتعلقة بالرضاعة، وهي:

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

- لبن الأم أفضل ما يرتضعه الطفل وأعظمه بركة عليه إن شاء الله تعالى، وللأم الحرة الأجرة على إرضاع الولد من ماله إذا كان له مال وإلا فمن مال الأب، لأنه من جملة النفقة الواجبة عليه. قول الله تعالى: ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] ومع موته من مال الرضيع إن كان له مال وإلا فمن مال من تجب عليه نفقته، ولا تجبر الأم على إرضاع الولد - بحسب المشهر لدى فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام - مع وجود الأب، أو وجود مال للولد، ووجود مرضعة غيرها مع القدرة على دفع الأجرة إليها أو تبرعها بالرضاعة أو أمكن إرضاعه اللبن وإن كان صناعيا أو أمكن أرضاعه غير اللبن مما يتقوت به. قال الله تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة. ج٤. ٢٥١.

(٢) البقرة: ١٣٣.

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۞ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[1]
ومع فقد الشرائط المذكورة يجب عليها الإرضاع، وإذا تبرعت الأم بإرضاع الولد أو طلبت من الأجرة عليه مثل ما يطلبه غيرها من المرضعات أو قل منه فهي أحق بإرضاعه من غيرها فلا يجوز للأب أن يسترضع سواها.

- حد الرضاع في السنة حولان كاملان (٢٤: شهرا) لا أقل ولا أكثر. وأقله أحد وعشرون شهرا، فإن نقص عن ذلك - لغير ضرورة - لم يجز، وكان جورا على الولد[2] ويجوز أن يزيد على الحولين - لاسيما مع الحاجة لمرض ونحوه - وقيده بعض الفقهاء بشهر أو شهرين. قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

- وإذا أراد الإنسان أن يسترضع لولده، يستحب أن يسترضع المرأة المسلمة العاقلة العفيفة ومضيئة الوجه، ولا يسترضع غير المسلمة، فإن أضطر إليها فليسترضع يهودية أو نصرانية وليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وتكون معه في منزله ولا يسلم الولد إليها لتحمله إلى منزلها، ولا يسترضع المجوسية إلا أن لا يجد غيرها من النساء، ولا يسترضع من ولد من الزنا مع الاختيار.

---

(١) الطلاق: ٦ - ٧.

(٢) الوسائل. ج١٥. ص ١٧٧.

(٣) البقرة: ٢٣٣.

(ب) في مدرسة الخلفاء

اتفق الفقهاء على وجوب إرضاع الطفل ما دام في حاجة إليه، وقال الشافعية والحنابلة: يجب على الأب استرضاع ولده ولا يجب على الأم الإرضاع وليس للأب إجبارها عليه، إلا إذا تعينت: بأن لم يجد الأب من ترضع له غيرها، أو لم يقبل الطفل ثدي غيرها، أو لم يكن للأب أو الطفل مال، فيجب عليها حينئذ. وقال الشافعية: يجب على الأم إرضاع الطفل اللباء (ما ينزل بعد الولادة من اللبن) وإن وجد غيرها، لأن الطفل لا يستغني عنه غالبا، وتحديد المدة بحسب أهل الخبرة. وقال المالكية: يجب الرضاع على الأم بلا أجرة إن كانت ممن يرضع مثلها (أي من سائر النساء اللواتي يرضعن أبناؤهن عادة) وكانت في عصمة الأب ولو حكما كالمطلقة الرجعية. أما المطلقة البائنة والشريفة التي لا يرضع مثلها فلا يجب عليها الرضاع، إلا إذا تعينت. واتفق الفقهاء: إن رغبت الأم في إرضاع ولدها أجيبت وجوبا سواء كانت في عصمة الأب أو مطلقة. وقال بعض الشافعية: للزوج منعها من الإرضاع سواء كان الولد منه أو من غيره. وقال الشافعية والحنابلة: يحق للأم طلب أجرة المثل بالإرضاع سواء كانت في عصمة الأب أم مطلقة منه. وقال الحنفية: إن كانت في عصمة الأب أو في عدته فليس لها طلب الأجرة وإلا حق لها طلب الأجرة، وإن طلبت الأم أكثر من أجرة المثل أو وجد الأب من ترضع له مجانا أو بأجرة المثل جاز للأب انتزاعه منها لأنها أسقطت حقها بطلبها ما ليس لها. وقال المالكية: إن كانت الأم ممن يرضع مثلها وكانت في عصمة الأب فليس لها حق طلب الأجرة بالإرضاع لأن الشرع أوجبه عليها فلا تستحق بواجب أجرة. أما الشريفة والمطلقة من الأب فلها طلب الأجرة وإن تعينت للرضاع أو وجد الأب من ترضع له مجانا[1].

---

(١) الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف. الكويت. ج٢٢. ص٢٣٨ - ٢٤١.

الفصل السابع

الحضانة

الحضانة في اللغة

هي الضمّ، أصلها من حضن الطير بيضه، أي ضمه تحت جناحيه، سميت بذلك: لضم الحاضنة المحضون إلى جنبها.

الحضانة شرعًا

حفظ من لا يستقل بأموره وتربيته بما يصلحه. والحاضنة للطفل قد تكون هي المرضعة وقد تكون غيرها. والحضانة واجبة شرعا لأن المحضون قد يهلك أو يتضرر بترك الحضانة، فحكمها:

- الواجب العيني: إذا لم يوجد إلا الحاضن أو وجد ولم يقبل الطفل غيره.
- والوجوب الكفائي عند تعدد الحاضن.

غاية الحضانة: وغايتها المحافظة على الطفل وصيانته وإمساكه عما يؤذيه وتربيته ورعاية مصلحته والقيام بشؤونه، وذلك بتعهد طعامه وشرابه وغسله وغسل

ثيابه ودهنه وتعهد نومه ويقظته وعمل ما يصلحه. قال الشهيد الثاني في المسلك عن الحضانة: « وهي بالانثى اليق منها بالرجل لمزيد شفقتها وخُلقها المعد لذلك ».

ولكل من الحاضن والمحضون حق في الحضانة، فصلها الفقهاء في كتبهم كل بحسب رأيه ومذهبه.

الأحكام الشرعية للحضانة

وهذه بعض الآداب والأحكام الشرعية المتعلقة بالحضانة، وهي:

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

- الحضانة للأم والأب ما لم يقع الطلاق، فإن طلقها فالأم أولى بحضانة الطفل: ذكرا أو أنثى، وتربيته والقيام بشؤونه إذا شاءت ذلك مدة الرضاع: سنتين كاملتين، فإذا خرج عن حد الرضاع: كان الوالد أحق به منها إذا كان الولد ذكرا، وإن كانت أنثى فالأم أحق بها إلى سبع سنين - هذا بحسب المشهور من أقوال الفقهاء - وقيل: الأم أحق بالولد مطلقا ما لم تتزوج، وقيل: أنها أحق إلى سبع سنين أو إلى تسع سنين ما لم تتزوج، فإن تزوجت كان الأب أحق، وقيل: تختص الأم بحضانة الطفل سنتين ذكرا كان أو أنثى، وبعدها يترك الأمر إلى اجتهاد القاضي ونظره، ليقرر انضمام الطفل إلى الأم أو الأب بعد السنتين على أساس مصلحة الطفل دينا ودنيا، وقيل: يكره للبنت مفارقة أمها إلى أن تتزوج. واتفق الفقهاء: إذا بلغ الطفل يكون له الخيار في الانضمام إلى من شاء من أبويه أو غيرهما أو الاستقلال بدون فرق بين الذكر والأنثى.

- شروط الحضانة: يشترط الفقهاء في الحاضن عدد من الشروط، وهي:

الحرية، والإسلام - إذا كان الولد بحكم المسلم - لأن غير المسلم لا سبيل له على المسلم، والعقل لأن غير العاقل في حاجة إلى من يحضنه، وعدم ظهور الفسق، والسلامة من الأمراض السارية (المعدية) والأمانة، والقدرة على رعاية الطفل وحفظ مصالحه. كل ذلك للمحافظة على الطفل: دينا ودنيا، فإذا اختل شيء من هذه الشرائط في أحدهما كان الآخر أحق بالحضانة إلى فترة البلوغ.

- أجرة الحضانة: فيه قولان:

القول (١): أن للأم أجرة على الحضانة غير أجرة الرضاع، وهو رأي صاحب الجواهر وآخرين.

القول (٢): ليس لها أجرة غير أجرة الحضانة، وهو رأي الشهيد الثاني في المسالك وآخرين، وبخاصة: إذا كانت واجبة عليها، حيث لم تجر العادة على الأجرة، ولم تكن الحضانة عملا للأب بالذات.

- الحضانة في حال فقد أحد الأبوين: إذا ماتت الأم قبل انتهاء حضانتها فالأب أولى من جميع الأقارب حتى أم الأم، وإذا مات الأب بعد أن انتقلت إليه الحضانة وكانت الأم على قيد الحياة عادت إليها الحضانة وكانت أحق بها من جميع الأقارب حتى الجد من الأب حتى لو تزوجت بأجنبي.

- الحضانة في حال فقد الأبوين معا: إذا فقد الأبوان معا تكون الحضانة إلى الجد من الأب. وإذا فقد الجد ولم يكن له وصي، فهي لأقارب الطفل على ترتب الإرث. ومع التعدد والتساوي يقرع بينهما، فمن خرجت القرعة باسمه كان أحق بالحضانة إلى أن يموت أو يعرض عن حقه.

- المشهور لدى الفقهاء: أن الحضانة حق وليست حكم شرعي، فيجوز لمن له الحق أن يسقطه، وقيل: أن حضانة الأب في مواردها حكم شرعي وليست

مجرد حق، فلا يسقط بإسقاطه[1].

(ب) في مدرسة الخلفاء

- أتفق الفقهاء: لو اختلعت الزوجة على أن تترك ولدها عند الزوج صح الخلع وبطل الشرط. والمشهور لدى المالكية: إذا أسقط الحاضن حقه في الحضانة دون عذر بعد وجوبها سقط حقه ولا يعود إليه الحق بعد ذلك لو أراد. وقال بعضهم: يعود إليه حقه لأن الحضانة حق المحضون.

- الحضانة تكون للنساء والرجال من المستحقين لها، إلا أن النساء يقدمن على الرجال لأنهن أشفق وأرفق وأهدى إلى تربية الصغار، ثم تصرف إلى الرجال لأنهم أقدر على الحماية والصيانة وإقامة مصالح الصغار.

- حضانة الطفل تكون للأبوين إذا كان النكاح قائما بينهما، فإن افترقا فالحضانة لأم الطفل باتفاق الفقهاء، واختلفت أقوال المذاهب في ترتيب مستحقي الحضانة بعد الأم ومن يقدم عند الاستواء في الاستحقاق مع مراعاة أن الحضانة لا تنتقل من المستحق إلى من بعده من المستحقين إلا إذا أسقط المستحق حقه في الحضانة أو سقطت منه لمانع، وأعتذر عن ذكر التفصيل لطولها.

- يشترط في الحاضن الذكر: الإسلام إذا كان الطفل مسلما. وقال الحنفية والمشهور لدى المالكية: لا يشترط الإسلام في الحاضنة الأنثى إلا أن تكون مرتدة لأنها تحبس وتضرب - كما يقول الحنفية - فلا تتفرغ للحضانة. وقال الحنفية: ما لم يعقل المحضون الدين أو يخشى أن يألف الكفر فإنه ينزع حينئذ منها ويضم إلى أناس من المسلمين. وقال المالكية: إن خيف عليه لا ينزع منها وإنما

---

(١) راجع كتاب: فقه الإمام جعفر الصادق. جواد مغنية. ج٥. ص٣١٢ - ٣١٦.

تضم الحاضنة لجيران مسلمين ليكونوا رقباء عليها. ويشترط البلوغ والعقل والقدرة على القيام بشأن المحضون، فلا حضانة لمن كان عاجزا لكبر سن أو مرض أو عاهة، إلا إذا كان لديهم من يعنى بالمحضون ويقوم على شئونه. وتشترط الأمانة في الدين فلا حضانة لفاسق، والمراد الفسق الذي يضيع المحضون به كالاشتهار بشرب الخمر والسرقة والزنى واللهو المحرم، أما مستور الحال فتثبت له الحضانة. ويشترط ألا يكون بالحاضن مرض معد أو منفر يتعدى ضرره إلى المحضون كالايدز والجذام والبرص وشبه ذلك. ويشترط أن يكون محرما للمحضونة إذا كانت المحضونة أنثى مشتهاة، فلا حضانة لابن العم لأنه ليس محرما، ولأنه يجوز له نكاحها فلا يؤتمن عليها. فإن كانت المحضونة صغيرة لا تشتهى ولا يخشى عليها فلا تسقط حضانة ابن عمها. وقال الشافعية والحنابلة: إذا لم يكن للمشتهاة غير ابن العم وضعت عند أمينة يختارها ابن العم. وأجاز الشافعية أن تضم لابن عمها إذا كانت له بنت يستحي منها فإنها تجعل عنده مع بنته. وقال الحنفية: إذا لم يكن للمشتهاة غير ابن العم وضعت عند أمينة يختارها القاضي إذا لم يكن ابن عمها أصلح لها وإلا أبقاها القاضي عنده. وقال المالكية: يسقط حق الحاضنة لغير المحرم. واشترط المالكية لثبوت الحضانة للذكر أن يكون عنده من النساء من يصلح للحضانة كزوجة أو امة أو مستأجرة أو متبرعة. ويشترط في الحاضنة ألا تكون متزوجة من أجنبي من المحضون. وقال الحنفية والشافعية والحنابلة: تسقط الحضانة من حين العقد. وقال المالكية: تسقط الحضانة من حين الدخول، واستثنى المالكية حالات لا يسقط فيها حق الحاضنة بتزوجها بأجنبي، منها: أن يعلم من له حق الحضانة ويسكت سنة، وألا يقبل المحضون غير مستحقة الحضانة، وألا يكون للمحضون غير الحاضنة أو يكون له حاضن غير مأمون أو عاجز، وألا تكون الحاضنة وصية على المحضون. واشترط الشافعية والحنابلة: أن يكون من نكحته ممن له حق في الحضانة. وقال الشافعية: يشترط رضا الزوج. وقال الحنفية والمالكية: أن تكون الحاضنة ذات رحم محرم من

المحضون فلا حضانة لبنات العم والعمة والخال والخالة. وقال الشافعية: لا تثبت الحضانة لبنت العم على الذكر المشتهي. وقال الحنفية والمشهور لدى المالكية: يشترط ألا تقيم الحاضنة في بيت من يبغض المحضون ويكرهه. وقال الشافعية: ألا تمتنع الحاضنة عن إرضاع الطفل إذا كانت أهلا له وكان محتاجا للرضاع.

- وعن مكان الحضانة قال الفقهاء عموما: أن مكان الحضانة للأم المطلقة أو غيرها هو البلد الذي يقيم فيه والد المحضون أو وليه لأن للأب حق رؤية المحضون والإشراف على تربيته. وفرق جمهور الفقهاء بين سفر الحاضنة أو الولي للسكن في مكان آخر وبين السفر لحاجة كالتجارة والزيارة على تفاصيل اعتذر عن نقلها لطولها.

- وقال الشافعية والحنابلة: أن للحاضنة الحق في طلب أجرة على الحضانة سواء كانت الأم أو غيرها، لأن الحضانة غير واجبة على الأم ولا تجبر عليها، ومؤنة الحضانة تكون من مال المحضون إن كان له مال وإلا فمن مال من تلزمه نفقته. وقال الحنابلة: للأم أجرة المثل حتى مع وجود متبرعة بالحضانة. وقال الشافعية: للأم أجرة المثل ما لم توجد متبرعة أو من تقبل بأقل من أجرة المثل. وقال الحنفية: إذا كانت الحاضنة أما في عصمت الأب أو معتدة رجعية منه فلا تستحق أجرة على الحضانة لوجوب ذلك عليها، أما إذا كانت غير الأم أو أما مطلقة وانقضت عدتها أو في عدة الطلاق البائن فإنها تستحق أجرة على الحضانة من مال المحضون إن كان له مال وإلا فمن مال من تلزمه نفقته. وقال المالكية: لا أجرة على الحضانة.

- وعن أجرة مسكن الحضانة قال بعض الحنفية: على الأب سكنى الحاضنة. وقال بعضهم: لا تجب في الحضانة أجرة المسكن. وقال البعض: تلزم أجرة المسكن إذا لم يكن لها مسكن، وأما إذا كان لها مسكن يمكنها أن تحضن فيه

الطفل، ويسكن تبعا لها فلا تجب أجرة السكن لعدم احتياجه إليه.

- وعن مدة الحضانة قال الحنفية: أن حضانة النساء على الذكر تنتهي بسبع سنين. وقيل: بتسع سنين. والحضانة على الأنثى للأم أو الجدة تنتهي بالبلوغ، ولغير الأم والجدة تنتهي بتسع سنين، ثم يضم المحضون إلى الأب، وتظل ولاية الأب على الذكر إلى البلوغ، فإذا بلغ وأصبح مستغنيا برأيه مأمونا عليه يخير بين المقام مع وليه أو مع حاضنته أو الانفراد بنفسه، والأنثى إذا كانت ثيبا أو بكرا طاعنة في السن ولها رأي فإنها تخير كما يخير الغلام. وقال المالكية: أن حضانة النساء على الذكر تستمر إلى بلوغه وعلى الأنثى إلى زواجها. وقال الشافعية: تنتهي الحضانة بالتمييز للذكر والأنثى وذلك بسبع أو ثمان سنين غالبا، ثم يخير بين أبيه وأمه ويدفع لمن يختار، وله أن يعود عن اختياره مرارا وتكرارا وفي كل مرة يدفع لمن يختار، إلا إذا شخص أن السبب قلة التمييز، فإنه يلغى اختياره ويجعل عند الأم، وإن امتنع المحضون عن الاختيار فالأم أولى لأنها أشفق وقيل يقرع بينهما، وتبقى الولاية لمن بقي عنده إلى البلوغ، فإن كان ذكرا رشيدا مستغنيا برأيه مأمونا ولي نفسه والأولى أن لا يفارق والديه ليبرهما. أما الأنثى فلها أن تسكن حيث تشاء ولو بأجرة ما لم تكن هناك ريبة والأولى أن تبقى عندهما إن كانا مجتمعين أو عند احدهما إن كانا مفترقين لأنه أبعد عن التهمة، وإن كانت هناك ريبة فللأم إسكانها معها وكذا للولي من العصبة إسكانها معه إذا كان محرما لها، وإلا يسكنها في موضع لائق بها ويلاحظها دفعا لعار النسب. وقال الحنابلة: تنتهي الحضانة بسبع سنين للذكر والأنثى، ويجوز للأبوين أن يتفقا على أن يكون الذكر عند احدهما، وإن تنازعا وكان كلا منهما أهل للحضانة يخير بينهما ويدفع لمن يختاره منهما، وله أن يعود عن اختياره مرارا وتكرارا ويدفع في كل مرة لمن يختار، وإن لم يختر احدهما أو اختارهما معا أقرع بينهما. أما الأنثى فإنها تدفع وجوبا إلى الأب بعد السنين السبع إلى الزواج.

- واتفق الفقهاء على أن لكل من الأبوين حق رؤية المحضون وزيارته وذكروا تفاصيل لذلك تطلب من مضانها[1].

(١) الموسوعة الفقهية.وزارة الأوقاف الكويت.ج١٧ .ص٢٩٩- ٣١٨. الفقه على المذاهب الأربعة.ج٤. ص٥٩٤- ٦٠٣.

البَابُ الثَّالِثُ

« مراحل حياة الإنسان »

الفَصْلُ الأَوَّلُ: مراحل حياة الإنسان على ضوء القرآن الكريم

الفَصْلُ الثَّانِي: مراحل حياة الإنسان على ضوء علم النفس

الفَصْلُ الثَّالِثُ: العوامل المؤثّرة في النموّ

الفَصْلُ الرَّابِعُ: برّ الوالدين

الفصل الأول

مراحل حياة الإنسان على ضوء القرآن الكريم

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[2].

بيان المفردات

يخرجكم طفلا: خرج: برز وترك مكانه، وخرج عليه: برز لقتاله، وخرج الشعب على

---

(١) غافر: ٦٧.

(٢) الحج: ٥.

الحاكم: تمردوا عليه، وأخرج الشيء: جعله يخرج، واستخرجه: استنبطه وطلب خروجه، وخرج المسألة: بين لها وجها، والمخرج: مكان الخروج، ويوم الخروج: اليوم الذي يخرج فيه الناس للحساب والجزاء وهو يوم القيامة، والطفل: الصغير من كل مولود (ذكرا أو أنثى) والجمع: أطفال.. والمراد: تولدون أطفالا صغارا بعد تمام الأجل المسمى في أرحام أمهاتكم، لتبدءوا مراحل تطور وعهد جديد من الحياة على وجه الأرض بإمكانيات واسعة جدا.

يقول العلامة السيد قطب: « ويا للمسافة بين الطور الأول والطور الثاني! إنها في الزمن – تعادل في العادة – تسعة أشهر، ولكنها أبعد من ذلك جدا في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل. النطفة التي لا ترى بالعين المجردة، وهذا المخلوق البشري المعقد المركب، ذو الأعضاء والجوارح، والسمات والملامح، والصفات والاستعدادات، والميول والنزعات. إلا إنها المسافة التي لا يعبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعا أمام آثار القدرة مرات ومرات »[(١)].

لتبلغوا أشدكم: بلغ: وصل، وبلغ الطفل الحلم: أدرك البلوغ، والحجة البالغة: الدليل المقنع، والقول البليغ: الفصيح المعبر بوضوح عن المقصود، ومبلغ علمه: نهاية علمه، والشديد: القوي والشجاع، والجمع: أشداء، والأشد: الأكمل عقلا وجسما، وبلغ أشده: قوي ونضج عقله وجسمه.. والمراد: تكبروا شيئا فشيئا برعايته لكم، لتبلغوا شبابكم وكمال قوتكم الجسمية والعقلية والنفسية، فيتبدل الجهل إلى علم، والضعف إلى قوة، والتبعية إلى الاستقلال وحرية التفكير والاختيار، حيث يحرز الإنسان في هذه المرحلة من العمر، أكبر قدر ممكن من القوة الجسمية وتكامل القوة العقلية العامة، وليس القدرات الخاصة التي تستمر في النمو والتكامل إلى آخر مراحل عمر الإنسان، ما لم يطرأ عليه طارئ يوقف تقدمه الطبيعي في الحياة.

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٤١٠.

لتكونوا شيوخا: الكون: الحدوث والوجود بأسره، وكون الشيء: ركبه بالتأليف بين أجزائه، والمكان: الموضع والمنزلة، والمكانة: أقصى المستطاع، والشيخ: كبير السن والذي ظهر عليه الشيب وذو المكانة من العلم والفضل والرئاسة ونحوها، والجمع: شيوخ وأشياخ، وتشيخ: تكلف الشيخوخة، والشياخ: الشيخوخة المبكرة، والشياخة: منصب الشيخ وموضع عمله.. والمراد: يبقيكم لتبلغوا سن الشيخوخة، حيث يبدأ الرجوع إلى الوراء، فيصاب الإنسان بالضعف بصورة تدريجية بعد القوة، كالثمرة حينما تبلغ مرحلة النضج والانفصال عن الشجرة، لتسقط وتغادر الحياة.

ومنكم من يتوفى من قبل: الوفاة: الموت، وأوفى: أشرف وزاد، ووافى: أدراك ولاقى، واستوفى حقه: أخذه كاملا، والقبل من كل شيء: مقدمه، ومن الرجل والمرأة: العورة، وقبل: ظرف للزمان والمكان السابق وضد بعد.. والمراد: منكم من يأتيه الموت قبل الشباب والشيخوخة، حيث الانتقال إلى العالم الآخر.

لتبلغوا أجلا مسمى: البلوغ سبق معناه، والأجل: غاية الوقت والمدة المحددة للشيء، والجمع: آجال، وأجل الشيء: أخره عن موعده وضرب له موعدا محددا فهو مؤجل وهي مؤجلة، وجاء أجله: حان موته، والمسمى: المعلوم والمعين.. والمراد: لتعيشوا وقتا محدودا ينتهي بانقضاء الأجل عند الموت للأفراد، وبيوم القيامة لجميع الناس، وهو أجل مقدر ومعلوم لدى الله عز وجل، لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون، فلا سبيل إليه للتغيير.

لعلكم تعقلون: لعل: حرف مشبه بالفعل ينصب الاسم ويرفع الخبر ويأتي للترجي والاستفهام، وعقل الشيء: أدركه على حقيقته وميزه عن غيره، والعقل: القلب وما يكون به التفكير والاستدلال ونحوه.. والمراد: برجاء أن تدركوا بقوة التعقل المغروزة فيكم من خلال ذلك دلائل الحق والحكمة والعبر، فتؤمنوا وتتحركوا في الاتجاه الصحيح وتبلغوا الهدف المطلوب من الحياة على وجه الأرض.

في ريب من البعث: الريب: الشك والظن والقلق والتهمة، والمريب: الموقع في الحيرة والشك والقلق والتهمة، وارتاب: شك وظن، وريب المنون: الموت لأن وقته مجهول وحوادث الدهر وصروفه المهلكة، وبعث: أرسل، وبعثه: أيقظه وحمله على فعل الشيء وأرسله، والباعث: السبب، والمبعوث: المرسل، وبعث الموتى: أحياؤهم، ويوم البعث: يوم القيامة.. والمراد: إن كنتم في شك من حدوث البعث، وهو إحياء الموتى والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

لنبين لكم: بين وأبان: اوضح، واستبان: استوضح وعرف، والمستبين: الواضح والظاهر والبالغ النهاية في البيان، والبيان: التعبير عما في النفس بمنطق واضح صريح والقدرة على فهم بيان الغير، والبينة: كل ما يبين الشيء ويوضحه حسيا وعقليا، والجمع: بينات.. والمراد: لنوضح لكم من الحقائق التي تلمسونها في حياتكم وترونها بأم أعينكم، ما يدل على كمال قدرتنا في ابتداء الخلق، لتستدلوا منها على أن البعث أمر ممكن الحدوث، بل هو مؤكد الحدوث فعلا، وليس ضربا من الخيال.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾(١).

فيزول عنكم الشك في حدوث البعث والحساب يوم القيامة.

نقر في الأرحام ما نشاء: القرار سبق معناه، والرحم: مستودع الجنين في أحشاء المرأة، والجمع: أرحام، وذوي الأرحام: الأقارب، وصلة الرحم: البر بالأقارب، وشاء: أراد وقدر، والمشيئة: الإرادة.. والمراد: نقيم ونثبت ونمكن في الأرحام ما نشاء من الأجنة، حيث تمر بمراحل نموها وتكاملها.

---

(١) الحج: ٧.

إلى أجل مسمى: سبق بيان معاني الألفاظ.. والمراد: مدة الحمل، وهو قد يكون لستة شهور (أقل الحمل) وقد يكون لتسعة شهور (أكثر الحمل بحسب العادة) وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله عز وجل إقراره، فيسقط ويخرج من الأرحام ميتا قبل حين الولادة التامة.

من يرد إلى أرذل العمر: يرد: يصرف ويرجع، ورذل: قبح وذل وصار خسيسا يستحق الاحتقار فهو رذل وأرذل، والجمع: أراذل ورذلاء وأرذلون، والراذل: الرديء من كل شيء، والرذيلة: ضد الفضيلة، والجمع: رذائل، وأرذل العمر: آخره حيث يكبر الإنسان ويصاب بالعجز والضعف والخرف، والعمر: مقدار الحياة التي يعيشها الإنسان في الدنيا، والجمع: أعمار، وعمّر: عاش زمنا طويلا.. والمراد: يترك الله جل جلاله الإنسان في الحياة حتى يصل إلى أخس العمر وأحقره إذا قيس بما قبله من مراحل حياة الإنسان وعدم الرغبة فيه. قول الله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾[1].

والمقصود به الشيخوخة المتقدمة جدا، حيث الهرم والعجز والضعف في الجسم والعقل والذاكرة، إلى درجة الخرف والانفعال والغضب لأتفه الأسباب، وعجز الإنسان عن القيام بحاجاته الأولية في الحياة.

لكي لا يعلم من بعد علم شيئا: سبق بيان معاني الألفاظ.. والمراد: تضعف حواسه وقواه العقلية ومشاعره، فإذا هو بعد العلم والوعي والرشد والاكتمال، يصبح كالطفل في عواطفه وانفعالاته: حاد المزاج، سريع الانفعال: يغضب ويبكي لأتفه الأسباب، ويفرح ويرضى لأتفه الأسباب، وكالطفل في ذاكرته وعلمه ووعيه وتدبيره وعدم قدرته على الفهم والتحصيل، حتى يصبح لا يعلم شيئا يعتد به في إدارة حياته وتدبير شؤونه مما كان قد تعلمه في المراحل السابقة من عمره. قال الله

---

(١) يس: ٦٨.

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[1] واللفظ (شيئا) يدل على المبالغة للدلالة على انتقاص العلم والمشاعر لديه (أنفس محصول الحياة) وانتكاس الحال (النقوص) ليعود إلى ما كان عليه في مرحلة الطفولة.

ترى الأرض هامدة: رأى: نظر بالعين، ورأى رأيا: اعتقده بالعقل، والرؤيا: ما يراه النائم في المنام والإبصار بحاسة البصر (العين) ويراءون الناس: يتظاهرون بما ليس فيهم من الخير والصلاح والطاعة والعبادة، والأرض: الكوكب السيار الذي يدور حول الشمس ضمن المجموعة الشمسية التابعة للمجرة المعروفة بسكة التبانة والذي يعيش عليه الإنسان وقد استخلفه الله فيها، وهمد الشيء: خمد وضعف ومات، وهمدت الأرض: جفت من المطر وأصبحت يابسة لا نبت فيها ولا حياة فهي هامدة، وهمدت النار: انطفأت وذهبت حراراتها، وهمد صوته: سكت على ما يكره، وأهمد في المكان: استقر وأقام فيه، والنبات الهامد: اليابس، والجثة الهامدة: جثث الميت، والهامد: البالي المسود المتغير والنبات اليابس والأرض التي لا نبات فيها وكل جسم فاقد للنشاط، والجمع: هوامد، والهامدة: الثمرة الناضجة والمتعفنة ودرجة بين الحياة والموت وحالة الأرض قبل الماء الذي هو العنصر الأصيل في الحياة وعملية الإحياء، والجمع: هامدات، والهمدة: السكتة.. والمراد: ترى الأرض بأم عينك يابسة مجدبة لا نبات فيها ولا حياة.

اهتزت وربت: اهتز: تحرك، وهز الشيء: حركه بشيء من القوة، واهتزت الأرض: أخصبت وانبتت، وربت: نمت وزادت وصلحت، وربت الأرض: نبضت بالحياة وعلتها بهجت الحياة وزاد خيرها وزادت بركتها بالنبات.. والمراد: تحركت وتفاعلت مع الماء حتى أخصبت وانبتت صنوف الزرع من شجر ونحوه، وهذه صورة أخرى

---

(١) الروم: ٥٤.

من صور الحياة التي تنطلق من صلب الموت، حيث يتحول التراب الميت إلى قوة خضراء نامية تزهو بالحياة.

وقد سجل العلم الحديث: أن الأرض حين ينزل عليها الماء، فإنها تتحرك حركة أهزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتزيد ثم تنتفخ بالحياة ويتولد منها النبات.

أنبتت من كل زوج بهيج: نبت الزرع: نشأ وظهر من الأرض، وأنبتت الأرض: أخرجت النبات أو صارت ذات نبات، والنبات: ما تخرجه الأرض من شجر ونحوه، والزوج: البعل والقرين وكل شيء معه آخر من جنسه وضد الفرد فهما زوجان وهو زوج وهي زوجة، وأزواجا: ذكرا وأنثى أو سالب وموجب ونحوه من كل شيء، وإذا النفوس زوجت: عادت الأرواح إلى أجسادها بالبعث يوم القيامة، وبهج الشيء: حسن ونضر فهو بهيج وهي مبهاج، وأبهجه: أفرحه وسره، والبهيج: شديد الحسن والجمال، والبهجة: النضارة التي تسر النفس بجمالها وظهور الفرح والسرور.. والمراد: ظهر في الأرض أزواجا من الزرع من شجر ونحوه مما يتصف بالحسن والجمال الشديد والنضارة التي تسر النفوس بجمالها الخلاب.

وقد أثبت العلم الحديث أن النبات كالحيوان أزواجا، وهذا يدل على أن الأرض كالرحم لديها الاستعداد لاستقبال الحياة بإذن الله تبارك وتعالى.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتناول الآية الشريفة المباركة طوري خلق الإنسان الأول والثاني: الخلق من تراب والخلق من نطفة على نحو الإجمال، ثم تشير إلى بعض مراحل النمو والتكامل في الطور الثاني في داخل الرحم، لتنتقل بعد ذلك إلى مراحل النمو والتكامل في حياة الإنسان الطبيعية بعد الولادة حتى الموت، وهي:

المرحلة (١): الطفولة.

المرحلة (٢): الشباب.

المرحلة (٣): الكهولة.

قول الله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[١].

المرحلة (٤): الشيخوخة.

فتكون الآيات الشريفة المباركة قد تناولت من البداية وحتى النهاية مراحل نمو وتكامل خلق الإنسان:

- طور الخلق من تراب.
- وطور الخلق من نطفة.
- ومراحل نمو وتكامل الإنسان على وجه الأرض بعد الولادة.

ويدل سياق الآيات الشريفة المباركة: على أن الإنسان يمتلك استعدادا أصيلا يسير به نحو الأكمل والأفضل من أجل تحقيق غاية محددة، ما لم يقف في طريقه ما يصده عن السير نحو هذا الهدف الأكمل، ويحرف مسيرته إلى غير وجهتها العظيمة الشريفة السامية.

حقائق أساسية تتضمنها الآيات الشريفة المباركة

وتتضمن الآيات موضوع البحث مجموعة حقائق أساسية، منها:

الحقيقة (١): أن خلق الإنسان يمر بأطوار ومراحل، وكذلك نموه على الأرض بعد

---

(١) آل عمران: ٤٦.

الولادة، وكما تختلف أطوار ومراحل الخلق في الخصائص والصفات، كذلك تختلف مراحل نمو الإنسان على الأرض في الخصائص والصفات، فخصائص وصفات مرحلة الطفولة غير خصائص وصفات مرحلة الشباب، وخصائص وصفات مرحلة الشباب تختلف عن خصائص وصفات مرحلة الكهولة، وهكذا.

إلا أنه يوجد فارق نوعا ما بين المراحل التي يمر بها الإنسان في نموه وتكامله في داخل الرحم، وبين المراحل التي يمر بها في نموه وتكامله بعد الولادة حتى الشيخوخة.

ففي نمو الإنسان وتكامله في داخل الرحم:

- توجد حركة كيفية مدهشة، ترافقها طفرات سريعة تنقله من حال إلى حال آخر مختلف ومتباين معه.
- ولا يوجد دور اختياري أساسي للإنسان في نمو الجنين وتكامله، سوى ما يتعلق بالغذاء والمحافظة على صحة الأم وسلامتها.

ولهذا عبر القرآني عن جميع المراحل التي يمر بها الجنين في الرحم بالخلق.

أما بعد الولادة:

- فإن حركة النمو تدريجية.
- وتأخذ التغيرات في الغالب شكل التكامل الكمي.
- وأن الله جل جلاله قد أعطى الإنسان غريزة حب البقاء، ومهد له سبل الحياة، ويتحمل الإنسان بعد ذلك كامل المسؤولية في المحافظة على صحته وسلامة حياته.

وهذا يعني وجود دور رئيسي للإنسان ومسؤولية يتحملها في المحافظة على حياته.

ولهذا عبر القرآن بعبارات مختلفة، مثل: لتبلغوا، ولتكونوا، إشارة إلى ما يتمتع به الإنسان من حرية الإرادة والاختيار في هذه المراحل وما يتحمله من المسؤولية عن تنشئة نفسه والمحافظة على حياته.

الحقيقة (٢): أن حياة الإنسان على وجه الأرض مؤقتة وليست دائمة، ويدل على ذلك التغيرات التي يمر بها الإنسان والعالم بأسره، مما يدل على نهايته قطعا، فكل متغير حادث، وكل حادث يزول ولا يبقى إلى الأبد إلا بإذن الله الذي يمده بالبقاء.

ثم إن آجال الأفراد على وجه الأرض ليست بمعدل واحد، فهناك من يموت في رحم الأم قبل الولادة، وهناك من يموت في مرحلة الطفولة، وهناك من يموت في مرحلة الشباب، وهناك من يموت في مرحلة الكهولة، وهناك من يموت في مرحلة الشيخوخة، وهناك من يبلغ أرذل العمر، حتى أنه لا يعلم من بعد علم شيئا، والأسباب ليست واحدة في جميع ذلك، وبعضها يعود لإرادة الإنسان واختياره: (بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة) وبعضها خارج عن إرادته تماما. فالحالة:

- ترتبط بإرادة الله سبحانه وتعالى وتقديره، قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ ﴾[١].

- ويتحمل الإنسان بعض من المسؤولية (المباشرة وغير المباشرة) عما يصيبه في حياته، حيث أن له دور أساسي في المحافظة على صحته وسلامة حياته، مما يؤثر قطعا في طور عمره أو قصره.

- ويتحمل الوالدان بعض المسؤولية (المباشرة وغير المباشرة) عن صحة الأجنة في أرحام الأمهات والأطفال وحفظ حياتهم.

- كما تتحمل الدول المسؤولية العامة عن صحة مواطنيها والمحافظة على

---

(١) الرعد: ٤١.

أمنهم وحياتهم بوجه عام.

الحقيقة (٣): أن اختلاف الأطوار والمراحل المدهشة في خلق الإنسان وحياته على وجه الأرض، هو دليل حاسم على قدرة الخالق (مبدئ عالم الوجود) المطلقة وحكمته وألطافه ومواهبه في الخلق وحسن تدبيره، وهو دليل قطعي على البعث والحساب يوم القيامة، فمن قدر على خلق الإنسان من التراب والنطفة، وألبسه لباسا جديدا من الحياة بعد الموت في الحالتين: (الخلق من التراب والخلق من النطفة) ففي كلاهما بعث الحياة من التراب، ثم تربيته بالطريقة الحكيمة، حيث ينقله من حال إلى حال بصورة تدريجية، رغم ما بين تلك الأحوال من المخالفة والتباين، فهو قادر قطعا على أن يمنح الحياة للموتى ويبعثهم للحساب في يوم القيامة، بل هو أهون عليه – بحسب القياس في تقدير البشر إذا لجأنا إليه – فإن إعادة الحياة أيسر من إنشاء الحياة أول مرة، وإن كانت قدرته بحسب الحقيقة مطلقة لا تتفاوت فيها النسب، فلا شيء أصعب أو أيسر في قدرته من شيء آخر.

قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[١].

ومن جهة ثانية: فإن الحكمة المتجلية في الخلق والتدبير دليل قطعي على الغائية أو الهدفية في الخلق.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٢].

فالإنسان لم يخلق عبثا ولا جزافا، لأن الحكمة المتجلية في الخلق والتدبير، تدل على القصد والإرادة الحرة الواعية، التي هي نقيض العبثية والجزاف في

(١) الروم: ٢٧.

(٢) ص: ٢٧.

الخلق، وتستحيل معها العبثية والجزاف في الفعل، مما يدل قطعا على أن الإنسان لم يخلق عبثا ولا جزافا، وإنما خلق لهدف وغاية حكيمة، وأن تلك الغائية أو الهدفية لا تتحقق إلا من خلال البعث والحساب على الأعمال، لأن هذه الحياة القصيرة المملوءة بالآلام والأحزان والظلم والتجني وخيبة الآمال وغيره، ليست جديرة بأن تكون الهدف الأخير لخلق الإنسان الذي أكرمه الله عز وجل بأن نفخ فيه من روحه، وفضله بالعقل والاختيار وعلمه الأسماء التي لا تعلمها الملائكة المقربين، مما يثبت بالدليل الذي لا يقبل الشك البعث والحساب.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

وبهذا يثبت من خلال أطوار ومراحل الخلق وحياة الإنسان على وجه الأرض، ركنان عقائديان أساسيان في الإسلام، وهما: التوحيد والمعاد.

الحقيقة (٤): أن تقدير الأعمار بيد الله عز وجل، فمنه الحياة ومنه الممات، وتدبير ذلك بمشيئته على قدر معلوم لكل فرد بمقتضى علمه الشامل وحكمته البالغة واختياره الدقيق وحده لا شريك له بما يعود بالنفع والمصلحة على الإنسان نفسه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2].

فهو الذي حدد له قانون النمو والتكامل، وهيأ له أسباب الحياة على وجه الأرض، حتى يحين موعد أجله المسمى في أم الكتاب، فيأخذ روحه ويسترد أمانته، ولا يجري ذلك بمقتضى طبائع جسم الإنسان وقابلياته وإمكانياته ومؤهلاته الطبيعية المودعة فيه فحسب، ولا بعلم الإنسان واختياره.

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

(٢) فاطر: ١١.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾[1].

فمن الناس من يموت في رحم الأم، ومنهم من يموت في مرحلة الطفولة، ومنهم من يموت في مرحلة الشباب، ومن من يموت في مرحلة الكهولة، ومنهم من يموت في مرحلة الشيخوخة، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر.

مما يدفع الإنسان إلى التفكير والتأمل بدقة وعناية في حقيقة نفسه ونهاية أجله وما هو مقدر له، فيلجأ إلى الله عز وجل واهب الحياة ومقدر الموت على العباد جميعا بدون استثناء، ويشعره بالتواضع والخشوع لرب العباد ومن إليه مرجعهم، ويحذر من التكبر والمكابرة والعناد والاعتزاز بقوته ومقدرته وعلمه، حيث لا ينفعه ذلك بشيء إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، وإلا إذا كان في سبيله وحده لا شريك، وهكذا يصنع القرآني الكريم القلوب.

يقول العلامة السيد قطب في تفسير (الآية ١١ من سورة فاطر): « وإن تصور الأمر على هذا النحو ليوقظ القلب إلى تدبر هذا الكون بحس جديد، وأسلوب جديد، وإن القلب الذي يستشعر يد الله وعينه على كل شيء بمثل هذه الدقة ليصعب أن ينسى أو يغفل أو يضل، وهو حيثما تلفت وجد يد الله، ووجد عين الله، ووجد عناية الله، ووجد قدرة الله، متمثلة ومتعلقة بكل شيء في هذا الوجود »[2].

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن اختلاف الأحوال تدعو الإنسان إلى التفكر وعدم الغفلة، وهو دليل

---

(١) النحل: ٧٠.

(٢) الظلال. ج٥. ص٢٩٣٣.

على وجود ألاه قوى حكيم يختار ويحكم لا معقب لحكمه.

النتيجة (٢): أن بقاء الحياة على وجه الأرض لوقت محدد وتفاوت آجال الناس، مما يدعو الإنسان إلى:

- الإبقاء على العمل الصالح وعدم التقصير فيه.
- المسارعة إلى الاستغفار والتوبة النصوحة، وعدم التسويف والكسل فيها، لأن الإنسان لا يعلم بأجله، فقد يداهمه الموت في أية لحظة، في الليل أو النهار، في اليقظة أو النوم، بمرض أو بدونه، مع ظهور المقدمات ومع عدم ظهورها، فقد يداهم الموت فجأة شاب في ريعان شبابه وقوته، ويبقى الشيخ الكبير الهرم الضعيف العليل لسنوات طويلة جدا.

وهذا يدل على الحكمة الإلهية البالغة، لأنه أحد أهم أسباب صلاح حياة الإنسان: الفردية والمجتمعية، ولو ذلك: لرأينا التقصير في العمل، وللأت الجرائم شرق الأرض وغربها.

النتيجة (٣): أن الحكمة ليست في مبدأ التنوع في الآجال فحسب، وإنما في أجل كل فرد على حدة، فإن الله عز وجل يعلم بما فيه صلاح كل فرد على حدة، وأنه يختار له ويقدر ما فيه مصلحته.

ولا شك فإن هذه الحقيقة تعجز عقول كل البشر عن إدراك تفاصيلها، ولكن العقلاء يدركون العلم الإجمالي بها ويسلمون به، بل هو عندهم من الضروريات العقلية التي لا تقبل التخلف.

يذكر أن الفيلسوف الانجليزي برتراند راسل (١٨٧٢- ١٩٧٠) وهو من دعاة السلام الذين ناهضوا الحرب وسجنوا، وفي سنة ١٩٤٨م حينما كان في السادسة والسبعين من عمره، سافر في الطائرة من أوسلو إلى لندن، ولما قربت الطائرة من شاطئ النرويج، سألته المضيفة إن كان من الضروري أن يدخن؟ فقال

لها: إن لم أدخن فسوف أموت!! وكان يجلس في مقدمة الطائرة، فأشارت عليه أن يجلس في المؤخرة إذا أراد التدخين ففعل، وما أن أستقر به الجلوس حتى سقطت الطائرة في البحر، فغرق كل من كان مقدمتها، ونجا من في المؤخرة!!

وقد سبقت الإشارة عن مسؤولية الأفراد والدول عن الصحة والسلامة والحياة.

النتيجة (٤): أن لخلق الإنسان وتربيته ومراحل حياته على وجه الأرض غايتان مترتبتان، وهما:

- صورية أو شكلية: وهي بلوغ الأجل المسمى.
- معنوية حقيقية: وهي إدراك الحق والإيمان به، والتحرك في الاتجاه الصحيح في الحياة، وهذه هي غاية الغايات، والمقصودة بالذات (أصالته في الغرضية) من رب الأرباب سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علوا كبيرا، إذ عليه يدور التكليف المؤدي إلى السعادة والشقاء.

وعليه: يجب على الإنسان أن يتفكر في خلقه ومراحل حياته، وأن يستخلص منها العبر والحكم، ولا يكن شأنه شأن الحيوان، يأتي ويروح إلى المرعى، وهو لا يعي بما يدور حوله، حتى يُأخذ إلى المقصلة فتنتهي حياته، فإن حياة الحيوان ليس لها غاية أكثر من هذه.

أما الإنسان الذي أكرمه الله جل جلاله بالعقل والاختيار، فله غاية أكبر في الحياة، وهي كسب المعرفة، والتحلي بالفضائل، وعمل الخير والصالحات، والكدح في ذات الحق، لأن هذا هو زاده إلى الحياة الأخرى التي خلق من أجلها بحق وحقيقة، فهو لم يخلق لهذه الحياة الفانية، وإنما خلق للحياة الباقية التي تتناسب مع شأنه من السعادة والشقاء بحسب علمه وعمله.

بحث مختصر حول الآجال

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[1].

الآجال في اللغة

الآجال جمع أجل، والأجل في اللغة هو المدة المحددة للشيء.

وقضاء الأجل: يعني تعيين تلك المدة أو إنهائها.

والمؤجل: ما له موعد معين.

ويطلق الأجل: على الفرصة الأخيرة للشيء، فيقال جاء أجل الدين، أي حل آخر موعد لتسديده.

ويقال عن الإنسان في اللحظة الأخيرة من عمره جاء أجله، أي حان موعد موته.

الآجال في الاصطلاح

الأجل هو آخر ما ينتهي إليه وجود الأشياء، فالأشياء جميعها ترتبط بآجالها ارتباط الشيء بغايته.

والأجل المسمى ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ هو أجل ثابت غير متغير.

---

(١) الأنعام: ٢.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

ولهذا فالآجال تجذب الأشياء إليها، فالأشياء تحدد دائما بآجالها.

آجال الإنسان

وبخصوص الإنسان يمكن الحديث عن ثلاثة آجال:

- أجل الأفراد: وهو أجل محدود بين موعد خلق الفرد وموعد موته.

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2].

- أجل الأمم والشعوب: فحالها كحال الأفراد لها موت وحياة.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾[4].

ويرتبط موتها عادة: بانحرافها عن جادة الحق والعدل والصواب، وبانغماسها في الملذات والشهوات.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[5].

---

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) العنكبوت: ٥٧.

(٣) الأعراف: ٣٤.

(٤) الحجر: ٤ – ٥.

(٥) الإسراء: ١٦.

- أجل النوع الإنساني كله: ويمتد من خلق الإنسان الأول وحتى يحين موعد يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1].

فإذا حان الأجل المكتوب في علم الله جل جلاله، ستفنى الدنيا بما فيها.

والآجال كلها لا يعلم بحينها إلا الله سبحانه وتعالى، ولا سبيل للإنسان للعلم بها من خلال العلوم العادية، ويمكن أن يعلم الإنسان ببعضها من خلال الوحي.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[3].

وفي جميع الآجال: يقوم الله سبحانه وتعالى بتربية الإنسان وتدبير أمره - كل بحسب استعداده - إلى أن يحين موعد الأجل المحتوم.

وينقسم أجل الأفراد إلى نوعين:

النوع (١) الأجل غير المحتوم (غير المسمى): ويسمى بالأجل الموقوف والأجل المعلق، وهو الأجل القابل للتقديم والتأخير أو الزيادة والنقصان، فمن الممكن أن يطول عمر الإنسان عما هو مكتوب له في الأجل الموقوف لبعض الأسباب، كالدعاء

---

(١) الأحقاف: ٣.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) الأعراف: ١٨٧.

وعمل الصالحات والصدقات " بالصدقات تفسح الآجال " أو يقصر لأسباب أخرى كالظلم وقطيعة الرحم، ويسمى في الحالة الخيرة: بالأجل المخروم.

فالأجل الموقوف أجل مشروط يتعلق بالأسباب الناقصة (المقتضيات) التي يمكن اقترانها بموانع تمنع تأثيرها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « يعيش الناس بإحسانهم أكثر مما يعيشون بأعمارهم، ويموتون بذنوبهم أكثر مما يموتون بآجالهم »[1].

النوع (٢) الأجل المحتوم (المسمى عند الله سبحانه وتعالى في أم الكتاب): وهو الأجل الثابت الذي لا يقبل التغيير ولا التبديل ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[2] وهو يمثل الحالة الكاملة الفعلية التي يكون عليها الإنسان عنده موته، فهو يتعلق بمجموع العلل (العلة التامة) التي هي تمام ما يتوقف عليه الشيء في وجوده.

قول الله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « هما أجلان: أجل محتوم وأجل موقوف ».

وقال عليه السلام: « الأجل الذي غير مسمى موقوف يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء، وأما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل »[4].

والخلاصة: أن الأجل المحتوم (المسمى) هو الأجل الذي وضع في أم الكتاب وهو لا يقبل التغيير ولا التبديل. وأما الأجل غير المحتوم (غير المسمى) فهو

---

(١) البحار. ج٥. ص١٤٠.

(٢) النحل: ٩٦.

(٣) الرعد: ٣٩.

(٤) البحار. ج٥. ص ١٣٩.

الأجل المشروط وهو الأجل المكتوب في لوح المحو والإثبات، فهو يقبل التغيير: الزيادة أو النقصان.

يقول العلامة الطباطبائي: « فنسبة الأجل المسمى إلى الأجل غير المسمى نسبة المطلق المنجز إلى المشروط المعلق، فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذي علق عليه، بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل إلى عدم تحققه البتة »(١).

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الله عز وجل يكتب بقلم القضاء أجلا محددا لعمر الإنسان، وهو العمر الطبيعي للإنسان كأن يكون مائة سنة، إلا أن هذا الأجل يمكن أن يزيد أو ينقص لأسباب طبيعية وغير طبيعية.

- فإذا لم توجد هذه الأسباب: فإن الإنسان يقضي عمره الطبيعي المكتوب له بقلم القضاء في الحياة.

- أما إذا وجدت تلك الأسباب: كأن ينتحر أو يدمن المخدرات أو يمارس الظلم أو يقطع رحمه، فإن الله عز وجل ينقص من عمره الطبيعي المكتوب له بقلم القضاء. وفي حالة أخرى، كأن: يهتم بصحته ويتصدق على الفقراء ويصل رحمه ويسعى في قضاء حوائج الناس ويدعو الله عز وجل بإخلاص، فإن الله جل جلاله يزيد في عمره ويبارك له فيه.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا

---

(١) الميزان. ج٧. ص٩.

يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾[1].

النتيجة (٢): أن حالتي الزيادة أو النقصان في الأجل لأسباب طبيعية أو غير طبيعية، لا تعنيان أن تغيرا قد طرأ في علم الله سبحانه وتعالى، فعلم الله سبحانه وتعالى قد تعلق بالأشياء كلها منذ الأزل، وأن الأشياء بأجمعها كان لها تعين علمي في علم الله الأزلي، إلا أن العلم الإلهي يتعلق بالأشياء على ما هي عليه من جهة الإناطة بالمشيئة الإلهية المتعلقة بالأشياء، بحيث يكون وجودها بحسب المصالح والمفاسد التي تختلف باختلاف الظروف التي يحيط بها العلم الإلهي كلها. والحالات الثلاث للآجال:

- الأجل الطبيعي الموقوف.
- والأجل مع الزيادة.
- والأجل مع النقصان.

دليل على قدرة الله عز وجل على التصرف في خلقه، وأن العالم بأسره تحت سلطانه وقبضته، وأن إرادته نافذة فيه بعد الخلق يقدم ويؤخر ما يشاء، فهو قادر على أن يغير ما جرى عليه قلم القضاء، بخلاف عقيدة اليهود التي حكا عنها القرآن الكريم، والتي قالوا فيها: أن قلم القضاء حينما جرى على الأشياء في الأزل، استحال أن تتعلق المشيئة بخلافه، فقد فرغ من الأمر، فلا يمكن التغيير فيما جرى فيه القضاء بالزيادة أو النقصان، فقالوا: يد الله مغلولة عن القبض والبسط والأخذ والعطاء (تعالى الله سبحانه عن ذلك علوا كبيرا) قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾[2].

---

(١) فاطر: ١١.

(٢) المائدة: ٦٤.

النتيجة (٣): أن الحالات الثلاث للأجل توجب انقطاع العباد إلى الله جل جلاله، والتوجه إليه سبحانه وتعالى لأن يستجيب لهم الدعاء ويقضي حوائجهم، بالهداية وتوفيق الطاعة أو غير ذلك من المهام التي يتوجه بها العباد إلى الله عز وجل، وتعطي العباد فرصة الأمل بتغيير الحال من خلال الاستجابة للدعاء ولا يقع الإنسان في اليأس بسبب الاعتماد على الأسباب الطبيعية فحسب، وعقيدة غل يد القدرة عن القبض والبسط، وهذا مما يثبت دور سلامة العقيدة وقيمة الدعاء وأثره في الحياة، وإلا أصبح الدعاء في ظل عقيدة غل اليد الباطلة لغوا وعبثا ولا حاجة عملية وفعلية إليه.

وقد كثرت الروايات في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة الخلفاء: بأن الصدقة والدعاء يغيران القضاء.

قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار »(١).

أما قول الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٢) ففيه ثلاثة أقوال:

- أنه آجال الأمم والشعوب.

قول الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٣).

- أنه أجل النوع الإنساني والدنيا كلها الذي يتعلق بيوم القيامة.

---

(١) تفسير ابي السعود. ج٧. ص١٤٦.

(٢) الأعراف: ٣٤.

(٣) الأعراف: ٣٤.

- أنه الأجل المحتوم وهو الأجل المسمى في أم الكتاب.

النتيجة (٤): أن الأجل حصن حصين فلا يخاف الإنسان من الموت أو القدر، وهذا ما تضافرت عليه الآيات القرآنية وأحاديث الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[١].

وقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « كفي بالأجل حرزا، إنه ليس أحد من الناس إلا ومعه حفظة من الله يحفظونه أن يتردى في بئر، ولا يقع عليه حائط، ولا يصيبه سبع، فإذا جاء أجله خلوا بينه وبين أجله »[٣].

---

(١) آل عمران: ١٤٥.

(٢) آل عمران: ١٥٤.

(٣) البحار. ج٧٨. ص٦٤.

الفصل الثاني

مراحل حياة الإنسان على ضوء علم النفس

يقسم علماء النفس الوضعي مراحل نمو الإنسان وتكامله من الولادة وحتى نهاية الحياة الطبيعية بخمس مراحل، وذلك على أساس صفات معينة تظهر في كل مراحل من مراحل حياته.

المرحلة (١): الطفولة المبكرة

وتبدأ من تاريخ ميلاد الطفل وتستمر حتى نهاية السنة السادسة.

ويكون محور انفعالات الطفل في بداية المرحلة هو الجوع والنوم والإخراج، وهي حاجات جسمية أساسية، فهو يغضب بشدة وينفعل إذا لم تشبع تلك الحاجات، ويفرح ويبتهج في حالة إشباعها.

ويكون شديد التعلق بأمه، لأنها مصدر إشباع حاجاته الأساسية تلك، فيبكي إذا زجرته، ويفرح إذا ضمته إلى صدرها وأشبعته من العطف والحنان.

وبهذا تظهر لدى الطفل المعرفة بالأمور العاطفية بعد أن كان ينفعل لأسباب

جسمية فقط.

وبعد فترة يبدأ تدريجيا في التعلق ببقية أفراد الأسرة: الأب والإخوة، ثم تتسع دائرة علاقاته الاجتماعية لتشمل أفرادا آخرين من خارج الأسرة مثل الجيران والأصدقاء الذين يترددون بكثرة على الأسرة، ويرفض (غالبا) البقاء مع غيرهم.

ويستخدم الطفل حواسه كمنافذ أساسية للمعرفة، وهو يتعلم عن طريق ممارسة الأشياء وتجريبها.

فبعد الشهر الثالث:

- يحمل الطفل الأشياء إلى فمه، وهذه وسيلة للكشف والمعرفة.
- ويستطيع أن يتجاوب انفعاليا معِ الحالة النفسية لأمه صفاء أو حزنا.
- ويمد يده نحو الشيء الذي يقدم إليه ويمسكه بإرادته.
- ويبدأ البحث عن اللعبة الضائعة.

ثم يواصل تطوره الحسي والحركي وتطوره المعرفي والشعوري حتى نهاية مرحلة الرضاعة، التي تتميز بالإدراك الحسي، وعدم القدرة على التعلم الذي يتطلب قدرا من المهارة العقلية.

- فيتعلم في الشهر التاسع النطق ببعض الكلمات ويقوم بترديدها بحسب تشجيع المحيط الاجتماعي له.

- وفي السنة الأولى لا يحب مشاركة الأطفال له في لعبه، وبعدها يبدأ في التفاهم عند اللعب مع الأطفال الآخرين.

وتعتبر السنة الثانية البداية الحقيقية للعلاقات مع الغير.

- ففي بداية السنة الثانية يستطيع أن يبدي غيرته بحركة غضب أو بكاء.
- ويأتي بردود فعل تنافسية في لعبه مع الكبار.
- ويحاول تقليد حركات الكبار.
- ويتعلم الأكل بنفسه.
- ويبدي الرغبة في الرسم على الورق.

وفي نهاية السنة الثانية.

- يتعلم القفز والتسلق.
- ويستطيع أن يرسم دائرة على ورق.
- ويطور لغته.
- ويستخدم كلمة (أنا).
- ويبدأ بطرح الأسئلة.
- ويفهم ما يقال له.

وفي السنة الثالثة.

- يبدأ ظهور الإدراك الرمزي أو التخيلي أو التصويري.
- ويكون الطفل مستعدا لتلقي التعليم الذي يحتاج إلى قدرا من المهارة العقلية والتفكير الرمزي البسيط (العلاقة بين ظاهرة حسية وأخرى تجريدية) فهو قادر على تجاوز الظواهر الحسية، وإدراك بعض العلاقات المرتبطة بالزمان والمكان، مثل: الحاضر والماضي والمستقبل.
- وفيها يتكلم الطفل بشكل مفهوم.

- ويستحب تعليمه قولا: « لا إله إلا الله ».

وفي السنة الرابعة:

- يثب من على الأرض ويتوازن أثناء الوثب.

- ويتطور إدراكه الرمزي للظواهر، فيستطيع إدراك العلاقة بين ظاهرتين تجريديتين، وإدراك بعض المفاهيم التي لها استقلالية تامة وغير مرتبطة بظواهر معينة.

- ويكون قادرا على رسم مربعا ومثلثا، وربما يستطيع أن يرسم شكل إنسان له وجه وأطراف.

- ويستطيع أن ينصت إلى حكاية أو قصة قصيرة ويستطيع أن يعيد أحداثها الرئيسية.

- ويتميز خياله في هذه المرحلة بالخصوبة، فقد يتخيل نفسه بأجنحة وأنه قادر على الطيران، أو يتخيل العصا حمارا أو حصانا وغير ذلك.

- ويعتبر اللعب بالنسبة إلى الطفل في هذه المرحلة وسيلة للترفية ولتقوية عضلات الجسم، ووسيلة لتوثيق العلاقات الاجتماعية مع المحيطين به، فيكون اللعب أولا مع أفراد الأسرة، ثم مع الجيران والأصدقاء، ويلاحظ أن اللعب يتخذ في هذه المرحلة طابعا جماعيا، حيث يفضله الطفل على اللعب الفردي.

- ويستحب في هذه المرحلة تعليم الطفل قول « محمد رسول الله » وقول: « اللهم صل على محمد وآل محمد ».

وفي السنة الخامسة:

- يستطيع أن يتسلق الأشجار.

- ومن الناحية العقلية: تبدأ الفروق الفردية في النمو العقلي والقدرة على

التعلم بالظهور بين الأطفال.

- ويكون بعض الأطفال قادرين على دخول المرحلة الابتدائية للتعليم، إلا أنه لا يستطيع أن يجاري في عملية التعليم الأطفال في السنة السادسة أو السابعة، وينبغي أن يؤخذ ذلك بعين الاعتبار، في حال الرغبة في إدخاله إلى المدرسة الابتدائية.

- وعموما: يستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يميز بين شيئين « أيهما يمينك وأيهما شمالك » وأن يرسم شكل إنسان بصورة كاملة، ويبدأ يسأل عن الكلمات المجردة، وينطق الكلمات المطلوبة بطريقة صحيحة خالية من عيوب اللغة عند الأطفال الصغار.

- ويستطيع أن يفهم معاني الكلمات التي ينطقها.

- ويتسم تفكيره بالطابع شبه الواقعي.

- ويبدأ يفهم ما يحيط به، وتزداد حصيلته اللغوية تدريجيا.

- ويدفعه نضجه العقلي وحصيلته اللغوية إلى حب الاستطلاع والإكثار من الأسئلة في محاولة منه لمعرفة العالم المحيط به.

- ويستحب في هذه المرحلة طلب السجود منه لله عز وجل دون الصلاة التي يطالب بها في السنة السادسة.

وفي السنة السادسة:

- يبلغ الطفل المرحلة التي ترشحه أكثر لعملية التعليم.

ومن المناسب قبل أن انتقل إلى مرحلة الطفولة المتأخرة، ذكر نص عظيم للإمام الصادق عليه السلام يمكن لعلماء النفس والتربية الاستفادة منه في تحديد النماء العقلي لدى الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة، وما لديه من الاستعداد لاكتساب

المهارات في هذه المرحلة، إذ لا مثيل لهذا النص لدى علماء النفس الوضعيين حتى الآن.

يقول الإمام عليه السلام: « إذا بلغ الغلام ثلاث سنين، يقال له سبع مرات لا إله إلا الله، ثم يترك حتى يتم له ثلاث سنين وسبعة أشهر وعشرون يوما، فيقال له قل: محمد رسول الله صلى الله عليه وآله سبع مرات، ويترك حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له سبع مرات اللهم صل على محمد وآل محمد، ثم يترك حتى يتم له خمس سنين ثم يقال له أيهما يمينك وأيهما شمالك؟ فإذا عرف ذلك حول وجهه إلى القبلة، ويقال له اسجد، ثم يترك حتى يتم له ست سنين، فإذا تم له ست سنين صلى، وعلم الركوع والسجود، حتى يتم له سبع سنين، فإذ تم له سبع سنين، قيل له: اغسل وجهك وكفيك، فإذا غسلهما، قيل له: صل، حتى يتم تسع سنين، فإذا تمت: علم الوضوء وضرب عليه، وعلم الصلاة، وضرب عليها، فإذا تعلم الوضوء والصلاة غفر لوالديه »[1].

وهذا النص يحتاج إلى تحليل علمي، ألخصه في التالي:

- أن السنتين الأوليتين من عمر الطفل خالية من التدرب، وهذا يعني أنه غير قابل للتعليم الذي يتطلب قدرا من المهارة العقلية.

- يكون الطفل مرشحا لعملية التعليم مع بداية السنة الثالثة، وهذا يدل على بداية الإدراك الرمزي لديه، ويكون بين ظاهرتين: إحداهما حسية والأخرى تجريدية.

- فإذا بلغ من العمر: (٢٣٠: يوما) يكون قادرا على الإدراك الرمزي بين ظاهرتين تجريديتين.

- وعند بلوغه الرابعة يكون قادرا على الإدراك التجريدي المستقل، أي أنه

---

(١) الوسائل.ج١٥. ص١٩٣.

يستجيب لمفهوم له استقلاله، وليس لمفهوم يتطلب إدراك علاقة بين ظاهرتين.

- وفي السنة الخامسة تبدأ الفوارق الفردية في النمو العقلي ومدى تقبلهم للتعليم بالظهور بين الأطفال، ويكون التفاوت أكثر ظهورا في السنة السادسة، حيث يكون الطفل أشد قابلية للتعليم الجدي.

- ومع نهاية السنة السادسة يكون الطفل قد غادر مرحلة الطفولة المبكرة، ليدخل في مرحلة الطفولة المتأخرة، وهي بداية التعليم في المرحلة الابتدائية[1].

ومن المناسب أيضا التنبيه إلى فارق مهم جدا بين رأي علماء النفس الوضعيين وعلم النفس الإسلامي المستند إلى النصوص الدينية، حيث يعطي علماء النفس الوضعيين أهمية حاسمة لمرحلة الطفولة المبكرة في تكوين شخصية الإنسان، حتى قيل: " أن الإنسان ابن طفولته " حيث يتطبع سلوك الإنسان - بحسب رأيهم - في المراحل اللاحقة بما تطبع عليه في طفولته المبكرة. وهذا خلاف الواقع والوجدان ورؤية المشرع الإسلامي الذي أعطى هذه المرحلة صفة اللعب، وركز أكثر على مرحلة الطفولة المتأخر من ناحية التعليم والتربية، مما يدل على خطأ النظرية الوضعية - من وجهة نظر المشرع الإسلامي - التي تضفي على مرحلة الطفولة المبكرة أهمية تربوية حاسمة.

وهذا لا يعني انتفاء أية أهمية لعملية التعليم والتربية في هذه المرحلة، بمقدار نفي إعطائها حالة الحسم في تكوين الشخصية، والتأكيد على كون التعليم والتدريب في هذه المرحلة عنصرا ثانويا، وأن يكون التعامل مع الطفل متسقا مع طابعها العام (اللعب) ولهذا أكد المشرع الإسلامي على ضرورة رعاية الطفل وإشباع حاجته إلى العطف والحنان والتصابي معه في اللعب، وعدم تحميله ما لا يطيق من التعليم والتدريب، وذلك لعدم جدوى التعليم والتدريب في هذه الحالة،

---

(١) راجع كتاب: دراسات في علم النفس الإسلامي. البستاني. ص ٦٢ - ٧٠.

وذلك لانعدام القابلية، ولأنه قد يأتي بنتائج سلبية في شخصية الطفل.

وقد ذهبت بعض الآراء الحديثة في علم النفس إلى القول: بأن التدريب الصارم على الرضاعة والنظافة، يؤدي إلى ظهور العدوانية والعناد لدى الطفل، ويكون عرضة للشكوك والوساوس القهرية وغيرها.

فالمشرع الإسلامي يلتقي مع علماء النفس الوضعي على ضرورة التعامل مع الطفل بعطف وحب وحنان بدون مبالغة، فهو السبيل إلى السلوك السوي في الشخصية.

- فقد حذر المشرع الإسلامي من انعكاسات القسوة على حالة الطفل العقلية والنفسية وتعرضه للشذوذ وزرع النزعة العدوانية لديه.

- وأوصى بمراعاة المساواة بين الأطفال في الحب والحنان وعدم التمييز بينهم في ذلك، لكي لا تزرع الغيرة والنزعة العدوانية (الحقد والحسد) بينهم.

- كما حذر من التعامل معه بدلال مبالغ فيه، فيؤدي ذلك إلى زرع الأنانية وكراهية الآخرين في نفسه، الأمر الذي يترك في الحالتين: (القسوة والدلال) تأثيراته السلبية على بناء شخصيته في المستقبل، ولكن دون حد الثبات والحتمية، فيعطي الحالة فرصة التعديل استنادا إلى الوعي والتجارب الراشدة في المراحل المتقدمة من عمر الإنسان.

وقد أثبت الواقع أهمية الوعي والتجارب الراشدة في تعديل السلوك، وهذا ما أدركه بعض علماء النفس والتربية أخيرا، فقللوا من المبالغة في خطورة مرحلة الطفولة المبكرة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « من كان عنده صبي فليتصاب له »[١].

---

(١) الوسائل. ج١٥. ص٢٠٢.

وقال الصادق عليه السلام: « دع ابنك يلعب سبع سنين، وألزمه سبع سنين ».

وفي حديث آخر: « أمهل صبيك حتى يأتي له ست سنين، ثم ضمه إليك سبع سنين، فأدبه بأدبك »[1].

وقال: « أكثروا من قبلة أولادكم فإن لكم بكل قبلة درجة في الجنة »[2].

الصلاة على الطفل الميت

وإذا توفي الطفل المسلم في هذه المرحلة يصلى عليه صلاة الميت – بحسب مدرسة أهل البيت عليهم السلام – وذلك مرتبط بإدراكه للصلاة.

سئل الإمام الباقر عليه السلام متى تجب الصلاة على الصبي؟

فأجاب: « إذا عقل الصلاة، وكان ابن ست سنين »[3].

وسئل الإمام الكاظم عليه السلام عن الصبي: أيصلّى عليه وهو ابن خمس سنين؟

فأجاب: « إذا عقل الصلاة صلي عليه »[4].

وتستحب صلاة الميت على الطفل متى ولد حيا باختلاف في التفاصيل لدى الفقهاء.

سئل أحدهم عليهما السلام لكم يصلى على الصبي إذا بلغ من السنين والشهور؟

---

(١) نفس المصدر. ص ١٩٣.

(٢) نفس المصدر. ص٢٠٢.

(٣) الوسائل. ج٢. ص ٧٨٧.

(٤) نفس المصدر.

فأجاب: « يصلى عليه على كل حال إلا أن يسقط لغير تمام »[1].

أما في مدرسة الخلفاء: أن صلاة الميت تجب على السقط بعد الشهر الرابع فصاعدا، وعلة الصلاة لديهم « لأنه نسمة نفخ فيه الروح » حيث تنفخ الروح في الجنين في الشهر الرابع[2].

المرحلة (٢): الطفولة المتأخرة

وتبدأ من السنة السابعة وحتى نهاية السنة الثانية عشر.

وفيها يتقن المهارات الجسمية الضرورية للألعاب الرياضية، ولهذا أوصى المشرع الإسلامي بتعليم الطفل في هذه المرحلة بعض الممارسات الرياضية النافعة مثل السباحة والرماية وركوب الخيل « علموا أولادكم السباحة والرماية »[3].

ويتهيأ الطفل في هذه المرحلة للتعليم الجدي والتأديب والإلزام، فيصبح قادرا على تحمل مسؤوليات صحته الشخصية وغيرها.

فمن الناحية البدنية:

- تحصل حالة طفرة في النمو البدني عند البنات في نهاية هذه المرحلة، إلا أن البنين يتفوقون على البنات في القدرات البدنية.

- ويمارس الطفل في هذه المرحلة الكثير من الأنشطة في المنزل والحي والمدرسة ويكون شعلة من النشاط المستمر.

---

(١) نفس المصدر. ص٧٨٩.

(٢) فقه السنة. السيد سابق. ج١. ص٥٢٩.

(٣) الوسائل. ج١٢. ص٢٤٧.

ومن الناحية العقلية:

- يستطيع إدراك التشابه والاختلاف بين الأشياء، والعلاقة بين العلة والمعلول أو السبب والنتيجة.

- وينتقل الطفل في نهاية مرحلة الطفولة من التفكير الحسي إلى التفكير المجرد، حيث يبدأ بفهم معاني الحق والباطل، والخير والشر، والواجبات الاجتماعية والأخلاقية والدينية.

- ويظهر لديه الانتباه الدقيق، والتذكر بوضوح، والخيال الواسع الحر للقصص التاريخية والأحداث التي لها أساس واقعي، والتعرف على العمليات العقلية والتفكير المنطقي السليم.

- ويصاحب ذلك نمو لغوي كبير لكي يعبر به عما يدور في نفسه.

- ويستطيع حل المشكلات عن طريق تصورها ذهنيا،

ومن الناحية النفسية: تختلف انفعالات الطفل في مرحلة الطفولة المتأخرة عنها في مرحلة الطفولة المبكرة.

ففي مرحلة الطفولة المبكرة:

- تتميز انفعالات بالحدة والأنانية والانتقال السريع، فإذا رأي وهو يبكي قطعة حلوى، فإنه ينقطع عن البكاء فجأة وينقلب بكاؤه إلى سرور وابتهاج.

- وتكون ذاته محور انفعالاته.

- ويكون حساسا لنقد الآخرين وسخريتهم منه.

- ويظهر عليه القلق إذا لم يشعر بتقدير الآخرين لذاته ومكانته بينهم.

أما في مرحلة الطفولة المتأخرة: فتبدأ الحالة الانفعالية للطفل بالهدوء

والاستقرار تدريجيا، ويكون أكثر هدوء واتزنا واستقرارا. ولهذا تعرف هذه المرحلة بأنها مرحلة السعادة والاستقرار الانفعالي، ويطلق عليها الباحثون "مرحلة الطفولة الهادئة" فهو:

- لا ينفعل بسرعة بل يحتاج انفعاله إلى وقت كاف حتى يتكون على أساس سليم، والسبب هو ارتقاء عقلية الطفل التي تجعله يفكر في العوامل التي تؤدي إلى الغضب أو الفرح، فإذا عنفت طفلا وهو في العاشرة من عمره لخطأ ارتكبه مثلا، فإنه يدرك بعقله أنه مخطئ، ويسعى لتصحيح الخطأ، أما لو فعلت ذلك لطفل دون السابعة، فإنه يبكي سريعا لمجرد التعنيف برغم أنه مخطأ فعلا.

- وتتحول انفعالاته من الحاجات الجسمية إلى الحالات النفسية والاجتماعية، فهو يتأثر لإهانة صديق أو فشل في مهمة، ويزداد تنافسه مع الآخرين لكي يحظى بالتقدير والمكانة لدى المحيط الذي يعيش فيه.

- وتتبلور لديه المبادئ الأخلاقية الرفيعة، مثل: التضحية والفداء والتعاون على الخير والبر والتقوى.

- ويكبر شعوره بنفسه.

ومن الناحية الاجتماعية:

- يصبح الطفل في هذه المرحلة اجتماعيا وتكون له صداقات مع أطفال آخرين في مثل سنه، رغم أنها تكون مهددة بالتفكك لعدم نضجها.

- ويدرك قيمة الجماعة ويقدر دورها الحقيقي بالنسبة للفرد.

- وتصبح عواطفه موجهة نحو الجماعة ويظهر له الولاء للجماعة، ويبدأ في احترام القيم الاجتماعية والعادات والتقاليد والأعراف السائدة في الجماعة، ويمارسها باعتباره عضوا في المجتمع.

- ويكبر وعيه بالمسائل الاجتماعية، ويزيد لديه الشعور بالخجل والشعور بالمخاوف الاجتماعية.

- ويزداد تأثير الأصدقاء والمحيط الاجتماعي عليه.

- ويحاول أن يلعب دوره الاجتماعي في الحياة كولد أو بنت.

وقد أعطى المشرع الإسلامي عناية فائقة لهذه المرحلة، خاصة مع بداية السنة التاسعة وما بعدها، مؤكدا على الطابع التعليمي والتربوي لهذه المرحلة [قلب الحدث كالأرض الخالية: ما القي فيها من شيء قبلته] وكاشفا عن تأثيراتها المهمة جدا على بناء الشخصية والسلوك في المراحل اللاحقة، دون أن تكون التأثيرات حاسمة بالطبع، حيث يبقى للوعي والتجارب الرشيدة تأثيرها في تعديل السلوك إلى آخر عمر الإنسان.

ولهذا ألح المشرع الإسلامي على ممارسة التربية والتأديب بصورة جدية للطفل في هذه المرحلة. فأوصى بتعليم الطفل الصلاة بصورتها الكاملة في هذه المرحلة، وإلزامه شبه الكامل بها، لأنها لا تكون ملزمة إلا بعد البلوغ، وضربه في حالة التهاون بالصلاة، مما يدل على الأهمية الفائقة للتربية والتأديب في هذه المرحلة، وانعكاساتهما على بناء الشخصية والسلوك في المراحل اللاحقة من عمر الإنسان. وهذا يكشف عن النمو العقلي للطفل في هذه المرحلة - كما تبين قبل قليل - وأنها تقع في حالة وسط بين الطفولة المبكرة التي لا يتحمل فيها الطفل أية مسؤولية تذكر، وبين مرحلة الرشد التي يتحمل فيها الإنسان المسؤولية الكاملة عن سلوكه وأفعاله.

ولهذا أجاز المشرع الإسلامي قبول وصية الطفل البالغ عشر سنين [إذا بلغ الغلام عشر سنين جازت وصيته] دون التصرفات المالية المعقدة مثل البيع والشراء [الغلام لا يجوز أمره في الشراء والبيع].

وحذر كثير من الإثارة الجنسية للطفل في هذه المرحلة، حيث تتسم الممارسة الجنسية غير الشرعية بخطورة كبيرة على شخصيته، ويمكن أن تضعها على طريق الانحراف.

ولخطورة ذلك أوصى المشرع الإسلامي بالعقاب البدني في مرحلة الطفولة المتأخرة على الممارسة الجنسية غير المشروعة.

المسؤولية التربوية للآباء والمجتمع: فعلى الآباء والمربين مراعاة جميع ما سبق في التربية والتأديب للطفل في هذه المرحلة، والسعي لتثبيت كيانه النفسي والاجتماعي، وتنمية كافة المهارات لديه: الجسمية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية.

- فيحرصوا على تعلميه الرماية والسباحة وركوب الخيل والتمارين الرياضية النافعة له ولمجتمعه.

- وتربيته على الشجاعة والاستقامة في السلوك.

- وتعميق شعوره بكرامته الإنسانية الفذة وتقوية ثقته بنفسه واحترامه لذاته كإنسان، لتبدأ المسيرة الاجتماعية للطفل بصورة صحيحة وجادة، دون إعطاء نتائج هذه المرحلة صفة الثبات والحتمية في بناء الشخصية كما يفعل علماء النفس الوضعي ذلك بتعسف شديد، حيث أكدت التجارب قدرة الوعي والتجارب الرشيدة على إعادة بناء الشخصية وتعديل السلوك في المراحل اللاحقة من عمر الإنسان، بدون أن تمسح تماما تأثير المراحل السابقة في التعليم والتربية إلا في حالات نادرة.

- ويجب على الأسرة والمجتمع والدولة أن يهتموا بتوفير الغذاء الجيد الذي يحتوى على كامل العناصر الغذائية اللازمة للطفل، وتوفير الظروف الصحية المناسبة، مثل: النوم الكافي والسكن الصحي والهواء الطلق وأشعة الشمس

وغيرها، وتوفير الحاجات النفسية الضرورية مثل: الحب والعطف والحنان والأمن والاستقرار والانتماء وحاجته إلى الحرية والاستقلال والمعرفة وحب الاستطلاع والتعبير عن النفس، كل ذلك بتوسط واعتدال دون إفراط أو تفريط: (مبالغة أو تقصير).

– والاهتمام بتبصير الطفل بحقوقه ووجباته الاجتماعية والدينية، والسماح له بالمشاركة وتحمل المسؤولية، ومعاملته بعدل ورفق بعيدا عن الظلم والقسوة، حتى نؤمن للطفل نمو سليما وحياة سعيدة هانئة، ونعطيه القدرة على تحمل أعباء الحياة ومسؤولياتها، وتمكينه من تحقيق النجاح فيها.

– وينبغي الحذر من تحميل الطفل فوق طاقته، بأن نطلب منه ممارسة نشاط أعلى من قدراته الجسمية والعقلية والنفسية، لأنه حتما سيفشل فيها، مما يؤدي إلى مردودات سلبية في بناء شخصيته.

المرحلة (٣): المراهقة

وتبدأ مع بداية السنة الثالثة عشر وتستمر حتى نهاية السنة الواحدة والعشرين، وهي مرحلة هامة من مراحل النمو لدى الإنسان، وتمثل بداية الرشد وتحمل المسؤولية التي ألقتها السماء على الإنسان في الأرض، وما يتبع ذلك من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة.

وفيها يتم البلوغ الجنسي للذكور، أما الإناث فقد يتم البلوغ الجنسي لديهن بعد السنة التاسعة.

وتعتبر المراهقة أهم مراحل النمو في حياة الإنسان: الذكر والأنثى، ففيها دون غيرها تتحدد بصورة خاصة شخصية الإنسان، وتتميز بخاصتين

رئيسيتين، وهما:

- الشعور بالاستقلال.

- والاضطراب والتقلب.

وتعتبر هاتان الخاصيتان أمرا طبيعيا بالنظر إلى الحالة الوسط للمراهق بين الطفولة والرشد.

ولهذا تعتبر المراهقة أكثر المراحل صعوبة وإثارة للمشاكل، فهي تشهد تغيرات عنيفة في من كافة الجوانب: الجسمية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية.

فعلى الصعيد الجسمي:

- تحدث تغيرات جسمية سريعة على شكل طفرات في الطول والوزن، مما يشكل ضغطا على القلب والشرايين.

- ويشعر بالتعب والإرهاق بسرعة، ويشعر بآلام العضلات واضطراب الحركة واضطراب النوم، مما يجعله عرضة لبعض الأمراض مثل: فقر الدم وتقوس الظهر وقصر النظر.

وتتطلب تلك التغيرات من المراهق/المراهقة تجنب الأعمال الجسدية القاسية التي ترهق قلبه وجهازه الدموي، وتجنب العادات السيئة التي تؤثر سلبا على صحته كالتدخين، وأن يكون لديه الإلمام بالعادات الصحية في الغذاء والنوم والجنس وطريقة الجلوس والعمل، حتى لا يكون عرضة لبعض الأمراض أو يعاق نموه الجسدي أو تظهر عليه تشوهات في خلقته.

- وتنمو المعدة وتزداد سعتها لدى المراهق، فيشعر بحاجة ملحة للطعام.

- ومع نهاية المرحلة يكتمل نضج العضلات والخلايا العصبية، مما يسمح للمراهق بالتحكم في أعضاء جسمه بواسطة الأفعال والحركات الإرادية

التي تزداد قوة إلى جانب الأفعال اللاإرادية.

- ويكتمل نضج الجهاز التناسلي بكافة أعضائه الداخلية والخارجية بالنسبة للجنسين، ويشهد الجسم نشاطا جنسيا متصاعدا.

- ويبدأ ظهور شعر الذقن والشارب والإبطين والعانة.

- ويتضخم الصوت لدى المراهق، ويزداد حجم الثديين والأرداف ويتسع الحوض ويكون الصوت أكثر نعومة لدى المراهقة، مما يشعر المراهق / المراهقة بالرجولة / الأنوثة.

وعلى الصعيد العقلي: تنمو لدى المراهق القدرات العقلية المتنوعة بسرعة.

- فينمو الذكاء العام.

- وتتضح الفروق الفردية بين الأشخاص.

- وينمو الانتباه، فيستطيع المراهق التركيز لفترة أطول، ويستطيع استيعاب المشاكل المعقدة وحلها بسهولة.

- وينمو لديه التفكير المجرد والخيال الواسع الخصب، فيصبح في إمكانه التفكير في المعنويات والمجردات في أي شكل من الأشكال، بعد أن كان من قبل يحتاج إلى معينات حسية تساعده على التفكير.

- وتنمو لديه القدرة على الاستدلال، لهذا يستطيع المراهق أن يدرس الرياضيات والفلسفة، وأن يكون آرائه الخاصة المدعومة بالاستدلال والحجج والبراهين العقلية المتنوعة.

- ويستطيع أن يستوعب الظروف والأوضاع المجتمعية المحيطة به.

- ويستغرق في أحلام اليقظة، التي يحقق من خلالها رغباته الدفينة،

ويهرب من ضغوط الواقع، وهو يحتاجها لكي يرسم من خلالها عالمه الخاص وتصوره لمستقبله بحسب رغباته وطموحاته وتطلعاته والأمل الذي يعيشه، فيتخيل نفسه طبيبا أو محاميا أو رجلا ثريا أو عالما مشهور.

- وينمو لديه حب الاستطلاع بصورة أعمق.

- وتظهر لديه الميول والقدرات والمواهب الخاصة مثل القدرات الميكانيكية واللغوية والرياضية وغيرها مما يحتاج إلى رعاية وتوجيه.

- ويظهر لديه التوجه نحو المهن المستقبلية، ويرتفع لديه مستوى الطموح والآمال، فيكتمل لديه النمو العقلي.

إلا أنه قد يعاني من بعض المشاكل بصورة مؤقتة في التحصيل الدراسي بسبب الاضطرابات الناتجة عن التغيرات الفسيولوجية السريعة.

فينبغي على المراهق أن يتعرف بدقة على قدراته الحقيقية، حتى يتوجه نحو التخصص الدراسي المناسب، ثم المهنة التي تناسب قدراته وطموحاته.

ولا يصح من الأبوين الضغط على الأبناء في سبيل الأخذ بتخصص معين يرغبان هما فيه ولا يرغب الأبناء فيه أو لا يوافق ميولهم وقدراتهم.

وقد تحصل للمراهق حالة قلق لعدم استقرار رأيه على تخصص معين أو مهنة معينة، نتيجة لقلة الخبرة، أو لعدم تشخيصه بشكل صحيح لقدراته، أو لوقوعه تحت تأثير عامل معين: داخلي أو خارجي، لهذا فهو قد يحتاج إلى من يساعده على تحديد التخصص أو المهنة دون إكراه أو ضغط.

وبالنسبة إلى الدين: فإن المراهق تكثر الأسئلة في ذهنه حول الخالق والرسل ويوم القيامة والمسائل الدينية الأخرى، وربما يعيش المراهق فترة قلق وحيرة واضطراب، ويتذبذب بين الإيمان والشك، إلا أنه ينتهي (عادة) في نهاية

المرحلة إلى الإيمان الحقيقي الثابت.

ومع عدم توفر التوجيه الديني الصحيح، ومع وجود من يغذي الانحراف عن الدين لديه، قد يؤدي ذلك إلى الانحراف الفعلي عن الدين وربما الإلحاد، كما هو حاصل فعلا لبعض المراهقين والشباب في مجتمعاتنا، وربما يستمر ذلك معهم إلى آخر عمرهم، وإن كان على نطاق ضيق، مما يؤكد أهمية التربية الدينية والتوجيه الديني الصحيح إلى الأطفال والمراهقين لتأكيد الإيمان وتثبيته في قلوبهم إلى الأبد.

وعلى الصعيد الانفعالي:

- تتميز الانفعالات لدى المراهقين بالحدة والعنف والتناقض وعدم الاستقرار، فقد يثور ويغضب أو يفرح لأتفه الأسباب، وينقلب من الغضب إلى الفرح بسرعة تدعو إلى العجب ولا عجب.

ويفسر علماء النفس ذلك: بأن المراهق يشعر بالرجولة / الأنوثة وفي نفس الوقت يعامله المجتمع كطفل صغير، مما يثير انفعالاته.

- ويظهر على المراهق مؤقتا الانطواء والهيبة من مقابلة الآخرين والاختلاط بهم والخجل والتردد والخوف من الوقوع في الأخطاء أمام الآخرين والحساسية وعدم الثقة بالنفس.

- ويخشى من التعرض إلى السخرية والانتقاد، وربما يشعر بأنه شخص غير مرغوب فيه، وذلك كله نظرا للتغيرات الفسيولوجية المفاجئة في الجسم.

- وتسوده الصراعات النفسية العنيفة: بين ذاته التي يسعى لترسيخها وبنائها وتميزها، وبين المعايير الاجتماعية والأخلاقية والتعاليم الدينية التي تفرض عليه من الخارج.

- ويميل المراهق إلى الزعامة والاستقلال في الشخصية والخروج على

السلطة، سواء كانت سلطة الوالدين أو المدرسة أو المجتمع أو الدولة، فيما يعرف بـ (الفطام النفسي).

- وقد يلجأ إلى الأساليب الشديدة في المعاملة مع الكبار الذين ينفر من سلطتهم، وغالبا ما يكون في حالة غير مستقرة.

- ويظهر لديه الاهتمام كثيرا بنفسه، والاعتداد بها، والثقة في أقواله وأفعاله، ويرى دائما نفسه على حق وغيره على باطل.

- ويميل إلى التأنق في ملبسه وطريقة كلامه وحركاته وغيرها مما يحدد لشخصيته كيانا مستقلا كغيره من الرجال / النساء، وربما يتحول ذلك إلى نوع من الغرور والأنانية.

والمخرج هو التوجيه السليم الذي يجعل المراهق يحترم آراء الآخرين، ويستفيد منها في تواضع نافع.

وقد ارشد المشرع الإسلامي إلى التدرج في التدريب على حالة الاستقلال التي يطمح إليها المراهقون، وهي حق طبيعي أقره المشرع الإسلامي لهم، وهي حالة يجب أن ينتهي إليها كل إنسان راشد، وهنا ينبغي التنبيه إلى مسألتين..

المسألة (١): لقد أعطى المشرع الإسلامي إلى المراهق الاستقلال ولكن ليس بصورة كاملة.

• قول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين »[١].

فهذا الحديث يتضمن تعبيرات رمزية دقيقة للتعبير عن النمو الحركي والعقلي والنفسي للطفل، وما يهمنا في هذا المكان من البحث هو لفظ: « ووزير سبع

---

(١) الوسائل. ج١٥. ص١٩٥.

سنين » حيث يدل على الاستقلال غير الكامل للمراهق، حيث يتمتع الوزير بالاستقلال، ولكنه ليس بدرجة الاستقلال الذي يتمتع به رئيس الدولة.

المسألة (٢): أرشاد المشرع الإسلامي إلى التدرج في تدريب الطفل على تحمل المسؤولية للاتجاه نحو الاستقلال الكامل، فقد أوصى بتدريب الطفل على تحمل المسؤولية الجزئية والبسيطة في أواخر الطفولة المبكرة، ثم أوصى بترسيخها في الطفولة المتأخرة، فدعا إلى تحميله "المسؤولية شبه الإلزامية" في الطفولة المتأخرة، ممهدا إلى الإلزامية الكاملة في مرحلة المراهقة.

جاء في الحديث الشريف: « إذا بلغ الغلام ثلاث عشر سنة، كتبت له الحسنة، وكتبت السيئة، وعوقب ».

وبعض الروايات تذكر أربع عشرة سنة،،

وبعضها خمس عشرة سنة للذكور، وذلك بحسب تفاوت النمو لدى الأفراد.

أما الإناث: فإن إتمام السنة التاسعة يمثل لهن بداية الرشد وتحمل المسؤولية الشرعية.

وهنا تفترق رؤية المشرع الإسلامي مع رؤية علم النفس والقانون الوضعيين، حيث نجد المشرع الإسلامي قد حمل المراهقين المسؤولية الكاملة عن أفعالهم، ورتب عليها تبعات الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة.

بينما علم النفس والقانون الوضعيين يعفيان المراهقين من المسؤولية الكاملة عن أفعالهم، إلى بلوغ السنة الثامنة عشر.

الجدير بالذكر هنا: أن المشرع الإسلامي رغم أنه يحمل المراهقين المسؤولية الكاملة عن أفعالهم، إلا أنه أكد على ضرورة استمرارية التدريب وبقائه

في مرحلة المراهقة إلى نهايتها.

جاء في الحديث الشريف: « فإن رضيت خلاقه لإحدى وعشرين سنة وإلا ضرب على جنبيه، فقد أعذرت إلى الله »[1].

وذلك نظرا إلى حالة الاضطراب التي يعاني منها المراهقون في مرحلة المراهقة، مما يجعل الحاجة إلى التدريب ضرورية في هذه المرحلة، حتى تستكمل الشخصية تماسكها وتحصل على حالة الرشد والاستقلال الكامل في مرحلة الشباب وما بعدها.

كما أنه اعتبر بلوغ الثماني عشرة سنة مرحلة نمائية ذات أهمية خاصة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « لا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى ثماني عشرة سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما فيه »[2].

ومن خصائص المراهقة: أن المراهق ربما يعتقد بأن والديه لا يفهمانه، وأنهما يعاملانه كطفل، ويقيدان حريته، مما يؤدي إلى ثورته ضدهما وربما قسوته عليهما.

وهذا يفرض على الأسرة والمحيطين بالمراهق التفهم لأوضاعه النفسية ولرغباتهم ومساعدته على تحقيق الاستقلال النفسي بصورة تدريجية بالهدوء والاتزان.

ومن المشاكل التي قد تواجه المراهق وتحظى بأهمية كبيرة لديه، عدم توفر مكان خاص له بالبيت ليخلو إلى نفسه فيه، ولهذا ينبغي على الأسرة الحرص على توفير غرفة خاصة للمراهق قدر المستطاع.

---

(١) الوسائل. ج١٥. ص١٩٥.

(٢) البحار. ج١. ص٩٦.

وعلى الصعيد الاجتماعي:

- يبدأ المراهق بالاندماج في الجماعة التي يعيش فيها بوصفه رجل / امرأة يتصرف مثل بقية الرجال / النساء في مجتمعه، ولكنه يثور بعد ذلك على الجماعة ويتمرد على أوضاعها ونظمها.

وسبب ذلك بنظر علماء النفس: أن الجماعة لا تقدر خدماته ولا تهتم بشعوره كرجل / امرأة، وتعامله كطفل، في الوقت الذي يسعى هو لإثبات وجوده وتأكيد ذاته وإبراز شخصيته كرجل / امرأة له كيانه المستقل.

ومع سوء التربية وغياب التوجيه السليم، قد يصبح ذلك التمرد تمردا هداما، يؤدي إلى حالة اللامبالاة ورفض الدين والقانون، ويمكن معالجة تلك الحالة والخروج منها بإفهام المراهق، أن الثورة ممكنة على العادات والتقاليد البالية والقوانين الجامدة والأوضاع الخاطئة، وهو أمر صحيح ومبرر، وليست كل العادات والتقاليد والقوانين والأوضاع في المجتمع كذلك، فيجب التمييز بين ما ينبغي التمسك به، وما تنبغي الثورة عليه.

- ومن خصائص المراهقة اتساع دائرة العلاقات الاجتماعية، وزيادة النشاط الاجتماعي.

- وتتوجه عواطف المراهق في آخر المرحلة إلى العالم الخارجي، وتظهر لديهم الميول الدينية، ويظهر لديهم التآلف مع الأصدقاء، ويخضع المراهق كثيرا لآراء أصدقائه، ويرتبط بهم ارتباطا وثيقا، ويسعى بالبحث لنفسه عن قدوة من الشخصيات الهامة يعمل من خلالها لإثبات ذاته ووجوده، فيظهر لديه ما يعرف بـ(دور عبادة الأبطال) فتراه يهتم بالأبطال وعظماء التاريخ، ويتتبع سيرتهم، ويحاول تقليدهم، وربما يتخذ لنفسه مثلا أعلى يحاول أن يقتدي بآثاره وسلوكه.

- ويظهر لديه الميل إلى المغامرات والتضحية والفداء مما يعرف بـ(النزعة

الرومانتيكية) أي الخيالية.

- ويظهر لديه الميل للجنس الآخر، وترتبط انفعالاته بالجنس والحب والجمال، فيحب كل ما يثير عنده النواحي الجنسية، ويكره كل ما يحط من قيمتها أو يغفلها تماما.

- وربما ينجر لمصاحبة رفاق السوء والانحراف عن المعايير الأخلاقية والدينية الرشيدة، أو عدم استغلال ميوله وطاقاته ومواهبه في مجالات مفيدة ونافعة للمجتمع، فضلا عن أن تكون مضرة، فقد يندفع للمخاطرة والمجازفة بنفسه في غير المكان الصحيح، وربما يميل إلى الأخذ بالبدع والعادات الشاذة.

لهذا يلزم توجيهه بشكل صحيح لا يتعارض مع ما ينبغي أن يتحقق له من استقلال نفسي واجتماعي، وما يحقق للمجتمع والدولة الاستفادة الكبيرة من مواهبه وطاقاته.

ويمكن توجيه المراهقين إلى فرق الكشافة ومعسكرات العمل للشباب والرحلات والأنشطة الرياضية والاجتماعية النافعة وغيرها.

والخلاصة: أن التغيرات التي تحدث للمراهقين، تقوم بنقلهم من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد وتحمل المسؤولية، ففيها تتفتح قدرات الإنسان وميوله وتبرز صفاته الشخصية بكل جلاء ووضوح، ويكتسب الاستعدادات التي تؤهله لأن يكون ما هو عليه في المستقبل، فهو يتعرف على رغباته وطموحاته الشخصية، ويدرك حدود إمكانياته، ويكون رؤيته للحياة الزوجية والأسرية والمجتمعية وللحياة ككل، ويسعى لإثبات هويته ومكانته، ولأن يكون له دور في المجتمع يتناسب مع طموحاته ونظرته لنفسه ورؤيته وفلسفته للحياة، وهذه التغيرات كفيلة لو أتيحت للمراهقين والشباب الفرص بتحريك عجلة التأريخ وتصحيحها وعدم السماح لها بالجمود أو الانحراف.

والإسلام الحنيف يشجع الشباب والمراهقين على الاستقلال والثورة بهدف التصحيح والتطوير على أسس واقعية صحيحة، ويتخذ خطوات تدريجية لتدريب الشخصية على الاستقلال وتحمل المسؤولية الفردية أو العينية التي يتحملها كل فرد بصفة خاصة ولا تسقط عنه بأي حال من الأحوال (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).وتبدأ عملية التدريب مع مرحلة الطفولة المتأخرة، لكي يبدأ تكليف المراهق بتحمل المسؤولية مع بداية المرحلة وليس في نهايتها.

جاء في الحديث الشريف: « إذا بلغ الغلام ثلاث عشرة سنة كتبت له الحسنة وكتبت السيئة وعوقب ».

إلا أن مرحلة المراهق لا تسمح بالاستقلال الكامل، وأنها تحتاج إلى مزيد من التدريب والتوجيه.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « الولد سيد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين »[1].

فالوزير لا يملك استقلالا كرئيس الدولة، إلا أنه يملك قسطا من الاستقلال، فثمة استقلال للمراهق إلا أنه ليس كاملا، مما يتطلب استمرارية الإرشاد والتوجيه في مرحلة المراهقة، مع عدم نفي حالة الاستقلال وإلغائها، حتى تضع الشخصية حدا لحالة الاضطراب وتستكمل جوانب استقلالها التام.

ولكن المشكلة الحقيقية هي في فرض الكبار هيمنتهم على الشباب والمراهقين وقمعهم، بدلا من منحهم الفرصة التي كتبها الله عز وجل لهم بقلم التكوين، والسعي لترشيد حركتهم من خلال الإرشاد والتوجيه الواعي والمنفتح [خلقوا لزمان غير زمانكم].

---

(١) الوسائل. ج١٥. الباب: ٨٣. الحديث: ٧. ص ١٩٥.

لذا يجب على الأسرة والمجتمع والدولة تيسير الإمكانيات ومصادر الخبرة والمعرفة المناسبة للمراهقين، التي تراعي نموهم العقلي والنفسي والاجتماعي، في سبيل تلبية مطالب نموهم المختلفة، مثل توفير الرعاية الصحية والجو الدراسي المناسبين، وأماكن النشاط الرياضي والفني والاجتماعي، والتوجيه الديني والأخلاقي والمهني، والتربية الجنسية العلمية، ومساعدته على تكوين رؤية واضحة للحياة، والعمل على تحقيق رؤيته من خلال العمل الطيب المثمر، وأن تسود المحبة والتفاهم العلاقة بين الكبار والمراهقين، والسعي لحل مشاكلهم ولمساعدتهم على تحقيق الاستقلال النفسي والاجتماعي بصورة تدريجية وبهدوء واتزان، وإعطائهم الفرصة لكي يحققوا طموحاتهم وتصوراتهم في تطوير الحياة وتصحيح مسيرتها، من خلال السماح لهم بالمساهمة الواسعة في الأنشطة المجتمعية، وإعطائهم مسؤوليات قيادية فيها، مما يساعد المراهقين على النمو السليم والوصول إلى بر الأمان، والاندماج بهدوء واطمئنان في الجماعة كأعضاء نافعين، ويهيئ للمجتمع والدولة الاستفادة الفعلية من المواهب والطاقات الخلاقة التي منحها الله عز وجل للمراهقين والشباب، من أجل بناء حياتهم الشخصية الطيبة الهانئة، وتصحيح مسارات مجتمعاتهم وتطويرها نحو الأفضل والأجمل والأكمل.

المرحلة (٤): الشباب

وتبدأ مع بداية السنة الثانية والعشرين وتستمر حتى نهاية سنة الأربعين، وفيها تبلغ أعضاء وأجهزة الجسم درجة التكامل.

جاء في الحديث الشريف: « إذا بلغ العبد ثلاث وثلاثين فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه ».

فمن الناحية البدنية:

- يتمتع الشباب بالقوة الجسمية، مما يعود عليه بمردود إيجابي في حالته النفسية، ويهيئه جسميا ونفسيا للعمل وتحمل المسؤولية وللزواج وتكوين أسرة.

ونظرا لقوة الجسم: قد يظهر لدى الشاب الميل للاعتداء على الآخرين بدافع الغرور والأنانية وحب السيطرة.

لهذا من الضروري توجيه النصح والإرشاد لهم من أجل السيطرة على الانفعالات وعدم الغرور وعدم استخدام القوة في غير مكانها.

- ويتمتع الشباب بنضج الجهاز التناسلي وظهور الإثارة الجنسية، ونظرا لذلك: يكون من المفيد جدا التعجيل بالزواج للجنسين: (الذكور والإناث) وعدم التأخر فيه، وتوفير البيئة الصالحة للشباب ونصحهم وتحذيرهم من الرذيلة والممارسات الخاطئة، وتوجيههم للانخراط في الأنشطة المجتمعية: الرياضية والاجتماعية والثقافية وغيرها، من أجل تفريغ الطاقة، وشغل أوقات الفراغ بما يعود عليهم وعلى المجتمع والدولة بالمنفعة والفائدة.

ومن الناحية العقلية: تعتبر مرحلة الشباب مرحلة النضج والرشد العقلي،،

- إذ تظهر على الشباب الواقعية والاتزان في التفكير والانفعال والسلوك.

- ويتمتع الشباب بالقدرة على الاستفادة من الخبرات والتجارب السابقة في سبيل تحقيق الأهداف التي خططوا إليها من قبل ولازالوا يخططون إليها.

- وتتميز مرحلة الشباب بزيادة القدرة الاستيعابية في التحصيل العلمي والمعرفي وتضاعف القدرة العقلية العامة، وبروز مختلف القدرات الخاصة: الحركية واللغوية والفنية والرياضية (الرياضيات) وغيرها بصورة أوضح مما كانت عليه في مرحلة المراهقة.

وتشير النصوص الشرعية إلى استكمال القدرة العقلية العامة في هذه المرحلة [ومنتهى عقله لثمان وعشرون إلا التجارب] مخالفة في ذلك رأي غالبية علماء النفس الوضعي الذين ذهبوا إلى استكمالها مع نهاية مرحلة المراهقة، مما يؤدي إلى رفع المعنويات وإعطاء الثقة بالنفس ويساعد على التأقلم (التكيف) الاجتماعي، وينعكس ذلك كله على مستوى وطبيعة مختلف الأنشطة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرياضية وغيرها التي يمارسها في المجتمع والدولة، كما يؤثر الإخفاق المتكرر تأثيرا سلبيا على شخصية الشباب.

والمطلوب تربويا:

- توجيه الشباب لبذل المزيد من الجهد للتحصيل العلمي والمعرفي وتطوير مستوياتهم العلمية والمعرفية، والاستفادة من التقنيات الحديثة وإجادة التعاطي معها، وتوظيف ما لديهم من القدرات والمعرفة في خدمة المجتمع والدولة ومختلف القضايا الوطنية والإنسانية في كافة المجالات، بعيدا عن كافة أشكال البغي والانحراف، إذ أن أفراد العصابات من الأشقياء الذين زاغت قلوبهم عن الحق، يستخدمون قدراتهم العقلية في التوصل إلى أعقد الأساليب وأكثرها تطورا في تنفيذ عملياتهم الإجرامية.

- الحرص على تجنيب الشباب الفشل والإحباط، وأعدادهم نفسيا لمواجهته بالصبر والثقة بالله عز وجل، وبمزيد من العمل والجهد حتى يتحقق النجاح المطلوب في الأهداف.

ومن الناحية النفسية: تعتبر مرحلة الشباب مرحلة النضج الانفعالي والسلوكي، حيث يتمتع الشباب:

- بالميل إلى الهدوء والثبات والتقبل والقدرة على التحكم في مواجهة المواقف التي تثير انفعالاتهم، بدلا من المثالية والاضطراب التي تسود

مرحلة المراهقة.

- وبالقدرة على المشاركة الانفعالية مع الغير، والتفاعل الهادئ القائم على الفهم والتفهم والدراية.

- والميل إلى الرأفة والرحمة والشفقة في التعامل مع الغير والتعاطي معهم في مختلف القضايا.

- ويظهر عليهم الفرح والسرور في حالة النجاح، والسخط والخوف والقلق والتوتر في حالة الإخفاق والاختلال في العلاقات.

ولهذا يجب على الأسرة والمجتمع والدولة مساعدة الشباب على تحقيق النجاح المهني والاستقرار العائلي في الأسرة الجديدة التي يكونها الشاب، وذلك من خلال توفير الظروف المناسبة، والحرص على تجنيبهم الفشل والإخفاق ورفع معنوياتهم.

وتجب معاملتهم كأشخاص كبار ناضجين وقادرين على تحمل المسؤولية وتحقيق النجاح والانتصار، وإفساح المجال أمامهم للعمل والمشاركة الفعالة في الأنشطة المجتمعية وصناعة القرارات المهمة والمصيرية، ومنحهم القدرة على مواجهة الظروف الصعبة وتحمل المكاره بمزيد من الجلد والصبر والهدوء ومقاومة الإحباط ومواجهة الفشل بمزيد من العمل والاستمرار في العطاء وبذل الجهود المكثفة حتى تتحقق الأهداف التي يطمح إليها، مما يحافظ على مستوى الثبات الانفعالي، وذلك نظرا لخطورة الفشل والإحباط لدى الشباب وآثارهما السلبية المدمرة على المجتمع والدولة.

ومن الناحية الاجتماعية: تتميز مرحلة الشباب،،

- بالتألق الاجتماعي من خلال المشاركة الفعالة في الأنشطة المجتمعية بالرأي والجهد والعمل.

- والإدراك للواجبات الرئيسية: العامة والخاصة.
- ونمو المشاعر الاجتماعية والإنسانية.
- والتوجه الإيجابي في العلاقات الاجتماعية مع الأسرة والمجتمع.
- والتقدير للوالدين والشخصيات الكبيرة في المجتمع والدولة.
- وإدراك أهمية المكانة والدور الاجتماعي وتقلد المناصب الإدارية في الدولة.

وعندها يكون الطالب قد أنهى دراسته الجامعية، وبدأ التفكير في المستقبل والحصول على الوظيفة المناسبة التي يطمح إليها ودرس من أجلها، مما يساعده على:

- تكوين الحياة الزوجية وتربية الأولاد وتأمين مستقبلهم.
- تجنب المشاكل والصعوبات والسلبيات والسعي لتحقيق التكيف مع الحياة والحصول على الاستقرار النفسي والاجتماعي والوظيفي.

والخلاصة: في مرحلة الشباب يبدأ الإنسان بتحمل المسؤوليات الخاصة والعامة بصورة كاملة وجدية ويحاسب عليها: (الأهلية الكاملة في الحقوق والواجبات).

الشباب والزواج

ومن المناسب الوقوف هنا باختصار شديد على بعض المسائل المتعلقة بالزواج الذي يتم عادة في هذه المرحلة، وهو واحد من أهم خصائصها.

فالزواج يتم عادة في هذه المرحلة، وهو يتطلب الترابط والاستقرار، وقد

زود الله عز وجل الإنسان بالنضارة والجمال بالإضافة إلى الغريزة الجنسية، مما يعود بآثار إيجابية كبيرة لتحقيق الوصال والانسجام بين الجنسين، حيث يلعب الجمال دورا كبيرا في عملية الجذب بينهما.

كما يندفع الشباب برغبة شديدة إلى التزين وارتداء اللباس الجميل وتمشيط الشعر وتعطير الجسم والاهتمام بالأجواء الشاعرية وغيرها مما يزيد في جاذبية الشباب ويلفت نظر الأفراد ولاسيما الجنس الآخر إليهم.

وهذا حق طبيعي من حقوقهم، إلا أنه ينبغي الحذر من الإفراط في ذلك، لكي لا يؤدي إلى نتائج سلبية مثل التبذير والغرور والإلهاء عن المهام الأساسية في الحياة أو يجر إلى الفساد والانحلال الأخلاقي.

كما يوجد لدى الشباب ميل طبيعي إلى الجمال الروحي والسجايا الأخلاقية، مثل: الفتوة والشهامة والوفاء والصدق وأداء الأمانة وعزة النفس والتضحية والفداء والعمل الصالح وغيرها، ويكرهوا الذل والهوان والغدر والكذب والخيانة والأعمال القبيحة، مما يفرض على المربين استغلال هذه الحالة الفطرية وتوظيفها من أجل تعزيز الدور الإيجابي للشباب في المجتمع والدولة.

أهمية مرحلة الشباب

تعتبر مرحلة الشباب من أخصب مراحل العمر وذروة قوة الإنسان وسطوته واقتداره وصفوة حياته، فهي منبع الطاقة والقوة والنشاط والحركة والعطاء والعشق والأمل، وهي فترة البزوغ والتألق والانتشاء والسرور في الحياة، فيها تتسع آمال الإنسان وأمانيه وطموحاته، وهي مرحلة خصبة سهلة الإنبات كثيرة الحصاد، ويمكنها أن تأتي بالمجد والعزة والكرامة والارتقاء والتقدم لأية أمة أو لأي شعب أو لأية جماعة لو استثمرت استثمارا صحيحا.

فبعطاء الشباب وبذلهم تحتفظ الأمم والشعوب بالمكانة المرموقة بين شعوب العالم، وبتوقف عطاء الشباب وبذلهم أو انحرافهما تتخلف الأمم والشعوب وتهوي إلى الحضيض، فوجود الشباب يمكن أن يغير بعمق نظرتنا للأوضاع والحياة.

ولهذا حظيت مرحلة الشباب باهتمام الباحثين والدارسين بصورة لافتة في القرن العشرين، واعتبرت المعرفة بخصائص الشباب أهم اكتشافات هذا القرن، وقد جعلت تلك الاكتشافات من الشباب الواعي المسئول العامل الأهم في تقدم الأمم والشعوب في عالمنا المعاصر، ومن بيده تحديد المصير في حالتي السلم والحرب، وعليه:

- فقد لاقت مرحلة الشباب اهتماما كبيرا من الهيئات والمؤسسات العالمية.

- وأخذ الشباب أدوارا طليعية في جميع الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الأمم المتقدمة.

- وأقيمت لهم المعسكرات الكشفية وغير الكشفية من أجل صقل مواهبهم وتفجير طاقاتهم ومواهبهم الإبداعية.

- ومنحوا الفرصة للعب أدوارا تأسيسه في صناعة الأنظمة الجديدة وإقرارها، لاسيما في الدول التي تبحث لنفسها عن مكان متقدم تحت الشمس وبين شعوب العالم.

فالشباب طاقة بشرية عظيمة، وهم بطاقاتهم الضخمة وقابلياتهم الفذة وعقولهم المتحررة وحالتهم الأخلاقية النظيفة وما يحملونه من عوامل النبل والفضيلة ومشاعل الخير، يعتبرون بحق وحقيقة الرأسمال الحقيقي لأي بلد ولأي كيان ولأي مؤسسة تريد الازدهار والتقدم إلى الأمام.

فطاقة الشباب التي لا تعرف الكلل والملل، والحالات الأخلاقية النقية

السامية التي يتمتع بها الشباب، مثل: الصدق والإخلاص والوفاء والاستعداد للتضحية والفداء، وعقولهم المتحررة، وآمالهم وطموحاتهم، تجعل منهم الطاقة الأهم بين مكونات الطاقة البشرية.

فهم الأساس الأقوى للاقتصاد والعمران والمحافظة على الاستقلال والحقوق الوطنية، فهم وحدهم القادرون من بين مكونات الطاقة البشرية على التغلب على مشاكل الحياة وصعوباتها والانتصار عليها وتجاوز العراقيل التي تقف أمامهم في طريق التقدم والازدهار والحرية.

- فهم من يزرع ويستخرج كنوز الأرض.
- وهم من يحرك عجلة التجارة والصناعة.
- وهم ليوث ساحات القتال والصراع، فهم من يسكت مدافع الأعداء، وهم من يقطع أيدي المستبدين والمستكبرين والطواغيت في الأرض.

فهم بحق وحقيقة آمال الشعوب من أجل التقدم والازدهار والحرية والعزة والكرامة وصيانة الاستقلال والحقوق الوطنية.

أما الدول والكيانات المتخلفة: فهي لا تدع وصف الشباب بالتهور والسذاجة وقلة الخبرة والتجربة في تبرير تهميشهم وفرض الاستبداد، لتراوح مكانها في الضعف والفشل والتخلف، ثم تأخذ طريقها إلى الفناء والانسحاب من الحياة.

يقول سالم الهادي: « رؤية عميقة مجردة من البساطة والسذاجة تكشف للمرء عمق مرحلة الشباب، فهي شيء مختلط بكل ركن من الحياة وداخل بكل صفة من صفاتها، إنها كالدم في الجسم يسري في كل أنحاء الجسم ويختلط بكل خلية من خلاياه، وباستمراريته يحتفظ الجسم بحياته وحيويته فإن توقف لحظة عن جزء

من أجزاء الجسم، مات هذا الجزء وتسممت سائر الأعضاء وهلكت »[1].

وقديما قال الصينيون: « إذا كنت ستزرع لعام واحد فأزرع قمحا، وإذا كنت ستزرع لعشرات الأعوام فأغرس الأشجار، وإذا كنت ستزرع للأبد فتعهد الشباب ».

وهذا لا يعني عدم الالتفات إلى نواقص الشباب أو تجاهلها.

- فالشباب يحتاجون إلى العقيدة الصحيحة.

- وإلى النظام القيمي السامي الذي يرشدهم ويوجه جهودهم الوجهة الصحيحة.

- وإلى الإرشاد والتوجيه والمحاسبة، لكي لا تنحرف جهودهم وتوجهاتهم نحو العبثية والهدم، تحت تأثير الجهل والغرور أو الميول العاطفية والانفعالية وغيرها من المؤثرات السلبية التي قد يقع الشباب فريسة لها. وغير بعيد عنا صورة الشباب البائس إثر الانحرافات الفكرية والفساد الروحي والأخلاقي والاجتماعي الذي يعانون منه، فتبدلت لديهم الصورة: فبدلا من الأمل والعمل الصالح الجاد، حل اليأس والقنوط وانعدمت لديهم الرغبة في العلم والمعرفة والعمل النافع، وانغمسوا في الهوى وأتباع الشهوات والنفس الأمارة بالسوء، واستهوتهم الأعمال الضرة بأنفسهم والمجتمع والدولة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إن العبد لا تزول قدماه يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه »[2].

وقال الدكتور البوطي: « والشباب في حياة الإنسان مجموعة طاقات

---

(١) الشباب الضائع.ص ١٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي.ص٥٩.

طامحة، فإن كانت موجهة نحو الاستقامة والخير، تهيأ للأمة كلها من هذه الطاقات خير كبير، أما إن تركت لتتجه نحو الانحراف والبغي، تهيأ للأمة كلها من هذه الطاقات شر وبيل »[1].

وقد أعطى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ اهتماما استثنائيا للشباب، وقلدهم المهام الحساسة والمناصب العليا في الدعوة وإدارة الدولة الإسلامية وقيادتها، فقد وضع (مثلا) مستقبل رسالة السماء والبشرية بيد مصعب بن عمير وهو في العشرين من عمره حينما نصبه وكيلا عنه وأميرا على المسلمين في المدينة المنورة وكلفه بالتمهيد لهجرته إليها، ونحن نعلم أن مستقبل الرسالة ومستقبل البشرية كان يتوقف على نجاح هذه المهمة.

كما قلد أسامة بن زيد قيادة الجيش في مرضه الذي توفي فيه وهو نفس العمر تقريبا وفي الجيش وجوه المهاجرين والأنصار.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية،،

النتيجة (١): كل دولة وكل مجتمع وكل مؤسسة تريد لنفسها النجاح والتقدم، فعليها أن تفسح المجال للشباب الذين يتمتعون بالكفاءة الفكرية والروحية والنفسية والإدارية وتمنحهم المناصب القيادية فيها.

وفي ظل هذا تنكشف خطورة منع انطلاقة الشباب وخطورة وقوع الشباب فريسة التقليد الأعمى للآباء والأجداد، فتشل بذلك قدرتهم على الإبداع، ويقعوا فريسة للحيرة والتردد، فتفسد الدولة والمجتمع، وتنعدم فيهما الفرص الحقيقية

---

(١) الإسلام ومشكلات الشباب. ص١١.

للتصحيح والتطوير، ويأخذا طريقهما إلى الخراب والفناء.

النتيجة (٢): يجب الاهتمام بتقديم الرعاية الفكرية والروحية والأخلاقية والصحية والبدنية للشباب وعدم إهمالهم، فإن الأعداء سوف يستهدفونهم بالدرجة الأولى للنيل من الأمة وتحقيق أهدافهم الخسيسة فيها.

النتيجة (٣): تتعدد المخاطر المحدقة بالشباب، وأهمها:

- الانحرافات الفكرية التي تقود الشباب إلى التطرف والمناهج الخاطئة في الحياة.

- والانحرافات السلوكية التي تؤدي بهم إلى العيش في أجواء الرذيلة وصرف طاقاتهم وقدراتهم في المجالات المنحطة والعبثية التي لا تجدي نفعا للشباب أو المجتمع أو الدولة.

النتيجة (٤): يجب على الشباب التصدي للقضايا الحيوية وللشأن العام في الحياة، وعدم الانشغال بالقضايا التافهة وبالهموم الخاصة.

لأن مصيرهم ومصير المجتمع والدولة يتوقف على هذا التصدي، مع الحرص التام على المناقبية في التعامل وأداء المهام.

والخلاصة: إن مرحلة الشباب تلعب دورا عظيما متميزا في الحياة، فإن استثمرت تقدمت الأمة في ركب الحضارة والتمدن، وإن أهملت تأخرت الأمة وتخلفت وأخذت طريقها إلى الفناء.

فكل أمة أو شعب أو كيان يتطلع إلى التقدم والحياة السعيدة، فعليه أن يصقل الطاقات الشابة لديه، ويقوم بتثقيفها وتربيتها على الفضيلة والعمل الخلاق، وتجنبها الانحراف الفكري والوقوع في الرذيلة والتقليد الأعمى، وإلا فالنتيجة هي السقوط والتخلف والفناء والانسحاب من ساحة الحياة.

المرحلة (٥): الكهولة

وتبدأ مع بداية السنة الواحدة والأربعين وتستمر حتى نهاية سنة الستين تقريبا، وهي مرحلة الحنكة والخبرة في الحياة، واكتمال العقل والتفكير بعمق وعقلانية وواقعية تامة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: « يزيد عقل الرجل بعد الأربعين إلى خمسين وستين، ثم ينقص عقله بعد ذلك »[١].

فمن خصائص هذه المرحلة:

- التأني في التفكير.
- والحكمة في التصرف.
- والتأمل في معنى الحياة وقيمتها.
- والتفكير بالقيم، مثل: الصلاح والاستقامة.
- والقبول بفكرة الموت كنهاية حتمية لحياة الإنسان.
- والمراجعة وجرد الحساب والاستفادة من التجارب السابقة في الحياة.
- والسعي إلى التعويض وانجاز ما يمكن انجازه، مما يمهد لظهور أحد حالتين على الكهل: إما الرضا عن النفس، أو الوقوع في براثن اليأس والقنوط.

ويجب على الشباب التعلم من الكهول والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم في الحياة، وتوظيفها لتجنب السلبيات وتحقيق النجاح.

فمتى كان هناك أخذ وعطاء بين جيلين، فإن النتيجة تكون دائما إيجابية،

---

(١) البحار. ج١. ص١٣١.

ومهمة لتفتح الأجيال اللاحقة وتطور تجربتها في الحياة.

المرحلة (٦): الشيخوخة

وتبدأ مع بداية السنة الواحدة والستين وتستمر حتى نهاية عمر الإنسان في الحياة، وفيها يبدأ الإنسان رحلة العودة والنزول التدريجي، حيث يهبط سنة بعد سنة نحو الضعف والانحلال، ويفقد قدراته وإمكانياته التي تصاب بالجمود والشلل ويتوقف عن العطاء بصورة تدريجية، حتى يحط به الرحال في نهاية المطاف إلى أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾[1].

ومن خصائص هذه المرحلة:

- ضعف القوى الجسمية والطاقة والحيوية.
- ويصاب بالترهل والذبول وقلة الاهتمام وضعف الميول.
- ويظهر عليه إهمال النظافة والملبس والمظهر العام.
- وضعف الشهية.
- وقلة النوم.
- وضعف الذاكرة.
- وضعف الحواس: السمع والبصر والشم.
- ونقص الكفاءة الوظيفة (عادة) وما يصاحبها من نكوص (عودة إلى

---

(١) يس: ٦٨.

الوراء) مما يؤدي إلى ضعف التواصل مع المجتمع والعالم.

- ويشعره بالخوف والقلق والإحباط والعزلة وشدة الانفعال وظهور العمليات الدفاعية وكأنه ينتظر النهاية المحتومة.

- وظهور الأمراض المختلفة في الجسم والعجز.

حيث تظهر على المسن مجموعة من المتغيرات البيوكيميائية، تتمثل في: ضعف القلب، وقلة دفع الدم إلى الأجهزة العضوية في الجسم، والضعف الصحي العام، وضعف الحواس وغيرها.

وقد يصاب المسن بمرض (الزهايمر) وهو فقدان الذاكرة والنسيان أو مرض (باركنسون) وهو الرعاش.

وقد يصاب بالشلل النصفي، وخلل التناسق العضلي والعصبي، وخلل التوازن مما يؤدي إلى صعوبة الحركة خاصة في المواقف التي تتطلب تحكم أكثر في التوازن.

ويكون عرضة للسقوط والتعرض إلى الإصابات التي يكون بعضها بليغا مما يزيد في مأساته ومصيبته.

وقد يصاب بأمراض أخرى تصيب العمود الفقري والرقبة والركب والمفاصل وضعف النظر والسمع وانخفاض الصوت وضغط الدم والسكر، مما يؤدي إلى تدهور في صحته النفسية وظهور بعض المشاكل والصعوبات في حياته الاجتماعية، حيث يبدأ بالاعتماد جزئيا على الغير في شؤونه العامة والخاصة، وقد ينتهي به الأمر إلى الاعتماد الكلي.

- ويفقد القدرة على الاتصال الاجتماعي.

- والميل إلى العزلة والخمول والسكون، فلا يخرج إلا نادرا أو في

المناسبات الضرورية، ويفقد بعض الأصدقاء بسبب وفاتهم أو مرضهم أو انعزالهم وربما يفقد شريك الحياة: الزوج / الزوجة.

وهذا مما يشعره بالحزن والأسى، ويزيد من شعوره بالحرمان الاجتماعي، ويقلل بطبيعة الحال من النشاط والاهتمامات اليومية، مما يزيد أكثر من مأساته.

- كما يتذكر الحوادث السابقة والخبرات الأليمة في حياته، التي قد تهز كيانه وتهز شخصيته، ويشعره بعضها بالذنب بسبب شعوره بالتقصير والخطأ أو غيره، مما يجعله في حاجة إلى من يواسيه ويؤنس وحشته.

- وهو يتوق إلى سماع أخبار شبابه مما يدخل العزاء إلى قلبه، وهو يفرح لمن يسردها عليه باعتزاز وافتخار.

واجبات الأهل والأقارب نحو المسنين

وما سبق يفرض على الأبناء والأقرباء وكافة المحيطين بالمسن بعض الواجبات، منها:

- تقديم المساعدة إليه بكل الحب والعطف والحنان (الإشباع الوجداني) وبدون إظهار التأفف والضجر.

- وإشعاره بالأمن والتقدير، لكي يعينوه على قضاء ما تبقى له من العمر في سعادة وراحة بال.

- توفير المكان الصحي المناسب، وتزويده بما يحتاجه من الأجهزة، مثل: الراديو وآلة التسجيل والتلفزيون، من أجل تقليل وحشته ومساعدته على التواصل مع العالم.

- الحرص على مشاركته في أنشطة الأسرة قدر الإمكان وبحسب راحته

ورغبته، مثل: تكليفه بشراء بعض الحاجات الخفيفة للأسرة، والعناية بحديقة الأسرة وغيرها.

- تقديم الهدايا له في المناسبات السعيدة كالأعياد، فهذا كله من شأنه أن يدخل السرور والسعادة إلى قلبه، ويشعره بأنه لا زال يعيش بين الأحياء في الحياة.

- والصبر عليه إذا هذى في كلامه وأعاد عليهم ما يرويه ويكرره لهم عدة مرات، وأن يستمعوا إليه برحابة صدر دون أن يشعروه بالخلل الذي لم يعد مسئولا عنه.

- أن يتجنبوا توجيه الكلمات الجارحة له، مثل: أصمخ، وأعمى، ولا تفهم، لأنه يكون شديد الحساسية لها ويتألم منها كثيرا.

- يجب أن يكونوا له عينا يبصر بها وإذنا يسمع بها لتعويضه عن ضعف السمع والبصر، وليشعروه بالتواصل مع العالم وانه لم ينقطع عنه تماما.

- أن يتفهموا أخطائه ويتعاملوا معها برحابة صدر، مما يشعره بالطمأنينة والكرامة.

فهذا ما تفرضه الدوافع الإنسانية النبيلة في التعامل مع المسنين، وهذا ما أوصانا به رب العالمين، وإن قليلا من العطف والحنان، يعطي الكثير من الراحة النفسية للشخص المسن، والكثير من الثواب والقيمة الإنسانية لصاحب العطف والحنان على المسن.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[1].

(١) الإسراء: ٢٣.

المسنّ ومحنة التقاعد عن العمل

وفي هذه المرحلة يحال المسن (عادة) إلى التقاعد، وهذا قد يفرض عليه،،

- حياة جديدة لم يألفها ولم يستعد لها من قبل، ولا يجد في نفسه القدرة على سرعة التكيف معها.

- ويمنحه الكثير من وقت الفراغ الذي لا يعرف كيف يتصرف فيه.

- وربما العجز المالي عن توفير حاجاته الأساسية بسبب فقدانه الكثير من دخله مع تزايد الأعباء المالية، مما يؤدي إلى شعوره بالقلق وعدم الأمن المالي والاكتئاب والأرق.

- وربما يشعر بأنه فاقد للقيمة، وأن الآخرين لم يعودوا راغبين في وجوده.

- كما يشعر بالاغتراب عن المجتمع بسبب فقدان المركز الاجتماعي والقدرة على التأثير، وبسبب نظرة المجتمع والدولة واتجاههما وسلوكهما مع المسنين، وعدم استجابة الدولة والمجتمع لاحتياجاته، وعدم منحه الفرصة للمشاركة في الأنشطة والمساهمة في اتخاذ القرارات المهمة والمصيرية في الدولة والمجتمع، وهذا بدوره يؤدي إلى:

- العزلة والتوتر والهياج والاكتئاب.وسرعة الاستثارة والعناد.

- وشدة الاهتمام بالذات.

- والميل إلى الذكريات القديمة وحكاية الخبرات السارة التي مرت عليه في حياته وتكرارها.

واجبات المجتمع والدولة نحو المسنين

وما سبق يفرض على المجتمع والدولة بعض الواجبات نحو المسنين، منها:

- توفير الحماية وتأمين الترفيه والرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية لهم.

- مساعدتهم على المساهمة في الأنشطة المجتمعية، وإشباع الحاجات الأساسية لهم بالأسلوب الذي يحفظ عزتهم وكرامتهم.

- إشعارهم بالتقدير وأنهم ذو قيمة ومنفعة للمجتمع والدولة، وأن الأسرة والمجتمع والدولة لا تزال في حاجة إليهم وتستفيد من خبراتهم وتجاربهم المهنية والعامة في مختلف شؤون الحياة، مما يشعره بقيمته الإنسانية وبكيانه الشخصي المحترم والمقدر.

وفي الختام: ينبغي التأكيد على أن ممارسة المسن للرياضة الخفيفة كالمشي والأنشطة المنزلية المناسبة، والاستمرار في مزاولة الأنشطة الفكرية والعبادية والاجتماعية والثقافية، بالإضافة إلى توفير الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية اللازمة التي يحتاجها، من شأنه أن يحافظ على صحة المسن، وسعادته في الحياة إلى نهاية عمره.

وقد أثبتت الدراسات: أن حالة الشيخوخة تتأثر بمستوى المعيشة، ودرجة التعليم، والرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية، وأن الأفراد الذين يدخلون سن الشيخوخة وهم مستعدون لها إيمانيا وفكريا ونفسيا، يمكنهم أن يعمروا أكثر، ويقضوا شيخوخة سعيدة ومطمئنة.

وأن قطاعا واسعا من المسنين يستطيع المحافظة على صحته وسلامته الجسمية والعقلية والنفسية، ويكون فعالا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وأن بعض المسنين تستمر لديهم الشخصية في النمو والتكامل حتى آخر لحظة في حياتهم، مما يشكل رأسمالا قويا ومهما للدولة والمجتمع، وهذا ما تفكر فيه الدول المتقدمة وتخطط له، كجزء من التنمية الشاملة وحقوق الإنسان.

وينبغي التنبيه إلى أن النظام البيروقراطي في الدول لا يمنح الفرصة الكافية للمسنين ويجبرهم على التقاعد رغم رغبتهم الملحة وتجاربهم الغنية وقدرتهم على العمل والإنتاج وتحقيق النجاح في الوظائف الكبرى التي تحتاج إلى خبرتهم وتجاربهم وحصافة عقلهم، مما يحرم الدولة والمجتمع من هذه الثروة البشرية العظيمة.

ونحن نلمس صحة هذا الكلام من خلال العمل في القطاع الخاص، كالتجارة والطب والهندسة والمحاماة والدراسات العلمية والفكرية، وأحيانا الأنشطة البدنية مثل الزراعة والصناعات الحرفية وصيد الأسماك وغيرها.

الفصل الثالث

العوامل المؤثّرة في النموّ

النمو ليس عملية عشوائية أو يحدث بصورة تلقائية بعيدة عن مؤثرات محددة، فهو يتأثر بعدد من العوامل الأساسية والثانوية، وهي:

- العوامل الوراثية.
- والتكوين العضوي.
- والبيئة التي يعيش فيها الإنسان.

العامل (١): الوراثة

والمقصود بها ما ينتقل من الوالدين إلى أولادهم بيولوجيا بواسطة الجينات أو المورثات، من سمات وخصائص جسمية وعقلية ونفسية إيجابية أو سلبية.

وهي تختلف عن السمات الخلقية التي يكتسبها الجنين من بيئة الرحم بسبب الغذاء أو الحالة النفسية أو الحوادث أو غيرها، فهي سمات بيئية في طبيعتها.

وتظل السمات أو الصفات والخصائص الوراثية ملازمة للإنسان

طوال حياته.

وهذا يتطلب الاعتناء بخاصية هذا العامل الفاعل في وقت مبكر من حياة الإنسان، وذلك عند التفكير في الزواج، حيث:

- يجب خلو الزوجين من الأمراض الوراثية.
- وأن يحتفظا بسلامة بنية الجسم.
- وبالصحة النفسية والعقلية.

وذلك من أجل بناء أسرة سليمة تتمتع بالصحة الجسمية والعقلية وبالاستقرار النفسي والاجتماعي، وحماية الأجيال القادمة من شرور الأمراض الوراثية.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وانكحوا إليهم ».

أهميّة الفحص الطبي قبل الزواج

ومن هنا تأتي أهمية الفحص الطبي قبل الزواج لتحقيق الأهداف التالية،،

الهدف (١): اكتشاف الأمراض التناسلية المعدية وعلاجها وتقديم النصح للوقاية منها والحد من انتشارها.

الهدف (٢): اكتشاف الأمراض الوراثية لدى المقبلين على الزواج واستطلاع مدى تأثيرها على الأبناء وتقديم النصح والإرشاد للمقبلين على الزواج على ضوء النتائج السريرية والمختبرية.

العامل (٢): التكوين العضوي (الغددي)

والمقصود به تأثير جهاز الغدد لاسيما الصماء (ذات الإفراز الداخلي المباشر في الدم) في جسم الإنسان في عملية النمو، فإنها ذات تأثير كبير ومباشر على النمو، فإذا اختلت إفرازاتها، اختل معها نمو الإنسان وأضطرب أي اضطراب، والجهاز يتألف من مجموعة من الغدد، منها:

أ - **الغدة النخامية**: وهي من أعقد الغدد الصماء، وحجمها في حجم حبة البازلاء، وتقع في أسفل الدماغ، وتتكون من فصين: أمامي وخلفي.

يفرز الفص الأمامي هرمونات تنظم النمو وهرمونات غذائية تنظم وظائف الغدد الصماء الأخرى.

والفص الخلفي يفرز هرمونا ينظم الماء.

ولأنها تفرز هرمونا ينظم عمل الغدد الأخرى، تسمى: (الأستاذ).

ويعد هرمون النمو من أهم إفرازاتها، نظرا لتأثيره المباشر على الأنسجة الموجود في الجسم، إلى جانب أنه يعمل على تعزيز نشاط الهرمونات الأخرى التي تقوم الغدة النخامية بإفرازاتها.

ويؤدي زيادة إفراز هرمون النمو في مرحلتي: الطفولة والمراهقة إلى زيادة غير طبيعية في طول القامة، كما يؤدي نقصه إلى قصر القامة.

ب - **الغدة الدرقية**: وتقع في العنق في جوار الحنجرة والقصبة الهوائية العليا، وينظم إفرازها عملية البناء والهدم في الأنسجة، وتقوم بوظيفتين:

- تخزين مادة (اليود).

- وإفراز هرمون (الثيروكسين) وهو إفراز محدود، إلا أنه ضروري جدا

لعملية النمو السوي وخصوصا لدى الأطفال.

- وتعمل أيضا على تنظيم الوزن وحفظ حرارة الجسم.

- وتلعب دورا مؤثرا في استقرار الحالة النفسية والانفعالات لدى الإنسان.

ويؤدي النقص في إفرازها إلى الخمول والبلادة والبطء في التفكير والنسيان والتعب وفقدان الشهية.

وتؤدي الزيادة في إفرازها إلى زيادة نشاط العمليات الحيوية، ويصبح الفرد قلقا ضجرا وسريع الهيجان، وغير مستقر انفعاليا وحركيا.

حـ - **الغدد نظير الدرقية (جارات الدرقية)**: وتقع إلى الجانب الخلفي للغدة الدرقية، وتعتبر هرموناتها من الهرمونات الأساسية الضرورية لحياة الإنسان، حيث تؤدي إزالتها إلى نقص شديد في مادة الكالسيوم وارتفاع مستوى الفوسفات في بلازما الدم، مما يعجل بإنهاء حياة الإنسان.

ونقص إفرازاتها يؤدي إلى حالات مرضية حادة، مثل: الكزاز (وهو عبارة عن تقلصات وتشنجات عضلية) وإلى حدوث حالات مزمنة، مثل: القلق النفسي.

ويؤدي زيادة إفرازها إلى التهاب العظام والتعب الذي يصيب الجهازين الهضمي والبولي.

د - **الغدة الثيموسية**: وتقع في مقدمة القفص الصدري، وتكون كبيرة عند الولادة، ويصل حجمها أقصاه عند البلوغ، ثم تأخذ في النقص، وهذا يعكس أهمية دورها في المراحل المبكرة من حياة الإنسان، ووظيفتها إيجاد المناعة في الجسم.

هـ- **غدة البنكرياس**: وتقع خلف المعدة، ولها إفرازان:

- خارجي يساعد على عملية الهضم.

- وهرمون الأنسولين، ووظيفته ضبط مستوى السكر في الدم.

ونقص إفرازها يؤدي إلى زيادة نسبة السكر في الدم.

وزيادة إفرازها يؤدي إلى نقص نسبة السكر في الدم، مما يؤدي إلى اختلال في صحة الإنسان.

و - **الغدة الجاركلورية (الكظرية):** وتقع فوق الكليتين، وتتكون من جزأين: النخاع والقشرة.

يفرز النخاع نوعين من الهرمونات: (الأدرينالين) ويلعب دورا مهما في تنظيم الانفعالات، ويؤدي تورمها إلى زيادة إفرازها، مما يسبب القلق النفسي.

أما القشرة: فتقوم إفرازاتها بمقاومة المؤثرات الضارة بالجسم، ويؤدي اضطراب إفرازها إلى حدوث أمراض، مثل: زيادة الوزن أو ضعف عام في الجسم.

ز - **الغدة التناسلية (المناسل):** وهي المبيضان لدى الأنثى والخصيتان لدى الذكر، وتقوم بإفراز نوعين من الهرمونات:

- خارجي وهو الحيوانات المنوية عند الذكر - وهو المسؤول عن تحديد نوع الجنين - والبيضات عند الأنثى.

- وداخلي وهو الهرمونات الجنسية.

ولهذه الهرمونات أثر كبير في نمو الأعضاء التناسلية وفي النمو النفسي والانفعالي.

فهي تساعد على نضج الأعضاء التناسلية وظهور الخصائص الجنسية الثانوية لدى الجنسين، مثل: ظهور الشعر وتضخم الصوت لدى الذكور، ونمو الفخذين وبروز الصدر ونعومة الصوت لدى الأنثى.

وأيضا تسهم في نمو السمات الذكورية والأنثوية النفسية والدافع الجنسي

لدى الجنسين. أما الغدة الأنثوية: فتفرز نوعين من الهرمونات.

النوع (١): دوره السيطرة على الصفات الجنسية الأولية، مثل: إفراز البويضة، والصفات الثانوية التي تتميز بها الأنثى مثل الليونة ونعومة الصوت كما ذكر.

والنوع (٢): يعمل على نمو البويضة المخصبة حتى تصبح جنينا مكتمل التكوين، وتسيطر على الغدد اللبنية عند الأم التي تفرز الحليب / الغذاء الرئيسي للطفل.

بهذا يتبين تأثير الغدد الصماء في عملية النمو: الجسمي والعقلي والنفسي، وهذا يتطلب متابعة العمل الوظيفي لهذه الغدد في وقت مبكر، والتأكد من استمرار نشاطها عند الحد الطبيعي المتزن، في سبيل إيجاد المناعة للجسم، والنمو السوي: الجسمي والعقلي والنفسي.

العامل (٣): التغذية

وهي من العوامل الأساسية للنمو وأشدها تأثيرا في قوة الجسم والنشاط العقلي.

فالغذاء هو المصدر الأساسي للطاقة الجسمية وبناء أنسجة الجسم، وإمداده بما يحتاجه من عناصر أساسية تساعده على النمو بصورة متزنة، وعدم توفر المكونات الأساسية يضعف من إمكانيات النمو، ويقلل من قدرته على مقاومة الأمراض.

العامل (٤): البيئة الاجتماعية والثقافية

والمقصود به تأثير البيئة الطبيعية، مثل: العيش في الصحراء أو بين الجبال أو في جزيرة وغيره.

وتأثير الأسرة والمؤسسات المجتمعية: الدينية والإعلامية والتعليمية والثقافية والاجتماعية والرياضية وغيرها في نمو الإنسان الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي، وصقل شخصيته وبنائها وما يكتسبه من صفات سلوكية إيجابية أو سلبية وما يحصل عليه من خبرات مؤلمة أو لذيذة.

ويعتبر تأثيرها في النمو - لاسيما العقلي والنفسي والاجتماعي - في غاية الوضوح خصوصا في مرحلة الطفولة.

الأسرة مثالا: فالطفل - على وجه المثال - يرتبط بأسرته ويعتمد عليها اعتمادا كليا، مما يترك تأثيره على نمو الطفل العقلي، وذلك باكتسابه اللغة وتعويده طرق التفكير وغيره، ويؤثر على نموه الوجداني.

فالاستقرار العائلي يؤدي إلى شعور الإنسان لاسيما الأطفال بالهدوء والطمأنينة، كما يؤدي عدم الاستقرار إلى الشعور بالتشاؤم وقلة الطموح والاضطراب الانفعالي.

وأن حرمان الطفل من الحب والعطف والحنان، يؤدي إلى جعل الطفل حاد المزاج ويتميز بالعدوانية تجاه الآخرين.

كما تؤثر الأسرة على النمو الاجتماعي للطفل، حيث تخلق لديه الميول الاجتماعية، مثل: التعاون والإيثار والرحمة بدلا من الأنانية وحب الذات والانغلاق عليها، وهذا كله يتطلب من الوالدين تحمل مسؤولياتهما الكبيرة تجاه الأبناء.

العامل (٥): التعليم والتدريب

فالطفل يولد وهو لا يعلم شيئا، وكل ما لديه هو الاستعدادات الجسمية والعقلية غير الواضحة عند الميلاد، ثم يستخدم حواسه لتزوده بالمعرفة بصورة

تدريجية، ويتلقى العلم والتدريب من المحيط الاجتماعي، فتنمو الاستعدادات وتكبر تدريجيا، فيصبح رياضيا ماهرا، أو عالما، أو فنانا، أو غير ذلك.

ويشترط لنمو الاستعدادات مرور فترة زمنية كافية تستكمل فيها نموها وتقوى القابلية فيها لتلقي التعليم والتدريب.

فتعليم الطفل على المشي لا يتم قبل نهاية العام الأول.

وتعليمه النطق لا يتم قبل بداية العام الثاني، وهكذا.

وفي حال توقف نضج الأعضاء لسبب وراثي أو بيولوجي أو بسبب بعض الأمراض أو الحوادث، فإن ذلك قد يؤدي إلى بطء عملية النمو أو توقفها.

مبادئ النمو

النمو ظاهرة طبيعية تتميز بها الكائنات الحية، حيث تطرأ عليها تغيرات تسير بها قدما نحو النضج والاكتمال، وتتابع هذه التغيرات في نظام محدد ومراحل معينة تشمل كل جوانب الكائن الحي: الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية في تناسق مدهش وعجيب لتأخذ شكل وحدة متكاملة، حتى يتحقق النضج والاكتمال، وما يهمنا في هذا المكان من البحث: هو الإشارة إلى مجموعة المبادئ التي تحكم عملية نمو الإنسان وتكامله في جميع مراحل حياته، والتي من شأن معرفتها مساعدة الدارسين والمهتمين في المجتمع والدولة على معرفة مكونات الشخصية وما لدى الأفراد من قدرات، والتعرف على مطالب النمو واحتياجاته، وعلى سلوك الإنسان ومستوى النضج وطبيعة التغيرات التي تطرأ عليه في مراحل عمره، وتفسر أوجه التشابه والاختلاف بين بني البشر جميعا في مشارق الأرض ومغاربها طوال التاريخ الإنساني.

ومن شأن معرفتها أن تزيد من قدرة الأسرة والمجتمع والدولة والمؤسسات على توفير الرعاية المناسبة والإرشاد والتوجيه: التربوي والنفسي والاجتماعي والمهني اللازم للأفراد في جميع مراحل أعمارهم.

ومن هذه المبادئ:

- أن النمو يحدث لدى جميع البشر بصورة مستمرة وبترتيب تكويني خاص، فالطفل المستلقي على بطنه يرفع رأسه وعمره شهر، ثم يرفع صدره وعمره شهران، وهكذا.

- أن كل فرد يمر بنفس المراحل الطبيعية في عمر الإنسان، وتظهر عليه في كل مرحلة نفس الصفات: الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية، مع وجود فروق فردية محدود، بعضها يعود لأسباب تكوينية عضوية، وبعضها يعود لأسباب وراثية، وبعضها يعود لأسباب مكتسبة، فلا يمكن أن ينمو طفلان بصورة متشابهة تماما، حتى التوائم في الأسرة الواحدة.

- أن النمو يسير نحو التقدم والأمام، فالطفل يولد وأعضاء جسمه صغيرة ثم تظل تكبر وتنمو في الحجم أو الطول، وأن الطفل يولد وهو لا يعلم شيئا، ثم يبدأ يستخدم بعض العمليات العقلية البسطة، ثم يتطور ليصبح عالما كبيرا ومميزا، وهكذا.

- أن البنين يتفوقون على البنات في الوزن، ويصل البنات قبل البنين إلى النضج الجسمي والجنسي، وتوجد فوارق أخرى بين الجنسين.

- أن النمو يسير من العام إلى الخاص، فالطفل يتحرك في البداية بكل جسمه، ثم يبدأ يحرك أجزاء الجسم من العام إلى الخاص، فيحرك اليد ثم الأصابع وهكذا. والانفعالات تسير من الاستثارة العامة إلى الاستثارات الخاصة والمتنوعة بالأشياء والأشخاص. والانتباه ينتقل من النظرة العامة للأشياء إلى مكوناتها

الجزئية.

- أن النمو لا يسير بسرعة واحدة لجميع جوانب النمو وفي جميع المراحل، فالنمو في الطفولة المبكرة أسرع من الطفولة المتأخرة في جميع الجوانب، ويتوقف النمو العام الجسمي والعقلي مع نهاية سن المراهقة، ويستمر نمو القدرات الخاصة: الجسمية والعقلية والنفسية والحركية حتى نهاية العمر الطبيعي للإنسان.

- أن جميع جوانب النمو ترتبط مع بعضها البعض، فالنمو الجسمي السليم يؤثر على النمو العقلي، والنمو العقلي يؤثر على النمو الاجتماعي، والنمو الاجتماعي يؤثر على النمو النفسي.

- أن النمو يتأثر بعدة عوامل أساسية وثانوية لها فعاليتها في النمو، مما يتطلب مراعاتها ووضعها في محل الاهتمام، من أجل تحقيق التوازن والتوافق في الشخصية.

- أن الأفراد يتعرضون بطبيعة الحال إلى بعض المشكلات والعوائق، وأن الأسرة والمؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية والثقافية والرياضية تتحمل مسؤولية ضخمة تجاه أبناء المجتمع، تتمثل في متابعتهم ومساعدتهم على اجتياز تلك الصعوبات والمشاكل التي قد تواجههم في حياتهم العلمية والعملية.

- أن التقوى ومراعاة الخالق عز وجل فيما يأمر به وينهى عنه والسير على المنهج الإسلامي الحنيف، تعتبر من أهم الأمور التي تلعب دورا كبيرا في الاستقامة والنجاح في الحياة والتغلب على صعوباتها: مما يؤكد دور المسجد والتربية الإيمانية والروحية والأخلاقية في الحياة. كما أن الأخوة والتعاضد والتراحم في داخل الأسرة والمجتمع والدولة، يلعب دورا كبيرا في الاستقرار والأمن والسلامة النفسية والعقلية للأفراد، وهكذا.

الفصل الرابع

برّ الوالدين[1]

قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[2].

معاني المفردات

قضى: أمر وأوجب.

الإحسان: ضد الإساءة.

أف: لفظ يدل على التضجر والاستثقال.

لا تنهرهما: لا تزجرهما بالصياح ورفع الصوت، ولا تغلظ عليهما في القول.

جناح الذل: كناية عن الرعاية والعناية والتواضع.

---

(١) **ملاحظة:** البحث كان عبارة عن محاضرة سابقة تم تعديلها وتكييفها لتكون جزء من هذا الكتاب، نظرا للحاجة ومناسبتها له في هذا المكان من البحث.

(٢) الإسراء: ٢٣- ٢٤.

وسوف تأتي معاني المفردات بصورة مفصلة أكثر في بحث قادم.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتضمن الآيتان نقاط أساسية عديدة.. منها:

النقطة (١): النهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى.

قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

أي أمر بالإخلاص له في العبادة، والتمرد على كل الإرادات الشيطانية التي تسعى لأخذ الإنسان بعيدا عن طاعته جل جلاله إلى طاعة غيره.

وهذا التشريع هو في الحقيقة تقرير لما يحكم به العقل السليم، وليس مصادرة لحكمه أو إلغاء لدوره، كما قد يفهم البعض خطأ.

ويعتبر الإخلاص لله عز وجل في العبادة أعظم الواجبات وألزمها عقلا وشرعا.

ويعتبر الشرك به أكبر الكبائر وأقبحها، وهو افتراء عظيم ليس له أساس صحيح لدى العقلاء على الإطلاق، وإليه تعود جميع المعاصي والجرائم بحق النفس والمجتمع والإنسانية.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[١].

والعبادة تعني الطاعة لله عز وجل في كل شأن من شؤون الحياة، وليس مجرد الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها من المفردات.

---

(١) النساء: ٤٨.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « ليس العبادة هي السجود ولا الركوع إنما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده »[1].

وقال عليه السلام: « من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس »[2].

وقال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « من أتى ذا بدعة فوقره فقد سعى في هدم الإسلام »[3].

والإخلاص له جل جلاله في العبادة يتطلب (نفي وإثبات) كما تنص الآية الشريفة المباركة على ذلك.

أما النفي فيعني: عدم طاعة غير الله جل جلاله.

قول الله تعالى: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ ﴾.

سواء كان الغير هوى النفس وشهواتها، أم الشياطين، أم الطواغيت، فطاعتهم شرك بالله عز وجل ونقيض الإخلاص له في العبادة.

وأما الإثبات فيعني: التقيد والالتزام بالطاعة المطلقة لله جل جلاله وحده لا شريك له. قول الله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

أي: في كل أوامره ونواهيه، وعدم مخالفته في أي أمر أو نهي.

ويعتبر النفي والإثبات ركني الإخلاص لله عز وجل في العبادة، إذ بدونهما لا يتحقق الإخلاص.

---

(١) البحار. ج٧٢. ص ٩٤

(٢) البحار. ج٧٢. ص٢٦٤.

(٣) البحار. ج ٧٢. ص ٢٦٥.

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وهذا يؤسس إلى أصل الولاية والبراءة: فلا تتحصل الولاية الحقيقية الناصعة لله عز وجل إلا بطاعته وطاعة أوليائه الصالحين الذين فرض طاعتهم على عباده، وهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وبالبراءة من أعدائهم وعلى رأس القائمة الطواغيت، وهم كل من جعل لنفسه سلطة أو طاعة على الناس لم يأمر الله (جل جلاله) بها.

النقطة (٢): الأمر بالإحسان إلى الوالدين: لقد أوجب الله (تبارك وتعالى) على عباده البر بالوالدين والإحسان إليهما إحسانا كاملا يكافئ ما يقدمانه للأولاد، وجعل ذلك من أفضل القربات إلى الله عز وجل.

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين مقرونا بفرض الإخلاص في العبادة، مما يدل على أهميته في الرؤية الروحية والأخلاقية الإسلامية.

في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي الأعمال أحب؟

قال: « الصلاة على وقتها ».

قال: ثم أي؟

قال: « بر الوالدين ».

قال: ثم أي؟

قال: « الجهاد في سبيل الله »[2].

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) البخاري. ج٨. ص٢.

ومثله عن الإمام الصادق عليه السلام[1].

ويلاحظ هنا: أن الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله قد أخبر: أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي عمود الدين، وقدمه على الجهاد في سبيل الله (تبارك وتعالى) لأن بر الوالدين فرض عين، والجهاد فرض كفاية، وفرض العين أقوى من فرض الكفاية - بحسب فهم عدد من الفقهاء والمفسرين - وتؤيده سيرة الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله الذي رخص لعدد من الشباب عدم الخروج في الجهاد من أجل الشفقة بالوالدين والقيام على خدمتهما.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله: إني راغب في الجهاد نشيط.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله: فجاهد في سبيل الله، فإنك إن تقتل تكن حيا عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت إلى من الذنوب كما ولدت.

قال: يا رسول الله: إن لي والدان كبيران يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فقر مع والديك، فوالذي نفسي بيده، لأنسهما بك يوما وليلة، خير من جهاد سنة »[2].

وهذا بالطبع: إذا لم يكن الجهاد واجبا عينيا، وإذا توفر العدد الكافي من المتطوعين له، وإلا لم تجب طاعتهما بالتخلف عن الجهاد[3].

وقد نهى الله جل جلاله عن عقوق الوالدين وشدد في ذلك غاية التشديد.

---

(١) البحار. ج٧٤. ص ٤٥.

(٢) البحار. ج٧٤. ص٥٢.

(٣) الأمثل. ج٨. ص٢٩٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ج١٠. ص٢٤٠.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق »[1].

ويبقى الإحسان إلى الوالدين قائما حتى وإن كانا مشركين، ولكن ليس للولد أن يطيع الأبوين ولا غيرهما في شرك أو معصية « فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[2].

قول الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[4].

أيها الأحبة الأعزاء: لقد جاء الأمر من الله (جل جلاله) ببر الوالدين والإحسان إليهما في صورة القضاء ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ وهو يحمل معنى الأمر المؤكد مقرونا بالأمر المؤكد بالإخلاص له (سبحانه وتعالى) في العبادة، وهذا يدل بلا أدنى شك على أهمية الإحسان إلى الوالدين، إلا أن الله عز وجل لم يجعل للوالدين طاعة في قبال طاعته جل جلاله.

وللأمر بالإحسان إلى الوالدين في الآية الشريفة المباركة وعدم الأمر بطاعتهما بصورة مستقلة عن طاعة الله عز وجل دلالات عديدة، منها:

---

(١) البحار. ج٧٤. ص ٦٢.

(٢) البحار. ج٧٤. ص٧١.

(٣) العنكبوت: ٨.

(٤) لقمان: ١٥.

الدلالة (١): التأكيد على الفضل العظيم للوالدين على الأولاد، فهما السبب المباشر لوجودهم في الحياة، والقائمان بإخلاص على رعايتهم، حتى أنهما يضحيان بكل شيء حتى بالنفس في سبيلهم، فليس لأحد بعد الله جل جلاله فضل على الأولاد أكثر من فضل الوالدين.

ولإظهار عظيم منزلتهما ومدى أهميتها في التشريع الإسلامي المقدس ونظامه الأخلاقي والاجتماعي، فقد ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد ذكر التوحيد في مواضع عديدة في القرآن الكريم.. منها:

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

الدلالة (٢): أن عبادة الله (ذي الجلال والإكرام) تقوم على أساس واقعي عيني

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) النساء: ٣٦.

(٣) الأنعام: ١٥١.

صحيح، فهو الخالق، وهو الرازق، وهو الضار، وهو النافع، وهو المحيي، وهو المميت، وحده لا شريك له، ولا يوجد أي أساس صحيح لعبادة غيره.

فلا أحد يمتلك القدرة على النفع أو الضرر غيره، وكل خير يصل إلى الإنسان فهو في الحقيقة والواقع من الله جل جلاله، فهو الذي خلق الوالدين، وهو الذي يرزقهما ويمدهما بأسباب القوة والحركة، وهو الذي يملأ قلبيهما بالحب والعطف على الأولاد.

والخلاصة: لفضل الوالدين المباشر على الأولاد أمر الله جل جلاله بالإحسان إليهما، ولكنه لم يأمر بطاعتهما في مقابل طاعته جل جلاله، وذلك:

- لأنه لا يوجد أي أساس عيني صحيح لطاعتهما في مقابل طاعة الله عز وجل.

- ولأن ذلك يقطع الطريق على الإنسان إلى الله (ذي الجلال والإكرام) ويؤدي إلى الفساد في النفس والمجتمع.

فإذا أمر الوالدان الولد بأشياء غير شرعية أو غير منطقية، فلا تجب طاعتهما، ولكن ينبغي التعامل معهما برحمة وهدوء واحترام[١].

يقول العلامة السيد فضل الله: « فإن الطاعة التي يريدها الإسلام في طاعة الولد للوالدين، هي طاعة الإحسان والشفقة وليست طاعة المسؤولية من خلال طبيعة المضمون الذي تحتويه أوامرهما ونواهيهما، كما هو الحال في طاعة الله والرسول وأولي الأمر. فلو أمراه بما هو على خلاف المصلحة في دينه أو دنياه، أو بما فيه المفسدة في ذلك، فلا يجب عليه إطاعتهما، ولكن لا بد من أن يواجه الموقف بكثير من المرونة في الجو والأسلوب عند إرادة المعصية »[٢].

---

(١) الأمثل. ج٨. ص ٤٠٠.

(٢) من وحي القرآن. ج١٤ . ص٨٥.

فإذا كان هذا هو الحال في الطاعة مع الوالدين مع عظيم فضلهما، فإنه لا يوجد ذو نعمة على الإنسان يستحق منه الطاعة المستقلة والعبادة غير الله (سبحانه وتعالى).

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2].

وينبغي التأكيد على هذا في مواجهة دعوات الطواغيت والمستكبرين الذين يسلبون أقوات الناس وأرزاقهم ويفرضون إرادتهم عليهم بغير وجه حق، ويطالبونهم بتقديم رسوم الطاعة والولاء لهم، متبجحين عليهم بما يتركونه إليهم من فتات.

وليعلم الطواغيت والمستكبرون منا أن الدنيا كلها لا تساوي عندنا شيئا في مقابل طاعة الله جل جلاله وحسن ثوابه.

فلو أعطينا الدنيا كلها على أن نعصي الله جل جلاله لرفضناها، فكيف يطالبوننا بتقديم رسوم الطاعة والولاء لهم في مقابل طاعة الله جل جلاله، وهم ينهبوننا أرزاقنا وأقوات أبنائنا ويرمون إلينا بالفتات ويعدونه تفضلا وكرما؟!

هيهات.. هيهات.

الدلالة (٣): وجوب الإحسان إلى كل ذي فضل، فمن لا يشكر المخلق، لن يشكر الخالق جل جلاله، وهذه قاعدة أخلاقية عظيمة تؤسس لصلاح الأفراد والمجتمع.

---

(١) الأنعام: ١٠٢.

(٢) العنكبوت: ١٧.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « حق على من أنعم عليه أن يحسن مكافأة المنعم، فإن قصر عن ذلك وسعه فعليه أن يحسن الثناء، فإن كل عن ذلك لسانه فعليه معرفة النعمة، ومحبة المنعم بها، فإن قصر عن ذلك فليس للنعمة بأهل »[1].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: « من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل »[2].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: « أربعة أسرع شيء عقوبة: رجل أحسنت إليه ويكافيك بالإحسان إليه إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على أمر فمن أمرك الوفاء له ومن أمره الغدر بك، ورجل يصل قرابته ويقطعونه »[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « لعن الله قاطعي سبيل المعروف، وهو الرجل يصنع إليه المعروف فتكفره، فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره »[4].

والإحسان إلى الوالدين يقوم على هذا الأساس الأخلاقي المتين، ولهذا فقد رفع الله جل جلاله شكر الوالدين إلى منزلة شكره (سبحانه وتعالى).

قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[5].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: « إن الله عز وجل أمر بثلاث مقرون بها ثلاثة أخرى: أمر بالصلاة والزكاة، فمن صلى ولم يزك لم تقبل منه صلاته، وأمر بالشكر

---

(١) البحار. ج٧١. ص٥٠.

(٢) البحار. ج٧١. ص٤٤.

(٣) البحار. ٧٥. ص٤٢.

(٤) البحار. ج٧٥. ص٤٣.

(٥) لقمان: ١٤.

له وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله، وأمر باتقاء الله وصلة الرحم، فمن لم يصل رحمه لم يتق الله عز وجل »[1].

وسوف يأتي المزيد من التفصيل حول علاقة هذا التأسيس لبر الوالدين بصلاح الفرد والمجتمع في نهاية الحديث إن شاء الله (تبارك وتعالى).

النقطة (٣): بيان بعض جوانب الإحسان ومصاديقه.

قول الله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[2].

أولا - قول الله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾.

هنا إشارة إلى وضع خاص وهو سن الكبر / الشيخوخة، وهذه الإشارة لا تخصص الإحسان إلى الوالدين بهذه المرحلة العمرية، وإنما ميزات المرحلة هي التي اقتضت التنصيص، لكي يأخذها الأولاد بعين الاعتبار، ويتمكنوا من حفظ واجب الإحسان إلى الأبوين في جميع الأحوال على أكمل وأحسن وجه، وذلك نظرا:

- لأهمية الإحسان إلى الوالدين في الشريعة الإسلامية.
- ومكانته في نظامها القيمي العظيم.
- وصلته بصلاح الأفراد والمجتمعات.
- وصلته بأمن الأفراد والمجتمعات وسلامتهما وتطورهما.

فسن الشيخوخة أشق مراحل العمر، وملازم للضعف والعجز عن العمل والقيام بواجبات الحياة، وفيه يختل المزاج، ويضيق الصدر، ويسوء الخلق، وتبرز

---

(١) البحار. ج٧٤. ص٦٨.

(٢) الإسراء: ٢٣- ٢٤.

فيه الحاجة إلى المعين والناصر الذي يتغاضى عن العيب والسلبيات، ويساعد عن دافع ذاتي وطيب خاطر.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[1].

وهذا محل ابتلاء وامتحان إلى الأبناء: فهل يعتبرون وجود الأبوين في هذه الحالة دليل رحمة وفرصة إلى رد الجميل وتحصيل رضا الرب عز وجل وثوابه؟

أما أنهم يحسبون ذلك مصيبة حلت على رؤوسهم ويسيؤون إليهما ويوجهون إليهما الإهانات ويتمنون موتهما؟

أيها الأحبة الأعزاء: إن الأبوين حين يقومان بحضانة الأولاد وتربيتهم ويغدقون عليهم بالحب والحنان في الصغر، ويقدمان لهم لوازم الحياة وواجباتها حتى يستطيعون الوقوف على أقدامهم والاعتماد على أنفسهم، فإنهم يأملون منهم إعانتهما وتقديم لوازم الحياة وواجباتها لهما حين يكونان عاجزين عن ذلك. فإذا أخل الأبناء بهذا الواجب الشرعي والأخلاقي، فإنهم يكونون قد خالفوا الدين والأخلاق، ولم يكونوا مستحقين إلى أي شيء من الاحترام والتقدير من رب العباد ومن الناس، وعليك أن تصنفهم في أي جنس من الأنعام أو الشياطين.

ثانيا – قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾.

تشير الآية الشريفة المباركة إلى مرتبتين من مراتب الأدب مع الوالدين، وهما:

- السلب.
- الإيجاب.

---

(١) الروم: ٥٤.

المرتبة (١) السلب: النهي عن زجرهما بالصوت الشديد القاسي، وعن إذائهما والإساءة إليهما بأية كلمة كانت - حتى وإن كانت بسيطة بمثل كلمة أف - لما قد يستقذره الأبناء من الوالدين أولا يرتاحون إليه أو لا يعجبهم منهما.

والخلاصة: أن لا يصدر عن الأبناء ما يدل على الإهانة وسوء الأدب إلى الوالدين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « أدنى العقوق أف، ولو علم الله عز وجل شيئا أهون منه لنهى عنه »[1].

المرتبة (٢) الايجاب: الأمر بأن يكن قول الأبناء إلى الوالدين لينا ولطيفا، وأن يكون فعلهم معهما جميلا.

أي: أن يكون كل قول وكل فعل صادر من الأبناء نحو الوالدين مما يقتضيه الحب والاحترام وحسن الأدب والمروءة والحياء من الوالدين، ويحفظ لهما كرامتهما وعزتهما.

ثالثا - قول الله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾.

الأمر للأبناء بخفض الجانب والتواضع والخضوع للوالدين، والشفقة والعطف عليهما، وحسن رعايتهما، وتدبير أمرهما على أساس الرحمة بهما والإعزاز لهما وعدم الاستثقال من مؤمنتهما.

يقول العلامة السيد فضل الله: « لا يريد الله للولد أن يستثير حس الكرامة في نفسه تجاه أبويه كما يستثيره تجاه الآخرين، بل لابد له من أن يشعر بالذل الناشئ من الشعور بالرحمة لهما، لا من الشعور بالانسحاق الذاتي والانحطاط الروحي، كما يخضع الإنسان لمن يحبه حبا له ورحمة به، فيتحمل منه

---

(١) البحار. ج٧٤. ص٥٩.

ما لا يتحمله من غيره، ويتنازل له عما لا يتنازل عنه للآخرين، ويعيش العفو والتسامح معه إذا أخطأ. إنها الروح الإنسانية التي تنفتح على مواقع الرحمة، فتهفو وترق وتلين وتنساب بالخير والمحبة والتسامح، وتعرف كيف تميز بين مشاعر الرحمة ومشاعر الذل أمام الآخرين، فتواجه الذين أحسنوا إليها واحتضنوها بالمحبة والرحمة بالشعور الطاهر الخير نفسه، لتستمر حركة الإنسانية نحو العطاء، من خلال مواجهتها بالاعتراف الحي بالجميل بالمشاعر التي تحفظ لها كل ما عملته من الخير »[1].

أيها الأحبة العزاء: أريد أن أذكر بأن بعضنا قد يحصل على منزلة علمية أو سياسية أو اجتماعية عالية، فيكون وزيرا أو بروفسورا أو رمزا أو وجيها في المجتمع، ويكون والداه أميين لا يعرفان القراءة والكتابة وبسيطين جدا في حياتهما، فيرى بأن منزلته أكبر منهما ويتكبر عليهما، وربما يرى أن عليهما أن يقدما له مراسم الاحترام والتقدير والتبجيل.. فحذارِ.. حذارِ: إن من يفعل ذلك، يكون فقيرا في دينه وإنسانيته وأخلاقه، وصغيرا عند الله جل جلاله وبعيدا عن جنته ورضاه.

بعدنا الله جميعا برحمته عن هذا السلوك المشين.

النقطة (٤): بيان الأساس الذي يقوم عليه الإحسان:

قول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

في هذه الفقرة من الآية الشريفة المباركة: يأمر الله جل جلاله الأولاد بالدعاء إلى الأبوين بالرحمة، ومن الواضح أن ذلك لا ينافي كفرهما إذا كانا كافرين، فمن جملة الدعاء لهما بالرحمة: الدعاء لهما بالهداية، وحسن العاقبة، والدرجة الرفيعة في الجنة.

---

(١) من وحي القرآن. ج١٤. ص ٨٤.

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام. أما الاستغفار للأبوين المشركين فممنوع.. وذلك لقول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

يقول العلامة الطباطبائي: « أنه تعالى لما ذكر في الآية الثانية التي تبين سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافرا أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبين له أنه عدو لله، فدل ذلك على أن تبين كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازما لكونهم أعداء لله، فإذا تبين للنبي والذين آمنوا أن المشركين أعداء لله، كشف ذلك لهم عن حكم ضروري وهو عدم جواز الاستغفار لكونه لغوا لا يترتب عليه أثر، وخضوع الإيمان مانع أن يلغوا العبد مع ساحة الكبرياء »[2].

أيها الأحبة الأعزاء: إن الأمر الرباني للأولاد بالدعاء للوالدين بالرحمة يقوم (كما يفهم من الآية الشريفة المباركة) على أساس رحمة الوالدين بالأبناء، وتربيتهما لهم في الصغر، وما يقدمانه لهم من تضحيات مادية ومعنوية.

ولهذا الأمر الرباني العظيم، دلالات رحمانية عظيمة.. منها:

الدلالة (١): تقرير القاعدة الأخلاقية التي تنص على مقابلة الإحسان بالإحسان.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾[3].

---

(١) التوبة: ١١٣ - ١١٤.

(٢) الميزان.ج١١. ص٢٩٧..

(٣) الرحمن: ٦٠.

وقد سبق الحديث عن هذه القاعدة قبل قليل تحت عنوان (عرفان الجميل) وذكرت أن التأسيس لبر الوالدين على هذه القاعدة، هو من الأسس الذي يقوم عليها تماسك الأسرة وأمنها وصلاحها وتطورها، وكذلك تماسك المجتمع وأمنه وصلاحه وتطوره وازدهاره.

فالأبوان حينما يطمئنا إلى رعاية الأبناء لهما في حال الكبر والعجز، فإنهما يشعران بالراحة والطمأنينة، ويندفعان بحماس شديد إلى الإغداق على الأبناء ورعايتهما على أحسن وأكمل وجه، ويسود الأسرة جو من الرحمة والحب والأمان والاستقرار والقوة والتماسك، مما يساعدها على القيام بدورها على أحسن وأكمل وجه.

كما أن أوضاع المجتمع تكون بنفس الإيجابية إذا سادت أبنائه هذه القاعدة الأخلاقية العظيمة مما يساعده أيضا على القيام بدوره على أحسن وأكمل وجه.

بالإضافة إلى الانعكاس الإيجابي (في هذه الحالة) لأوضاع الأسرة على أوضاع المجتمع ككل.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « أن رابطة العاطفة المتوسطة بين الأب والأم من جانب والولد من جانب آخر، من أعظم ما يقوم به المجتمع الإنساني على ساقيه، وهي الوسيلة الطبيعية التي تمسك الزوجين على حال الاجتماع. فمن الواجب بالنظر إلى هذه السنة الاجتماعية الفطرية، أن يحترم الإنسان والديه بإكرامهما والإحسان إليهما، ولو لم يجر هذا الحكم وهجره المجتمع الإنساني، بطلت العاطفة والرابطة للأولاد بالأبوين، وأنحل عقد الاجتماع »[1].

هذا بالإضافة إلى الآثار المعنوية.

---

(١) الميزان. ج١٥. ص٨٠.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « من أحب أن يخفف الله عز وجل عنه سكرات الموت، فليكن لقرابته وصولا، وبوالديه بارا، فإذا كان كذلك، هون الله عليه سكرات الموت، ولم يصبه في حياته فقر أبدا »[1].

الدلالة (٢): تكشف الآية الشريفة المباركة عن أمرين أساسيين، وهما:

الأمر (١): عجز الأبناء في جميع الأحوال عن مكافأة الوالدين وأداء حقهما بالكامل.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في الدعاء لوالديه: « أين إذا يا إلهي طول شغلهما بتربيتي؟! وأين شدة تعبهما في حراستي؟! وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة علي؟! هيهات ما يستوفيان مني حقهما، ولا أدرك ما يجب علي لهما، ولا أنا بقاض وظيفة خدمتهما »[2].

الأمر (٢): أن القادر على مكافأة الوالدين هو الله (تبارك وتعالى) وحده، ولهذا أمر الأولاد بالتوجه إليه بالدعاء لمكافأتهما وجزائهما على ما بذلا إليه من جهد وعاطفة، ليس في الدنيا فحسب، وإنما في الدنيا والآخرة التي هي دار القرار.

يقول العلامة السيد محمد حسين فضل الله: « فيبتهل إلى الله في دعاء خاشع ليرحمهما ويرعاهما ويحفظهما، لأنهما كانا يعيشان الرحمة له، ويعانيان الجهد في تربيته، لأن الله قادر على ما لا يقدر عليه من ذلك، فرحمته تملك خير الدنيا والآخرة، بينما لا يملك هو من ذلك شيئا »[3].

الدلالة (٣): أن بر الأبناء بالوالدين لا ينقطع بموت الوالدين، وإنما يبقى البر بهما قائما بعد موتهما، من خلال الدعاء لهم، وصلة أهل مودتهما، وإهداء ثواب العمل

---

(١) البحار. ج٧٤. ص٦٦.

(٢) الصحيفة السجادية.

(٣) من وحي القرآن. ج١٤. ص٨٥.

الصالح لهما.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « ما يمنع الرجل أن يبر والديه حيين أو ميتين: يصلي عنهما، ويتصدق عنهما، ويحج عنهما، ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما، وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل ببره وصلاته خيرا كثيرا »[1].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: « إن العبد ليكون بارا بوالديه في حياتهما ثم يموتان فلا يقضي عنهما دينهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله (عز وجل) عاقا. وإنه ليكون عاقا لهما في حياتهما، غير بار بهما، فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما، فيكتبه الله عز وجل بارا »[2].

يقول العلامة المجلسي في تعليقه على هذا الحديث: « يدل على أن البر والعقوق يكونان في الحياة وبعد الموت، وأن قضاء الدين والاستغفار أفضل البر بعد الوفاة »[3].

وقال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « سيد الأبرار يوم القيامة رجل بر والديه بعد موتهما »[4].

---

(١) البحار. ج٧٤. ص ٤٦.

(٢) البحار. ج٧٤. ص٥٩.

(٣) نفس المصدر.

(٤) البحار. ج٧٤. ص٨٦.

الباب الرابع

« الخلافة الإلهيّة للإنسان »

الفصل الأوّل: جعل الإنسان خليفة لله عزّ وجلّ

الفصل الثاني: الإفساد في الأرض وسفك الدماء

الفصل الثالث: استحقاق الإنسان للخلافة

الفصل الرابع: العلم بالأسماء هو ملاك الخلافة

الفصل الخامس: ظهور قابليّة الإنسان للعلم بالأسماء

الفصل السادس: سجود الملائكة لآدم

الفصل السابع: حول الملائكة

الفصل الثامن: حول سجود الملائكة واستكبار ابليس

الفصل التاسع: حول الجنّ والشياطين

الفصل الأول

جعل الإنسان خليفة لله عزّ وجلّ

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

بيان المفردات

الرب: المالك والسيد والمصلح والمنعم والمربي، والجمع أرباب. واللفظ يطلق على الله جل جلاله وعلى غيره، فيقال: رب الدار ورب العالمين، ولا يطلق لفظ الرب (بالألف واللام) إلا على الله جل جلاله، والرب من أسماء الله الحسنى.

---

(١) البقرة: ٣٠ – ٣٤.

الملائكة: جمع ملك، وهم مخلوقات سماوية مخصوصة، يوكل الله عز وجل لهم مهام تشريعية، مثل: إيصال الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام وتثبيت المؤمنين، ومهام تكوينية تتصل بالخلق وتدبير الكون وكافة ظواهره الطبيعية.

إني جاعل في الأرض خليفة: الجعل سبق معناه، والخليفة: من يخلف غيره ويقوم مقامه، والجمع: خلفاء وخلائف.. والمراد: إني خالق لا محالة في الأرض من يخلفني فيها ويقوم مقامي، فيقوم باستخراج كنوزها وعمارتها، ويتخلق بأخلاقي وينفذ أحكامي.

قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء: الجعل سبق معناه، والفساد: النتن والتلف والعطب والاختلال والاضطراب والجدب والقحط والكوارث والبطلان والحاق الضرر، والمفسدة: الضرر وما يؤدي إلى الفساد من لهو ولعب ونحوهما، والجمع: مفاسد، وفسد الرجل: جاوز الصواب والحكمة فهو فاسد وهي فاسدة، وسفك: أراق وصب كل سائل فهو سافك وسفاك وهي سافكة والمفعول مسفوك وسفيك، وسفك دمه: قتله، والدم: السائل الأحمر الذي يجري في عروق الحيوانات، والجمع: دماء.. والمراد: قالت الملائكة عليهم السلام مستفسرين: أتجعل الإنسان خليفة لك في الأرض، وهو مخلوق من طين وتصدر أفعاله عن إرادته واختياره، وعلمه محدود، فهو لا يعلم بحقائق الأمور، ومن هو كذلك:

- يخطئ ويتصرف بالصورة التي تؤدي إلى تلف الأشياء وعطبها.
- وبما يؤدي إلى الخلل والاضطراب وإيجاد الكوارث وإلحاق الضرر.
- ويقتل ويريق الدماء المحرمة عدوانا وظلما.

وأنت بحكمتك إنما تريد عمارتها بالحق والعدل والخير والجمال، ولا تريد ظهور الباطل والظلم والقبح والشر.

ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك: نحن: جمع أنا من غير لفظه، والتسبيح هو تنزيه

الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به في الاعتقاد والقول والعمل، والحمد: الثناء والتمجيد والتعظيم ونقيض الذم وأعم من الشكر، والحامد: الشاكر للنعمة، والحميد: الشخص الذي كثرت خصاله المحمودة واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي يستحق الحمد والثناء والشكر على ما ينعم به على عباده من صنوف النعم المادية والمعنوية الظاهرة والباطنة، والمقام المحمود: مقام الشفاعة، وقيل: التسبيح لإظهار صفات الجلال، والحمد لإظهار صفات الجمال، والتقديس هو التطهير، ومطهر الشيء مبعده عن الأقذار.. والمراد: نحن أحق بالخلافة من آدم عليه السلام وذريته، لأننا ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك، ونمجدك ونثني عليك لما أنعمت به علينا من فنون النعم ونظهر ذكرك.

قال إني أعلم مالا تعلمون: سبق معنى العلم.. والمراد: أعلم مالا تعلمون من دواعي الخلافة في الإنسان والمصلحة في استخلافه.

وفيه إشارة إلى ما يجهله الملائكة عليهم السلام من الفضائل التي يمتلكها آدم عليه السلام وتؤهله للخلافة دونهم، وقد خفيت تلك الفضائل عليهم، ولهذا تعجبوا من جعله خليفة دونهم.

وعلم آدم الأسماء كلها: سبق معنى العلم، والاسم: اللفظ الدال على الشيء والمميز له عن غيره، وأسماء الله الحسنى: هي الأسماء التي تدل على صفات الذات العلية: صفات الجمال والجلال، وكل: كلمة تفيد الاستغراق لأفراد ما تضاف إليه وتفيد التوكيد.. والمراد: علم الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ما هو المراد من الأسماء جميعها؟

- قيل: أسماء المخلوقات التي خلقها وخواصها وما فيها من المنافع وبهذا العلم تكون عمارة الدنيا.

- وقيل: أسماؤه الحسنى التي بها خلق المخلوقات، ومن خلال العلم بها

يعبد الله عز وجل ويطاع.

والحق: أن علم الأسماء يشمل جميع ما يتصل بمسؤوليات الإنسان في الحياة وإدارتها وتحريكها في الوجهة التي أرادها الله جل جلاله، والقيام بمهام الخلافة الإلهية على أساس النظام الذي أراده واختاره، بالتفصيل التي سوف أذكره بعد قليل.

ثم عرضهم على الملائكة: عرض الشيء: أظهره وأبرزه، والملائكة: جمع ملك وهو جسم لطيف نوراني أو روح سماوي، وسوف يأتي بيان ماهي الملائكة بالتفصيل في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.. والمراد: أظهر المسميات وأبرزها للملائكة.

فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين: سبق بيان معنى الإنباء والإسم، والصادق: ضد الكاذب، وصدق وعده: حققه، وصدق في القتال: استبسل، وصدق في النصيحة والمحبة: أخلص فيهما، والصديق: الخل المخلص، والجمع: أصدقاء، والصدّيق: كثير الصدق والذي يصدق عمله قوله والبار ودائم التصديق للحق، ولهم قدم صدق: لهم منزلة رفيعة وسبق في الفضل.. والمراد: قال تبكيتا (بكته بالحجة: غلبه) أخبروني بمسميات هؤلاء إن كنتم صادقين في أنكم أحق بالخلافة، وفيه بيان لأحقية آدم عليه السلام بالخلافة.

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: قالوا نحن ننزهك من الاعتراض عليك، ونحن لا نعلم إلا ما علمتنا إياه، وفيه إقرار بعدم صلاحهم للخلافة، وبيان بأن سؤالهم كان استعلاما لا اعتراضا.

إنك أنت العليم الحكيم: سبق معنى العلم والعليم، وحكم: قضى وفصل، وأحكم الشيء: أتقنه، والحكمة: العدل والعلم مع العمل وصواب الأمر وسداده، والحكيم: صاحب الحكمة واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: ذي الحكمة البالغة المنطوية على اتقان التدبير وإحسان التقدير وسوق كل شيء لغايته وما خلق من

أجله.. والمراد: العليم بكل شيء، والمصيب في كل فعل وصنع.

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: أمر الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام أن يخبر الملائكة عليهم السلام بحقائق المسميات، ليعرفوا جامعيته لها، وقدرة الله سبحانه وتعالى على الجمع بين الصفات المتباينة في مخلوق واحد.

فلما أنبأهم بأسمائهم: فعرفوها وأدركوا سر خلافة آدم عليه السلام وبنيه.

قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض: غاب الشيء: بعد واستتر، والغيب: خلاف الشهادة وكل ما غاب عن الإنسان ومالا تدركه حواسه الخمس، والسماء: القبة الزرقاء المحيطة بالأرض وغلافها الغازي وكل ما علاك وأظلك، والجمع: سماوات.. والمراد: أعلم ما غاب في الأرض والسماوات ولم تظهروا عليه.

وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون: بدا: ظهر، والجمع: بادون، وأبدى الأمر: أظهره فهو مبد وهم مبدون، وكتم الشيء: ستره وأخفاه فهو كاتم وهم كاتمون.. والمراد: أعلم ما تظهرون أو تجاهرون به وما تخفون أو تسرون في داخل أنفسكم.

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم: السجود هو الخضوع والانقياد، وقد أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام سجود عبودية وطاعة لله جل جلاله، وتحية وتعظيم وتكريم لآدم عليه السلام.

وفيه دلالة على:

- فضل آدم عليه السلام على الملائكة وعلى جميع المخلوقات حتى الجن الذين يشتركون مع الإنسان في التكليف بالعبادة.

- وأن ليس كل مكلف بالعبادة يصلح للخلافة الإلهية في الأرض.

فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر: امتثل الملائكة للأمر الإلهي، وامتنع إبليس عن السجود وعن قبول الحق وقال في استكبار وغرور ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ

طِينًا ﴾[1] وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[2].

وإبليس من الجن وكان في صفوف الملائكة وليس من جنسهم.

وكان من الكافرين: الكفر: الستر والغطاء والنكران والجحود، والكافر: من نسب إليه الكفر، والجمع: كفرة وكفار.. والمراد: كان إبليس (عليه اللعنة) في علم الله سبحانه وتعالى كافرا بالتوحيد والشريعة والنبوة وجاحدا بنعم الله عز وجل البالغة عليه قبل أن يأمره بالسجود لآدم عليه السلام ويمتنع عن ذلك.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتناول هذه الآيات الشريفة المباركة حقيقة جعل الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، وتبين آثارها وخواصها، ولم يتناول القرآن الكريم هذا الموضوع إلا في هذه الآيات الشريفة المباركة على غير العادة التي جرت عليها عادة القرآن الكريم، حيث يتناول المواضيع عادة في أكثر من مكان من سوره الكريمة.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

المراد بالخليفة

هو آدم عليه السلام وبنوه.

ووجه تسميته بالخليفة:

- قيل: إنه خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون قبله على ظهر الأرض.

---

(1) الإسراء: ٦١.

(2) ص: ٧٦.

- وقيل: إنه خليفة موجودات أخرى وصفت بالآدمية، وقيل: من الجن، كانت تعيش قبله على الأرض.

- وقيل: أنه خليفة الله عز وجل ونائبه على ظهر الأرض، يأتمر بأمر، وينتهي بنهيه، وقد أوكل إليه زمام الأرض، بالكشف عما فيها من كنوز وقوى ومنافع، والاستفادة منها في عمارتها وتشييد الحضارة الإنسانية على وجهها على ضوء المنهج الإلهي العظيم ووفق إرادة الرب الجليل.

وأغلب المفسرين يرجحون الرأي الأخير، وهذا ما يخدمه سياق الآيات، حيث أسس الملائكة لاستفسارهم على أمرين:

- إفساد الإنسان في الأرض وسفكه للدماء.

- استحقاقهم للخلافة بما يتمتعون به من التسبيح والتقديس لله عز وجل.

فالبحث يدور حول الخصائص الموضوعية التي يجب أن يتمتع بها الخليفة، وهذا لا يستقيم إلا إذا كان الخليفة هو خليفة الله جل جلاله ونائبه في عمارة الأرض وفق إرادته المقدسة.

دلالات الآية الشريفة المباركة

والآية الشريفة المباركة تدل على:

- تكريم الله جل جلاله لآدم عليه السلام وبنيه (أي: النوع الإنساني) إذ اختارهم دون غيرهم لخلافته في الأرض.

- وتوحي بتهيئة الظروف المناسبة لحياة الإنسان على وجه الأرض

ولممارسة دور الاستخلاف فيها، بحيث يكون بقاؤه وأداء دوره فيها ممكنا وميسورا.

- أن الإنسان يمتلك العقل والإدراك، والإرادة والحرية والاختيار، والقدرة على التحليل والتركيب والإبداع والتطوير واستنباط الصناعات المختلفة، مثل: المنطق والكتابة والتكنولوجيا والشعر والفن والموسيقى وغيرها.

الفصل الثاني

الإفساد في الأرض وسفك الدماء

قول الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

تعلم الملائكة أن آدم عليه السلام منزه عن الإفساد وسفك الدماء، إلا أن ذريته ليست كذلك.

وسؤال الملائكة هو بغرض البحث عن الحقيقة من أجل التعبد بها، وليس بدافع الاحتجاج أو الاعتراض على أمر الله جل جلاله.

فالملائكة يبحثون عما رجح آدم عليه السلام وذريته للخلافة عليهم مع ما في ذريته من الموانع، وليس في قولهم شيء من العجب والتفاخر.

الأمور التي يقوم عليها استفهام الملائكة

ويقوم استفهامهم الملائكة على ثلاثة أمور أساسية، وهي:

الأمر (١): علم الملائكة بأن الإنسان موجود من شأنه أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وقد علم الملائكة ذلك:

- من طبيعة تكوين الإنسان، فهو الموجود المادي المركب من القوتين: الغضبية والقوة الشهوية اللتان تنازعان العقل وتنزعان إلى الشر والأنانية والتسلط، بدلا من الإيمان والخير والمحبة والإيثار والسلام، مما يؤدي إلى التنافس والصراع، وظهور الباطل والجريمة.

- ومن حياته على الأرض التي لا تقوم إلا على أساس الاجتماع: (حياة اجتماعية مؤلفة من عدة أفراد لهم طبائعهم وطموحاتهم وتطلعاتهم المختلفة في الحياة) مما يؤسس إلى والتعاون والتكامل من جهة، وإلى التزاحم والتنافس والصراع من جهة ثانية.

- ومن طبيعة الحياة على وجه الأرض: وهي دار محدودة الجهات، وأن مكوناتها محكومة بالبطلان والفساد والانحلال فهي لا تدوم، مما يجعلها عاجزة عن إشباع حرص الإنسان وتطلعاته غير المحدودة.

وينتج عن ذلك كله: بأن تؤدي حياة الإنسان على وجه الأرض - قطعا - إلى الفساد وسفك الدماء، ما لم يوجد النظام الواقعي العادل والشعور العميق بالمسؤولية.

وربما يكون هذا العلم الاستدلالي لدى الملائكة مدعوما بتجربة لدورة حياة مماثلة أو عدة دورات سابقة على دورة آدم عليه السلام كان القائمون عليها قد أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء ثم انقرضوا.

في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: « ما علم الملائكة بقولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء لولا أنهم قد رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء ».

إلا أنه لو صح وجود دورات سابقة قد أفسد القائمون عليها في الأرض وسفكوا الدماء، فإنه لا يكفي الاعتماد على ذلك وحده في الحكم على الإنسان

بالافساد وسفك الدماء قبل دخوله التجربة، لأنه بحكم القياس المذموم كالقياس الصادر عن إبليس (عليه اللعنة) والملائكة منزهة عن مثل هذا القياس، فلا بد من وجود الاستدلال العقلي الصحيح إلى جانب هذه التجربة.

وقيل: أن الله عز وجل قد أخبر الملائكة من قبل - على وجه الاجمال - بفطرة هذا المخلوق وبعض خصائصه وأعماله ومقتضيات حياته على وجه الأرض.

الأمر (٢): أن الغاية من الخلافة هو إقامة الحق والعدل والتسبيح والتقديس لله ذي الجلال والإكرام، وهو حاصل بتسبيحهم وتقديسهم.

وأن الخلافة وهي قيام الإنسان مقام الله عز وجل في عمارة الأرض وإدارة الحياة الاجتماعية فيها، لا تتم إلا إذا كان الخليفة وهو الإنسان حاكيا للمستخلف وهو الله سبحانه وتعالى في جميع شؤونه.

والله سبحانه وتعالى متصف بالصفات العليا من أوصاف الجمال والجلال، وله الأسماء الحسنى، فهو منزه في نفسه عن النقص، ومنزه في فعله عن الشر والفساد.

والنتيجة: أن الإنسان بحالته الجسمية التي تجره إلى الشر والفساد وسفك الدماء، لا يليق بالاستخلاف ولا يحكي بوجوده المشوب بكل نقص وشين الوجود الإلهي المقدس المنزه عن جميع النقائص، فيكونوا هم باستغراقهم في التسبيح والتقديس، وبعدهم عن المعصية، أليق - بحسب علمهم - بالخلافة.

والخلاصة: لقد عظم على الملائكة - بحسب ما يعلمون - جعل الإنسان خليفة لله عز وجل في الأرض مع علمهم بما يصدر عنه من الفساد وسفك الدماء.

وأن سؤالهم كان من أجل استكشاف ما خفي عليهم من الحكمة التي غلبت تلك المفاسد فألغتها، ومن أجل معرفة ما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى فضائل آدم عليه السلام التي أهلته للخلافة دونهم.

ولم يكن سؤالهم اعتراضا على فعله جل جلاله، ولا شكا في اشتماله على الحكمة البالغة والمصلحة الأكيدة، فإن منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك، فهم ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

لقد كان سؤالهم سؤال العبد الذليل الخاضع لربه، الباحث عن الحقيقة ليتعبد بها.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج التالية:

النتيجة (١): أن الخلافة موضوع البحث والحوار والخصام لدى الملائكة ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[2] هي خلافة الإنسان لله سبحانه وتعالى وليست خلافة الإنسان لنوع سابق كانوا يسكنون الأرض ثم انقرضوا.

النتيجة (٢): أن الخلافة غير مقصورة على شخص آدم عليه السلام بل يشاركوه بنوه فيها، فهي خلافة النوع الإنساني.

النتيجة (٣): أن الله عز وجل لم يخلق الإنسان ليرتكب المعاصي والذنوب، بل للعلم والعمل الصالح والإبداع والتحلي بالفضيلة ومكارم الأخلاق، أي: التخلق بأخلاق الله ذي الجلال والإكرام.

ونهاه عن الإفساد والظلم والرذيلة والإضرار بالخلق والخلائق وارتكاب الجرائم والتسبب في الكوارث، أي: التخلق بأخلاق إبليس.

---

(١) الأنبياء: ٢٦- ٢٧..

(٢) ص: ٦٩.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[1].

فمن أطاع الله عز وجل فيما أمره به ونهاه عنه أثيب، وما خالفه وعصاه عوقب بما يستحق.

النتيجة (٤) : حتمية بلوغ أفرادا من بني آدم / النوع الإنساني ذروة الكمال الذي لا يمكن أن تبلغه الملائكة.

قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾[2].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾[3].

وذلك من خلال المؤهلات التي أودعها الله جل جلاله في الإنسان، تلك المؤهلات القائمة على أساس ذلك التركيب العجيب: (من التراب ونفخة الروح).

وحتمية انتهاء مسيرة الإنسان إلى الانتصار الساحق للحق والعدل والخير على الباطل والظلم والشر، ورسوخ هذا الانتصار ودوام بقائه إلى نهاية المسيرة البشرية على وجه الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) هود: ٧.

(٣) الملك: ٢.

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[3].

وفي هاتين الحتميتين: تكمن الحكمة العليا للاستخلاف التي تغلب تلك المفاسد التي أشارت إليها الملائكة من ارتكاب بعض أفراد النوع الإنساني للفساد وسفك الدماء وتلغي أثرها في إرادة الاستخلاف.

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) التوبة: ٣٣، الصف: ٩.

(٣) الفتح: ٢٨.

الفصل الثالث

استحقاق الإنسان للخلافة

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

أن الله جل جلاله لم ينفي عن الإنسان حقيقة الفساد وسفك والدماء، ولم ينفي عن الملائكة حقيقة التسبيح والتقديس، فقد أقر ما قالته الملائكة من هذه الجهة، وفيه إدانة واضحة للمفسدين وللمجرمين السفاكين لدماء الأبرياء.

ولكنه نبه إلى حقائق أخرى ترتبط بخصائص الإنسان لا تعلمها الملائكة (سوف نتعرف عليها بالتفصيل بعد قليل) خلاصتها:

- أن الإنسان بحقيقته السيارة: السيرة التكاملية القائمة على الجميع بين القوى المتضادة في داخل نفسه.
- وحقيقته الجامعة لجملة العوالم: المادة والروح والعقل والشيطان.

هو وحده الذي يستطيع أن يحكي عن الله عز وجل أمرا ويتحمل منه سرا ليس في وسع الملائكة ولا غيرهم من المخلوقات فعله، فهو:

- من خواص الإنسان وحده دون غيره من الكائنات.
- وهو سر الاستخلاف ووجه الحكمة فيه.
- وبه يتم تدارك أمر الفساد وسفك الدماء.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج التالية:

النتيجة (١): أن الخليفة يجب أن تكون له سنخية مع المستخلف، وأن الإنسان الذي يحمل الطبيعة المزدوجة لعالمي: (المادة والروح) هو الذي أراد الله عز وجل له أن يكون خليفته في الأرض، فهو وحده الذي يصلح لعمارتها وتحقيق إرادة الخالق في تطويرها وترقيتها وفق منهج السماء، بحيث تتجلى في سلوكه وحضارته:

- عجائب خلق الله جل جلاله وإبداعات قدرته.
- صفات الجمال والجلال الإلهية.

فالملائكة عليهم السلام قد تنبهوا إلى حقيقة وجود القوتين: الغضبية والشهوية في تكوين الإنسان، مما يترتب عليهما:

- الفساد: وهو رذيلة القوة الشهوية.
- وسفك الدماء: وهو رذيلة القوة الغضبية.

ولم يتنبهوا إلى حقيقة أن القوتين: (الشهوية والغضبية) إذا سيطرت عليهما القوة العقلية وسخرتهما تحت أمرتها، فإنه يحصل بذلك من علو الدرجة والمنزلة الرفيعة ما تقصر عن بلوغه القوة العقلية عند انفرادها في أفاعيلها، مثل:

- الحرية في اختيار الطريق وتقرير المصير.
- استخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل، واستنباط مختلف الصناعات.
- إقامة حياة اجتماعية منظمة وقابلة للنمو والارتقاء.
- الحصول على المنزلة الروحية العالية، التي تعجز الملائكة بطبيعتها

ومؤهلاتها الوجودية عن الوصول إليها.

- وغير ذلك مما أنيط به أمر الخلافة.

النتيجة (٢): أن العبادة القائمة على الاختيار والتي يدور فيها الصراع على أشده في داخل النفس:

- بين الحق والباطل.
- وبين العدل والظلم.
- وبين الخير والشر.
- وبين الفضيلة والرذيلة.

وهي العبادة التي تأتي من قبل الإنسان، ويصل فيها - لكمال عقله وصفاء نفسه - إلى درجة لا تجاريه فيها الكائنات المكلفة الأخرى، مثل الجن، هي أفضل نوعا من العبادة التي ليس فيها هذا الصراع، وهي عبادة الملائكة الغارقون في التسبيح والتقديس كخيار وحيد لهم لا يقدرون على غيره.

النتيجة (٣): لم تكن معرفة الملائكة بالإنسان من جهة كونه يمارس الفساد في الأرض وسفك الدماء خاطئة، بل كانت صحيحة، ولكنها لا تمثل الحقيقة كاملة، بل لا تمثل عمق الحقيقة.

ومن جهة ثانية: لم يدخل الشيطان في المقارنة بينه وبين الإنسان في كافة الجوانب، وإنما استغرق في المسألة المادية ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1] فابتعد عن وعي الخصائص التي يتفوق فيها الإنسان عليه ليتواضع أمامه من خلالها.

---

(١) ص: ٧٦.

يقول العلامة السيد فضل الله: « وهذه هي مشكلة الأنانيين الذين لا ينظرون إلى الناس الآخرين في فضائلهم المميزة، ولا ينظرون إلى أنفسهم في سلبياتهم الذاتية، ولا يدخلون في مقارنة واقعية إنسانية بين عناصرهم الشخصية وعناصر الآخرين، وبذلك تتحول الأنانية إلى كبرياء لتتحول الكبرياء إلى عقدة في الذات توحي باتخاذ المواقف العدوانية ضد الآخر، لاسيما إذا استطاع أن يبلغ الدرجات العليا في الحياة، وأن يتغلب عليه في الحصول على امتيازات واقعية في الواقع الإنساني »[1].

وهذه نقطة مهمة للإنسان في مجال البحث عن الحقيقة والتعبد بها، مما يدعوه إلى:

- التواضع ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[2].
- الموضوعية وعدم الارتهان بالأحكام المسبقة.
- التأني وعدم التسرع في إصدار الحكم.
- التعمق في البحث وعدم الاكتفاء بالظاهر والقشور.
- البحث عن كافة عناصر الحقيقة واستكمالها قبل إصدار الأحكام.
- الالتزام بالقواعد والأصول الصحيحة والمنهج المناسب في البحث.

كل ذلك: من أجل النجاح في معرفة الحقيقة والتعبد الصادق بها، حيث لا يعبد الله سبحانه وتعالى إلا بها.

النتيجة (٤): أن الحق والباطل في القضايا العلمية منفصلان (غير متداخلان) أما في القضايا العملية التي تتصل بواقع الحياة، فتتداخل المفاسد مع المصالح،

---

(١) من وحي القرآن. ج١٠ ص ٤٤.

(٢) الإسراء: ٨٥.

والخير مع الشر، وهنا يجب البحث عن الخير الأكبر وراء الشر الجزئي، وعما هو الأكثر أهمية في واقع الحياة، والأكثر تأثيرا من بين الخيارات المطروحة، ولا يجزي أن نذكر سلبية هنا وإيجابية هناك لتبرير الاختيار.

قال الله تعالى عن الخمر والميسر: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[1].

النتيجة (٥): أن فعل الله جل جلاله مبني كله – بحسب الحكم القطعي للعقل – على العلم الرصين الشامل والحكمة البالغة، وأن أفعاله كلها حسنة، مما يفرض التسليم المطلق لأمره ونهيه، حتى لو خفيت جوانب الحكمة على العباد في بعض ما يأمر به وينهى عنه.

والخلاصة: أن الإنسان موجود واعي يمكنه بقوة التفكير والخيال لديه:

– التحليل والتعليل واكتشاف الخفايا وراء المحسوس، وفهم واقعية الوجود، وفهم محيطه: الطبيعي والاجتماعي، وتكوين صورة عن الماضي والمستقبل.

– ويستطيع الإبداع في مجال الصناعات المختلفة: الفكر والأدب والفن والتكنولوجيا وغيرها.

ويهدف من وراء ذلك إلى:

– فهم نفسه وفهم الطبيعة وفهم الوجود ككل.

– وفرض إرادته على الطبيعة وتغيير مسارها.

– والتعبير الفكري والعلمي والفني والأدبي عن ذاته.

---

(١) البقرة: ٢١٩.

- وتحديد غاية وجوده وطريقه في الحياة.

فهو يمتلك:

- قدرة عقلية تمكنه من استيعاب حقائق العقيدة والحياة.

- والإرادة المستمدة من القوة الروحية التي تعطيه العزيمة على الحركة وبناء الحضارة الإنسانية بكل تشعباتها: المادية والمعنوية.

- والإحساس بالمسؤولية الذي يوجه سلوكه في الحياة وإدارة شؤونها وتنظيمها وترتيب أوضاعها.

- وحرية الإرادة والاختيار، مما يتيح له: بناء ذاته علميا وروحيا والارتقاء المستمر نحو الكمال اللامحدود، فيكون أفضل من الملائكة، أو المسخ والتجمد والأسر في قبضة الهوى والشيطان والسقوط إلى الهاوية الروحية، فيكون أسوء من البهائم.

الفصل الرابع

العلم بالأسماء هو ملاك الخلافة

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

الاسم في اللغة

ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه إلى الذهن، مع التنبيه: أن العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعاني مسبوق بعلم المعاني.

الاسم في الاصطلاح

المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان.

حقيقة التعليم

التعلم هو عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه، والتعليم هو

إعطاء العلم سواء كان بنحو الإعداد والتسبيب، مثل: التعليم البشري، أو بنحو الإفاضة مثل: التعليم الإلهي.

قال الله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[1].

وهو يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من المعلم.

والعلم يختلف عن الإنباء الذي يتوقف على سماع الخبر من المخبر ويشترك فيه البشر والجن والملك.

وفي تجربة الحوار بين الله جل جلاله والملائكة وبحث الملائكة عن الحقيقة: ظهر استحقاق آدم عليه السلام للخلافة بما يمتلك من العلم بالأسماء كلها.

مضامين الآية الشريفة المباركة

وتدل الآية الشريفة المباركة على أمور عديدة، منها:

الأمر (١): أن ملاك الخلافة هو العلم بالأسماء، فقد ادعى الملائكة عليهم السلام أنهم أولى بالخلافة من آدم عليه السلام وذريته، فبين لهم الله عز وجل أن ملاك الخلافة هو العلم بالأسماء، ومن اللازم أن يعلم الخليفة بهذه الأسماء، فسألهم عنها لكي يظهر من خلال التجربة عجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة (وهو العلم بالأسماء) فجهلوها ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ ليس لأن الله جل جلاله لم يفض عليهم بعلمها، وإنما لأنه ليست لديهم القابلية للعلم بها، ولو كانت لديهم القابلية للعلم بها لأفاض الله جل جلاله العلم بها عليهم. ولو كان الأمر متوقفا على مجرد

---

(١) الكهف: ٦٥.

الإفاضة ولا علاقة له بالقابلية والاستعداد، لما كان لعلم آدم عليه‌السلام بها وعدم علمهم دليل على استحقاقه للخلافة وعدم استحقاقهم لها.

فتسليم الملائكة لاستحقاق آدم عليه‌السلام لمقام الخلافة وعدم استحقاقهم، مبني على أساس قناعتهم بوجود القابلية لديه للعلم بالأسماء وعدم وجودها لديهم.

الجدير بالذكر: أن نفي الملائكة للعلم بالأسماء جاء على وجه المبالغة، فلم يقتصروا على بيان عدم علمهم بالأسماء، بل جعلوه من جملة مالا يعلمونه ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ مما يدل على عدم وجود القابلية لديهم للعلم بالأسماء.

الأمر (٢): أن مسميات الأسماء:

- حقائق خارجية ووجودات عينية.
- وأنها موجودات أحياء عقلاء.
- وأنها ذات شأن عظيم وعالية القدر والمرتبة.
- وأنها محفوظة عند الله جل جلاله، محجوبة تحت حجاب الغيب: (غيب السماوات والأرض) أي خارج دائرة العالم المادي.
- وأنها سر وجود كل ما في السماوات والأرض (أي سر وجود العالم المادي) وعالم ما فوق المادة، مثل: العرش والكرسي والملائكة والعقل والقيم والأخلاق، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى كل أسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1].

فقد أخبر الله عز وجل:

---

(١) الحجر: ٢١.

- بأن كل ما يقع عليه أسم شيء فله عنده تعالى خزائن مخزونة باقية عنده غير نافذة ولا مقدرة بقدر ولا محدودة بحد.

- وأن القدر والحد هو في مرتبة الإنزال والخلق.

- وأن الكثرة التي في تلك الخزائن، ليست من جنس الكثرة العددية الملازمة للتقدير والتحديد، بل هي تعدد المراتب والدرجات.

وبهذا نجمع بين القولين في تفسير الأسماء:

القول (١): أن الأسماء هم حجج الله عرضهم الله عز وجل وهم أرواح على الملائكة.

في المعاني عن الإمام الصادق عليه السلام: « إن الله عز وجل علم آدم أسماء حججه كلها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم، فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال الله تبارك وتعالى: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبئهم بأسمائهم وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله عز ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم، وقال لهم: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ».

القول (٢): أن الأسماء هي الجبال والشعاب والأودية والنبات والشجر والبساط وسائر الأشياء في العالم المادي.

في تفسير العياشي أبي العباس عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: « سألته عن قول الله: وعلم آدم الأسماء كلها، ماذا علمه؟ قال: الارضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر في بساط تحته، فقال: وهذا البساط مما علمه ».

وملاك الجمع بين القولين: أن الأشياء المشار إليها في القول الثاني (الجبال والشعاب والأودية والأشجار) إنما وجدت بالنزول من خزائن الغيب، وأن كل أسم فيها وضع بحيال مسمى من المسميات في القول الأول، فهي أسماء لما في خزائن الغيب.

فإن قيل: إن الله عز وجل علم آدم عليه السلام ما في خزائن غيبه من الأشياء.

أو قيل: إنه علم آدم عليه السلام أسماء الأشياء التي في السماوات والأرض.

فإن المؤدى والنتيجة واحدة.

عن جابر بن عبد الله، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: « أول شيء خلق الله ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساما، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وسكنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله، ثم جعله أقساما، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة، فرشح ذلك النور، وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين »[1].

فكل واحد من القولين يمثل وجها للحقيقة المتعلقة بالمسميات.

---

(١) الميزان. ج١. ص١٢١.

الأمر (٣): أن العلم بالأسماء المطروح في الآية الشريفة المباركة هو في الحقيقة على نحو مختلف عن علمنا بأسماء الأشياء في اللغات، فالعلم بأسماء الأشياء في اللغات متاح للملائكة، والدليل على ذلك: نزولهم بالوحي على الأنبياء عليهم السلام وقد تحقق لهم هذا العلم بإنباء آدم عليه السلام لهم بالأسماء.

ولو لم يكن مختلفا: لأصبح الملائكة حين أنباهم آدم عليه السلام بالأسماء عالمين بها، وأصبحوا مثل آدم عليه السلام ومساوين له في العلم بها، ولم يكن له فضيلة عليهم، وهذا يدل:

- على أن العلم بالأسماء في الآية الشريفة المباركة، هو على نحو مختلف عن علمنا بأسماء الأشياء.

- وأن الملائكة لا تمتلك القابلية للعلم بها، وليس لأن الله جل جلاله لم يفيض عليهم العلم بها.

فلن يكون لآدم عليه السلام أي فضل لمجرد أن علمه الله عز وجل بالأسماء ولم يعلمها للملائكة، ولو علمهم إياها لكانوا مثله أو أشرف منه.

فما أقنع الملائكة عليهم السلام باستحقاق آدم عليه السلام وذريته لمقام الخلافة وعدم استحقاقهم لها، هو علمهم بما لدى آدم عليه السلام وذريته من القابلية للعلم بحقيقة الأسماء وعدم امتلاكهم لهذه القابلية.

ولو لا ذلك: لما بطلت حجة الملائكة باستحقاق آدم عليه السلام وبنيه الخلافة.

على أن كمال اللغة: هو العلم بمقاصد القلوب، والملائكة لا تحتاج في العلم بمقاصد القلوب إلى اللغة والتكلم، لأنها تعلم بها بدون واسطة اللغة، فلهم كمال في العلم بمقاصد القلوب فوق كمال اللغة والتكلم.

نتائج مهمّة

وما سبق يدل كله على النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن العلم المطلوب بالأسماء من أجل الخلافة، هو العلم الذي يكشف عن حقائق المسميات وباطنها وأعيان وجوداتها على ما هي عليه، فهو يشمل:

- المعاني والمفاهيم.
- الأسرار والخواص والكيفيات.
- من حيث هي مرايا للحق تعالى شأنه ودالة عليه.

وليس مجرد ما يتكفله الوضع اللغوي من إعطاء المفهوم للمسميات المحسوسة، كأن تقول: هذا فرس، وهذا جمل، وهذا باب، وهذه نافذة، وهذا نهر، وهذا بحر، وهذا قمر، وهذه شمس، الخ.

أو إعطاء المفهوم للمسميات المعقولة، مثل: الله، والوجود، والملائكة، والجنة، والنار، والبرزخ، والخير، والشر، والصلاح، والفساد، والعقل، والأخلاق، وهكذا في جميع المفاهيم لجميع المسميات المعقولة.

النتيجة (٢): أن علم الأسماء يشمل جميع ما يتصل بمسؤوليات الإنسان في الحياة وإدارتها وتحريكها في الوجهة التي أرادها الله جل جلاله، والقيام بمهام الخلافة الإلهية على أساس النظام الذي أراده واختاره، مثل:

- العلم بأسماء الموجودات الطبيعية وخواصها وقوانينها وكيفية استعمالها.
- استنباط الصناعات والابداعات المختلفة، مثل: المنطق، والكتابة، والعمارة، والتكنولوجية، والفن، والشعر، والموسيقى، وغيرها.

- تنظيم الحياة الاجتماعية ومستلزمات استقرارها وتطويرها، مثل: القوانين والعادات والتقاليد والآخلاق وإقامة المؤسسات: المدنية والعسكرية.

- الأفكار والمفاهيم التي تعرفه بالوجود وخالق الوجود وطاعته وعبادته والسير إليه والفناء فيه.

وهذا كله يكشف عن طاقة العقل وقوة المعرفة لدى الإنسان، بحيث يستطيع:

- استيعاب ما حوله من الظواهر الطبيعية والاجتماعية والإنسانية والقيمية.

- الموازنة بين الأمور المختلفة لاستنتاج الصناعات والأفكار الجديدة.

- إبداع الحلول المناسبة لمشاكل الحياة المختلفة وقضاياها البسيطة والمعقدة.

- تحدد وجهة السير والمصير في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[1].

النتيجة (٣): أن الملائكة ليست لديها القابلية والقدرة للعلم بحقيقة الأسماء كما هي القابلية والقدرة لدى آدم عليه السلام وأن الإنسان وحده الذي يمتلك هذه القابلية والقدرة دون غيره من الكائنات.

وأن ما حصل للملائكة عليهم السلام من العلم بالأسماء بعد إنباء آدم عليه السلام لهم بها، يختلف عما لدى آدم عليه السلام من العلم بحقيقة الأسماء بتعليم الله عز وجل له بها. ولهذا نفت الملائكة العلم المطلوب بالأسماء من أجل الخلافة عن نفسها.

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

قول الله تعالى: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾.

وأن الإنسان يحصل على هذا العلم بصورة تدريجية من خلال أدوات المعرفة التي أنعم الله عز وجل بها عليه، وهي الحواس الخمس مع العقل (كما سيوضح في بحث المعرفة).

النتيجة (٤): أن قابلية الإنسان وقدرته وحده للعلم المطلوب بالأسماء، هي التي أهلته دون غيره للخلافة الإلهية في الأرض، وأن هذا العلم هو المسؤول عن المسيرة التكاملية للإنسان: الفردية والمجتمعية، الروحية والعلمية والصناعية والفنية والأدبية والعمرانية وغيرها من مستلزمات إقامة الحضارة الإنسانية الربانية الراقية على وجه الأرض.

النتيجة (٥): تدل الآية الشريفة المباركة على شرف الإنسان وفضله، وشرف العلم وفضله، وأن العلم أفضل من الشعائر العبادية، مثل: الصلاة والصيام والحج والزكاة والدعاء، فالعلم هو السبيل إلى:

- تصحيح الشعائر العبادية وإعطائها قيمتها الحقيقية في ميزان الأعمال وما تستحقه من الثواب والأجر عند الله عز وجل يوم الجزاء.

- الرقي والتقدم والازدهار في الحياة.

- التكامل الروحي والأخلاقي والعروج إلى ساحة القدس والقرب من الله ذي الجلال والإكرام والزلفى لديه والفناء فيه.

النتيجة (٦): أن العبادة والخلافة في الأرض لا تقوم بدون علم ومعرفة، وأن الخلافة لا تكون بالشعائر فحسب، وإنما بالخضوع المطلق لله ذي الجلال والإكرام في جميع شؤون الحياة: الفردية والمجتمعية (الخلافة عقيدة ومنهج حياة وبناء أمة وحضارة وقيام دولة) فمن خالف:

- بإهمال العلم والمعرفة.

- أو بإقصاء الدين عن شؤون الحياة المختلفة.

- أو بالعكوف على الشعائر وترك العمل وعدم الاهتمام بالشؤون العامة للحياة.

فقد نقض الحكمة من وجوده والغرض من الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، وخالف فطرة الله تبارك وتعالى التي فطر الناس عليها، والتي يقوم عليها أمر الخلافة كلها.

قول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال العلامة السيد فضل الله: « وقد يكون العمل المنتج وجها من وجوه التسبيح في الإنسان، وحركة من حركات التقديس. ففي مظاهر العقل معنى التسبيح، وفي مواقع القوة والإبداع معنى التقديس »[2].

الأمر (٤): أن الملائكة كان لديهم علم إجمالي ويقين بأن أفعال الله عز وجل كلها تشتمل على الحكمة البالغة بما في ذلك استخلاف آدم عليه السلام إلا انه لم يكن لهم علم تفصيلي بوجه الحكمة من استخلافه وذريته مع ما سيصدر من ذريته من الفساد وسفك الدماء، فكان ما كان من أمر الأسماء، فحصل لديهم:

- العلم بوجه الحكمة من استخلاف آدم عليه السلام وذريته.

- استحقاق آدم عليه السلام وذريته لمقام الخلافة وعدم صلاحيتهم هم لها.

فسلموا لله عز وجل تسليما.

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) من وحي القرآن. ج١. ص٢١٨.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

فقد علموا:

- باستعداد آدم عليه السلام وقابليته للعلم بحقيقة الأسماء التي عليها مدار الخلافة وعدم وجود الاستعداد والقابلية لديهم لهذا العلم.

- وعلموا بكيفية خلق آدم عليه السلام وتكوينه مما يجعل لديه القابلية لعمارة الأرض وإقامة حضارة إنسانية عليها على ضوء المنهج الإلهي والإرادة الربانية، والوصول إلى درجات عاليه من الكمال الروحي والمعنوي والقرب من الله ذي الجلال والإكرام والزلفى لديه والفناء فيه .

- أن لوجود الملائكة غاية غير الخلافة التي منحها الله عز وجل للإنسان، وأن خلافة الإنسان في الأرض مكملة لدور الملائكة في نظام الوجود، وأن وجود الملائكة مسخر لخدمة الإنسان لتحقيق أهداف خلافته في الأرض.

الأمر (٥): قدرة الإنسان على وضع الأسماء على المسميات: الحسية والعقلية، مما مكن الإنسان من التفاهم ونقل المعلومات بالمخاطبة والكتابة.

قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[١].

وهذه نعمة كبرى وضرورية للتقدم المادي والمعنوي وبناء حضارة الإنسان على وجه الأرض وتقدمها.

وقد مثلت معرفة الإنسان للكتابة في أواخر عصر المعادن نقله نوعية في تاريخه، حيث نقلته من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخي. ويعود للكتابة الفضل، في:

- حفظ المعلومات.

---

(١) الرحمن: ٣ - ٤.

- نقلها خارج الحدود الجغرافية والتاريخية، أي: خارج حدود الزمان والمكان.

- تراكم المعلومات مما يؤدي إلى ضخامة التوظيف وتحقيق القفزات النوعية في التطوير الحضاري.

فكلما تمكن الإنسان أكثر من حفظ المعلومات وتجميعها بشتى الأساليب: في الذاكرة وبالكتابة الورقية والالكترونية، ونقلها بشتى الوسائل: التقليدية وغير التقليدية، كلما تمكن أكثر من التقدم والازدهار وتحقيق قفزات نوعية في تاريخه وحضارته.

الفصل الخامس

ظهور قابليّة الإنسان للعلم بالأسماء

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾.

بعد أن ثبت للملائكة عليهم السلام عجزهم عن العلم بالأسماء لعدم وجود القابلية لديهم لذلك، أظهر لهم علم آدم عليه السلام بها، وذلك بأن أمره بأن ينبئهم بالأسماء، وليس تعليمهم إياهم، لأن الملائكة ليست لديهم القابلية للعلم بها، فقام بمهمة التعليم للملائكة بكل كفاءة وفي أسرع وقت ممكن، مما أظهر:

- علمه عليه السلام الأكيد والثابت بالأسماء.
- وتأهله لتعليمها غيره كل بحسب ما لديه من القابلية والاستعداد.

ومن خلال قيامه بمهمة تعليم الملائكة الأسماء، تأكد وظهر للملائكة استحقاقه عليه السلام لمقام الخلافة.

ولا شك أن قيام آدم عليه السلام بمهمة التعليم، كان كاشفا للملائكة عن علمه بالأسماء، مما أقنعهم بحق وحقيقة باستحقاقه لمقام الخلافة دونهم.

وقيل في تفسير ﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ أقوال عديدة، منها:

- أنهم كانوا يكتمون أنهم أحق بالخلافة من آدم عليه السلام وأنهم ما كانوا

يظنون أن موجودا أرضيا يمكن أن يسود على كل شيء حتى عليهم، وأن الله جل جلاله يخلق خلقا أفضل منهم.

- ما أسره إبليس (عليه اللعنة) في نفسه - وكان يومئذ بين الملائكة - من الكفر والإباء عن الخضوع لآدم عليه السلام والاستكبار حتى لو دعي إلى السجود إلى آدم عليه السلام من قبل الله عز وجل.

مضامين الآية الشريفة المباركة

وتدل الآية الشريفة المباركة على أمور عديدة، منها:

الأمر (١): أن المراد من العلم بالغيب في الآية الشريفة المباركة هو العلم بوجود الأسماء نفسها، وليس العلم بقدرة آدم عليه السلام على تعلمها، فلم تكن الملائكة تعلم بوجود الأسماء وتجهل قدرة آدم عليه السلام على تعلمها، وإنما كانت تجهل أصل وجود الأسماء.

الأمر (٢): أن ليس في مقدور الملائكة عليهم السلام العلم بحقيقة الأسماء، وذلك لعدم وجود الاستعداد والقابلية لديهم لذلك، كما هو الحال لدى آدم عليه السلام وإلا:

- لم يكن لآدم عليه السلام وذريته فضل يستحقون به الخلافة دون الملائكة ودون غيرهم من الكائنات كالجن.

- ولم يكن في علم آدم عليه السلام بالأسماء ما يقنع الملائكة باستحقاقه وذريته للخلافة دونهم ودون غيرهم ويدحض حجتهم باستحقاقهم للخلافة.

وقيل: أن علم آدم بالأسماء كلها يكشف عن طبيعة تكوينه، حيث:

- الطين المكون من أجزاء مختلفة من التراب بالإضافة إلى الماء.

- ونفخة الروح.

أي: تعلق العالم الرحاني بالعالم الجسماني وامتزاجهما على نمط بديع بحيث تكون له جامعية تجمع جميع مراتب الوجود.

قول أمير المؤمنين عليه السلام: « وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر »[١].

وتهيأت له بهذا الامتزاج العجيب قوى مختلفة ليكون مستعدا لإدراك مختلف أنواع المدركات: الحسية والقعلية، التي بمعرفتها تتجلى له أسماء الله الحسنى كلها.

ومن ذهب إلى القول بأن الأسماء هي أسماء الأشياء، قال: بأن جبلة الملائكة غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية وخواصها، بينما الإنسان يمتلك ذلك الاستعداد بحسب فطرته المنطوية على طبائع متباينة، وقوى متخالفة، وعناصر متغايرة، مما يجعله مستعدا لإدراك أنواع المدركات:

- من المحسوسات (ما تدركه الحواس الخمس).

- والمعقولات (ما يدركه العقل من الماهيات والمفاهيم المجردة).

- والمتخيلات (ما تستحضره قوة الخيال من صور للمحسوسات، مثل: استحضار الولد في ذهنه صورة أبيه في حال غيابه).

- والموهومات (ما تدركه قوة الوهم من المعاني غير المحسوسة، مثل: الحب والبغض والعداوة والصداقة والحزن والسرور وغيرها).

وأن الله عز وجل قد ألهم آدم عليه السلام معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم بها وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها

---

(١) الديوان المنسوب للإمام علي.

وكيفيات استعمالها وغيره، وهو مالا تملك الملائكة القابلية والاستعداد للعلم به.

الأمر (٣): أن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، وإلا لم تكن هناك فائدة حقيقية ترجى من تكليف آدم عليه السلام بتعليمهم الأسماء ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ بما يتناسب مع قابليتهم واستعدادهم.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن ما حصل للملائكة من العلم بالأسماء بعد أن أنبأهم بها آدم عليه السلام هو علم بظاهر الأسماء، وهو علم يختلف عن العلم الذي علمه الله عز وجل لآدم عليه السلام الذي هو علم بحقيقة الأسماء واعيان وجوداتهم.

النتيجة (٢): أن للعلم بالأسماء صلة بعلاقة الإنسان التسخيرية أو الاستعمارية المتصاعدة في الأرض، وبسيره المعنوي التكاملي: الفردي والمجتمعي إلى الله ذي الجلال والإكرام. وأن هاتان المسيرتان (التسخيرية والمعنوية: الفردية والمجتمعية) تلتقيان في غايتهما النهائية وذلك:

- بتحقيق المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام.
- والسير إليه والقرب منه جل جلاله والفناء فيه.

الفصل السادس

سجود الملائكة لآدم

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

بيان المفردات

السجود - في اللغة : الخضوع والتذلل والانقياد.

السجود - في الاصطلاح : وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، وهو غاية الخضوع والتذلل والانقياد للمسجود له.

إبليس: اسم أعجمي معرب، وقيل: اسم عربي مشتق من الإبلاس، بمعنى:

- الحزن من شدة اليأس.
- أو اليأس نفسه حيث أنه يئس من رحمة الله عز وجل.
- أو الحيرة والاضطراب وهو كذلك طوال حياته.
- أو الندم حيث جاء بما ينبغي أن يندم عليه.
- أو السكوت وانقطاع الحجة.

الإباء: ترك الطاعة وشدة الامتناع بالاختيار، والرجل الأبي: هو الممتنع عن تحمل الضيم.

التكبر: هو حالة الإعجاب بالنفس، وأن يرى نفسه أكبر من غيره.

لمن كان سجود الملائكة؟

قيل في سجود الملائكة أقوال عديدة، منها:

- أنه لآدم عليه السلام تحية وتعظيما واعترافا بفضله.
- أنه لله سبحانه وتعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه حيث أكرمه الله عز وجل بخلافته.

والراجح لدى معظم المفسرين هو المعنى الأول (السجود لآدم) وأن الملائكة سارعوا إلى الامتثال بدون تردد أو إبطاء. ويحمل السجود من الملائكة تحية لآدم عليه السلام إدراكهم بأن دوره في الحياة يكمل دورهم في إدارة النظام الكوني وفوقه، ويهدف إلى تحقيق غاية الوجود والحكمة الربانية في الخلق.

يقول العلامة السيد الطباطبائي رحمه الله: « أنهم إنما أمروا بالسجود لنوع الإنسان لا لشخص آدم عليه السلام ولم يكن هذه السجدة تشريفا اجتماعيا من غير غاية حقيقية بل كانت خضوعا بحسب الخلقة فهم بحسب ما أريد من خلقهم خاضعين للإنسان بحسب ما أريد من كمال خلقته، أي أنهم مسخرون لأجله عاملون في سبيل سعادة حياته أي إن للإنسان منزلة من القرب ومرحلة من كمال السعادة تفوق ما للملائكة من ذلك. فسجودهم جميعا لهو دليل أنهم جميعا مسخرون في سبيل كماله من السعادة عاملون لأجل فوزه وفلاحه كملائكة الحياة وملائكة الموت وملائكة الأرزاق وملائكة الوحي والمعقبات والحفظة والكتبة وغيرهم ممن تذكرهم

متفرقات الآيات القرآنية فالملائكة أسباب إلهية وأعوان للإنسان في سبيل سعادته وكماله »[1].

وقد روي أن أول من سجد جبرائيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم عزرائيل، ثم سائر الملائكة عليهم السلام[2] والحق: أنهم سجدوا جميعا دفعة واحدة، ولم يكن بعضهم قبل وبعضهم بعد الآخر كما سبق بيانه.

وكان إبليس (عليه اللعنة) في صفوف الملائكة، وكان مشمولا بالأمر بالسجود، إلا أنه لم يسجد استكبارا وعنادا.

فلم يكن عدم سجود إبليس (عليه اللعنة) بسبب التردد والتأمل، وإنما كان قرارا أكيدا بسبب التكبر والكفر، وقد تجلى فيه:

- عصيانه للرب الجليل سبحانه وتعالى والامتناع عن امتثال أمره.
- سوء الخلق والإصرار على الشر وعدم الاعتراف بالفضل لأهله.
- العزة بالإثم وغلق منافذ المعرفة للحق والتسليم به.

تحذير مهمّ

إن اعتبار إبليس كافرا رغم إيمانه بوجود الله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر وبصدق الرسل في حمل الرسالة عن الله جل جلاله، يحمل على التحذير من أن يعيش الإنسان روحية الكفر ويمارس التمرد العملي على أمر الله عز وجل ونهيه وهو يعتقد نظريا بالإسلام.

---

(١) الميزان. ج١٤ ص١٥٨

(٢) تفسير أبي السعود. ج١. ص٨٧.

فالمطلوب: ليس الإيمان النظري بالعقائد الإسلامية، مثل: التوحيد، والنبوة، والملائكة، والمعاد، والقضاء والقدر، وإنما الامتثال العملي والطاعة المطلقة لأمر الله عز وجل ونهيه في كافة شؤون الحياة: الفردية والمجتمعية، وعلى كافة الأصعدة: الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها بدون استثناء.

يقول العلامة السيد فضل الله: « ونحن نفهم من الآيات التي تربط العمل الصالح بالإيمان أن خطورة الكفر لا تقتصر على ما تمثله من إنكار لله ولرسله واليوم الآخر، بل تكمن في الانطلاق بعيدا عن عبادة الله وإرادته في بناء الحياة على أساس شريعته »[١].

ويقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « إن كل من حقد على ذي فضل لفضله، أو عادى إنسانا لمجرد المزاحمة أو المشاركة في الرياسة والمهنة فهو على دين إبليس ومبدئه، ويحشر يوم القامة في زمرته »[٢].

وقت أمر الملائكة بالسجود

وفيه قولان أساسيان:

- أن الأمر بالسجود جاء بعد تجربة العلم بالأسماء.

- أن الأمر بالسجود جاء بعد إكمال خلق الإنسان ونفخ الروح وقبل تجربة العلم بالأسماء، كما يدل عليه:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(١) من وحي القرآن.ج١.ص٢٣٩.

(٢) في ظلال نهج البلاغة. ج١. ص٥١.

﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[2].

وقول أمير المؤمنين عليه السلام: « وأستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته »[3].

أي أخبرهم بخلقه لآدم عليه السلام قبل أن يخلقه، وأوصاهم بالسجود له عند تمام خلقه بنفخ الروح فيه، فسمع الملائكة الوصية وحفظوها، وضيعها إبليس، ليثبت جوهر شقائه وأصالة الشر في نفسه وعداوته للإنسان عداوة وجودية متأصلة.

وقال أصحاب الرأي الثاني: لو كانت استجابة الملائكة بعد العلم بمكانة الإنسان لما كانت لهم مفخرة في ذلك. والحق - بغض النظر عن الدليل - أن الآية الشريفة المباركة تكشف عن:

- دور الملائكة الايجابي في محبة الإنسان وهدايته.
- عداوة إبليس (عليه اللعنة) للإنسان ودوره في إضلاله وإغوائه.

وأن هذه الحقيقة وجودية لا تتوقف على معرفة مكانة الإنسان، وإنما على الطبيعة الخيرة للملائكة، والطبيعة الشريرة لإبليس (عليه اللعنة) هذا الكائن الحاقد الذي يدفعه حقده إلى أن يمارس كل ما يستطيع من الأعمال الشريرة في سبيل تحطيم الإنسان تنفيسا عن حقده المتقد في نفسه الخبيثة. فلم يتغير موقف

---

(١) الحجر: ٢٨ - ٣٠.

(٢) ص: ٧١ - ٧٣.

(٣) النهج. الخطبة: ١.

إبليس (عليه اللعنة) من آدم وبنيه بعد معرفة فضل الإنسان وأصر على عداوته للإنسان والسعي لغوايته ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

وهذا في الحقيقة يحدد ويكشف:

- أن جوهر الصراع في حياة الإنسان هو صراع قيمي، بين: الحق والباطل، والنور والظلام، والعدل والظلم، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والشرف والدناءة، والحرية والذلة، والبناء والهدم، والسعادة والشقاء، وغيرها من القيم العالية.

- أن صديقا الإنسان في هذا الصراع: العقل والملائكة، وعدواه: إبليس والنفس الأمارة بالسوء. فإبليس (عليه اللعنة) هو الذي يقف - عن قصد وإرادة وتصميم وسبق إصرار - وراء كل عمليات الكفر والفسق والانحراف في حياة الإنسان، بما يزينه في نفسه الأمارة بالسوء، بكل وسيلة وخديعة وخبث.

- أن الإنسان ينتصر في هذا الصراع بمقدار ما يهتدي بعقله ويلتزم بعهده مع ربه سبحانه وتعالى، ويخسر فيه بمقدار ما يستخفه الشيطان الرجيم، ويستسلم لشهواته، ويبتعد عن عهده مع ربه سبحانه وتعالى.

مضامين الآية الشريفة المباركة

وتدل الآية الشريفة المباركة على أمور عديدة، منها:

---

(١) الإسراء: ٦٢.

الأمر (١): أن السجود الذي أمر الله عز وجل به الملائكة، كان لعامة البشر وليس لآدم عليه السلام وحده، وإنما كان آدم عليه السلام كالقبلة المنصوبة للسجود، وهو يمثل النوع الإنساني.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾(١).

الأمر (٢): رغم أن إبليس (عليه اللعنة) كان في صفوف الملائكة، إلا أنه ليس من صنفهم، لأنه من الجن. وأن امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام هو امتناع عن الخضوع للنوع الإنساني وعن العمل في سبيل سعادته وإعانته على كماله المطلوف، لأنه يرى نفسه أفضل من آدم عليه السلام وبنيه، وأنه حقيق بأن يسجد له آدم عليه السلام وبنيه، وليس العكس.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾(٢).

والخلاصة: أن باعث إبليس (عليه اللعنة) على الامتناع عن السجود لآدم عليه السلام هو التكبر والتعصب لذاته، حيث:

- يرى نفسه أفضل من آدم عليه السلام وبنيه.
- الشعور بتضخم الذات لديه.
- النظر لطاعة الله عز وجل من حيث هي منسجمة مع ذاته ونظرته إلى نفسه، لا من حيث هي تكليف إلهي.

---

(١) الأعراف: ١١.

(٢) الكهف: ٥٠.

ولهذا امتنع عن السجود لآدم عليه السلام لأنه لا يرضي غروره وشعوره بالاستعلاء أمام الإنسان، وأظهر الخصومة والعداء للإنسان: من آدم وحواء (عليهما السلام) إلى آخر من سيولد ويعيش من ذريتهما.

الأمر (٣): أن كفر إبليس (عليه اللعنة) كان سابقا على الأمر بالسجود لآدم عليه السلام وكان مكتوما، وليس السجود إلا مناسبة أدت إلى كشف كفره.

الأمر (٤): أن الطريق إلى الله عز وجل هو الصدق والإخلاص ونكران الذات والثبات على الحق عند الابتلاء، فقد كان إبليس مضرب المثل في العبادة لمدة: (٦٠٠٠: سنة) ثم انتهى أمره إلى أسوء حال حينما امتحنه الله عز وجل بالسجود لآدم عليه السلام.

الأمر (٥): أن الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، تعني:

- أن الإنسان سيد هذا الوجود.
- أن كل شيء في الوجود خلق من أجله.
- أن جميع أنواع الموجودات خاضعة لتصرفه.
- أن سيادته تشمل الملائكة والجن.

الأمر (٦): أن السجود لغير الله جل جلاله إذا كان على نحو التحية والتكريم للغير وفيه خضوع لله سبحانه وتعالى بموافقة أمره، فهو جائز، وذلك بدليل سجود الملائكة لآدم طاعة لله عز وجل ومحبة منهم لآدم واعترافا له بالفضل. وأيضا سجود أبوي يوسف له بعد أن رفعهم على العرش.

قول الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾[1].

---

(١) يوسف: ١٠٠.

قال الإمام الرضا عليه السلام: « كان سجودهم لله تعالى عبودية، ولآدم إكرام وطاعة، لكوننا في صلبه »[1].

فالممنوع عقلا وشرعا: هو إعطاء الربوبية لغير الله سبحانه وتعالى، وأما تحية الغير أو تكرمته من غير إعطاء الربوبية، فلا دليل من العقل والشرع على حرمته، ولكن الذوق الديني يقضي باختصاص السجود به سبحانه وتعالى، والمنع عن استعماله لغيره حتى على نحو التحية والتكريم[2].

الأمر (٧): أن طاعة الله لا تكون إلا من حيث يريد الله جل جلاله لا من حيث يريد العبد نفسه، وأن كل من يعصي ويخالف يكون مستحقا للطرد من ساحة القدس، ويكون شقيا محروما من السعادة الأبدية.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « أمر إبليس بالسجود لآدم فقال: يا رب وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأبعدنك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها، قال الله جل جلاله: إني أحب أن أطاع من حيث أريد »[3].

وفيه دلالة على:

- أن جوهر العبادة هو التوجه من ذل العبودية إلى عز الربوبية، وليس بكثرة الأذكار والركوع والسجود والقيام والقعود.

- أن العبادة تفقد قيمتها مع إحساس الإنسان بالتكبر في داخل نفسه.

جاء في الحديث القدسي: « الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار »[4].

---

(١) نور الثقلين.ج١. ص٥٨.

(٢) الميزان. ج١. ص ١٢٢ – ١٢٣.

(٣) الميزان. ج١. ص١٢٥.

(٤) كنز العمال. ج٣. الحديث: ٧٧٤٠.

- أن التكبر أقبح الخُلق، وأم المفاسد والرذائل الأخلاقية، ورأس المعصية، وأصل الخسران والشقاء والانهيار والسقوط من المكانة المرموقة إلى الحضيض والدرك الأسفل، والمانع الأكبر للإنسان من التقدم في سلم التكامل الروحي والمعنوي والوصول إلى السعادة والفناء في الله ذي الجلال والإكرام.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « احذر الكبر فإنه رأس الطغيان ومعصية الرحمن »[1].

والخلاصة: أن ما خص الله عز وجل به الإنسان من الكرامات السنية التي ذكرت في هذه الآيات الشريفة المباركة وتنطق بها الوقائع الحية، هي بحق من أجل النعم التي أنعم بها عليه، وجدير بالإنسان العاقل:

- أن يعرف قيمة هذه الكرامات والمنزلة التي أنزله الله جل جلاله فيها، وأن لا يغفل عنها ولا يقصر في أداء شكرها للمنعم بها عليه، وهو الله جل جلاله.

- أن يحذر من الشرك والعناد والتكبر على الله عز وجل فيكون من الخاسرين كما كان إبليس (عليه اللعنة).

يقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « إن كثيرا من الناس يصرون على الباطل لا لشيء إلا عنادا لخصمهم ونكاية به، وهم يعلمون علم اليقين أن هذا الإصرار يعود عليهم بأسوء العواقب وأوخمها، وهذا هو شأن إبليس بالذات،.....، ومن دعي إلى خير، وقال: أستجيب لكل شيء إلا لهذا، لأن فيه إعزازا لزيد أو مسا بشخصي فهو على مبدأ إبليس ومقلد له، أراد ذلك أم لم يرد »[2].

---

(١) غرر الحكم. الحديث: ٢٦٠٩.

(٢) في ظلال نهج البلاغة. ج١. ص٥١ - ٥٢.

دروس بليغة

إن الحوار بين الله عز وجل من جهة، وبين الملائكة وإبليس من جهة ثانية، يحمل دروسا بليغة للإنسان، منها:

الدرس (١): أن السبيل إلى الإيمان ليس هو القهر والتسلط وإنما الحوار والإقناع، وأن الإنسان الحكيم مهما بلغ من العلم والقوة، ومهما كانت لديه من السلطة، فإنه ليس فوق الحوار والمناقشة والاعتراض عليه، فقد فسح الله جل جلاله للملائكة بالسؤال، وحاور إبليس حول اعتراضه على الأمر الرباني له بالسجود.

وأن الملائكة رغم علمهم بعظمة الله جل وجلاله، لم يمتنعوا عن السؤال لكي يعلموا ما كانوا يجهلون.

فعلى الذين يرون أنفسهم فوق الاعتراض والمناقشة لمكانتهم العلمية أو منزلتهم السياسية والاجتماعية أو غيره أن يتعظوا، فإنهم يرفعون أنفسهم فوق مكانة العزيز الجبار، جبار السماوات والأرض، فالويل لهم إن لم يتوبوا.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « لا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل »[1].

الدرس (٢): أن قيمة العلم هو العمل به وتعليمه للآخرين، وأن وظيفة العلماء هو التواضع إلى الناس وتعليمهم بلطف ورحمة، وليس التفاخر والتكبر على الناس، وأن من العلم ما هو حجاب، ومن العلماء من هم أعداء حقيقيين لله عز وجل مثلهم كمثل إبليس (عليه اللعنة).

---

(١) النهج. الخطبة: ٢١٤.

فيجب على كل عاقل أن يميز بين العلماء الربانيين الصادقين المخلصين والعلماء المتكبرين المعاندين للحق.

ولو ميز الناس بين هذين الصنفين من العلماء لاهتدى الكثير من الناس إلى الحق بعد الضلال، وإلى الصواب بعد الخطأ.

وعلى ضوء ما سبق: يجب على الناس:

- احترام العلماء وتقديرهم وعدم الإساءة إليهم.

- التواضع في الحوار والتسليم للحق بعد اكتشافه وعدم العناد والمكابرة، لأن التكبر والعناد هما السبيل للفساد وسوء العاقبة.

- التمييز بين السؤال طلبا للعلم والمعرفة وبحثا عن الحق، والسؤال من أجل المحاجة والمكابرة وفتل العضلات.

- أن تكون الحكمة ضالة الإنسان بغض النظر عن قائلها، فكل من رد الحق لأنه من فلان الصغير أو الكبير، وكل متكبر عليه، فقد تخلق بأخلاق إبليس في التكبر والعناد وجحود الحق ووقع في الفتنة وسقط في الامتحان.

الدرس (٣): إن تعرف الإنسان على خصائص وجوده، واستشعار منزلته الوجودية التي منحها الله جل جلاله إياها وأكرمه بها، والتعرف على المسؤولية الوجودية النوعية الملقاة على عاتقه، هي السبيل إلى:

- تجديد طاقات الإنسان وتحويلها إلى قوة فاعلة من أجل تركيز الحياة على خط الاستقامة.

- التغلب على كافة عوامل الضعف التي تضغط على الإنسان من الداخل والخارج في سبيل تدمير إنسانيته ووجوده، حيث يستشعر القوة الهائلة المستمدة من شعوره بأنه سيد هذا الكون.

يقول العلامة السيد فضل الله: « وهذا ما يجب على العاملين في سبيل الله أن يعمقوه في داخل نفوس الناس كجزء من التربية الروحية التي يراد منها إيحاد الشخصية المسلمة الفاعلة المتعاطفة مع كل مجالات العمل في الحياة، المتطلعة في كل صباح جديد إلى واقع جديد ومسؤولية جديدة تنطلق أبدا في الآفاق الواسعة الشاملة التي تشرق بنور الله »[(١)].

والمطلوب من الإنسان:

- أن لا يغفل ولا يقصر في أداء شكر هذه النعمة العظيمة، فإنها بحق: من أجل النعم التي أُنعم بها على الإنسان.

- وأن يسعى بجد ومثابرة لتحقيق الأهداف الربانية التي وجد من أجلها، وأن يحذر من العناد والمكابرة، وتوظيف الطاقات الإنسانية في الدمار والخراب أو في الأشياء التافهة التي لا تعود بالنفع عليه في الدنيا والآخرة.

الدرس (٤): أن الملائكة لديها تسليم مطلق بعلم الله عز وجل التام وحكمته البالغة في خلقه، وكانت التجربة الطويلة والحوار التفصيلي مع الملائكة بشأن خلافة آدم عليه السلام لكي يتدبروا أحواله ويحيطوا بما لديه من فضل.

وهنا يظهر أمرا بالغ الأهمية في القيادة والإدارة، وهي ضرورة الإيمان بالمهام لدى كل من يقوم بأدائها، لاسيما المهام الخطيرة، والمهام التي يحتاج أداؤها إلى فترة زمنية طويلة. فالملائكة عليهم السلام بوصفهم مسؤولون عن التدبير في الخلق، سوف يقومون بمهام كثيرة في سبيل تحقيق الإنسان لأمر الخلافة، ولهذا لم يعتمد الله عز وجل على إخلاص الملائكة وتسليمهم لأمره في القيام بهذه المهمة الخطيرة في الوجود، وإنما حرص جل جلاله على إعطائهم العلم التفصيلي بهذا المخلوق

---

(١) من وحي القرآن. ج١. ص٢٣٦.

ودوره في الحياة، ليكون دورهم في تقديم الدعم والمساندة للإنسان في سبيل تسهيل تحقيق أهداف الخلافة وغايتها عن علم شامل وإيمان راسخ لا يتزلزل.

وهكذا ينبغي إسناد المهام الخطيرة والمصيرية، بحيث تكون مستندة إلى علم شامل وإيمان راسخ لا يتزلزل لمن يقوم بها، وعدم الاعتماد في ذلك على مجرد الثقة في الجهة التي تصدر الأمر (القيادة) وإخلاص المكلف لها.

نتائج ختامية تتعلق بالخلافة

النتيجة (١): أن المراد من الخلافة هي الخلافة الإلهية وليس خلافة موجود أرضي سابق كان موجود في الأرض ثم أنقرض.

النتيجة (٢): أن الخلافة ليست مقصورة على آدم وحواء (عليهما السلام) وإنما يشاركهما فيها أبناؤهما وذرياتهما إلى يوم القيامة.

النتيجة (٣): أن مقام الخلافة الإلهية مقام عظيم جدا ومتميز بحيث جعل الملائكة تتطلع إليه بلهفة وشوق.

النتيجة (٤): أن الإنسان يتمتع بمكانة وجودية عظيمة يتميز بها على كافة المخلوقات في الوجود، وأنه سيد هذا الوجود بأسره.

الفصل السابع

حول الملائكة

الملائكة في اللغة

جمع ملك، قيل: أنه مقلوب من مألك وألوكة وهي الرسالة، حيث أنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الأنبياء عليهم السلام في إيصال الوحي والرسالة إلى الناس جميعا، وقيل: اللفظ مشتق من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة.

الملائكة في الاصطلاح

الملك صنف من خلق الله عز وجل وجنوده، لهم حياة وموت ووظيفة في الوجود، وهم درجات في الفضل والمنزلة، فمنهم أرباب العبادة، ومنهم الأمناء على الوحي، ومنهم الروح القدس، ومنهم حفظة العباد، ومنهم حملة العرش والقائمون على التدبير، ومنهم.. ومنهم، ولهم أجنحة بحسب مراتبهم ومنازلهم الوجودية، وهم عباد مكرمون يعبدون الله بصدق وإخلاص ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون بدون تخلف ولا تردد، وفيهم أقوال عديدة، منها:

- قول المتكلمين: أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية خيرة سعيدة، ذوات عقول وأفهام، وبعضها أقرب عند الله عز وجل وأكمل من بعض، وهم قادرون على

التصرفات السريعة والأفعال الشاقة والتشكل بأشكال مختلفة (التمثل) بدليل أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يرونهم في صورة الإنسان، وسوف أبين الحقيقة في ذلك بعد قليل.

- وقول الفلاسفة: أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة البشرية من حيث الماهية، وأكمل منها قوة وأكثر علما، وإنما النفوس البشرية جارية منها مجرى الأضواء من الشمس.

- وقالت طائفة من النصارى: أنهم النفوس البشرية الفاضلة المفارقة للأبدان.

الإيمان بالملائكة

يعتبر الإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب، وهو من أساسيات العقيدة الإسلامية، حيث جعل القرآن الكريم الإيمان بهم مرادفا للإيمان بالله جل جلاله وبالأنبياء عليهم السلام وبالكتب السماوية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) النساء: ١٣٦.

وقد تكرر ذكرهم في القرآن الكريم، ولم يذكر منهم بالاسم، إلا: جبرائيل وميكائيل، وما عداهما ذكر بالوصف، مثل: ملك الموت، والكرام الكاتبين، والسفرة الكرام البررة، والرقيب العتيد، وغيرهم.

وقد تناولت آيات القرآن الكريم خصائصهم وصفاتهم ووظائفهم والمهام الموكلة إليهم، ولا يمكن إثبات شيء من ذلك استنادا إلى العقل بدون الرجوع إلى النص القرآني والأحاديث الشريفة، لأنها من الأمور الغيبية، وسوف التزم بهذا المنهج في البحث إن شاء الله تعالى.

حقيقة الملائكة وتمثلها

الملائكة مخلوقات شريفة راقية ووجودات نورانية طاهرة خيرة سعيدة ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[1] عاقلة لها إدراك وفهم وشعور، وهم منزهون في وجودهم عن المادة الجسمانية، التي هي في معرض الزوال والفساد والتغير.

وما ورد في القرآن الكريم والروايات الشريفة من صور الملائكة وهيئاتهم الجسمانية، ليس هو في الحقيقة من التصور والتشكل - كما يرى المتكلمون - وإنما هو بيان لتمثلاتهم وظهورهم في إدراك من يشاهدهم من الأنبياء والأوصياء والمحدثين عليهم السلام وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾[2].

---

(١) الأنبياء: ٢٦.

(٢) مريم: ١٦ - ١٩.

التمثل في اللغة

من مادة المثول وهو الوقوف في مقابل شخص أو شيء، ويقال للشيء الذي يظهر بصورة أخرى: ممثلا، ويقال تمثل للشيء: تصور مثاله، وتمثل له الشيء: تصور عنده بصورته.

التمثل في الاصطلاح

هو ظهور الملك في ظرف المشاهدة والإدراك لمن يشاهده بصورة الإنسان بالرغم من بقائه في نفسه وحقيقته الملكية.

وهناك صور عديدة للتمثل، منها:

- تمثل إبليس والجن في مختلف الصور.
- تمثل الأعمال للإنسان في القبر ويوم القيامة.
- تمثل العدو في المنام في صورة الحية أو العقرب.
- وغيرها الكثير.

ولا شيء من ذلك يعني تغير في حقيقة الشيء، وإنما ظهوره في الإدراك لمن يشاهده في الصورة المتمثلة، مع بقائه في نفسه على حقيقته الأصلية.

تمثل الملائكة

لا يتحقق بالتغير من صورة إلى صورة، أو من شكل إلى شكل، وإنما يظهر للرائي من الأنبياء والأوصياء والمحدثين عليهم السلام وغيرهم في ظرف إدراكهم بصورة

إنسان، أما الملك في نفسه: فهو ملك ذو صورة ملكية لم تتغير ولم تتبدل إلى صورة إنسان أو غيره.

صفات الملائكة

وللملائكة صفات كريمة، منها:

- أنهم متذللون في ذوات أنفسهم ذاهلون عن كل شيء إلا عن ربهم ذي الجلال والإكرام.

- وهم منزهون عن النقص والشين.

- وليس عندهم إمكان الفساد والمعصية والتقصير.

- خلقهم الله جل جلاله من نور، فهم لا يتصفون بشيء من الصفات المادية، فلا تراهم العيون، وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جنا لاستتارهم عن العيون.

- وهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتناكحون، فهم مطهرون من الرغبات والشهوات الحيوانية.

- وهم منزهون عن الآثام والخطايا، ويعبدون الله عز وجل حق العبادة الخالصة الكاملة، لا يفترون في عبادته ولا يسأمون، ويمتثلون لأمره مطلقا، ويفعلون ما يؤمرون. فليست لهم نفسية ذات إرادة مستقلة تريد شيئا غير ما يريده الله جل جلاله، فإرادتهم وعملهم تابعان لإرادته: فلا يريدون ولا يفعلون ولا يستقلون بعمل، ولا يغيرون أمرا حملهم الله عز وجل إياه بتحريف أو زيادة أو نقصان، فلا يظهر من وجودهم إلا فعلهم وطاعتهم لله عز وجل فيما يأمرهم به. فهم تابعون لربهم: إرادة وقولا وعملا، وتكليفهم تكليف تكويني يختلف باختلاف

درجاتهم، وليس لهم تكليف تشريعي. ولذلك لا جزاء لهم على عملهم من ثواب أو عقاب، وأنهم يمارسون تكليفهم في الآخرة كما يمارسونه في الدنيا، ويمارسونه في النار كما يمارسونه في الجنة.

قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4].

وقال الرسول الأعظم الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): « ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا فيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئا »[5].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « ثم فتق سبحانه ما بين السماوات العلى، فملأهن أطوارا (أصنافا) من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون (يفارقون مكانهم) ومسبحون لا يسأمون (يملون)

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) الأنبياء: ١٩- ٢٠.

(٣) الأنبياء: ٢٦- ٢٧.

(٤) التحريم: ٦.

(٥) الدر المثور. السيوطي. ج٢. ص٢٩٢.

لا يغشاهم (يأتيهم) نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة (ضعف) الأبدان، ولا غفلة النسيان»[1].

وظائف الملائكة

وقد جعل الله عز وجل الملائكة وسائط بينه وبين العالم المشهود، حيث وكلهم بأمور العالم: التكوينية والتشريعية.

الأمور التكوينية

ما من حادثة ولا واقعة: صغيرة أو كبيرة، إلا وللملائكة فيها شأن ودور، حيث جعل الله سبحانه وتعالى عليها ملك أو أكثر - بحسب ما فيها من الجهات - لتنفيذها وإجراء الأمر الإلهي فيها.

- فهم أسباب للحوادث في العالم المشهود فوق الأسباب المادية المباشرة.

وهذا لا ينفي استناد الحوادث إلى أسبابها المادية القريبة، فالعلاقة بين الأسباب المادية القريبة وسببية الملائكة عليهم السلام طولية وليست عرضية أو موازية.

فالأسباب المادية القريبة أسباب مباشرة، والملائكة أسباب الأسباب، وخالقة المسببات، فإن السببية لا تكفي بوحدها لإيجاد المسبب، فالمسبب خلق جديد غير السبب والسببية، والله جل جلاله مسبب الأسباب كلها وخالق كل شيء.

---

(١) النهج: الخطبة: ١.

- وهم من ينزلون بالتقدير في ليلة القدر ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾[1].

- وهم وسائط: في قبض الأرواح، وسؤال القبر، والنفخ في الصور، ووضع الموازين والحساب، والسوق إلى الجنة والنار وغيره.

- وهم وسائط لإنزال العذاب وعقوبة الاستئصال على المستحقيق، مثل: قوم عاد وثمود ولوط.

- وهم وسائط لنصرة المؤمنين والمستضعفين في الأرض، قول الله تعالى: ﴿ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[2].

- ومنهم الرقيب العتيد للإنسان، قول الله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[3].

- ولهم وظائفهم في يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾[4].

الأمور التشريعية

هم حملة الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام ودفع الشياطين عن تشويشه والمداخلة

---

(١) القدر: ٤.

(٢) الأنفال: ١٢.

(٣) ق: ١٧ - ١٨.

(٤) النبأ: ٣٨- ٣٩.

فيه، وتسديد الأنبياء، وتأييد المؤمنين، وتطهيرهم بالاستغفار لهم، وغيرها من الإفاضات الإلهية على العباد.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾[2].

وهم محدقون إلى ساحة القدس والعظمة والكبرياء في انتظار الأمر الإلهي إليهم لتنفيذ ما يأمرهم الله جل جلاله به.

قال أمير المؤمنين عليه السلام عن وظائف الملائكة: « ومنهم أمناء على وحيه، والسنة إلى رسله، ومختلفون (التردد) بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه »[3].

مراتب الملائكة وأقسامهم

الملائكة مراتب مختلفة ومقامات متفاوته في القرب والمعرفة والعبادة والتسبيح والانتهاء إلى أمر تدبير العالم.

فقد خص الله عز وجل كل واحد منهم بمرتبة معينة من الكمال في العلم والقدرة لا يصل إليها من هو دونه.

---

(١) الحج: ٧٥.

(٢) الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥.

(٣) النهج. الخطبة ١.

وكل من كانت نعمة الله عز وجل عليه أكمل وأتم، كانت عبادته أعلى، وطاعته أوفى.

وأن وصف أحوال الملائكة بالصف والركوع والسجود، ربما يدل على تفاوت كمالاتهم في الخضوع والخشوع لله ذي الجلال والإكرام، أي: تفاوت مراتبهم:

- فتكون مرتبة الملائكة الساجدين أكمل من مرتبة الملائكة الركع، لأن كمال الخشوع والخضوع في السجود أكمل منه في الركوع.

- وتكون مرتبة الملائكة الركع أكمل من مرتبة الملائكة الصافين، لأن كمال الخشوع والخضوع في الركوع أكمل منه في الصف، وهكذا.

- ويكون السجود إشارة إلى مرتبة الملائكة المقربين، لأن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد.

وأن هذه المراتب باقية لا يصيبها النقص والتغير: فالساجد لا يرفع رأسه من السجود ليركع لأن الركوع أقل درجة من السجود، والراكع لا يقوم من ركوعه لأن القيام أقل درجة من الركوع، والصاف لا يفارق مكانه، والمسبح لا يمل من التسبيح ولا يفتر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾[1].

قال الله تعالى عن جبرئيل عليه السلام: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[2].

---

(١) الصافات: ١٦٤ - ١٦٦.

(٢) التكوير: ١٩ - ٢١.

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: « وجبرئيل الأمين على وحيك، المطاع في أهل سماواتك، المكين لديك، المقرب عندك »[1].

الملائكة وتنفيذ الأمر الإلهي

تتلقى الدانية من الملائكة الأمر الإلهي من العالية من غير تخلف ولا مهلة، حيث يحيط العالي بالداني، وكل ما يريد العالي إيجاده من فعل أو وصف أو ذات في العالم الداني، فإن تلك الإرادة وذلك المراد، يظهر بصورته وحقيقته وتمام صفاته ولوازمه لدى الداني، وهكذا حتى يتم الأمر.

روي أن الرسول الأعظم الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لجبرئيل عليه السلام: « من أين تأخذ الوحي؟ قال: آخذه من إسرافيل، قال: من أين يأخذه إسرافيل؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال: ممن يأخذه ذلك الملك؟ قال: يقذف في قلبه قذفا هذا »[2].

أجنحة الملائكة

وقد جعل الله جل جلاله الملائكة أولي أجنحة: مثنى وثلاث ورباع، أي: بعضهم ذا جناحين، وبعضهم ذا ثلاثة أجنحة، وبعضهم ذا أربعة أجنحة، ومنهم من تزيد أجنحته على ذلك كثيرا.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ

---

(١) الصحيفة السجادية.

(٢) منهاج البراعة. ج٢. ٢٠.

أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

والأجنحة: جمع جناح، وهو العضو الذي يتوسل به الطير إلى الطيران، أي: الصعود إلى الجو والنزول منه والانتقال من مكان إلى آخر.

وتجهيز الملائكة بالأجنحة: لتفعل به ما تفعله الطير بالجناح، وهو الطيران، فينتقل الملك من السماء إلى الأرض، ويعرج من الأرض إلى السماء، وينتقل من موضع إلى آخر، وليتمكن من الفعل بأمر الله عز وجل فيما يوكل إليه من مهام.

فعدد الأجنحة للملائكة يدل على:

- المقام والمكانة والفضل.
- الاستعداد والقدرة على الفعل.

ولا يستوجب اللفظ أن يكون الجناح ذا ريش وزغب.

وينقسم الملائكة إلى قسمين:

القسم (١): ذوات مقدسة في غاية البعد عن الماديات وعن تدبيرها، شأنهم الاستغراق في معرفة الله ومحبته وطاعته، وهم منزهون عن الاشتغال بغيره جل جلاله، قول الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[2] وهم العليون والملائكة المقربون الذين لا شأن لهم بالتدبير.

القسم (٢): لهم تعلق بالمادة، وقد أوكل الله عز وجل إليهم مهمة التدبير في الخلق. قال الله تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾[3].

---

(١) فاطر: ١.

(٢) الأنبياء: ٢٠.

(٣) النازعات: ٥.

فهم من يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، حسبما جرى عليه القضاء والقدر في المخلوقات، فإن الله جل جلاله قد وكل، مثلا:

- ملائكة لحمل العرش ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾[1] وهم رؤساء الملائكة المدبرين.
- وملائكة للجنة لعمارتها وغرسها.
- وملائكة للنار لإيقادها وتعذيب أهلها.
- وملائكة لتحريك الأفلاك.
- وملائكة للشمس والقمر.
- وملائكة للسحاب والأنهار.
- وملائكة بالرحم تدير أمر النطفة حتى يتم خلق الجنين وولادته.
- وملائكة حافظون للإنسان من أمر الله عز وجل.
- والملائكة الكرام الكاتبين الذين يحصون أعمال العباد.
- وملائكة لتبليغ الوحي وإنزال الكتب على الرسل.
- وملائكة لتثبيت المؤمنين ونصرتهم.
- وملائكة لإحلال العذاب على القوم الظالمين.
- وملائكة لقبض الأرواح.
- وملائكة للسؤال في القبر.
- وملائكة لوضع الميزان والحساب في يوم القيامة.

---

(١) الحاقة: ١٧.

- وملائكة للسوق إلى الجنة أو النار.

إلى غير ذلك من مهام التدبير في عالم الملك والملكوت، في الدنيا والاخرة.

كثرة الملائكة

الملائكة أعداد كثيرة لا يمكن مقايسة أعدادهم بأعداد البشر، ولا يمكن أن يحصي عددهم إلا الله عز وجل.

قال الرسول الأعظم الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): « أطت السماء (أط: صوت) وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع »[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « والذي نفسي بيده، لملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلا وفيها ملك يسبحه ويقدسه، ولا في الأرض شجرة ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها »[2].

رؤية الناس للملائكة

لقد سبق الحديث عن تمثل الملائكة للأنبياء والمحدثين عليهم السلام وغيرهم في الحياة الدنيا، أما عن رؤية الملائكة بحقيقتهم، فتكون:

- لسائر الناس بعد الموت.

- أما المصطفين من عباد الله المخلصين، وأوليائه المطهرين من الذنوب،

---

(١) تفسير أبي السعود.ج١.ص٨٠.

(٢) البحار. ج٥٩. ص١٧٦.

الملازمين لساحة القدس، كالأنبياء والأوصياء والمحدثين عليهم السلام فلهم أهلية مشاهدة الغيب ورؤية الملائكة بحقيقتهم في عالم الدنيا والشهادة.

فضل الملائكة

لقد أجمع المسلمون على أن الإنسان أفضل من الجن ومن جميع أنواع الحيوانات. وعن الفضل بين الإنسان والملائكة، ففيه أقوال عديدة، منها:

- المشهور بين المسلمين: أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل من جميع الملائكة عليهم السلام حيث نالوا مقاما من القرب وموطنا من الكمال فوق ما قد ناله الملائكة ببهاء ذواتهم في أول وجودهم. ويؤكده جعل الإنسان خليفة الله عز وجل في الأرض، لاحتماله ما لا تحتمله الملائكة من العلم بالأسماء كلها، فهو مقام من الكمال لا يتداركه تسبيح الملائكة وتقديسهم لله عز وجل. وقد أمر الله جل جلاله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام فسجدوا كلهم أجمعين إلا إبليس. والسجود في الحقيقة: إنما كان خضوعا منهم عليهم السلام لمقام الكمال الإنساني، ولم يكن آدم عليه السلام إلا ممثلا للإنسانية قبال الملائكة.

- أن الملائكة الأربعة: جبرئيل ومكائيل وإسرافيل وعزرائيل، هم أفضل الخلائق بعد الأنبياء عليهم السلام.

- وقال المعتزلة: أن الملائكة أفضل مطلقا من البشر.

- وقال الرازي: أن الكروبيين من الملائكة هم الأفضل، ثم الرسل من البشر، ثم الكمل من البشر (الصديقين والشهداء والصالحين) ثم عموم الملائكة، ثم عموم المؤمنين.

- وقالت الشيعة والأشاعرة: أن سائر المؤمنين أفضل من سائر الملائكة،

ومن الناس من هم أضل من الأنعام.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(١).

وقد استدل أصحاب هذا الرأي على رأيهم: بأن الملائكة مطبوعون على الطاعة، وذلك: لفقدهم غرائز الشهوة والغضب ونزاهتهم عن اتباع هوى النفس.

أما الإنسان: فقد ركب من عقل وشهوة وغضب، فتتصارع في داخل نفسه القوى الرحمانية والقوى شيطانية، وتتساوى لديه نسبة الطاعة والمعصية.

فإذا اختار الطاعة على المعصية: كانت طاعته أفضل من طاعة الملائكة المفطورين عليها والمجبولين على ترك المعصية.

وإذا اختار المعصية على الطاعة: كان أسوء حالا من البهائم.

فالإنسان - بحكم العقل - أفضل من الملائكة في طاعته، وأكثر قربا وزلفى وأعظم ثوابا وأجرا عند الله عز وجل من الملائكة في حال طاعته.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « إن الله عز وجل ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما ، فمن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم »(٢).

- وقال بعض الأشاعرة: بأن سائر الملائكة أفضل من سائر المؤمنين، ونسب هذا القول إلى ابن عباس أيضا .

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) البحار.ج.٦٠.ص٢٩٩.

الفصل الثامن

حول سجود الملائكة واستكبار إبليس

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(1).

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى

---

(1) ص: ٧١ - ٨٣.

﴿ ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

بيان المفردات

بشرا من طين: البشر: الإنسان ذكرا وأنثى، والبشرة: ظاهر الجلد، والطين: التراب المختلط بالماء ويحتفظ بالإسم حتى وإن زالت عنه رطوبة الماء، والجمع: اطيان، والطينة: القطعة من الطين والفطرة والطبيعة والخلقة والجبلة، والجمع: طين، ويابس الطينة: سيء الخلق، وطيب الطينة: طيب الخلق، والطيانة: حرفة الطيان، والطيان: صانع الطين.. والمراد: هو آدم عليه السلام وعبر عنه بالبشر:

- لظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي لا يرى جلدها من الصوف أو الشعر أو الوبر. ويعتبر ظهور البشرة من مظاهر الجمال التي تميز بها الإنسان، وسببا لزيادة المتعة بين الزوجين، بالإضافة إلى الحالة الروحية والعاطفية الراقية التي تربط بينهما، مما يجعل المتعة بينهما حالة متميزة، ولا يمكن أن يوجد لها مثيل عند أي حيوان آخر.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

- وقيل: لأنه جسم كثيف يلاقي ويباشر.

من صلصال: الصلصال: الطين اليابس غير المطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار. وسمي صلصالا: لأنه يصلصل (أي يصدر صوتا) إذا نقر أو اصطدم به جسم آخر.

---

(١) الحجر: ٢٨ – ٤٠.

(٢) الروم: ٢١.

من حمإٍ مسنون: الحمأ: الطين المتغير إلى السواد والذي تغيرت رائحته فأصبح عفنا أو منتنا، فهو طين أسود نتن، وذلك من طول مجاورته للماء، والسنة: الطريقة والسيرة والصورة والوجه أو دائرته، والجمع: سنن، والمسنون: الطين المصبوب على هيئة الإنسان والناعم الصقيل، ورجل مسنون: مخروط الوجه أو حسن الوجه أو في وجهه وأنفه طول.. والمراد: أن الله عز وجل قد أفرغ الحمأ في صورة تمثال الإنسان.

ولا يتعارض قوله تعالى: من صلصال من حمإٍ مسنون، مع قوله: من طين، فالطين هو المادة التي خلق منها آدم عليه السلام وصلصال من حمإٍ مسنون أوصاف طرأت على الطين الذي خلق الله سبحانه وتعالى منه آدم عليه السلام بسبب التشكيل وبتأثير عامل الزمن، وهذه الحقيقة مما ينبغي أن تحمل الإنسان على التواضع وعدم التكبر والغرور.

فإذا سويته: التسوية: جعل الشيء مستويا قيما على أمره، بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغي أن يكون عليه.. والمراد: عدلت أعضاءه بتركيب بعضها على بعض، بحيث يكون كل عضو في الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه، وعلى الحال التي ينبغي أن يكون عليها، وأتممت خلقه على الصورة الإنسانية الكاملة.

ونفخت فيه من روحي: النفخ: إخراج الريح من الفم، ونفخ في البوق: بعث فيه الريح من فمه بقوة ليحدث صوتا، ونفخ: أصابه النفخ فهو أنفخ وهي نفخاء، والجمع: نُفخ، وانتفخ: علا وارتفع وتعظم وتكبر، وانتفخ عليه: غضب، والمنفاخ: كير الحداد وما ينفخ به، والجمع: منافخ، ومنافخ الشيطان: وساوسه، والمنفوخ: السمين والجبان والمتكبر، والنفيخ: الموكل بنفخ النار، والجمع: نفخاء، والروح: ما به حياة الأنفس والوحي، والروح الأمين: جبرائيل عليه السلام ومن روحي: تمثيل لإفاضة ما به الحياة على المادة القابلة لها.. والمراد: أجريت فيه الحياة بسببي فصار مخلوقا ذا نفس حية إنسانية شريفة لم يسبق له مثيل.

وللروح في القرآن الكريم معاني عديدة، منها:

- الرحمة، قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾[1].

- جبرئيل، قول الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾[2].

- القرآن، قول الله تعالى: ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[3].

والقاسم المشترك لمعنى الروح: هو كل ما يحيا به الشيء ماديا ومعنويا.

وإضافة الروح إليه جل جلاله دليل على:

- العناية الإلهية التامة والتشريف للنوع الإنساني، حيث يدور أمر الخيرية في الأمور التكوينية مدار العناية الإلهية وليس من ذاتها، فتسمى الكعبة بيت الله ويتم تشريفها، ويسمى شهر رمضان شهر الله ويتم تعظيمه، وهكذا.

- أن الروح ذات شأن عظيم عند بارئها جل جلاله، وإليها يعود شرف الإنسان وتكريمه، لما تحمله من خصائص واستعدادات، تكون قادرة على عكس الأنوار الإلهية في وجود الإنسان وحضارته.

وذلك كله يشعر:

- بأن خلق آدم عليه السلام مر بمراحل متدرجة زمانيا، فكان خلق الجسد سابق على نفخ الروح، وأن خلق الجسد كان على مراحل وأطوار.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « جمع سبحانه من حزن الأرض (ما غلظ منها واشتد كالجبال) وسهلها وعذبها وسبخها (ما ملح) تربة سنها بالماء حتى خلصت (صارت طينة خالصة) ولاطها بالبلة حتى لزبت (صارت طينا لازقا) فجعل منها

---

(١) يوسف: ٨٧.

(٢) الشعراء: ١٩٣.

(٣) الشورى: ٥٢.

صورة ذات أحناء ووصول واعضاء وفصول. أجمدها حتى استمسكت واصلدها حتى صلصلت لوقت معدود وامد معلوم. ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان يجيلها وفكر يتصرف بها وجوارح يخدمها وادوات يقلبها ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل والأذواق والمشام والألوان والجناس »[1].

- أن الروح أمر موجود في نفسه، له تعلق بالبدن، وله استقلال عنه.

- أن نفخة الروح هي التي نقلت التكوين العضوي الوضيع، إلى الأفق الإنساني الرفيع، ومنحته خصائصه التي ميزته عن كل الكائنات الحية الأخرى، ووصلته بالملأ الأعلى، وأهلته إلى الخلافة الإلهية في الأرض.

- أن الإنسان مكلف بوضع جميع قواه: المادية والمعنوية في خدمة مسيرته التكاملية بهدف الوصول إلى ساحة الوصال والرضوان الألهي والفناء في الله ذي الجلال والإكرام.

- أن طبيعة الإنسان مركبة من خصائص التراب وخصائص الروح، وأنه لا انفصال في هذا التركيب، فلا يتصرف بحالة الطين أو التراب الخالص في لحظة، وبحالة الروح الخالص في لحظة أخرى، وإنما يتصرف في جميع الحالات بحكم التركيب الذي لا يقبل الانفصال.

- أن الكمال الإنساني يتحقق بخلق التوازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، وليس بتعطيل أو طغيان أحدها على الآخر، فهو نقص ورذيلة بالنسبة لخصائص الإنسان، ونقض للحكمة التي من أجلها خلق الله عز وجل الإنسان بهذا التركيب البديع، وعليه قام النظام الإسلامي العظيم، وهذا لا يعني تساوي الجانبين في القيمة، وسوف تأتي التفاصيل المهمة لهذا الموضوع في مستقبل البحث.

---

(١) النهج. الخطبة: ١.

فقعوا له ساجدين: الوقوع: السقوط، ووقع الحق: ثبت، ووقع القول: وجب وصدق، ووقع في نفسه: أثر فيها، وأمر واقع: حاصل، والموقع: مكان الوقوع، والجمع: مواقع، والواقعة: يوم القيامة، والسجود: وضع الجبهة على الأرض خضوعا وتعبدا فهو ساجد، والجمع: سجد وسجود وساجدون، والمسجد: مكان السجود والمكان الذي يتعبد فيه المسلمون، والنجم والشجر يسجدان: يخضعان لله فيما يريد بهما ويحققان بذلك غاية وجودهما.. والمراد: أسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم وتقدير وليس سجود عبادة، ويدل ذلك على:

- خضوع الملائكة أمام عظمة الإنسان.
- سمو منزلة الإنسان في عالم الخليقة.

فسجد الملائكة كلهم أجمعون: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: استجاب الملائكة كلهم لأمر الله سبحانه وتعالى لهم بالسجود لآدم عليه السلام وذلك بحسب طبيعتهم القائمة على الطاعة المطلقة لله عز وجل بدون تردد، ولم يتخلف منهم أحد، وكان سجودهم في وقت واحد، بحيث لم يتأخر أحد منهم في السجود عن آخر.

إلا إبليس استكبر: إلا: حرف استثناء، وأبلس: أيس وسكت لحيرة أو لانقطاع الحجة فهو مبلس، والجمع: مبلسون، وإبليس: ذلك الكائن من الجن المتمرد على أمر الله عز وجل ونهيه ورأس الشياطين، الكبر: الطعن في السن والتعظم فهو كبير، والجمع: كبراء، وتكبر: تعظم وامتنع عن قبول الحق معاندة، واستكبر: تكبر، والكبراء والأكابر: العظماء والوجهاء والأشراف، والكبيرة: الإثم الكبير المنهي عنه شرعا، والكبير: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العظيم ذو الكبرياء، والمتكبر: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المتعالي عن صفات الخلق.. والمراد: استثناء إبليس (عليه اللعنة) الذي وقف موقف التمرد والكبرياء وامتنع عن السجود وذلك بسبب نوازعه الشريرة المطلقة.

وكان من الكافرين: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: أن إبليس كان من الكافرين الكاتمين للكفر قبل ذلك الوقت الذي أمر فيه بالسجود لآدم عليه السلام وقد ظهر على حقيقته حينما امتحن بالسجود لآدم عليه السلام مما يدل على أهمية الابتلاء والامتحان في تمحيص الصدق والإخلاص في العبادة لله سبحانه وتعالى.

إلا إبليس أبى: أبى: امتنع عن الشيء كراهية له فهو آب وأبي، والجمع: أبات، وأبيت اللعن: أبيت أن تأتي من الأمور ما تلعن عليه، والرجل الأبي: الممتنع عن تحمل الضيم.. والمراد: أن إبليس (عليه اللعنة) ترك الطاعة وتشدد في الامتناع باختياره.

خلقت بيدي: سبق بيان معنى الخلق، واليد: النعمة والإحسان والسلطان والقدرة والقوة والتمكن والمقبض من كل شيء والعضو الذي يبدأ من أطراف الأصابع إلى المنكب من الجسم، ويد الله: قدرته، وعن يد: عن ذل واستسلام، وسقط في يده: تحسر وندم.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى تولى خلق الإنسان بنفسه بلا واسطة سبب آخر. وتثنية اليد كناية عن الاهتمام التام الذي أولاه الله جل جلاله لعملية خلق الإنسان مما يستدعي الإجلال والتعظيم له. وقيل عن المراد باليدين:

- نعم الدنيا والاخرة.
- ومبدئي الجسم والروح.
- وصفتي الجلال والجمال.
- وقيل غير ذلك.

استكبرت أم كنت من العالين: سبق معنى التكبر، العلو: الارتفاع والتكبر والتجبر والقهر، واستعلى: طلب العلو والغلبة، والأعلى: الأسمى، وتعالى الله: ارتفع وتعاظم وتقدس وسما بذاته وصفاته وأفعاله فهو علي ومتعالي.. والمراد: استفهام توبيخ

وردت فيه معاني عديدة، منها:

- أكان عدم سجودك لأن ذاتك تعاظمت في وعيك بحيث ارتفعت بنفسك عن قدرها فأعطيتها فوق ما تستحق ورأيت أنها أكبر من أن تخضع لأمر الله سبحانه وتعالى المتعلق بهذا المخلوق؟

- أم لأنك حسبت نفسك من الذين يعلو قدرهم في الحقيقة والواقع عن أن يؤمروا بالسجود لهذا المخلوق، والحال أنك لست كذلك. وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول: أن هناك شريحة أو صنف من الملائكة لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام وهم المستغرقون في التوجه إلى الله سبحانه وتعالى بحيث لا يشعرون بغيره، وأن هذا الصنف ليس لهم علم بخلق آدم عليه السلام ولا بخلق غيره، لأنهم مذهولون مستغرقون في الذات العلية.

لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون: سبق بيان معاني المفردات، وفي التعبير دلالة على أن الإباء عن السجود مقتضى ذاتي، أي: أنه يري بأن السجود لآدم عليه السلام ينافي حاله وعظمته الذاتية، ولا يستقيم منه، لأنه مخلوق من النار التي هي أشرف من التراب الذي خلق منه آدم عليه السلام ولا يحسن لمخلوق شريف مثله أن يتواضع لمخلوق أدنى منه، وكأنه يقول لله تعالى: أن أمرك لي بالسجود لآدم مخالف للحكمة والعدالة، وموجب لتقديم المرجوح على الراجح، والأولى أن تأمر آدم بالسجود لي، لا أن تأمرني بالسجود له. وذكر الحمإ المسنون هو ذكر لأخس أحوال التراب، وهو تحوله إلى طين أسود نتن، مبالغة منه في احتقار آدم عليه السلام.

يقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « أجاب إبليس... أنه في حقيقته وواقعه أجل واعظم من آدم لأنه من نار، وبها (أي: النار) تدار المصانع ومنها الأسلحة الجهنمية، أما آدم فهو فلاح لأنه من ماء وتراب، ونسي الخبيث أو تناسى أن الماء

أصل الحياة وأن الحضارة فرع »[1].

ويقول العلامة السيد الطباطبائي: « وهو أول معصيته وأول معصية عصي بها الله سبحانه، فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل إلى دعوى الإنية ومنازعة الله سبحانه في كبريائه، وله رداء الكبرياء لا شريك له فيه، فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته ويقول: أنا قبال الإنية الإلهية التي عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وخشعت له الأصوات، وذل له كل شيء »[2].

قال أنا خير منه خلقتني من نار خلقته من طين: خار الشيء: فضله، والخيرة: الانتقاء والاختيار والاصطفاء والتفضيل، وقد سبق بيان معاني باقي المفردات.. والمراد: تعليل عدم سجوده، أن ذاته أشرف من ذات آدم عليه السلام لكونه خلق من نار، بينما خلق آدم عليه السلام من طين، والنار في قياسه أشرف من الطين.

قال أبي السعود: « ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[3] وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[4] وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض وأن له خواص ليست لغيره »[5].

لقد قاس إبليس (عليه اللعنة) شرف النار بشرف الطين بصورة غير صحيحة، فلم يأخذ بعين الاعتبار جميع خصائص التراب التي هي مصدر

---

(١) الكاشف. ج٦. ص٣٩٠.

(٢) الميزان. ج٨. ص٢٤.

(٣) ص: ٧٥.

(٤) ص: ٧٢.

(٥) تفسير أبي السعود.ج٧.ص٢٣٧.

الحياة والحضارة.

ولم يأخذ بعين الاعتبار نفخة الروح وخصائص آدم عليه السلام الروحية والمعنوية حينما أراد تقرير درجة الشرف والفضل بين آدم عليه السلام وبين نفسه، ولو أخذها بعين الاعتبار، لعرف فضل نورية آدم عليه السلام وشرفه على نورية النار وشرف نفسه (عليه اللعنة).

واعتقد بأن ذلك لم يكن من إبليس عن خطأ والتباس في الفهم، وإنما كان عن تعصب عنصري وأنانية وعناد، وما أتى به من العذر كان محض تحجج وتعلل.

فلم يقف إبليس موقف الباحث عن الحقيقة كما فعلت الملائكة، ولم يغير إبليس موقفه بعد أن انكشفت الحقيقة للجميع، وإنما أصر على غيه ومعصيته، وأظهر العداوة لآدم عليه السلام وذريته.

ولو كان قوله نتيجة خطأ والتباس، لكان حقا على الله عز وجل أن يوضح له الحقيقة بما كتب على نفسه الرحمة لعباده.

قال فاخرج منها: الخروج: البروز وترك المكان، والمخرج: مكان الخروج، ويوم الخروج: يوم القيامة حيث يخرج الناس من قبورهم من أجل الحساب والجزاء.. والمراد: طرد إبليس (عليه اللعنة) من السماوات السبع، أو من زمرة الملائكة، أو من المنزلة الرفيعة في ساحة القدس، التي هي مكان الطاهرين والمقربين والنورانيين، وليست مكان المذنبين والعاصين ذوي القلوب المظلمة، وذلك:

- كجزاء على تكبره وما ظهر منه من المخالفة للأمر الإلهي الجليل .
- بطلان حجته وأن مبعثها العناد والتكبر وليس العلم والقناعة.
- تجلي الحكمة الإلهية والقدرة الربانية في الطرد.

يقول أبي السعود: « فاسود بعدما كان أبيضا، وقبح بعدما كان حسنا،

وأظلم بعدما كان نورانيا »[1].

فإنك رجيم: الرجم: الحجارة الصغيرة التي يرمى بها، والجمع: رجوم، والرجيم والرجوم: الملعون والمحروم والمطرود من كل خير وكرامة، ورجمه: لعنه وشتمه وطرده، ورجم بالغيب: الكلام بغير علم وإصدار الأحكام بالظن وبدون دليل.

وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين: اللعن: السب والشتم والذل والخزي والطرد والإبعاد عن الخير فهو ملعون، والجمع: ملاعين، واللعنة: العذاب، واللعين: الشيطان، والملعون: من استحق اللعن ووجب عليه، والجمع: ملاعين، والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم في نار جهنم، واليوم: الزمن من شروق الشمس إلى غروبها والوقت الحاضر، والجمع: أيام، والأيام: الوقائع والحروب، وأيام الله: نعمه ونقمه، ويوم الدين: يوم القضاء ويوم القيامة لأنه يوم الحساب والجزاء من الله عز وجل على الأعمال.. والمراد: عليك خزيي ولك ذلي وهواني وحرمانك من خيري وافتضاح أمرك إلى يوم القيامة وهو يوم الجزاء.

قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون: نظر: أبصر، والنظر: البصر والإبصار، والانتظار: الإمهال والتأخير، والناظر: الحافظ، واستنظره: استمهله، ونظر فيه: تدبر وفكر فيه، وأنظره: أمهله وأخره، وانتظر: ترقب وتوقع، والنظرة: اللمحة، والبعث: الإرسال والإحياء والحمل على فعل الشيء، والباعث: السبب والمرسل، والمبعوث: المسبب والمرسل، وبعثه من رقاده: أيقظه، وبعث الموتي: أحياهم ونشرهم، ويوم البعث: يوم القيامة حيث يبعث الناس من القبور وينشروا من أجل الحساب والجزاء.. والمراد: قال إبليس مخاطبا الرب الجليل: أمهلني أو أخرني ولا تمتني إلى يوم القيامة، لا ليتوب ويكفر عن إثمه وجريمته العظمى، ولكن لينتقم من آدم عليه السلام وذريته.

---

(١) تفسير أبي السعود. ج٧. ص٢٣٧.

قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم: الوقت: مقدار من الزمن قدر لأمر ما، والجمع: أوقات، والميقات: الموعد والوقت المضروب والمكان الذي جعل لفعل ما، مثل: ميقات الحج، والجمع: مواقيت، وعلم الشيء: عرفه فهو عالم، والجمع: علماء، والمعلوم: المعروف، والوقت المعلوم: الوقت المحدد المضروب.. والمراد: أجابه الرب الجليل قائلا: إن لك أن تعيش جنبا إلى جنب مع الإنسان، وساحة الصراع مفتوحة بينك وبينه إلى يوم الوقت المعلوم، وهو اليوم المتعين في علم الله عز وجل لنهاية حياتك على وجه الأرض، حسبما تقتضيه حكمة الخلق والتكوين، وهو غير يوم البعث وقبله.

وهذه الاستجابة من الله عز وجل لإبليس بالإمهال والتأخير، تلتقي مع الحكمة الإلهية البالغة التي شاءت أن يعيش الإنسان الابتلاء في حركة الإرادة والاختيار في مواقع الصراع مع إبليس وجنوده على صعيد: الحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والشرف والدناءة، والحرية والاستبداد، والتقدم والتخلف، وغيرها، فيكون لإبليس دوره في الوسوسة الداخلية المحركة للغرائز والشهوات الجامحة، وإطلاق الوعود المعسولة، وإثارة الأحلام الخيالية، وتزيين الصور القبيحة، وتقبيح الصور الحسنة، ونصب الحبائل والمكائد الشيطانية الخبيثة، وذلك:

- ليأخذ الإنسان باختياره الواعي وإرادته التقية الصلبة طريقه التصاعدي في مسيرة التكامل إلى الحد الذي لا يرى فيه سوى الله ذي الجلال والإكرام.

- أو يأخذ طريقه التسافلي في مسيرة الانسلاخ والانحطاط والهبوط إلى الحد الذي يفقد فيه إنسانيته ويكون أسوء حالا من البهائم.

فليس لمسيرة الإنسان التكاملية التصاعدية، ولا لهبوطه نحو الهاوية حد يقف عنده ما دام على قيد الحياة في عالم الدنيا، فمسيرته مستمرة في كلا الاتجاهين بدون

توقف حتى يلقى الله ذي الجلال والإكرام فيوفيه حقه.

قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[1].

ويقول العلامة مكارم الشيرازي: « إن وجود الشيطان ليس غير مضر بالنسبة إلى سالكي طريق الحق فحسب، بل يعد رمزا لتكاملهم أيضا، لأن وجود مثل هذا العدو القوي في مقابل الإنسان يوجب تربية الإنسان وتكامله وحنكته، وأساسا ينبثق كل تكامل من بين ثنايا التناقضات، والتدافعات، ولا يسلك أي كائن طريق كماله ورشده إلا إذا واجه ضدا قويا، ونقيضا معاندا »[2].

وقال: « فإنه مع غض النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة في داخلنا، وهي بوقوفها في الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكلان ساحة صراع وتناقض قويين، وفي مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده. واستمرار حياة الشيطان - هو الآخر - لتقوية عوامل هذا التناقض المثمر المفيد، وهذا التصارع النافع البناء »[3].

ويقول العلامة السيد فضل الله: « وكان لله حكمة في ذلك، فقد أراد للإنسان أن يعيش الإرادة الحرة في عملية الاختيار من خلال الصراع الذي يخوضه في معركة الخير والشر، وكان لابد للشر من عامل يثير نوازعه في نفس الإنسان في مقابل نوازع الخير في نفسه، وكان الشيطان العامل الذي يحقق ذلك، ليوسوس وليزين وليخدع ويخادع »[4].

---

(١) العنكبوت: ٢ - ٣.

(٢) الأمثل. ج٤. ص٥٤٠.

(٣) نفس المصدر.

(٤) من وحي القرآن. ج١٠. ص٣٧.

ورأت المعتزلة: أن وسوسة إبليس سببا لزيادة المشقة في أداء الطاعات، فيزداد المكلف بتكلفها ثوابا، فإن أفضل الأعمال أحمزها (أي: أشقها).

ومن جهة ثانية: فإن في الإمهال والتأخير إملاء لإبليس، وقد اختار الله تعالى له ما اختاره هو لنفسه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « فأعطاه الله النظرة أستحقاقا للسخطة واستتماما للبلية وانجازا للعدة »[2].

وفيه إشارة إلى الغرضين من المهلة:

- ابتلاء الإنسان.

- الإملاء لإبليس.

وحول المراد من اليوم المعلوم أقوال:

- قيل: وقت النفخة الأولى في الصور، وهو آخر أيام التكليف، ومدة عمر الإنسان في الحياة الدنيا.

- وقيل: هو ظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وتمكنه عليه السلام من قتله وإراحة البشرية من شره.

روى العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن الوقت المعلوم، فقال: « اتحسب أنه يوم يبعث فيه الناس؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فإذا

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) النهج: الخطبة: ١.

بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه، فيقول: يا ويله من هذا اليوم فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه فذلك يوم الوقت المعلوم ».

ففي عهد الإمام المهدي عليه السلام يصلح الله عز وجل المجتمع الإنساني، فينقطع دابر الفساد في الأرض، ولا يعبد يومئذ إلا الله سبحانه وتعالى، وينطوي بساط الكفر والفسق، ويصفو العيش، وترتفع أمراض القلوب ووساوس الصدور.

وهذا الكلام لا ينافي ما سبق من حكمة وجود إبليس ودوره في ترسيخ قاعدة الابتلاء لخدمة السيرة الكاملية في حياة الإنسان، لأن الابتلاء ليس متوقف عليه وحده، وإنما هو عامل من العوامل، وقد تقتضي الحكمة تعطيل أحد العامل مع الإبقاء على العوامل الأخرى بالنظر إلى حيثيات جديدة وأبعاد جديدة دخلت في المسيرة البشرية، وهي الحيثيات والأبعاد التي يبصرها العقلاء - على نحو الإجمال - بدخول المسيرة البشرية إلى مرحلة جديدة بظهور القائم عليه السلام وإقامة دولة العدل الإلهي العالمية، لتبدأ المسيرة البشرية بوتيرة جديدة غير معهود من قبل.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[1].

قال فبعزتك: العزة: القوة والنصر والقهر والغلبة والأنفة والحمية والبراءة من الذل، وعززه: شدده وقواه، وعز الشيء: قل، وعز الأمر: اشتد وشق، وعزه في الخطاب: غلبه وقهره فيه، وأعزه: أحبه وأكرمه وقواه ونصره وجعله عزيزا، والعزيز: الشريف والقوي والنادر واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الغالب الذي لا يقهره شيء، والجمع: أعزة، والمعز: واهب العزة واسم من أسماء الله الحسنى.. والمراد:

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

أي بسلطانك وقهرك، وهو قسم.

لأغوينهم أجمعين: الغي: الخيبة والكفر والضلال والجهل والهلاك الناشيء عن الاعتقاد الفاسد، والغاوي: الضال عن طريق الحق والهالك، والجمع: غاوون، والإغواء: الإلقاء في الغواية، والغوي: المنقاد إلى الغواية.. والمراد: لأحملنهم بالوسوسة والتسويل على الغواية والضلال حتى يخرجوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية.

لأزين لهم في الأرض: زين له الأمر: حسنه وزخرفه ورغبه فيه، وزين له الشيطان: وسوس له ليضله، والزينة: كل ما تزدان به الأشياء، ويوم الزينة: يوم عيد أو يوم سوق حيث يتزين فيه الناس، وازينت الأرض: حسن منظرها بأصناف النباتات واشكالها وألوانها.. والمراد: لأحسن لهم المعاصي وتسويل الأباطيل وأرغبهم فيهما.

إلا عبادك منهم المخلصين: العبد: الرقيق والإنسان عموما لأنه متعبد لله سبحانه وتعالى، والجمع: عبيد وعباد، والعبادة: الطاعة والانقياد والخضوع والذل، والعابد: من يقيم على العبادة، والجمع: عُباد وعبدة، وخلص الشيء: صفا وزالت عنه شوائبه، وخلص من الهلاك: نجا منه وسلم، وخلص إلى المكان: وصل إليه، وخلص من القوم: اعتزلهم، وأخلص الشيء وخلصه: نقاه من شوائبه وأخذ خلاصته ونجاه، وأخلصه الله واستخلصه: اختاره واصطفاه وجعله خالصا من الذنوب والدنس، وأخلص الطاعة: ترك الرياء والسمعة فيها، والخالص: الصافي، والمخلص: صافي النية نقي السريرة.. والمراد: أن الشيطان يستثني من غوايته صنف واحد من البشر، لا رغبة منه في ذلك، وإنما لعجزه عن تحقيق أهدافه معهم، وهم الشاكرون المخلصون، ويراد بهم:

- الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله عز وجل، فلا رياء في أعمالهم ولا سمعة، ولا يحبون أن يحمدهم الناس على أعمالهم، فإلى الله وحده سبحانه وتعالى

يعملون.

- أو الذين أخلصهم الله عز وجل لنفسه ولنصرة دينه وعصمهم من الغواية بعدما أخلصوا أنفسهم له، فلا نصيب فيهم لإبليس ولا لغيره، ولا يشتغلون بغير الله جل جلاله، وما يلقيه الشيطان إليهم من حبائله وتزييناته، يعود ذكرا لله عز وجل ومقربا إليه، فلا يستطيع إبليس (عليه اللعنة) رغم كل ضجيجه وتزييناته من إغوائهم.. إنه يستطيع ان يزين لهم، ولكنه لا يستطيع أن يغويهم.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتطابق مضامين الآيات التي تتناول مسألة سجود الملائكة لآدم عليه السلام في سورة الحجر مع مثيلاتها من سورة ص مع اختصاص كل سورة ببعض الإضافات اليسيرة، وسوف أعالج الموضوع في مجموع الآيات في السورتين معالجة واحدة كما في البيان اللغوي.

لقد تقدم في بحث خلق الإنسان بيان خلق الإنسان من طين ومن صلصال كالفخار ومن صلصال من حماء مسنون، وقيل هناك: أنها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي خلق منها ويعود إليها بعد الموت وهي التراب.

وموضع حاجتنا من الآيات في هذا المكان من البحث هو سجود الملائكة لآدم (عليه وعليهم السلام) واستكبار إبليس (عليه اللعنة).

التعريف بإبليس

هو مخلوق من الجن يحمل جميع خصائصهم، عبد الله عز وجل ستة آلاف سنة قبل خلق آدم عليه السلام وكان في صفوف الملائكة وليس منهم، فلما أمر الله

عز وجل الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام لقرب منزلته عنده واختصاصه بالخلافة عنه في الأرض، استجاب الملائكة لأمر الله عز وجل بالسجود، فرضي عنهم وأقرهم على مكانتهم، وأبى إبليس واستكبر على أمر الله عز وجل فلم يسجد لآدم عليه السلام محتجا بأنه أشرف منه، فغضب الله عز وجل عليه وطرده من ساحة القدس التي هي منزلة التذلل والانقياد، ومكان الطاهرين والمقربين والنورانيين، حيث لاينبغي فيها التكبر على أمر الله عز وجل، وضرب عليه المذلة والمهانة والصغار، وثبت بذلك: مضادة إبليس لجوهر السعادة الإنسانية.

ومن ذلك الوقت: أقسم إبليس بأن لا يترك الإنسان لحال سبيله، وقطع على نفسه عهدا بأن ينتقم لنفسه من الإنسان الذي كان السبب لطرده من رحمة الله عز وجل وحرمانه من الجنة والرضوان، وأن يعمل بكل ما يستطيع وبكل وسيلة ممكنة من أجل إضلاله وإبعاده عن الجنة التي حرم منها.

ولإبليس القدرة على التصرف في العالم الإنساني (يجري منهم مجرى الدم) حتى أنه يصل إلى أخفى خيال يتخيله الإنسان في زاوية من زوايا ذهنه أو فكرة يواريها في مطاوي سريرته، فلإبليس سلطة التصرف في حالة الإنسان النفسية، مثل: الخوف والرجاء والأمل والشهوة والغضب وغيرها، وفي إدراكه وأفكاره وإرادته المنبعثة منها، مما ينتهي إلى التأثير في أوضاعه الفردية والمجتمعية.

وله جنود يعينونه ويساعدونه على ما يريد ويصنعون مثلما يصنع، بدون أن يشعر الإنسان، وبدون أن يسلبه ذلك كله حرية الاختيار.

فتكون سلطة إبليس وجنوده على الذين اسقطوا أنفسهم ويلتقون معهم في جوهر الشقاء وهو المعصية، ولا سلطة لهم على عباد الله المخلصين الذين عرفوا ربهم سبحانه وتعالى وعرفوا مكانتهم عنده.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن إبليس مخلوق ذو شعور وإرادة وهو من الجن، يدعو إلى الشر والفساد ويسوق الإنسان إلى المعصية.

النتيجة (٢): كان إبليس في مرتبة مشتركة مع الملائكة غير متميز عنهم، وتميز بعد أن امتنع عن السجود لآدم عليه السلام وأصبح في جانب الشر والفساد.

النتيجة (٣): يتحمل إبليس مسؤولية كبيرة في انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم وميله إلى الضلال والمعصية بدون أن يقلل ذلك شيئا من مسؤولية الإنسان واختياره.

النتيجة (٤): أن وجود إبليس ركن من أركان نظام العالم الإنساني القائم على سنة الاختيار، ويساعد على دفع التكامل الإنساني إلى الأمام، وتتحول ممارساته إلى

---

(١) الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣.

(٢) إبراهيم: ٢٢.

سبب لرقي الإنسان وسموه وتحقيق السعادة لمن يستحقها.

النتيجة (٥): أن الإنسان الذي يعرف حقيقة وجوده وكنه كرامته، لا يمكن أن يقع أسيرا لهوى النفس وحبائل الشيطان.

النتيجة (٦): أن الإنسان بحسب جوهر وجوده، لا يستطيع أن ينزل منزل السعادة إلا من خلال الأمر والنهي التشريعي القائم على أساس الاختيار، فيكون من أهل السعادة بالطاعة، ومن أهل الشقاء بالمعصية.

نقاط مهمّة في البحث

ويتضمن البحث حول سجود الملائكة وامتناع إبليس (عليه اللعنة) نقاط مهمة عديدة، منها:

النقطة (١): سر سجود الملائكة لآدم عليه السلام

قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾.

بعد أن أتم الله جل جلاله خلق الإنسان بنفخ الروح فيه، أمر الملائكة كلهم بالسجود لآدم عليه السلام سجود تحية وإكرام فسجدوا كلهم أجمعين. إلا إبليس كان من الجن، وكان في صفوف الملائكة، وكان مأمورا بالسجود لآدم عليه السلام مع الملائكة، فأبى تكبرا واستعلاء على آدم عليه السلام بحجة أنه خير من آدم عليه السلام لأن آدم عليه السلام مخلوق من طين، وهو مخلوق من نار، والنار في قياسه أفضل وأشرف من الطين، وسوف أتناول هذا القياس في النقطة التالية، أما في هذه النقطة، فسوف أتناول سر سجود الملائكة لآدم (عليه وعليهم السلام).

بحسب هذه الآية الشريفة المباركة وغيرها، فإن سر سجود الملائكة لآدم (عليه وعليهم السلام) - بعد أمر الله عز وجل - يتمثل في أمور عديدة، منها:

الأمر (١): النفخة الربانية، حيث:

- أنها من روح الله سبحانه وتعالى، وسر من أسراره لا يعلم كنهها وحقيقتها إلا هو سبحانه.

- وأنها مصدر النور والهداية والتقوى والخير والفلاح في حياة الإنسان.

- أنها تجعل الإنسان في موقع متقدم على غيره من المخلوقات.

الأمر (٢): ما أودع فيه من العلم بالأسماء، الذي هو ملاك خلافته في الأرض بكل ما تتطلبه من شروط ومستلزمات.

الأمر (٣): لما كان في صلبه من أنوار أفضل خلق الله على الإطلاق: محمد ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام ودلت عليه بعض الروايات المروية عنهم (صلوات الله عليهم).

الأمر (٤): أن خلافة الإنسان في الأرض هي تكميل لمهام الملائكة في تدبير الخلق من أجل تحقيق غاية الوجود والحكمة الربانية في الخلق.

الأمر (٥): ظهور كمال قدرة الله عز وجل وكمال عظمته وبالغ حكمته جل جلاله في خلق آدم عليه السلام حيث أنه خلقه من التراب على أكمل وجه وأحسن صورة، ونفخ فيه من روحه، فكان إنسانا ذا عقل وشعور وإرادة وطموح، وجعل فيه التعادل والتوازن والجامعية لخواص جميع العوالم، بحيث لا يفوق كماله أحد من المخلوقات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الأمر (٦): أن السجود هو سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتقديس، لأن العبادة مخصوصة بالله سبحانه وتعالى.

النقطة (٢): قياس إبليس

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾.

لقد قاس إبليس (عليه اللعنة) شرف النار بشرف الطين.

وفي قياسه: أن النار أشرف من الطين، مما حمله على التعصب لعنصره والتكبر والغطرسة والانفعال، وكأن العزة والكرامة في منطقه بالتعصب للأصل وليس بالخضوع للحق والعدل.

يقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « وكل من تعصب لأصل وعنصر فهو ملعون ومذموم ورجيم تماما كإبليس »[1].

ويعتقد إبليس: بأن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقا في ذاته بنظر المكلف، وليس لأنه أمر مولوي مفروض من الرب المالك إلى العبد المملوك، وأنه يستند إلى حق الربوبية وعزتها وأصل العبودية وذلتها، وإلى علم الله وحكمته المطلقة، ولهذا جعل لنفسه حق الرأي مع وجود النص. وهذا هو الأصل الذي تنتهي إليه كل معصية، فإن المعصية إنما تقع:

- بالخروج على حكم العبودية المطلقة.
- وبالإعراض عن حكم الرب الجليل بتحكيم الرأي فيه وإخضاعه للمرجحات العقلية الظنية وغيرها.

ينقل عن كتاب التوراة: بأن مناظرة جرت بين الملائكة وبين إبليس بعد حادثة السجود لآدم عليه السلام أثار فيها إبليس مجموعة من الأشكالات، فأوحى الله تعالى إليه من سرادق العظمة والكبرياء: « يا إبليس أنت ما عرفتني، ولو عرفتني

---

(١) الكاشف. ج٤. ص٤٧٧.

لعلمت أنه لا اعتراض علي في شيء من أفعالي، فإني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل »[1].

ويقول العلامة السيد الطباطبائي: « ولو لم تنجذب نفسه إلى نفسه (أي: إبليس) ولم يحتبس نظره في مشاهدة إنيته لم يتقيد باستقلال ذاته، وشاهد الإله القيوم فوقه فذلت له إنيته ذلة تنفي عنه كل استقلال وكبرياء فخضع للأمر الألهي، وطاوعته نفسه في الايتمار والامتثال، ولم تنجذب نفسه إلى ما كان يتراءى من كونه خيرا منه لأنه من النار وهو من الطين بل انجذبت نفسه إلى الأمر الصادر عن مصدر العظمة والكبرياء ومنبع كل جمال وجلال »[2].

الأسس التي قامت عليها معصية إبليس

نتوصل مما سبق، أن معصية إبليس قامت على مجموعة من الأسس الخاطئة، منها:

- الاستقلالية عن الرب الجليل في اتخاذ القرار، فأثبت لنفسه استقلالا كاستقلال رب العزة والجلال الذي قهر بعظمته كل شيء.

- الاشتغال بالمرجحات بحسب فهمه للأمور، والسماح لنفسه بالمخالفة لأمر الله عز وجل فيما يأمر به وينهى عنه.

- القياس الناقص الذي لا يأخذ بعين الاعتبار جميع الخصوصيات، فقد قاس النار إلى الطين، ولم يأخذ بعين الاعتبار جميع خصوصيات التراب التي هي منشأ الحياة كلها والحضارة، وتجاهل النفخة الربانية في تكوين آدم عليه السلام وهذا

---

(١) الميزان. ج٨. ص٤٤ - ٤٥.

(٢) الميزان. ج٨. ٢٤ - ٢٥.

القياس استدلال ظني لا يعبأ به في سوق الحقائق بين روادها.

وقد تجلت في قياس إبليس (عليه اللعنة) مجموعة من الرذائل، منها:

- التكبر على الله عز وجل وليس التكبر على آدم فحسب.
- إنكار لكون ملك الله تعالى مطلق لعباده.
- وإنكار لكون علم الله عز وجل وحكمته مطلقين.
- وصف الله جل جلاله بالظلم وعدم العدل بين الخلق.
- الاستعلاء والاستكبار في نفس إبليس (عليه اللعنة).
- التمييز العنصري لدى إبليس واحتقاره لآدم عليه السلام.

يقول العلامة مكارم الشيرازي: « لو كان قد اعترف بأن ما منعه هو هوى النفس، أو أن غروره وتكبره حالا بينه وبين السجود لآدم، وما إلى ذلك لكان الأمر أهون إذ انه هنا قد أقر بارتكاب ذنب واحد، إلا أنه بكلامه هذا ولتبرير عصيانه، عهد إلى نفي حكمة الباري عز وجل وعلمه ومعرفته، وهذا يوضح سقوطه إلى أدنى درجات الكفر والانحطاط »[1].

وقد تعرض إبليس للتوبيخ من الله عز وجل لكل هذه المعاصي الكبيرة.

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾[3].

---

(١) الأمثل. ج١٤. ص٥٠٧.

(٢) الأعراف: ١٢.

(٣) ص: ٧٥.

وكانت النتيجة:

- الطرد من ساحة القدس والطهارة ومقام القرب الذي لا يقبل لذاته التكبر.

- مفارقة الأولياء الصالحين: آدم عليه السلام والملائكة المقربين وعدم الانتظام في سلكهم.

- خسارة جميع مراتبه ودرجاته التي كان يتمتع بها في صفوف الملائكة.

تنبيه مهم

لقد أخطأ إبليس في القياس خطأ فادحا، وللأسف فإن هذا الخطأ الفادح يقع فيه الكثير من الناس، ومنهم بعض المؤمنين، ومن أسوء صوره: عقيدة العلمانية، وهي التي تعزل الرب الجليل في صحراء الحالة القلبية بعيدا عن شؤون الخلق، وتُعطي العباد الاستقلال عن الخالق الحكيم في شؤونهم العامة والخاصة في الحياة.

في الدر المنثور عن جعفر بن محمد عن جده أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له اسجد لآدم، فقال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ قال جعفر: « فمن قاس أمر الدين برأيه، قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس، لأنه اتبعه بالقياس »[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك

---

(١) الميزان.ج٨.ص٥٩.

ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله. فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا، وأعد له في الآخرة سعيرا »[1].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن السجود لآدم عليه السلام بأمر الله عز وجل هو طاعة لله وليس لآدم.

النتيجة (٢): كل من يرى لنفسه الحق في أن يرفض حكم الله عز وجل فقد حقت عليه اللعنة إلى يوم الدين.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل إلى دعوى الإنية ومنازعة الله سبحانه في كبريائه، وله رداء الكبرياء لا شريك له فيه، فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته، ويقول: أنا قبال الإنية الإلهية التي عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وخشعت له الأصوات، وذل له كل شيء »[2].

---

(١) نهج البلاغة. الخطبة: ١٩٢.

(٢) الميزان.ج٨.ص٢٤.

النقطة (٣): نتائج التكبر

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾[1].

إن شقاء الشيطان كله كان وليد تكبره وأنانيته وعناده، وقد ترتبت على تكبره وأنانيته وعناده نتائج خطيرة، منها:

- حجب العقل عن رؤية الحقيقة وفهمها.
- إشعال نار العداوة والبغضاء في نفسه.
- التمرد والعصيان لأمر الله عز وجل.
- الإبعاد من رحمة الله عز وجل إلى عذابه ونقمته.
- الإبعاد من ساحة القدس ومن مقام القرب المرموق والمنزلة الرفيعة.
- الخروج من صفوف الملائكة ومن سلك الأولياء الصالحين والانتظام في صفوف الكافرين والظالمين والباغين والطاغين.
- السقوط والذل والمهانة والحقارة والمذمة والصغار.
- الإصرار على الإثم والخطأ، والحرمان من التوبة والكرامة والعمل الصالح.
- المشاركة مع كل الظالمين والمذنبين في سفك الدماء وارتكاب الجرائم، ليكون له نصيبه من العذاب: عن كل قطرة دم، وعن كل ظلم وجريمة، وعن كل ذنب وخطيئة.

---

(١) الأعراف: ١٨.

- إدامة اللعنة عليه من الله عز وجل ومن الملائكة ومن عباد الله الصالحين من الجنة والناس إلى قيام الساعة، وإغلاق كل أبواب النجاة أمامه.

في الحديث الشريف: « إن الله تعالى يحشر المتكبرين في أحقر الصور إذ يطؤهم الناس بأرجلهم، كما أنه يبغضهم إلى الناس في الدنيا فيحتقرونهم ولو في أنفسهم »[1].

وقول أمير المؤمنين عليه السلام: « ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا وأعد له في الآخرة سعيرا »[2].

وقال العلامة السيد فضل الله: « وهذا ما ينبغي للمتكبرين أن يدرسوه، وما يجدر بالأنانيين أن يواجهوه، ليصلوا إلى النتيجة الحاسمة، وهي أن التكبر قد يمنح المتكبر فرصة في ممارسة عقدة كبريائه في الضغط على المستضعفين، وأن الأنانية قد تفتح لصاحبها بعض النوافذ على مواقع العلو في الحياة، ولكن هذا وذاك سوف يواجهان الحقيقة بالسقوط الإنساني في الدنيا وبالعذاب الأبدي في الآخرة، ولعل مصير المتكبر الأكبر والأناني الأعظم، إبليس، هو الشاهد على ذلك كله »[3].

وكل تلك النتائج الخطيرة: إنما كانت مجازاة لجريمة التكبر التي جاء بها بإرادته واختياره وأصر عليها عنادا وغرورا.

وفي الآية الشريفة المباركة إشعار:

- بأصالة الشر في نفس إبليس التي تجردت من الخير كله، وأنه لن يتوب أبدا.

---

(١) التفسير الواضح. الحجازي. ج٨. ص٤٤.

(٢) النهج. الخطبة: ١٩٢.

(٣) من وحي القرآن.ج١٠.ص٤٧-٤٨.

- تأخر عقاب جريمته وجزائه إلى يوم القيامة المهول.

- أن الطرد من ساحة القدس والحرمان من الكرامة رغم كمال فظاعته ليس بالجزاء الكافي لجريمته، وإنما يتحقق الجزاء الكافي له على جريمته في ذلك اليوم المهول وهو يوم القيامة، حيث يمثل أقصى أمد اللعنة.

يقول أبي السعود: « وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته، بل هي أنموذج لما سيلقاه مستمرا إلى ذلك اليوم (أي يوم القيامة) لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت، بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما ينسى عنده اللعنة وتصير كالزائل »[1].

- أن له شأنا مع النوع الإنساني إلى يوم القيامة، وأن لشقائهم وفساد أعمالهم ارتباط به من حيث امتنع عن السجود.

- تحميله مسؤولية كل معصية لله عز وجل، حيث أنه المؤسس لها، ولدوره في صنع كل معصية لله عز وجل بالوسوسة والإغواء.

- أن اللعنة درجات ومقامات، مثلها في ذلك كالرحمة تماما.

ويجب أن نتعلم من ذلك:

- بأن الفضل والكمال ليس في المال والثروة والجاه والسلطة والخدم والحشم، وإنما في التخلي عن الصفات الرذيلة وفي مقدمتها الاستعلاء ومخالفة المولى عز وجل، وبتحصيل المعارف الربانية، والتحلي بالطاعة والفضائل الروحية والأخلاقية وفي مقدمتها الإخلاص في العبودية لله عز وجل.

- على كل من يسلك طريق الطاعة أن يحذر كل الحذر من التكبر والغرور والحرص والحسد، نظرا لتأثيرها الخطير على مصير الإنسان، فإن من شأن

---

(١) تفسير أبي السعد. ج٧. ص٢٣٧.

الابتلاء بها أن يؤدي إلى التعاسة والسقوط إلى الهاوية، ويأتي على تدمير كل ما يبنيه الإنسان في طريق الطاعة، حتى وإن وصل إلى نهاية الطريق، لينتهي به المطاف إلى نفس المصير المشؤوم الذي انتهى إليه إبليس (عليه اللعنة).

عن ابن عباس قال: « قال إبليس لنوح عليه السلام: لك عندي يد ساعلمك خصالا، قال نوح: وما يدي عندك؟ قال: دعوتك على قومك حتى اهلكهم الله جميعا، فإياك والكبر وإياك والحرص وإياك والحسد، فإن الكبر هو الذي حملني على أن تركت السجود لآدم فأكفرني وجعلني شيطانا رجيما، وإياك والحرص فإن آدم ابيح له الجنة ونهي عن شجرة واحدة فحمله الحرص على ان أكل منها، وإياك والحسد فإن ابن آدم حسد أخاه فقتله، فقال نوح: متى تكون أقدر على ابن آدم؟ قال: عند الغضب »[1].

إن إبليس (عليه اللعنة) قد ارتقى الدرجات العُلا، ونال شرف العيش في صفوف الملائكة الكرام، ثم خسر كل شيء وطرد من ساحة القدس وسقط إلى أقصى درجات الانحطاط والشقاء، واستحق لعنة الله الأبدية، بسبب برهة واحدة من التكبر والغرور.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة القاصعة: « فاعتبروا بما فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟! كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء واهل الأرض لواحد »[2].

ويقول العلامة مكارم الشيرازي: « فكما أن من صرف وطرا من عمره في

---

(١) منهاج البراعة. الخوئي. ج٢. ص٦٨.

(٢) النهج. الخطبة: ١٩٢.

بناء وتأثيث دار، لربما في لحظات معدودات يتحول كل ما سعى لبنائه في تلك السنين الطويلة إلى هباء منثور بسبب شرارة صغيرة.. فالتكبر والغرور يفعل فعل النار في الحطب ولا تنفع معه تلك السنين المعمورة بالطاعة والبناء »[1].

- على كل مؤمن إذا ارتكب معصية أو خطأ أن يسارع إلى التوبة وإصلاح ذلك الخطأ ولا يتردد أو يتأخر، لأن الذنوب كالسموم المهلكة، والاستمرار عليها أمر في غاية الخطورة، من شأنه أن يزعزع الإيمان ويبعد الإنسان عن الله عز وجل، ويعرضه إلى المقت، ويقوده إلى الهاوية والشقاء الأبدي، فكلما مرت لحظة ولم يعلن المذنب التوبة إلى ربه، ابتعد أكثر عن الصراط المستقيم، وقد يهوي وينتهي به المطاف إلى نفس المصير المشؤوم الذي وصل إليه إبليس (عليه اللعنة) فيخسر بذلك السعادة الأبدية.

قال الرسول الأعظم الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): « من ترك المبادرة بالتوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

- أحدهما أن يتراكم الظلمة عن قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو.

- والثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو »[2].

النقطة (٤): حقد إبليس على آدم وذريته

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

---

(١) الأمثل.ج٨. ص ٦١

(٢) الأخلاق. شبر. ص ٢١٢.

إن إبليس - كما هو ديدن جميع الأبالسة والشياطين من المجبرة:

- يحمل الله عز وجل مسؤولية إغوائه ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ من أجل تبرأة نفسه.

- ويربط لعنة الله عز وجل له بآدم عليه السلام وليس بمعصيته، من أجل إعطاء نفسه الأمارة بالسوء الحق في إضلال بني آدم وإغوائهم.

ولهذا أقسم بأنه لن يترك الإنسان لحال سبيله، وقطع على نفسه عهدا بأن ينتقم لنفسه من الإنسان الذي كان - بحسب عقيدته الباطلة - السبب لطرده من رحمة الله عز وجل، وأن يعمل بكل ما يستطيع وبكل وسيلة ممكنة من أجل إضلاله وإغوائه وإبعاده عن الجنة التي حرم منها، لا يستثني أحد إلا من ليس له عليهم سلطان وهم المخلصون، لا رغبة منه في ذلك، ولكن عجزا عن بلوغ غايته فيهم، حيث يملكون المناعة الإيمانية أمام كافة الإغراءات الشيطانية وفي كافة المواقع. مستفيدا من رغبات الإنسان وشهواته الحيوانية، ونار غضبه الشيطانية ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإن الشيطان الرجيم، إنما يأتي الإنسان من ناحية الأرض (الطين: مادة الشهوة والغضب) فيثير فيه غريزة الشهوة وحب التملك والجاه والسلطة من أجل أن يضله ويبعده عن طاعة الله عز وجل.

أما الروح فليس له عليها سلطان لأنها من أمر الله عز وجل.

ولهذا طلب الإمهال من الله عز وجل ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

الوسائل التي يؤثر بها الشيطان على الإنسان

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

تشير الآية الشريفة المباركة: إلى الشر المطلق المتأصل في نفس إبليس (عليه اللعنة)

المتمثل في التصميم المطلق على الغواية، فقد أقسم بأن يجلس على جانب الصراط المستقيم (طريق الهداية والصلاح المؤدي بالإنسان إلى الفوز والسعادة) ويرصد حركة كل السائرين عليه، وأن يطبق عليهم فيأتيهم من كل حدب وصوب، ويحوط بهم من جميع الجهات: (من بين أيديهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم) ويتسلط عليهم تسلط راكب الدابة الملجمة التي يوجهها حيث يريد، فيثير فيهم نوازع الشر والجريمة، ويؤثر على أفكارهم وإرادتهم، ليضلهم وينحرف بمواقفهم وأوضاعه العامة والخاصة ذات اليمين وذات الشمال، ويمنعهم من شكر نعم الله عز وجل عليهم، ويحولهم من السير في الصراط المستقيم، ويجلبهم إلى ساحة الضلال والمعصية، حيث الغواية العابثة التي ترهق عقل الإنسان ووجدانه وضميره، ليسقط بذلك الكرامة التي أكرمهم الله عز وجل بها وحرمه منها، وليبعدهم عن الجنة ويدخلهم النار، ليكنوا معه فيها سواء.

وأقسم الشيطان: أن يلجأ إلى كل وسيلة متاحة له لتحقيق أهدافه، رغم علمه الأكيد بأن إضلاله البشر سوف يضيف إليه حملا جديد من الذنوب الكبيرة، ويغرقه أكثر في مستنقع الكفر والعصيان، لا لشيء إلا ليرضي حقده وعداوته للإنسان، فآه.. آه من العداوة والتكبر والحسد.

قول الله تعالى: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[1].

فلا يدع معصية إلا أغراهم بها، ولا طاعة إلا ثبطهم عنها،،

ويعد لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلا:

- فإن أمرهم الله جل جلاله بالجهاد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيله ومن أجل مصالح العباد.. حبب إليهم الحياة.

---

(١) الأعراف: ١٧.

- وإن حثهم الله جل جلاله على بذل المال في سبيله.. خوفهم بالفقر.

- وإن نهاهم الله جل جلاله عن الزنا والخمر والميسر ونحوها، زين إليهم الشهوات والملذات الجسدية الحيوانية.

- وإن توعدهم الله عز جل جلاله بالنار ووعدهم الجنة، قال لهم إبليس: لا جنة ولا نار.

- وهكذا دواليك.

يقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « وتنطبق هذه الصورة كل الانطباق على الذين باعوا دينهم للشيطان، يبررون أعمال المستعمرين، وقتل النساء والأطفال، وتشريد الآمنين من ديارهم »[1].

وقد جاءت أقوال عديدة في تفسير: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ منها:

- أنها كناية عن محاصرة الشيطان للإنسان من كل الجهات والتوسل إلى إضلاله وإغوائه بكل الوسائل الممكنة وبجميع الوجوه المتيسرة.

- وقيل: من بين أيدهم: يعني تهوين أمر الآخرة عليهم، ومن خلفهم: الإغراء بزخارف الدنيا، مثل: المال والجاه والسلطة، وعدم أداء الحقوق الواجبة فيها، وعن أيمانهم: إفساد أمر الدين بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة، وعن شمائلهم: تحبيب الشهوات والملذات الجسدبة في قلوبهم.

- وقيل: من بين أيديهم: من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز منه، ومن خلفهم: من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم: من حيث يتيسر لهم أن

---

(١) الكاشف. ج٣. ص٣٠٩.

يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم، وعن شمائلهم: من حيث لم يتيسر لهم ذلك.

– وقيل: من بين أيديهم: ما تهواه النفوس وتستلذ به الطباع كالشهوات، وما يكرهه الإنسان ويخاف نزوله كالفقر لو أنفق في سبيل الله وذم الناس له لو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ومن خلفهم: ما يخلفه من الأولاد، فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم، حيث يرى بأنه يبقى ببقائهم، وعن أيمانهم: الجانب الميمون من الإنسان وهو الدين، حيث يزين المبالغة في بعض الأمور الدينية والتكلف بما لم يأمرهم الله عز وجل به، وعن شمائلهم: تزيين الفحشاء والمنكر والدعوة إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب.

قال الإمام الباقر عليه السلام: « ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ معناه أهون عليهم أمر الآخرة ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم. وإنما دخلت (من) في القدام والخلف، و (عن) في اليمين والشمال، لأن في القدام والخلف معنى طلب النهاية، وفي اليمين والشمال الانحراف عن الجهة »[١].

والوسائل التي يعتمدها إبليس للتأثير على الإنسان كثيرة، منها:

– أن ينسيهم ذكر الله عز وجل والآخرة، ويضعف فيهم روح المسؤولية التي تواجه الأمور بحساب النتائج القريبة والبعيدة.

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ

---

(١) مجمع البيان. ج٤ . ص٦٢٣.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

– أن يلهي الإنسان بالنعم المادية، ويمنعه من التوبة بالتسويف وطول الأمل.

قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[2].

– إطلاق الوعود المعسولة وإثارة الأحلام الخيالية.

قول الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3].

– أن يقلب المقاييس ويغير الصورة الحقيقية للأشياء، بجعل الأشياء الحسنة تبدو قبيحة في نظرهم، والأشياء القبيحة حسنة.

قول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[4].

– أن يزين المناهج والأوضاع والمواقف الشاذة والمنحرفة، لتبدو مستقيمة ومعقولة لديهم، ويمنعهم من الاحتياط في الأمور.

قول الله تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[5].

– أن يحرك كل نقاط الضعف الكامنة في داخل الإنسان: الشهوات والغرائز والأهواء والخوف والغضب وغيرها.. كل شخص بما يناسبه: فهناك من يغويه الجمال، وهناك من يغوية المال والثروة، وهناك من يغويه الجاه والزعامة

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) التكاثر: ١ – ٢.

(٣) النساء: ١٢٠.

(٤) البقرة: ٢٦٨.

(٥) النحل: ٦٣.

والسلطة، وهناك من تغوية العصبية وتتحكم فيه الأنانية، وهناك من تلعب به الأوهام والأحلام والأفراح والأحزان، وغير ذلك.

وعلى هذا الأساس نجح إبليس (عليه اللعنة) في استدراج أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام للأكل من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها في الجنة.

قال الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[1].

وقد بين الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن سبب ضعف المسلمين وذهاب عزهم وتكاثر الأعداء عليهم، هو: حب الدنيا وكراهية الموت.

عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يوشك أن تداعى عليكم الامم من كل أفق كما تداعى الاكلة على قصعتها قال: قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت »[2].

أدوات الدفاع والتحصين لدى الإنسان

وفي مقابل ذلك زود الله العزيز الحكيم الإنسان بوسائل تحصين للوقوف في وجه الشيطان الرجيم، منها:

- العقل الذي يواجه به وساوس الشيطان وتزييناته.
- الفطرة النقية وحب الخير والتكامل.

---

(١) طه: ١٢٠.

(٢) مسند الإمام احمد ج ٥. ص ٢٧٨.

- الملائكة التي تلهم الخير في مقابل وساوس الشيطان وتثبت خطى المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « ما من قلب إلا وله أُذنان على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتن، هذا يأمره وهذا يزجره: الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها »[3].

- التوبة المبسوطة حتى تبلغ الروح الحلقوم.

- وأعطاه الله عز وجل: الرحمة والمغفرة.

- وأعطاه الله عز وجل: السيئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها.

وفي ذلك كله إشعار:

- بأصالة شقاء أتباع الشيطان واستحقاقهم للعذاب.

- أصالة سعادة المؤمنين واستحقاقهم للثواب.

- أن إغواء الشيطان لا يلغي حرية الاختيار عند الإنسان.

- أن إغواء الشيطان ليس بسبب سلطة وجودية له على الغاوين، وإنما

---

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) الأنفال: ١٢.

(٣) البحار. ج٧٠. ص٣٢.

بسبب إهمالهم لقدراتهم العقلية، وتضييع أصالتهم الإنسانية، وسوء اختيارهم للمنهج والطريق، وإفساحهم المجال أمام الشيطان لإدخال وساوسه وغوايته إلى قلوبهم، لخلوها من الصدق والإخلاص، وتلوثها بدخان الذنوب والخطايا.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

فالرابطة بين إبليس والغاوين: هي رابطة التابع والمتبوع الاختيارية، وليست رابطة جبر وجودية، ولهذا فهو يتبرأ منهم يوم القيامة، ويحملهم مسؤولية عملهم واختيارهم.

النقطة (٥): لا سلطان لإبليس وذريته على المؤمنين المخلصين لله في العبودية

قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢).

خلص الشيء: صفا وزالت عنه الشوائب، واستخلصه: اختاره واصطفاه، والمخلص: هو الإنسان المؤمن الذي خلصت سريرته، ووصل من خلال التربية ومجاهدة النفس، إلى درجة عالية من الإيمان والأخلاق والعمل الصالح، ومن مميزاته:

- إدراك عمق الحقيقة.

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) الحجر: ٤٠.

- الصدق والإخلاص لله في النية.

- مراقبة الله عز وجل في السر والعلانية.

- صفاء العقيدة وصلابة الموقف.

- حسن الخلق وحسن المعاملة مع الناس.

- تحويل ساحات الحياة كلها إلى ساحة عبادة وجهاد.

فلم يترك للشيطان منفذ ينفذ منه إلى حياته، لأنه مع الله عز وجل في كل شيء، فلا يملك الغي إليهم سبيلا، ولا يلتقي بهم الانحراف في أي موقع من مواقع الحياة.

يقول العلامة السيد فضل الله عنهم: « هؤلاء الذين أعطاهم الإيمان قوة روحية في الداخل، فاستطاعوا أن يحققوا لحياتهم مناعة في الخارج »[1].

من أين يأتي إبليس الإنسان؟

قلت فيما سبق: إنما يأتي إبليس الإنسان من ناحية التراب: الشهوة والغضب، فيثير فيه غريزة الشهوة والأنانية وحب التملك والجاه والسلطة من أجل أن يضله ويبعده عن طاعة الله عز وجل. وليس لإبليس سلطان على الروح لأنها من أمر الله عز وجل، والنتيجة:

- أن سلطة إبليس هي على الذين كفروا، والذين لم يخلصوا الدين والإيمان لله عز وجل، فأسقطوا سلطان إنسانيتهم، واستضعفوا أنفسهم، وعبدوا الدينار والدرهم والجاه والسلطة، وباعوا بذلك العباد والبلاد، وتلوثت نفوسهم

---

(١) من وحي القرآن.ج١٣ .ص١٦٢.

بدنس الشهوات والذنوب، ففتحوا بذلك أبواب قلوبهم للشيطان للدخول إليها والسكن فيها، فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

– وليس لإبليس سلطة على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فهؤلاء في صيانة الله عز وجل وحصنه ورعايته لهم.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾(1).

وذلك بسبب إيمانهم وصدقهم وإخلاصهم وطهارة نفوسهم من الذنوب والخطايا، فلا يعمل فيهم كيد إبليس، ولهم القدرة على تحطيم قيوده ومصائده، وإنه أحقر من أن يدنو من قلوبهم الطاهرة وأنفسهم الزكية، فضلا عن تسلطه عليهم.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾(2).

وفيه إشعار:

– بتحقير أتباع الشيطان وأعوانه.

– تفخيم شأن المؤمنين المخلصين وبيان لمكانتهم العالية.

– تحميل الإنسان المسؤولية الكامله عن عمله.

فالناس صنفان:

– صنف خاضع لشهواته ونزواته ونفسه الأمارة بالسوء، وهم شعب إبليس الذين يفرض سلطته عليها.

– وصنف من المؤمنين الأتقياء، ذو النفوس الطيبة والأرواح الطاهرة،

---

(1) الحج: ٣٨.

(2) الحجر: ٤٢.

المنقادين لله عز وجل، وهم أولياء الله وأحباؤه، المستقلين عن إبليس وليس له ولا لذريته سلطة عليهم.

نتائج ختامية

ونتوصل من كل سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): ليس مطلوب من الإنسان المكلف أن يقبل الأمر والنهي الإلهي بدون علم ومعرفة، فهذا مذموم قطعا ومرفوض. وإنما المطلوب منه: التمييز بين العلم الإجمالي والعلم التفصيلي، فالإنسان المكلف قد لا يعلم على نحو التفصيل بوجه الحكمة في التكليف الإلهي، ولكنه يعلم علما إجمالا يقينيا قاطعا بأن الحق والخير والمصلحة في طاعة الرب العالم الحكيم، فيقبل التكليف على هذا الأساس.

والطاعة على هذا الأساس: يقبلها العقل، ويدعو إليها، وتقوم عليها الحياة المدنية المتطورة. فالمريض مثلا قد لا يعلم على نحو التفصيل بمفعول الدواء الذي يصفه له الطبيب، ولكنه يعلم على نحو الإجمال بصواب طاعة الطبيب.

النتيجة (٢): ليس مطلوب من الإنسان المكلف أن لا يسعى لتحصيل العلم بما هو ممكن ومتاح من التفاصيل في المسائل الدينية، والسؤال عما لا يعلم، فهذا مطلوب وهو من الفضيلة وقد سعت إليه الملائكة.

ولكن ليس له مقابلة العلم بالجهل كما فعل إبليس (عليه اللعنة):

- فهو مذموم وهو دليل على الجهل والتكبر.
- وهو مخالف لمنطق العقل وسيرة العقلاء.
- ويؤدي إلى الفساد والدمار والخراب في الأرض.

وهذا واضح لكل بصير.

النتيجة (٣): أن الإنسان خلق في نفسه أعزل من السعادة والشقاء، وأنه واقف بين مقامين وعلى مفترق طريقين:

- مقام القرب وطريق الطاعة والسعادة: وهو طريق الملائكة، وتتجلى فيه الرحمة والمغفرة والثواب العظيم.

- مقام البعد وطريق المعصية والشقاء: وهو طريق إبليس والشياطين، ويتجلى فيه الغضب والانتقام والعذاب العظيم.

يقول العلامة الطباطبائي: « فلولا أن الله سبحانه خلق آدم وأمر الملائكة وابليس جميعا بالسجود له، لكان ابليس على ما كان عليه من منزلة القرب غير متميز من الملائكة، لكن خلق الإنسان شق المقام مقامين: مقام القرب ومقام البعد، وميز السبيل سبيلين: سبيل السعادة وسبيل الشقاء »[1].

والخلاصة: أن الإنسان هو الكائن الوحيد في الوجود الذي يصنع ماهيته بنفسه، وسوف تكون هذه المسألة أكثر وضوحا في بابها في مستقبل البحث.

فإن سلك الإنسان طريق الطاعة: رافقته الملائكة ونصروه وأعانوه وثبتوه على الهداية والطاعة، والمنتهى إلى الجنة والسعادة والرضوان.

وإن سلك طريق المعصية: رافقه إبليس والشياطين وخذلوه وأضلوه، والمنتهى إلى النار والشقاء والعذاب العظيم.

وأن منهج إبليس الذي يقوم على الاستكبار عن العبادة والطاعة - ومنه فصل الدين عن السياسة وشؤون الحياة - يمثل منهج الضلال، وهو منهج:

- يقوم على أساس الجهل واتباع الهوى والنفس الأمارة بالسوء.

---

(١) الميزان. ج٨. ص٢٤.

- وينتج عنه فقدان العزة والشرف والكرامة.
- والطرد من رحمة الله عز وجل.
- وانتشار الفساد والظلم والخراب في الأرض.
- والتعب والعناء للإنسان في الحياة الدنيا.
- والشقاء والعذاب الأليم في النار في الآخرة.

وأن منهج الملائكة في الطاعة والتسليم إلى الرب العليم الحكيم، وهو منهج حياة للمؤمنين الصالحين، هو منهج:

- يقوم على اتباع العقل والمنطق السليم والفطرة.
- ويصون عزة الإنسان وشرفه وكرامته، وهي أمور لا يجوز التفريط فيها بأي حال من الأحوال.
- ويؤدي إلى قيام العدل والقسط وصلاح الحياة والتقدم والعمران.
- ويحقق الأمن والراحة والاستقرار والازدهار والرخاء للإنسان في الحياة الدنيا.
- ويحقق النعيم المقيم والسعادة الأبدية في الآخرة.

النتيجة (٤): أن معركة الحياة الأساسية لدى الإنسان في الأرض تتمثل في الصراع بين منهج الملائكة ومنهج إبليس، وهي معركة جدية وواقعية، وليست معركة وهمية من صنع الخيال. فقد أصر إبليس (عليه اللعنة) على ملاحقة الإنسان والإحاطة به من جميع الجهات من أجل إضلاله وإغوائه، وهذه المعركة تتجلى في كافة جوانب الصراع في الحياة، فهو صراع بين الحق والباطل، وصراع بين العدل والظلم، وصراع بين الخير والشر، وصراع بين الفضيلة والرذيلة، وصراع بين الصلاح والفساد، وصراع بين التخلف والتقدم، وصراع بين الحرية والاستعباد،

الخ. وأن لكل منهج أئمة وقادة وجماهير.

– أما قادة منهج الملائكة: فهم الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحون الأكفاء.

– وأما قادة منهج إبليس: فهم الطواغيت والجبابرة في الأرض والحكام المستبدين وإخوان قارون مصاصي الدماء من أصحاب رؤوس الأموال الطائلة التي يجمعونها بغير وجه حق على حساب دماء الفقراء والمحرومين وعرقهم ووعاظ السلاطين وأصحاب الأقلام المأجورة من كتاب وصحفيين وقوى الاستكبار العالمي وغيرهم.

فالمسلم يشعر بأنه يخوض معركتين:

– معركة ضارية يخوضها في داخل نفسه ضد هواه وشهواته الحيوانية وعاداته السيئة، وتمثل الجهاد الأكبر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « اعلموا أن الجهاد الأكبر جهاد النفس فاشتغلوا بجهاد أنفسكم تسعدوا »[١].

– ومعركة ضارية يخوضها مع أولياء الشيطان من الطواغيت وأصحاب رؤوس الأموال الظالمين وقوى الاستكبار العالمي وأتباعهم، وهي معركة ضارية صارمة ضد الباطل والظلم والفساد والانحلال والدكتاتورية والاستبداد والتمييز والفقر والحرمان والتخلف بكافة أشكاله وألوانه.

قال الله تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[٢].

وقال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلا في

---

(١) غرر الحكم.

(٢) التوبة: ١٢.

نفسه وفقرا في معيشته ومحقا في دينه إن الله تبارك وتعالى أعز أمتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها »[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « فمن تركه (يعني الجهاد) رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء وديث بالصغار والقماء (الذل) وضرب على قلبه بالأسداء وأديل الحق منه (تحول منه) بتضييع الجهاد »[2].

ويقول العلامة الشهيد السيد قطب: « والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان. فالشيطان وراءهما جميعا! والطواغيت التي تقوم في الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها وموازينها، وتستبعد حاكمية الله وشرعه والقيم والموازين المنبثقة من دينه.. إنما هي شياطين الإنس التي توحي لها شياطين الجن. والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه. وليست بعيدة عنها »[3].

وتستخدم في هذه المعركة جميع الأدوات الفكرية والسياسية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية وغيرها. وأن الملائكة تقف في المعركة إلى صف المؤمنين لنصرتهم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[4].

ويقف إبليس وجنوده من الشياطين إلى صف الكافرين والعاصين

---

(١) البحار. ج١٠٠. ص٩.

(٢) البحار. ج١٠٠. ص٨.

(٣) الظلال.ج٣.ص١٢٧٥.

(٤) فصلت: ٣٠ – ٣١.

والمستكبرين والظالمين لنصرتهم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وأن المعركة تنتهي حتما: بانتصار منهج الملائكة وسيادته في الحياة، وهو اليوم المعلوم في الآيات الشريفة المباركة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ وذلك:

- كقضاء وكنتيجة حتمية في التاريخ وفق السنن الحاكمة في الكون والمجتمع.
- وكدليل على حكمة الرب العزيز القدير وغلبته.
- وعودة الإنسان إلى منطق العقل والفطرة والضمير.

---

(١) الأعراف: ٢٧.

الفصل التاسع

حول الجنّ والشياطين

الجن في اللغة

جن: استتر، وجنه: ستره، والجن والجان: خلق مستور عن حواس الإنسان، فأصل الجن: الستر عن الحواس، فكل شيء ستر عنك فقد جن، والجنة: جماعة الجن، فوجه تسميتهم بالجن: هو استتارهم واختفائهم عن حواس الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[1].

الجن في الاصطلاح

نوع من المخلوقات العاقلة ذوات شعور وإرادة وقادرون على التخاطب بلغة التخاطب المعهودة عند الإنسان ولديهم قابلية الإيمان والكفر وحرية تقرير المصير.

قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[2].

---

(١) الأعراف: ٢٧.

(٢) الجن: ١- ٢.

وأجسامها شفافة لأنها خلقت من مارج من نار (أي: من صافي شعلتها) فلا تدركها حواس الإنسان، ولهم قدرة على الحركات السريعة والأعمال الشاقة والتصرف في عالم المادة - كما في قصص نبي الله سليمان عليه السلام - ولهم القدرة الذاتية على الانطلاق في عالم الفضاء، ولهم القدرة على التمثل في صور الإنس والبهائم - وقد سبق بيان معنى التمثل - وفيهم شياطين يوسوسون للناس بالشر والضلال، وفيهم مؤمنون يعبدون الله سبحانه وتعالى ويخافونه ويدعون إلى دينه.

قال البيضاوي: الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليها النارية أو الهوائية.

وقال ابن سينا: الجن حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة.

العوالم الثلاثة

تتوزع الكائنات الحية العاقلة إلى ثلاثة عوالم:

- **عالم المجردات:** وهو أعلى العوالم وأقواها وجودا، وهو عالم النعيم والسعادة والملائكة بجميع مراتبهم وأقسامهم.

- **عالم الشياطين:** وهو أسفل العوالم وأبعدها عن الله عز وجل، وهو عالم الجحيم ونيرانها، ومحل الأشقياء والمعذبين الأشرار من الجن والإنس.

- **عالم المادة:** وهو عالم متوسط بين العالمين: (الأول والثاني) ويضم الأرض وجميع الأجرام السماوية، وهو عالم الأضداد، وهو أضعف العوالم، ويضم هذا العالم: الجماد والنبات والحيوان والإنسان.

وللإنسان دون غيره من الموجودات: مقامات صعود غير متناهية إلى الملكوت الأعلى، ومقامات نزوله غير متناهية إلى الملكوت السفلي، فقد يصعد ليتبوأ

مقام صدق عند مليك مقتدر، وقد ينزل ليصل إلى الدرك الأسفل في نار جهنم.

الإيمان بالجن

العقل يضع الجن في دائرة الوجود الممكن أو غير الممتنع. والقرآن الكريم المنزل من عند الله عز وجل يصدق بوجودهم، مما يوجب على الإنسان المؤمن التعبد به، ويجعل من الجن حقيقة واقعية على أساس الحقيقة القرآنية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وقد ذكر لفظ الجن في القرآن الكريم في (٢٢: موضعا) تضمنت أوصافهم وأحوالهم، وذكر لفظ الجان في: (سبعة: مواضع).

وقد بين القرآن الكريم: بأن الله عز وجل قد خلقهم (الخلق الابتدائي) من نار السموم، قبل خلق الإنسان بنحو سبعة آلاف سنة - بحسب المنقول - وأبوهم: شوميا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[١].

فوجود الجن ثابت بالنص القرآني بالإضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام.

سكن الجنّ وخواصهم

يسكن الجن الأرض مع الإنسان، ولهم نشاطهم الخاص عليها، ولكن

---

(١) الحجر: ٢٦ - ٢٧.

الإنسان لا يشعر بذلك، لأن مظاهر حياتهم ونشاطهم وحركتهم على الأرض غير بارزة، فهي لا تزاحم مظاهر حياة الإنسان ونشاطه وحركته على الأرض. ولكن ذلك لا يمنع قدرتهم على العيش خارج دائرة كوكب الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾[1] وهذا يدل على:

- قدرتهم على الطيران إلى السماء والعيش خارج دائرة كوكب الأرض.
- الاتصال بالسماء والاستماع من الملائكة لأخبارها.
- أن اتصالهم بالسماء كان موجودا إلى حين البعثة النبوية الشريفة.
- وقيل: أن لهم القدرة على العيش في باطن الأرض أيضا.

وكان فيهم - قبل خلق الإنسان - الملك والنبوة والدين والشريعة.

وهم يتألفون من جنسين: ذكورا وإناثا، ويتكاثرون بالتوالد والتناسل، ولهم تجمعات تشبه تجمعات البشر، فهم يتألفون من شعوب وقبائل، وفيهم حكاما وقادة وجماهير، وتجري بينهم حروب طاحنة كثيرة.

وهم يأكلون ويشربون، ولهم شعورا وإرادة واختيار، ويتحملون المسؤولية في الحياة عن أعمالهم وتصرفاتهم ومواقفهم، ثم يموتون ويبعثون ليحاسبوا أمام الله عز وجل، لينالوا جزاء أعمالهم كالإنسان: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

والخلاصة: أنهم مكلفون شرعا ولديهم الاطلاع الكافي على الدعوات الإلهية ويحاسبون يوم القيامة كالإنسان.

---

(١) الجن: ٨ - ٩.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

أنواع الجن ومراتبهم

الجن في الأساس نوعان:

النوع (١): من هو في غاية الخبث والبعد عن الحق وعن الاستعداد للرحمة الإلهية، وهو غير قابل للهداية والرحمة الإلهية، وهو مصدر لكل شر وضلال وإنحراف عن الصراط المستقيم، فكأن الحرمان من الرحمة ذاتي له. وهم الشياطين وذريتهم، وكبير هؤلاء ورئيسهم: إبليس (عليه اللعنة) الذي هو رمز للشر والقائم على كل خطيئة وذنب في العالم.

النوع (٢): من يمتلك الاستعداد للهداية وقبول الرحمة، وهم سائر الجن.

وهذا يدل على نفي حقيقة الشيطنة والفساد عن الجن بما هم جن، ويثبت لهم الاستعداد للخير والشر كالإنسان:

- فمن الجن الصالحون الذين يعيشون الصلاح فكرا وسلوكا.
- ومنهم الطالحون الذين انطلقوا في خط الانحراف والضلال كبعض البشر.

وقيل: أن الجني إذا خبث: فهو شيطان، فإن زاد في خبثه: فهو مارد، وإن زاد أكثر وقوي أمره: فهو عفريت، وهناك تقسيمات ومراتب أخرى لا حاجة لذكرها.

فمن الجن مسلمون ومنهم كافرون،،

---

(١) الذاريات: ٥٦.

ومنهم صالحون يتوخون الحق والصدق والهداية والطاعة لله عز وجل والعدل والفضيلة والكرامة، مما يدخلهم الجنة. ومنهم قاسطون جائرون عن طريق الحق والصدق والهداية والطاعة والعدل والفضيلة والكرامة، مما يدخلهم جهنم ويكونون إليها حطبا توقد بهم كما توقد بالكافرين من الإنس.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

---

(١) الجن: ١- ١٥.

(٢) الأحقاف: ٢٩- ٣٢.

الاستعانة بالجنّ

لم يستبعد العلماء استعانة البعض من الناس بالجن في تحقيق بعض المقاصد عن طريق الكهانة، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[1].

معاني المفردات

العوذ: الالتجاء إلى الغير والاعتصام به والاستجارة، وأرهقه الأمر: أي غشيه بقهر، **والرهق**: الإثم والطغيان والسفه والخوف والشر والذلة والضعف والتهمة وحمل الغير على ما لا يطيق، ورهق: ظلم وارتكب الشر.. والمراد: أن عددا من الجن كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى واستراق شيء مما يدور فيه بين الملائكة عن شؤون الخلق في الأرض مما قدره الله عز وجل فيها، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وإرهاقهم والاستعلاء عليهم وإضلالهم، من خلال مزج القليل من الحق المسترق بالكثير من الباطل الذي يدخلونه من عند أنفسهم.

وقد قيل في تفسير الآية الشريفة أقوال عديدة، منها:

- أن بعض الجهال يعتقدون بقدرة الجن على تخليصهم من الأمراض والمشاكل والأخطار التي يقعون فيها، فيرجعون إلى الكهان الذين يعتقدون بأنهم على علاقة بالجن من أجل التغلب عليها، وهذا باطل بحسب القرآن الكريم. في تفسير القمي عن زرارة أنه قال: سألت أبا جعفر عن قول الله: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ قال: كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي

---

(١) الجن: ٦.

يوحي إليه الشيطان، فيقول: قل للشيطان: فلان قد عاذ بك.

– أن الرجل من العرب إذا نزل الوادي المقفر في سفره ليلا وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي – يعني رئيس الجن فيه – أعوذ بك من سفهاء قومك، فإذا سمع الجن ذلك استكبروا وزادهم هذا تعنتا وإثما وعتوا، وقالوا سدنا الإنس والجن.

– أن رجالا من الإنس، وهم الكهان والمنجمين والعرافون، يستجيرون برجال من الجن في أذى الناس، فيزداد الكهان والعرافون عتوا وإثما واستكبارا.

– أن الجن يزيدون الناس العائذين بهم ذلة وخوفا وضعفا حيث يضلوهم عن سبيل الله عز وجل.. فالرهق: هو الضلال والإثم والخوف والقلق والحيرة التي تعتري قلوب الذين يلجؤون إلى الجن.

يقول العلامة السيد قطب: « والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله، طمعا في نفع، أو دفعا لضر، لا يناله إلا القلق والحيرة، وقلة الاستقرار والطمانينة.. وهذا هو الرهق في أسوأ صوره.. الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة »[1].

ويقول العلامة السيد فضل الله: « من الممكن أن يكون المقصود به النتائج السلبية التي قد تحصل لهم من خلال هذه الذهنية غير المتزنة التي تقودهم إلى الخضوع لأفكار غير واقعية وللاعتماد على الكهان الذين لا يملكون أساسا في الاعتماد عليهم »[2].

---

(١) الظلال.ج٦.ص٣٧٢٨.

(٢) من وحي القران.ج٢٣.ص١٥٠.

الحكم الشرعي للكهانة

(أ) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

حرم الفقهاء رضوان الله عليهم استخدام الملائكة وإحضار الجن وتسخيرهم وإحضار الأرواح وتسخيرها. وحرموا الكهانة، وهي: تعاطي الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان وادعاء معرفة الأسرار ومطالعة الغيب بزعم أخذها من الجن[1].

والكاهن: من لديه رفيق من الجن يخبره بالأمور الخفية، مثل:

- معرفة المال المسروق أو معرفة السارق.
- معرفة مكان المال الضائع.
- تشخيص القاتل.
- الإخبار بالأمور المستقبلية بنحو التنبؤ.

والكهانة حرام، والذهاب للكاهن لأجل التكهن حرام، واعتبر بعض الفقهاء الكهانة من السحر[2].

قال الإمام الصادق عليه السلام: « من تكهن أو تكهن له فقد بريء من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم »[3].

وهنا تنبغي الإشارة إلى أمرين:

الأمر (١): تفيد بعض الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام: أن الجن بعد أن منعوا من صعود السماء بعد بعثة الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تعذر عليهم الحصول على

---

(١) تحرير الوسيلة. الإمام الخميني. ج١. ص٤٩٨.

(٢) الذنوب الكبيرة. دستغيب. ج٢. ص ٧٩

(٣) نفس المصدر.

الأخبار السماوية، ولا يمكنهم الإخبار إلا عن بعض الأمور الأرضية الجزئية بنحو ناقص، مما يشير إلى انتهاء عهد الكهانة والخرافات، وابتداء عصر النور والهداية الحقة.

الأمر (٢): أن تحصيل الكهانة قد يتوقف على ترك الأعمال الخيرة وارتكاب الأفعال الشنيعة، لكي يقترب الكاهن من الشياطين ويكون من سنختهم، لكي يتمكن من السحر والكهانة.

يقول الشهيد دستغيب: « آه ما أسوأ حظ البشر الذي يستطيع ببركة أعمال الخير واتباع مقررات الشرع المقدس، أن يكون من سنخ الملائكة بل أفضل منهم، يحرم نفسه من هذه الدرجات ويلتحق بأسفل السافلين، وهو أسفل من الشياطين »[1].

(ب) في مدرسة الخلفاء

أجمع الفقهاء في مدرسة الخلفاء: على أن التكهن والكهانة - بنفس المعنى الوارد في مدرسة أهل البيت عليهم السلام - والذهاب إلى الكاهن لأجل التكهن حرام، وأن التصديق بما يقوله: كفر، وقيل: فسق، والكسب من الكهانة حرام لأنه سحت، أي: الكسب عن طريق غير مشروع[2].

قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله »[3].

---

(١) الذنوب الكبيرة.ج٢ ص٨١.

(٢) الموسوعة الفقية.الأوقاف الكويتية.ج٣.ص١٧٢

(٣) مسند الإمام احمد.ج٢.ص٤٢٩.

تعريف الشياطين

شطن: بعد عن الخير، وشاط: هلك واحترق، والشاطن: الخبيث والوضيع. ويطلق لفظ الشيطان على:

- الموجود العصي المتلىء شرا ومكرا.
- والمتمادي في الإثم والطغيان والعصيان.
- والروح الشريرة البعيدة عن الحق والعدل والخير والفضيلة.
- وعلى كل موجود عات متمرد مؤذ طاغ معاند خبيث من الجن والبشر والدواب. فكما أن الذي يتمادى في الشر من الجن يسمى شيطانا، كذلك الذي يتمادى في الشر من البشر يسمى شيطانا، والجمع: شياطين.
- ويوصف بالشيطنة كل حيوان مؤذي.

الشيطان في القرآن والحديث

يطلق القرآن الكريم لفظ الشيطان على:

- إبليس الذي امتنع عن السجود لآدم عليه السلام.
- كل موجود منحرف يريد أن يوقع الفساد والفرقة والاختلاف بين الناس.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[1].

---

(١) المائدة: ٩١.

- المعاندين للدعوة الإلهية والمحاربين للأنبياء والأوصياء عليهم السلام وحملة الرسالات السماوية من الجن والإنس.

قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[١].

- الميكروبات الضارة.

قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « لا يطولن أحدكم شاربه فإن الشيطان يتخذه مخبئا يستتر به »[٢].

وغلب استعمال الشيطان: في إبليس الذي هو من الجن وعلى ذريته وجنوده، فهم القائمون على كل ذنب وخطيئة، والحاضون على اقتراف كل إثم ومعصية، حيث يوحي شياطين الجن بالوسوسة إلى شياطين الإنس، ثم يوحي شياطين الإنس إلى بعضهم البعض بالكلام المنمق المعسول وبالوعود الجميلة ما يؤدي إلى تحريك النوازع الشريرة في نفس الإنسان، ويزين له الباطل، ويشوه لديه القيم الروحية والأخلاقية، ويثير لديه الشهوات والغرائز الحيوانية، من أجل حمله على الشرك بالله عز وجل، وارتكاب أنواع الذنوب والمعاصي وسائر الأعمال القبيحة والنذلة. وربما يكون شياطين الإنس أشد على الإنسان من شياطين الجن.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾[٣].

وتدل الآية الشريفة المباركة على أمور عديدة، منها:

---

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) الكافي. ج٦. ص٤٨٧.

(٣) الأنعام: ١١٢- ١١٣.

الأمر (١): وجود من هو الجن ومن هو من الإنس من يناصب الأنبياء والأوصياء والصالحين وحملة الرسالات العداء دائما، ويعملون بكل وسيلة، ويخططون بالليل والنهار، وفي السر والعلن، من أجل إعاقة حركة الرسالات والقضاء عليها وعلى حملتها ومنعهم من تحقيق أهدافهم المقدسة النبيلة في الحياة.

الأمر (٢): أن هذا العداء المستحكم، قائم على معاندة الحق ورفضه بإصرار، رغم كونه في غاية الوضوح، وذلك من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة: الشهوانية والغضبية المثقلة بالأرض والتراب، وتطلعاتهم الشيطانية المريضة في الحياة.

الأمر (٣): أن هؤلاء الأعداء يعتمدون لتحقيق أهدافهم على وسائل وأساليب شيطانية خبيثة لا تقيم أي وزن للمبادىء والقيم الإنسانية، فكل الوسائل والأساليب مشروعة ومبررة لديهم مادامت تحقق الأهداف، فالغاية دائما تبرر الوسيلة، منها:

- الكذب والكلام المموه المعسول المنمق الذي يحسن ظاهره وهو في الواقع لا أصل له ولا حقيقة ولا نور، وذلك بإلباس الباطل لباس الحق، وتزيينه وزخرفته وبهرجته بالألفاظ المنمقة، بهدف تمريره وتسويقه على من تسحرهم الكلمات ولا يبصرون الواقع والحقيقة.

- خلق أجواء الخلوة الشهوانية الحميمة المحببة إلى النفس، وتحريك الشهوات والأحلام والتطلعات الوهمية في النفس.

- استخدام الأدوات المتاحة من تكنولوجيا وفن ووسائل إعلام، من أجل الايهام والتمويه وتشويه الحقائق، ليخدعوا ضعاف النفوس ويضلوهم عن سبيل الله عز وجل، ويرغبوهم في المعصية والأعمال القبيحة والشنيعة ومعاندة الحق وأهله ومحاربتهم.

- فإذا عجزت الأساليب الناعمة عن تحقيق أهدافهم السافلة، كشروا عن انيابهم ولجأوا كالسباع الضارية إلى الترهيب والقوة والعنف والإرهاب.

الأمر (٤): إن الإنسان الذي يقبل بما توحيه إليه الشياطين، إنما يقبل منهم بسبب:

- موافقة سنخيته الخبيثة معهم في اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء، والميل إلى الشر والفساد، لأنه يحصر اهتمامه بالدنيا وينسى الآخرة، فيخضع للشياطين معجبا بزخارفهم الباطلة، ومنكسرا أمام سلطانهم الكاذب.

- أو لأنه لا يعرف فنون الحيل وأساليب الخداع فيخدعونه.

- أو لأنه لم يمحص الكلام الموحى إليه حق التمحيص فيتبعهم بغير علم ولا معرفة.

- أو لأنه ضعيف لا إرادة له ولا صبر أمام وسائل الترغيب والترهيب فيخضع لهم تحت تأثير هذا الضعف الحيواني المهلك.

والخلاصة: أن ما يوحي به الشياطين إنما هو في الحقيقة خداع وغرور، ولا يمت إلى الحقيقة وإلى سعادة الإنسان ومصالحه الحيوية بصلة.

الأمر (٥): أن الله عز وجل قادر على منع الشياطين قهرا عن كل ما سبق، إلا أن حكمته البالغة اقتضت أن يتركهم ليختاروا ما يشاؤون في نطاق القدرة الإلهية التي اعطتهم حرية الإرادة والاختيار من أجل اختبارهم، فأذن بأن تمتد أيديهم الآثمة بالأذى إلى أولياء الله وأحبائه بالقدر الذي تقتضيه مشيئته ويجري به قضاؤه، لما وراءه من التمحيص والاختبار، وإعطاء كل واحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ويستحق جزاءه بالعدل، ثم يحاسبهم على أعمالهم في الآخرة: فيثيب المؤمنين ويعاقب المسيئين بما يستحقون من العقاب ويحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة.

والخلاصة: ان الجميع في قبضة الله عز وجل وسلطانه.

الأمر (٦): أن هؤلاء الشياطين وإن استطاعوا عرقلة دور الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وحملة الرسالات، إلا أنهم لن يستطيعوا محو الرسالة ومنع نور الحقيقة من

السطوع في سماء الإنسانية، ولن يستطيعوا الإضرار بالمؤمنين الصادقين، بل وجودهم يؤدي - بحسب السنن الكونية - إلى تكامل الجماعة المؤمنة وقوتها وبلوغها أعلى الدرجات في الصبر والتربية والطهارة والعمل الصالح والجهاد، لأن وجود العدو من شأنه أن يحفز المؤمنين الصادقين على رفع مستواهم الفكري النوعي وتعبئة قواهم وطاقاتهم وتقوية إرادة التحدي والمقاومة لديهم، مما يؤدي إلى انتصار الرسالة وحملتها في نهاية المطاف.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الصراع في الحياة هو صراع بين حملة الرسالة السماوية وما يحملون من قيم الحق والعدل والحرية والشرف والفضيلة ونحوها، وإلى صفهم المؤمنون الصادقون والمستضعفون في الأرض والشرفاء من الناس، وبين شياطين الجن والإنس الذين يقفون صفا واحدا، ويعاون بعضهم بعضا بهدف الوقوف في وجه حملة الرسالة والمستضعفين والشرفاء، ومنعهم من تحقيق أهدافهم المقدسة العظيمة، ومعهم عدتهم من الباطل والنذالة وزخرف القول وأساليب الترهيب والترغيب، ومعهم أشباههم من الفاسدين والفاسقين والمنحرفين الذين لا يؤمنون بالدين والآخرة، ولا يقيمون وزنا للقيم والمبادئ الإنسانية النبيلة.

والخلاصة: أن هناك من غير المؤمنين من يحتفظ بسلامة فطرته، ولم يكن عدم إيمانه ناتج عن عقد نفسية، مثل: التكبر والعناد، وإنما بسبب العادة أو تحكم بعض الشبهات، وهؤلاء يقفون - بحسب فطرتهم - إلى صف حملة الرسالات وقادتها، بالنظر إلى عدالة قضيتهم، وسلامة المبادئ والقيم الإنسانية التي يلتقون عليها.

النتيجة (٢): أن المؤمن أقوى بذكر الله عز وجل وتوفيقه من أعتى الشياطين وكيدهم.

قول الله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[١].

النتيجة (٣): أن لحملة الرسالة ومناصريهم العواقب الحميدة ولذات الآخرة، وللشياطين ومناصريهم آهات الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة.

النتيجة (٤): أن الجماعة المؤمنة إذا صبرت على البلاء ونجحت في الامتحان من خلال المقاومة الصادقة ضد أعداء الدين والإنسانية، فإن الله عز وجل يكف عنهم أذى الأعداء وينصرهم عليهم مهما بلغت قوة الأعداء الظاهرة وسلطانهم المدعى.

قول الله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٢].

يقول العلامة السيد قطب: « ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها.. ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أولا يريده الشياطين! وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق، بعد بنائه في قلوبهم وفي حياتهم. أما عداوة الشياطين، وكيد الشياطين، فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ »[٣].

---

(١) النساء: ٧٦.

(٢) المجادلة: ٢١.

(٣) الظلال. ج٣. ص١١٩١.

ومن أجل انتصار الرسالة وتحقيق أهدافها، يجب أن تتوفر أمور عديدة، منها:

الأمر (١): إيجاد القيادات الرسالية الواعية والمضحية، والتي تمتلك:

- القدرة على التشخيص الواقعي للأوضاع وللقوى السياسية المؤثرة في الساحة والعوامل المؤثرة فيها.
- القدرة على تنظيم صفوف أتباعها.
- القدرة على الإدارة الصحيحة للأوضاع والملفات وحسن التصرف مع كافة العناصر المؤثرة في الساحة.
- القدرة على اقتناص الفرص السانحة التي تمر مر السحاب.
- الشجاعة للأخذ بزمام المبادرة للانقضاض على الأعداء في الوقت المناسب بدون ضعف أو تردد من أجل نصرة الرسالة وتحقيق أهدافها السامية العظيمة.

الأمر (٢): خلق الجماهير الرسالية المؤمنة بالرسالة وأهدافها، والتي تملك الاستعداد للتضحية والفداء من أجل تحقيق الأهداف الرسالية المشروعة، وتحرير وعيها وإرادتها من قبضة الطواغيت والمستكبرين والمستبدين.

غواية الشياطين للإنسان

تأثير الشياطين في الإنسان، هو في الحقيقة ثمرة من ثمرات اتباع الإنسان لهوى النفس والقيام بالأعمال القبيحة، فهي النافذة التي ينفذ منها الشيطان إلى عقل الإنسان وقلبه، والتأثير فيه وغوايته.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

أي أن الشيطان إنما قدر عليهم وتمكن منهم وازلهم بسبب ما كسبت نفوسهم من المعاصي والذنوب والآثام التي كانوا قد اقترفوها من قبل، حيث أضعفت طاقتهم الإيمانية، وزلزلت استقرارهم الروحي، فحرموا من التأييد الرباني، وأصابهم الخوف والجزع وكرهوا القتال، فأغراهم الشيطان بالفرار من الزحف والاعراض عن مسؤولية المعركة، مزينا لهم ذلك بأن فيه أمنهم وسلامتهم، كما أغرى الرماة قبلهم من خلال الحرص والطمع بالغنائم.

يقول العلامة السيد فضل الله: « فقد كسب هؤلاء من خلال أوضاعهم وعلاقاتهم بعض الخصائص في ما يتطلعون إليه من أهداف الحركة في الحياة، وما يعيشون فيه من اهتمامات، فقد عاشوا الاهتمام بتحصيل الغنائم كهدف من اهداف المعركة، كما استسلموا للحياة الدنيا في ما يستريحون إليه من حالات الضعف أمام مطالب الجسد ونوازع النفس الأمارة بالسوء، مما ادى إلى النتيجة الطبيعية المؤلمة في إعراضهم عن الوقوف أمام مسؤولياتهم في الدفاع عن المواقع المتقدمة في خط المعركة »[2].

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الانحرافات والمعاصي والذنوب التي تصدر من الإنسان بسبب

---

(١) آل عمران: ١٥٥.

(٢) من وحي القرآن.ج٦.ص٣٢٧.

اتباع الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، ووساوس الشيطان، لها تأثيراتها في النفس - شأنها في ذلك شأن الطاعات - فهي تجر إلى انحرافات ومعاصي وآثام جديدة، وذلك بسبب الأرضية الروحية غير المستقرة الحاصلة في النفس البشرية نتيجة للذنوب السابقة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب صقل منها، فإن عاد زادت حتى تعظم قلبه »[1].

ويقول العلامة السيد قطب: «... تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة، وهي بعيدة عن الحمى الآمن، والركن الركين »[2].

ولا سبيل إلى تحقيق الانتصار على النفس الأمارة بالسوء وعلى الشيطان الرجيم والخروج من مأزق الذنوب، إلا بمضاعفة الجهود في تربية النفس وتطهيرها بالتوبة والاستغفار، الأمر الذي يقود الإنسان إلى الله ذي الجلال والإكرام، ويقوي صلته به، ويزيل عن قلبه الصدء الذي يحجبه عنه، ويسد الثغرات التي ينفذ منها الشيطان الرجيم إلى قلبه، ليزل أقدامه عن الصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة، الذي هو نهج الأنبياء والأوصياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

النتيجة (٢): أن المعصية تنطلق من حالة فكرية وأخلاقية موجودة في نفس الإنسان وليست مجرد حالة طارئة لا علاقة لها بتكوينه الفكري والروحي والأخلاقي، مما

---

(١) كنز العمال. ج٤. الحديث: ١٠٢٨٨.

(٢) الظلال. ج١. ص٤٩٧.

يتطلب من أجل إصلاحه النفوذ إلى داخل نفسه لمعالجة الأفكار والمفاهيم التي يحملها والحالة الروحية والأخلاقية التي هو عليها، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند حدود السلوك والأفعال الظاهرية والخارجية.

لا سُلطة للشيطان على المؤمنين

ليس للشيطان سلطان ولا قوة على نفوس الصالحين وأرواحهم، فهم في صيانة الله عز وجل حيث يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه وتسويله بسبب إيمانهم وإخلاصهم وتوكلهم على الله العزيز الجبار، فضلا عن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام فهم معصومون من ذلك بعصمة الله عز وجل لهم، وأن إبليس أذل وأحقر من أن يدنو منهم، فضلا عن تسلطه عليهم.

وتتوقف حدود سلطة إبليس عند الذين يتبعونه من الغاوين ضعاف النفوس والإيمان، الذين يشبهونه في سنخة الفساد واتباع النفس الأمارة بالسوء، ويعبدون الدرهم والدينار ويبحثون عنهما بالحلال والحرام، ويبيعون الدين والعباد في سبيل الوجاهة والزعامة والسلطة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[2].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[3].

---

(١) الحجر: ٤٢.

(٢) النحل: ٩٩ – ١٠٠.

(٣) الإسراء: ٦٥.

فالناس صنفان:

- صنف مؤمن بالله عز وجل، صادق في إيمانه، ولديه الوعي بسنن الكون والحياة، ومتوكل على الله عز وجل في كل ما يأتي ويذر، ويتحرك وفق إرادته في الحياة، فهو مستقل عن تأثير الأهواء والشهوات والتعصبات الجاهلية والأغراض الحيوانية، ويستمد من الله عز وجل القوة والعون على الشيطان، والخلاص من وسوسته وإغوائه في إدراك الحقيقة، وصفاء العقيدة، وإخلاص النية، وصدق المواقف كلها، فإن الله عز وجل يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه له ويجردها عمن سواه، فإذا مسه طائف من الشيطان تذكر ربه وما حمله من أمانة التكليف وما هو منتهي إليه من الحساب والثواب والعقاب، فإذا هو مبصر بحقائق الأمور وعواقبها، قوي القلب، ثابت القدم في طريق الإيمان والطاعة، فلا سلطة للشيطان عليه ولا قوة له به، وسوسته لا تؤثر فيه، ودعوته غير مستجابة عنده، لأنه في حصن الله الحصين ورعايته، يصونه ويحميه من الضلال والغواية والضياع، ويبطل عنه كيد الشيطان بنور العقل وهدي الإيمان وتثبيت الملائكة المقدسين له.

والخلاصة: متى اتصل العبد بالله ذي الجلال والإكرام، وأخلص له في الطاعة والعبادة، وأشرقت روحه بنور الإيمان وهديه، فلا سلطان حينئذ للشيطان عليه.

يقول العلامة السيد فضل الله: « من ملك نفسه ملك شهوته، ومن ملك شهوته فلا مجال لأي سلطان للشيطان عليه، لأن الشيطان لا يأتي الإنسان إلا من خلال نقاط الضعف التي تفتحها شهواته ونوازعه »[١].

- صنف غير مؤمن بالله والآخرة، أو هو غافل عن ذكر الله عز وجل، فلم

---

(١) من وحي القرآن. ج١٣. ص١٦٢.

يخلص الإيمان بربه وبمصيره بعد الموت، ولم يضيئ قلبه بنور الإيمان وهديه، فهو خاضع لشهواته ونزواته وماديته، ويعيش أجواء اللامبالاة في خط العقيدة والمسؤولية والعمل، وعينه على الدنيا وزينتها وزخارفها، فيظلم بذلك قلبه وتعمى بصيرته، ويكون فريسة سهلة للشيطان الرجيم، يستولي عليه من خلال الهوى والنفس الأمارة بالسوء وتنازله عن قوة الفكر والإرادة والكرامة لديه، فيحول حياته كلها إلى ساحة مفتوحة لصولاته وجولاته، فيغريه بالمال والشهوات والوجاهة والزعامة والسلطة وغيرها من زخارف الحياة الدنيا وزينتها، بما يثير فيه من قيم زائفة، واخلاق فاسدة، ومناهج منحرفة، ليلغي كرامته الإنسانية التي فضله الله عز وجل عليه بها، وليكون في الآخرة من شركائه في نار جهنم وبئس المصير والورد المورود.

والخلاصة: أن الإنسان حر في إرادته، وأن سلطة إبليس وجنوده ضاغطة ولكنها ليست إجبارية، فهم:

- لا يملكون قوة قاهرة تلغي إرادة الإنسان وتجبره على السير في طريق الضلال والغواية بأي حال من الأحوال.

- لا يقدرون على التأثير في الإنسان مالم يمهد لهم الطريق ويأذن لهم بالمرور إلى عرش وجوده القلب.

فإبليس يدعو الإنسان عن طريق الإغفال والتزيين بدون حجة وبرهان صحيحين إلى الضلال والغواية والأوهام والأحلام الكاذبة، والإنسان يلبي دعوته بإرادته واختياره تحت تأثير ضعف النفس وأتباع الهوى والغفلة عن الله عز وجل والآخرة، ويفتح له أبواب قلبه، ويأذن له بالدخول إليه، وفرض السيطرة عليه والأخذ بزمام تدبيره.

فالإنسان وحده الذي يتحمل المسؤولية عن ضلاله وغوايته ويحاسب على

ذلك يوم القيامة ويعاقب بما يستحق من صنوف العقاب.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

مسّ الشيطان

وقد تحدث القرآن الكريم عن مس الشيطان للإنسان كأن يصيبه بالأذى والغفلة والنسيان، قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾[2] وأنه يصيب الأنبياء بأشكال الأذى في أجسادهم كما يصيب سائر الناس، إلا أنه لا يستطيع أن يصيب عقولهم وقلوبهم ونفوسهم.

فقد مضت قرون عديدة والناس تضرب الأمثال بنبي الله أيوب عليه السلام في الإصابة بمختلف الشدائد والأتعاب والمصائب في نفسه وأهله وماله، حيث ابتلاه الله عز وجل بذهاب المال والأهل والصحة جميعا، فصبر وظل على صلته بربه، ورضاه بما قسم له، فكان أنموذجا في صدق الإيمان والصبر والاستقامة، ليعطى للإنسان المؤمن درسا في مقاومة مشاكل الحياة وتحدياتها وصعوباتها، وعدم اليأس من رحمة الله عز وجل.

وقصة ابتلائه وصبره ذائعة ومشهورة، وقد نسب ما أصابه للشيطان.

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) الكهف: ٦٣.

قول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[1].

كما يقوم الشيطان بتخريب بعض نتائج أعمال الأنبياء عليهم السلام في الترويج للدين الحنيف.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وذلك من خلال:

وضع العراقيل والعقبات في طريق الأنبياء وإعاقة عملهم البناء في إقامة حضارة إنسانية راقية ومتوازنة على ضوء المنهج الإلهي العظيم مما يحفظ عزة الإنسان وكرامته ويؤدي إلى راحته وسعادته، وذلك بواسطة جنوده من شياطين الإنس أرباب الأطماع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذين يبحثون عن الوجاهة والزعامة والسلطة وجمع الثروة بكل وسيلة ومن كل باب.

- تزيين الكفر والضلال والفسوق والعصيان والتعصب للعرق والجنس والعادات والتقاليد والأعراف الجاهلية في نفوس الناس من أجل إقصاء التعاليم الإلهية ومنع تحقيق برامج الأنبياء عليهم السلام لأهدافها التي تنتهي بفوز الإنسان وسعادته، وذلك من خلال تمويه الحقائق وإلقاء الشبهات وتضييع القيم الإنسانية السامية ونشر الأكاذيب بكل وسيلة من وسائل الدعاية والنشر.

ليكون ذلك كله: فتنة للذين في قلوبهم مرض من كبر ونفاق وحسد وغيره واللذين تحجرت عقولهم وقلوبهم بالجهل والتخلف والمشاعر السلبية.

---

(١) ص: ٤١.

(٢) الحج: ٥٢.

الاستعاذة من الشيطان

الإنسان المؤمن عرضة للبلاء والزلل والخطأ، حيث أن وساوس الشيطان الرجيم تدور حول قلب الإنسان تبحث عن منفذ لتنفذ إليه منه، مثل الجرائيم الضارة التي تبحث عن البنية الضعيفة لتنفذ منها للفتك بجسم الإنسان.

والإنسان المؤمن ليس في عصمة تامة من ذلك، خاصة في:

- مرحلة الشباب حينما تكثر الإغراءات في البيئة والمحيط.

- وحينما يكون الإنسان تحت ضغوط الوجاهة والزعامة والسلطة والثروة ونحوها.

فيقع تحت تأثير الهوى والانفعال وعوامل الضعف في المنعطفات الصعبة في الحياة العامة أو الخاصة، فينهزم العقل والدين، وتكون النتيجة:

- الابتعاد عن التفكير العاقل السليم وتبنى أفكارا مغلوطة.

- أن يسلك سلوكا غير صحيح أو يتخذ مواقف خطيرة خاطئة.

- أو غير ذلك من الاختيارات السيئة في الحياة، التي من شأنها أن تحيد به عن طريق السعادة وعن كسب رضا الرب الجليل.

وفي سبيل مواجهة ذلك يجب:

- أن يحتاط إلى نفسه ولا يزكيها بالغا ما بلغ من الإيمان والعلم والعمل.

- أن يحذر من نسبة ما ينبعث من نفسه والثأر لذاته على أنه من الدين الحنيف والثأر لله وكرامة الرسالة.

- أن يتوجه إلى الله عز وجل بصدق وإخلاص ويستعيذ به جل جلاله لكي يحميه مما يَحوطه به الشيطان من وهم أو خيال أو وسوسة أو بلاء أو إغراء أو

استفزاز أو ضيق أو غيره، ويبعث فيه السكينة الروحية فتزول عنه الغشاوة الشيطانية، وتعود لديه الرؤية الصادقة بكل وضوح وجلاء، فيبصر درب الحق والخير والصلاح ويلتزم به من جديد.

– أن يبقى على صلة دائمة بالله عز وجل، قول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[1] وأن يتذكر دائما ما أعده الله جل جلاله للمتقين الأبرار، وما أعده للعصاة الفجار، فإذا كان هذا حاله، فإن وساوس الشيطان لا تدخله، ويكون في حصن الله الحصين وتحت عينه التي لا تنام وفي كنف رحمته الواسعة بعباده المؤمنين.

والخلاصة: أن مس الشيطان يعمي القلب ويطمس البصيرة، وأن تقوى الله عز وجل ومراقبته ترفع حجاب الغفلة عن القلب، وتكشف الغشاوة عن البصيرة، وتمنح الإنسان القدرة على معرفة الحقائق والواقعيات، وتهديه إلى الصراط المستقيم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[3].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « إذا وسوس الشيطان إلى أحدكم فليستذكر بالله وليقل: آمنت بالله مخلصا له الدين »[4].

---

(١) الكهف: ٢٤.

(٢) فصلت: ٣٦.

(٣) الأعراف: ٢٠٠ – ٢٠١.

(٤) نور الثقلين. ج٤. ص١٥٥١.

البَابُ الخَامِسُ

« مرحلة حضانة آدم وحوّاء في الجنّة »

تكرّر ذكر سكن آدم وحواء عليهما السلام في الجنة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

قول الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[3].

---

(١) البقرة: ٣٥- ٣٦.

(٢) الأعراف: ١٩- ٢٢.

(٣) طه: ١١٦ - ١٢٢.

بيان المفردات

أسكن رغدا: سكن: قر وثبت وأطمان وهدأ بعد الحركة، والسكنى: اللبث والإقامة والاستقرار، وسكن إليه: ارتاح وأطمأن إليه، وسكن الدار: أقام فيها، والمسكن: المأوى ومكان السكنى، والجمع: مساكن، والسكن: كل ما تطمئن النفس وترتاح إليه، والسكينة: الطمأنينة التي تسكن إليها القلوب، ورغدا: الرزق الكثير الواسع والعيش الطيب الهنيء الذي لا منع فيه ولا عناء ولا تعب، وأرغد القوم: أخصبوا وصاروا في سعة من العيش الهنيء الواسع، وأرغدوا مواشيهم: تركوها ترعى كيف شاءت.. والمراد: أقم في الجنة بهدوء واطمئنان وسعة من العيش لا منع فيه ولا عناء ولا تعب.

ولا تقربا هذه الشجرة: القرب: الدنو والمباشرة، ولا تقرب: للتشديد في النهي، والقريب: الداني في المكان والزمان، وقارب زوجته: جامعها، والقربان: ما يذبح قربة لله تعالى، والقربة: النسب وكل ما يتقرب به العباد إلى الله سبحانه وتعالى من أعمال البر والخير والطاعة، والجمع: قربات، وذوي القربة: الأقارب، والشجرة: كل ما قام على ساق من نبات الأرض، والجمع: أشجار.. والمراد: لا تأكلا من الشجرة المشار إليها، وقد علق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول، وذلك:

- مبالغة في النهي والتأكيد على الاجتناب.

- لأن القرب من الشيء المنهي عنه يورث توقان النفس وميلها إليه، ويلهي عما هو مقتضى العقل والشرع.

أزلهما الشيطان: زل: زلق وسقط في الطين أو المنطق، وأزله عن الحق والصواب: زحزحه ونحاه عنه، وأزله الشيطان: حمله على الزلل، واستزله: أوقعه في الزلل والخطأ.. والمراد: أوقعهما الشيطان بوسوسته وغروره في المخالفة وأبعدهما عن الله ذي الجلال والإكرام وعن الحق والصواب وعن النعيم والجنة التي كانا فيها.

فوسوس لهما الشيطان: الوسوسة هي الدعاء إلى أمر بصوت خفي وما تحدث به النفس وما يخطر بالقلب من خواطر السوء، ووسوس لهما: ألقى إليهما الوسوسة.. والمراد: أوهمهما الشيطان النصيحة وحدثهما بما لا نفع فيه ولا خير.

ما وري عنهما: ورى الشيء وأوراه: أخفاه وجعله وراءه وستره، وتوارى: استتر واختفى.. والمراد: ما ستر وأُخفي وغطي عنهما.

سوءاتهما: ساء الشيء: قبح، وساءه الشيء: أحزنه، وأساء: أتى بالسيئة، والسيئة: نقيض الحسنة، والسوءة: العضو الذي يسوء الإنسان إظهاره والكشف عنه وكل ما يسيء منظره إذا انكشف، والجمع: سوءات.. والمراد: عوراتهما.

ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين: نهى: زجر، وانتهى عن الشيء: كف عنه، والنهي: طلب الامتناع عن الشيء، ونهى الله: حرم، وتناهي الشيء: بلغ نهايته، والمنتهى: الغاية النهائية، والنهى: العقول لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وخلد: دام واطمأن فهو خالد، والجمع: خالدون، وخلد بالمكان: أطال البقاء فيه، والخلود: البقاء والدوام، وأخلد: أسن ولم يشب، وأخلد إليه: ركن إليه واطمأن، وأخلده: جعله يخلد.. والمراد: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وقاسمهما إني لكما من الناصحين: القسم: الحلف واليمين، وأقسم بالله: حلف به، والمقاسمة: المبالغة في القسم، وتقاسموا: تحالفوا وأخذ كل واحد نصيبه، واستسقم: طلب القسم، والاستسقام: الاقتراع بالأزلام، وهي أقداح كانوا يكتبون فيها إفعل ولا تفعل، والنصح: إخلاص المشورة والإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح، والناصح: الخالص والصادق وكل من يقدم النصح، والجمع: نصحاء وناصحون، وإنسان ناصح: نقي القلب والسريرة، والتوبة النصوح: التوبة الصادقة الخالصة لله سبحانه وتعالى، وانتصح: قبل النصح، وتنصح: تشبه بالنصحاء، واستنصحه: عده نصيحا.. والمراد: أقسم لهما الشيطان وأغلظ لهما في

القسم أنه من المخلصين لهما في المشورة والساعين لإرشادهما لما فيه خيرهما وصلاحهما.

فدلاهما بغرور: دلى: أنزل الشيء إلى أسفل شيئا فشيئا، وأدلى دلوه: أرسلها في البئر وأعطى رأيه، وادلى بحجته: أحضرها واستدل بها، وأدلى حاجته: طلبها، وأدلى بقرابته: توسل بهم، ودلاه: عامله برفق وداراه، والدلو: الوعاء الذي يُخرج به الماء من البئر، والجمع: دلاء، والدالية: الأرض التي تسقى بالدلو، والجمع: دوال، ودلاه بغرور: أوقعه فيما أراد من تغرير، والغُرور: الخديعة والباطل وإظهار النصح مع إبطان الغش، والغرارة: الغفلة وحداثة السن، والغر: الشاب الذي لا خبرة له، والجمع: أغرار، وغره: خدعه وأطمعه في الباطل، والمغرور: المخدوع، والغرور (بالفتح): المبالغة في إيقاع الخديعة وكل ما يسبب الخديعة من ثروة أو جاه أو سلطان أو شيطان أو غيره.. والمراد: حطهما وأنزلهما عن رتبة الطاعة والعبودية لله عز وجل إلى رتبة سافلة وهي المعصية بواسطة الخداع.

طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة: طفق: ابتدأ وأخذ وشرع واستمر في فعله، وخصف النعل: خرزها بالمخصف وألصق عليها مثلها، والخصفة: القطعة مما يخصف به النعل والقفة التي تعمل من الخوص للتمر ونحوه، والخصيف: النعل المخصوفة، والورق: الحي من كل حيوان، والورقة: عضو من النبات ينمو على أغصان الشجر وله دور كبير في غذاء النبات وله أشكال متعددة وما يكتب عليها أو يطبع، والورق: المال والفضة، والجمع: أوراق، وأورق الشجر: خرج ورقه، وشجرة وريقة: كثيرة الورق، والوارقة: الشجرة الخضراء الحسنة، والجنة: البستان الذي يستر الأرض بأشجاره، والجمع: جنات.. والمراد: أخذا يضعان عليهما من ورق الجنة ويلزقان ورقة فوق ورقة ليسترا به عورتهما.

وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة: النداء: الدعاء عن بعد، وناداه: دعاه بصوت مرتفع، وتنادى القوم: نادى بعضهم بعضا، ويوم التناد: يوم القيامة حيث

نداء الكفار بعضهم بعضا للاستغاثة ونداء أهل الجنة أهل النار ونداء كل أمة بإمامها.. والمراد: نداء عتاب على مخالفة النهي وإن كان نهي تنزيه، وفيه دلالة على أنهما في مقام البعد عن ربهما وعن الشجرة عند توجيه الخطاب.

عهدنا إلى آدم: العهد: العلم والوصية والميثاق واليمين والوفاء والأمان والمودة، وعهد الله: وصاياه وتكاليفه، وعاهدوا: أعطوا المواثيق المؤكدة، وعهد إليه: أوصاه، وعهد الأمر: عرفه، وعاهد الله: ألزم نفسه بأمر يفي به، وآدم: هو أبو البشر خلقه الله سبحانه وتعالى من صلصال من حمأ مسنون (طين أسود نتن) ونفخ فيه من روحه فأحياه وأودعه سرا من أسراره وجعله وذريته خلفاؤه في الأرض.. والمراد: أوحينا إلى آدم عليه السلام وأمرناه بالكف عن الأكل من الشجرة.

لا تعرى: العراء: الفضاء الذي لا يستر فيه بشيء، وتعرى: خلع ثيابه وتجرد منها فهو عار وعريان وهي عارية وعريانة، والجمع عراة وعاريات، والأعراء: الذين لا يهمهم ما يهم غيرهم.. والمراد: أن الله سبحانه وتعالى تعهد لآدم عليه السلام بأن لا يصيبه في الجنة عري عن الملابس.

لا تضحى: ضحا: برز للشمس وأصابته الشمس بضوئها وحرارتها، والضحى: وقت ارتفاع الشمس وإشراقها ووقت الحر اللافح والحركة والنشاط في النهار، وأضحى: صار في الضحى وأصابته حرارة الشمس.. والمراد: أن الله سبحانه وتعالى تعهد لآدم عليه السلام بأن لا يصيبه في الجنة حر الشمس، قيل: لأنه لا شمس في الجنة، والحق: لأن له فيها منازل وظل تقيه حر الشمس.

وملك لا يبلى: ملك الشيء: حازه واستحوذ عليه وانفرد بالتصرف فيه فهو مالك، والجمع: مُلاك، والملك: السلطان، والجمع: ملوك، والمملوك: العبد والرقيق، وذو الملك: صاحب السلطة والأمر، والملك: اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: مالك الملوك وصاحب السلطة المطلقة والمالك المطلق للوجود بأسره، ويبلى: يصيبه الفساد والتلف.. والمراد: ملك لا يزول ولا يفنى ولا ينقطع.

غوى: ضل عن مطلوبه وأصيب بالخيبة.

اجتباه: اصطفاه للنبوة والقرب.

لا يضل: لا يضيع ولا يهلك ولا يفشل في مبتغاه.

لا يشقى: لا تصيبه الشدة والعسر وسوء العاقبة.

أعرض عن ذكري: صد عن ذكري وجانبه.

معيشة ضنكا: معيشة ضيقة وشديدة العسر ومتعبة.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتناول الآيات الشريفة المباركة موضوع سكن أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام في الجنة قبل نزولهما إلى الأرض.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « والقصة... تمثل حال الإنسان بحسب طبعه الأرضي المادي فقد خلقه الله سبحانه في أحسن تقويم وغمره في نعمه التي لا تحصى وأسكنه جنة الاعتدال ومنعه عن تعديه بالخروج إلى جانب الإسراف باتباع الهوى والتعلق بسراب الدنيا ونسيان جانب الرب تعالى بترك عهده إليه وعصيانه واتباع وسوسة الشيطان الذي يزين له الدنيا ويصور له ويخيل إليه أنه لو تعلق بها ونسي ربه أكتسب بذلك سلطانا على الأسباب الكونية يستخدمها ويستذل بها كل ما يتمناه من لذائذ الحياة وأنها باقية له وهو باق لها، حتى إذا تعلق بها ونسي مقام ربه ظهرت له سوآت الحياة ولاحت له مساوىء الشقاء بنزول النوازل وخيانة الدهر ونكول الأسباب وتولي الشيطان عنه فطفق يخصف عليه من ظواهر النعم يستدرك بموجود نعمة مفقود أخرى ويميل من عذاب إلى ما هو أشد منه ويعالج الداء المؤلم بآخر أكثر منه ألما حتى يؤمر بالخروج من جنة النعمة

والكرامة إلى مهبط الشقاء والخيبة »[1].

نقاط أساسية تتضمنها الآيات الشريفة المباركة

وتتضمن الآيات الشريفة نقاط عديدة، منها:

النقطة (١): أن الله جل جلاله قد وفر لآدم وحواء عليهما السلام في الجنة التي أمرا بالسكن فيها عيشا هنيئا واسعا، من خلال توفير كل ما يحتاجانه من مستلزمات العيش الكريم، مثل: الأكل والشرب والملبس والمسكن وغيرها، وآمنهما فيها من الآفات والمكاره والصعوبات والصدمات.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « ثم أسكن آدم دارا أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلته »[2].

النقطة (٢): أن الله عز وجل قد أطلق لهما الأكل من جميع أشجار الجنة وثمارها وجميع مأكولاتها في أي مكان منها وفي أي زمان أرادا، على وجه التوسعة البالغة المريحة لهما في العيش، لكي لا يبقى لهما عذر في الأكل من شجرة واحدة مخصوصة استثناها من بين أشجار الجنة التي لا حصر لها، ونهاهما عن الأكل منها كشرط لبقائهما في الجنة، وهذان هما أول أمر ونهي إلاهي صدر لآدم وحواء عليهما السلام وقد بين لهما مع النهي حقيقة المخالفة وعواقبها.

وهكذا دائما: يوسع الله جل جلاله على عباده في الحلال، ويحرم عليهم القليل الضار، ويبين لهم، ليختبرهم.

يقول العلامة السيد قطب: « ربما كانت ترمز (أي الشجرة المنهي عنها)

---

(١) الميزان. ج١٤. ص٢١٨ - ٢١٩،

(٢) النهج. الخطبة: ١.

للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض، فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشروط. فالإرادة هي مفرق الطرق. والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمية، ولو بدوا في شكل الآدميين »[1].

النقطة (٣): أن إبليس (عليه اللعنة) قد زين لهما الأكل من الشجرة، حيث أقسم لهما بأنه لهما من الناصحين، وخدعهما بقوله: أن الله عز وجل قد نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين حيث الصورة الناصعة للملائكة، ولكي لا تكونا من الخالدين، والخلود هو عقدة العقد لدى الإنسان، فعمل على أن يثير في داخلهما الأفكار الوهمية التي تجعل من هذه الشجرة قضية مهمة ذات أبعاد كبيرة في حياتهما، فأطاعاه وسارا وراء الأوهام ووقعا في المخالفة بإرادتهما واختيارهما، فقد نسيا بسبب الأوهام - كما هو دائما - عهدهما وضعفا أمام إغراء عدوهما إبليس (عليه اللعنة) وغوايته، لأن الإنسان إذا استغرق في مشاعره وطموحاته الذاتية واستسلم لأحلامه الخيالية وأوهامه، فإنه:

- ينسي الواقع والحقيقة.
- وينسي موقعه ومكانته.
- وينسي عواقب الأمور ومنتهاها.
- وينهار حاجز التقوى لديه، ويمهد الطريق إلى المعصية والسقوط إلى الهاوية.

وكانت نتيجة مخالفة آدم وحواء عليهما السلام لنهي الله عز وجل وأكلهما من الشجرة المحرمة:

---

(١) الظلال. ج١. ص٥٨.

- إنزالهما من مقامهما الرفيع وحط منزلتهما.

- الابتعاد عن مقام القرب والكرامة في الجنة.

- الخروج من جنة الأمن والطمأنينة، ونزولهما إلى دوامة الحياة المادية المضنية في الأرض وشقائها، لكي يعيشا فيها وذريتهما إلى الوقت المعلوم، ثم تنتهي الحياة على الأرض، وتبدأ الحياة الآخرة، حيث الحساب والثواب والعقاب.

النقطة (٤): لقد وصف الله عز وجل المخالفة والأكل من الشجرة المحرمة بالظلم، أي للنفس، حيث نتج عن المخالفة والأكل من الشجرة الخروج من المكان العظيم، وهو الجنة التي كانا فيها، وما فيها من الراحة والهدوء والطمأنينة والفرح الروحي المنفتح على لذات الجنة وجمالاتها والنعيم والكرامة والعيش الرغيد فيها، والبعد عن الألم والعذابات ومكابدة الأمراض والتعب والعناء والموت.

وقد استبدل لفظ الظلم في سورة طه بالشقاء وهو التعب.

فيكون المراد من الظلم هو تعب الحياة الدنيا وما يصيب الإنسان فيها من جوع وعطش وعراء وعناء، وليس هو المعصية بمعناها الشرعي.

والظلم ضد الإنصاف، وأصله انتقاص الحق أو وضع الشيء في غير موضعه الصحيح. ويقال لصاحب الذنوب ظالم لنفسه، ويقال عن أحد الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ظالم لنفسه إذا بخسها الثواب كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل " ظلمت نفسي " وقول الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] حكاية عن يونس عليه السلام حيث بخس نفسه الثواب بترك المندوب إليه.

---

(١) الأنبياء: ٨٧.

مجموعة حقائق تشير إليها الآيات

ونستفيد من الآيات الشريفة المباركة مجموعة حقائق أساسية، منها:

الحقيقة (١): أن آدم وحواء عليهما السلام إنما خلقا ليسكنا وذريتهما في الأرض ويمتحنوا بالتكليف الإلهي: الأمر والنهي المولوي، فيستحقوا السعادة وجنة الخلد بالإيمان والطاعة، والشقاء والخلود في النار بالكفر والمعصية، ولم يخلقا ليسكنا في الجنة على وجه الخلود.

فحياتهما في الجنة كانت كحضانة مؤقتة من أجل تمريرهما بدورة تأهيلية لحياة التكليف والابتلاء على الأرض، يتعرفا من خلالها المعالم الرئيسية والخطوط العريضة لطبيعة الحياة والصراع على الأرض مع إبليس وجنوده الغاوين من الجن والإنس، وما ينتج عنه من السعادة والاطمئنان أو التعاسة والشقاء.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « أن آدم عليه السلام كان له في السماء خليل من الملائكة، فلما هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش الملك وشكى إلى الله تعالى وسأله أن يأذن له، فأذن له فهبط عليه فوجده قاعدا في قفرة من الأرض (قطعة من الأرض لا نبات فيها ولا ماء) فلما رآه آدم وضع يده على رأسه وصاح صيحة،... فقال له الملك: يا آدم ما أرك إلا وقد عصيت ربك وحملت على نفسك ما لا تطيق، أتدري ما قال لنا الله فيك فرددنا عليه؟

قال: لا.

قال: قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1].

قلنا ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[2] فهو خلقك أن تكون في

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٠،

الأرض أيستقيم أن تكون في السماء؟

قال الإمام الصادق عليه السلام: « والله عزى بها آدم ثلثا »[1].

الحقيقة (٢): عن ماهية الجنة التي سكن فيها آدم وحواء عليهما السلام بعد أن خلقهما الله جل جلاله وأمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام فيها أقوال:

القول (١): المشهور لدى المعتزلة ويراه بعض المفسرين الشيعة أنها جنة الخلد، وقد تم الرد على هذا القول:

- أن جنة الخلد تعبر عن نهاية تدل على التكامل الروحي والمعنوي ولا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، فكل من يدخلها لا يخرج منها، وقد صرحت بذلك الكثير من الروايات.

- أن دخولها محرم على إبليس البتة.

يقول العلامة الشيخ مكارم الشيرازي: « توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنة هي غير جنة الخلد الموعودة، لأن جنة آدم بداية مسيرة الإنسان وجنة الخلد نهايتها، وهذه (أي جنة آدم) مقدمة لأعمال الإنسان ومراحل حياته، وتلك نتيجة أعمال الإنسان ومسيرته »[2].

ويقول ميرزا الخوئي: « أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف لأنه لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل، ولأنه تعالى لا يهمل عباده بل لابد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد »[3].

القول (٢): وهو المشهور لدى عامة المفسرين من مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة

---

(١) تفسير العياشي.

(٢) الأمثل. ج١. ص١٤٧.

(٣) منهاج البراعة. ج٢. ص٨٧.

الخلفاء، بأنها من جنان الأرض فيها كل شيء مما في بساتينها، ويرى بعضهم أنها كانت في العراق وبالخصوص الكوفة، وقد أخذ عليه السلام معه من أشجار تلك الجنة أغراسا ومن حبوبها بذورا وقام - بتعليم الله إياه - بخرس تلك الأشجار وزراعة تلك البذور في مكان سكانه الجديد، وذهب إلى هذا الرأي صاحب كتاب (القاموس المقدس - مادة: عدن) وتؤيد هذا الرأي بعض النصوص، وقال أصحاب هذا الرأي:

- أن الله جل جلاله خلق آدم عليه السلام في الأرض، وأمر الملائكة بالسجود له فيها، ولا دليل على أنه نقله منها إلى مكان آخر بعد خلقه وأمر الملائكة بالسجود له فيها.

- وأما الإهباط في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فيعني الانتقال من بقعة إلى بقعة، على غرار قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[1] وأنه قد سكن بابل / الكوفة بعد الخروج من الجنة، وقد أيبس الله سبحانه وتعالى جنة آدم عليه السلام بعد خروجه منها، وازالها من الوجود. وقيل: لما توفي دفنه ابنه شيت في مغارة في جبل قبيس في مكة المكرمة، ثم حمل نوح عليه السلام جثمانه الشريف في سفينته، ودفنه بعد نزوله من السفينة في النجف الأشرف في المكان الذي دفن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتدل بعض الروايات في مدرسة أهل البيت عليهم السلام أنه مدفون في الغري وهو نفس المكان الذي دفن فيه أمير المؤمنين عليه السلام وأن نوحا عليه السلام مدفون في نفس المكان. أما في روايات مدرسة الخلفاء، فإن آدم عليه السلام مدفون في بيت المقدس.

القول (٢): أنها من في إحدى الكواكب السماوية.

ملاحظة مهمة: الذين قالوا بهذا الرأي - ومنهم صاحب الميزان العلامة السيد

---

(١) البقرة: ٦١.

الطباطبائي - يعتقدون ضمنا - حيث لم يصرح أحد منهم بذلك - بوجود أجرام سماوية تصلح لحياة الإنسان فيها وتتوفر فيها مقومات العيش من نبات وحيوانات ومواد وغيرها بدليل:

قول الله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[2].

وأن نزول آدم وحواء عليهما السلام منها يدل عمليا على إمكانية الوصول إليها.

وهذا القول يدخل من الناحية العقلية في دائرة الاحتمال، ويأتي في ترتيب الأقوال / الفرضيات - بحسب فهمي - في الدرجة الثانية بعد القول بأنها جنة أرضية، ومن طموح الإنسانية اليوم وراء استكشاف الفضاء وغزوه، معرفة هذه الأجرام والوصول إليها والسيطرة عليها وسكنها وتوظيفها للأغراض الإنسانية، وهو سلوك معقول من الناحية الدينية والعقلية والعلمية، وهو يختلف عن فرضية وجود حياة راقية في كواكب أخرى على غرار حياة الإنسان في الأرض، الذي قبله بعض المفسرين، وقد استدل بعضهم على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[3] وهو فرض لا أرى صحته لأسباب سوف أبينها في مستقبل البحث إن شاء الله تعالى.

القول (٤): أنها جنة برزخية ممثلة في عيشة غير دنيوية.

الحقيقة (٣): أن المسؤولية مشتركة بين آدم وحواء عليهما السلام في طاعة إبليس والأكل من الشجرة المحرمة، وليس كما جاء في التوراة وذهب إليه بعض المفسرين من تحميل

---

(١) البقرة: ٣٥.

(٢) طه: ١١٨- ١١٩.

(٣) الشورى: ٢٩.

حواء عليها السلام مسؤولية إغراء آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة المحرمة، وأنها كانت وسيلة الشيطان لإقناع آدم عليه السلام للإيحاء بدور المرأة الإغرائي الذي يستخدمه الشيطان الرجيم للإيقاع بالرجل وإغوائه، فتكون النتيجة: المرأة شر كلها.

يقول العلامة السيد فضل الله: «... القرآن لا يحمل المرأة المسؤولية عن سقوط آدم أمام التجربة، بل يحمل المسؤولية للرجل والمرأة على حد سواء، للإيحاء العميق بأن للرجل خياره في الطاعة أو المعصية، كما للمرأة خيارها، لأن الله خلق لكل منهما عقلا يدرك الحسن والقبح، وإرادة تملك الصلابة في الموقف، فهما يقفان على قدم المساواة في خط المسؤولية »[1].

الحقيقة (٤): لم يكن آدم وحواء عليهما السلام مكلفين في الجنة، وعليه: فإن الأمر المتوجه إليهما بعدم الأكل من الشجرة، لم يكن أمرا مولويا تشريعيا، وإنما هو أمرا إرشاديا توجيهيا يرشد إلى ما فيه خير المكلف وصلاحه في مقام النصح والإرشاد، لا في مقام التكليف والقانون الإلزامي.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « ولولا أن التكليف إرشادي ليس له إلا التبعية التكوينية دون التشريعية لإستلزم قبول التوبة رجوعهما إلى ماكانا فيه من مقام القرب»[2].

والخلاصة: لا يمثل أكل آدم وحواء عليهما السلام من الشجرة المنهي عنها معصية بمعناها الشرعي.

الحقيقة (٥): أن المراد بالسوءة هي العورة، وكانت قبل الأكل من الشجرة محجوبة بلباس الجنة، فلما أكل آدم وحواء عليهما السلام من الشجرة المحرمة سقط عنهما لباس الجنة بسبب المعصية.

---

(١) من وحي القرآن. ج١٠. ص٦٣.

(٢) الميزان.ج١.ص١٣١.

ومن جهة ثانية: لم يظهر بين آدم وحواء عليهما السلام الميل الجنسي قبل الأكل من الشجرة، وظهر ذلك الميل بعد الأكل منها. والظاهر من الآيات الشريفة المباركة:

- أن إبليس كان يعلم بحقيقة الشجرة وأن من خصائصها إثارة الغريزة الجنسية ومع إثارتها لا يكون آدم وحواء عليهما السلام صالحين للبقاء في الجنة.

- أو أنه كان يعلم بأن من نتائج المخالفة بالأكل من الشجرة ظهور الآثار المذكورة ومع ظهورها لا يكون آدم وحواء عليهما السلام صالحين للبقاء في الجنة.

فهناك ثلاثة احتمالات لفهم الموضوع:

الاحتمال (١): أن الآثار هي نتيجة لتأثير عامل المخالفة.

الاحتمال (٢): أن الآثار هي نتيجة لتأثير عامل الثمرة التي أكلا منها من الشجرة.

الاحتمال (٣): أن الآثار هي نتيجة لتأثير العاملين معا: المخالفة والثمرة.

والأرجح - بحسب القرائن والجمع بين النصوص - هو الاحتمال الأول، وفيه تحذير شديد من النتائج الواقعية للمعاصي في النفس وعلى المصير في الدنيا والآخرة.

لأجل ذلك: احتال إبليس (عليه اللعنة) لإخراجهما من الجنة للعيش في الأرض ساحة الصراع والانتقام منهما ومن ذريتهما، فحلف لهما أنه لهما من الناصحين، وهو العدو اللدود، وحلف لهما إنهما إن أكلا من الشجرة يكونا من الخالدين، وهو يعلم علم اليقين: أن عاقبة الأكل من الشجرة هو الطرد من الجنة ومكابدة الشقاء وملاقاة الموت في الأرض، وكان أول من تجرأ على اليمين الكاذب، فالغاية لديه تبرر الوسيلة، فانخدعا به واستجابا له، لقلة خبرتهما بالأساليب الشيطانية الخبيثة الملتوية، فأكلا من الشجرة، فظهرت لكل واحد منهما عورته وعورة صاحبه، وكانت من قبل في حجاب، والتقى الشعور الجنسي لكل منهما

بالشعور الجنسي لدى الآخر، وأدركا من سوءاتهما ما لم يكونا يدركانه قبل الأكل، وخجلا في الحال بحسب الفطرة، وشعرا بالحاجة إلى ستر العورة، فلا يتكشف ولا يتعرى إلا كل من خرج عن ناموس الفطرة وشعاعها، فأخذا يجمعان من ورق الجنة ويلصقان ورقة فوق ورقة من أجل ستر عورتهما.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن آدم وحواء عليهما السلام لم يكونا صالحين للحياة على الأرض قبل الأكل من الشجرة، حيث لم ينقطع إدراكهما عن عالم الروح والملائكة.

النتيجة (٢): لم تبقى لآدم وحواء عليهما السلام القابلية للبقاء في الجنة بعد الأكل من الشجرة، فالشجرة بغض النظر عن حقيقتها: هي رمز إلى كل حرام أراد الله جل جلاله للإنسان أن يتركه، ومع الأكل منها اتصلا بالعالم المادي، فكان الخروج من الجنة أرض القداسة والطهارة أمرا طبيعيا وحتميا من الناحية الوجودية التكوينية، لعدم وجود القابلية للبقاء فيها بعد الأكل من الشجرة المحرمة، مثل عدم قابلية الطفل للبقاء في رحم الأم بعد إكمال شهره التاسع، فكانت حتمية النزول إلى الأرض.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « أخرجه لأنه خلق خلقة لا يبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والأكنان (جمع كن وهو ماكن من الحر والبرد) والنكاح ولا يدرك ما ينفعه وما يضره إلا بالأمر والنهي والتوفيق من الله »[(١)].

النتيجة (٣): أن طريق آدم وحواء عليهما السلام إلى الاستقرار في الأرض يمر بالمحطات

---

(١) البرهان. ج١. ص٨٠.

التالية وفق الحكمة الربانية في الخلق:

- تعريف الملائكة بفضل النوع الإنساني لإثبات خلافته لله عز وجل في الأرض.

- أمر الملائكة بالسجود له لإبراز محبتهم له ووقوفهم إلى جانب سعادته، وإبراز عداوة إبليس ووقوفه إلى جانب شقاء الإنسان وتعاسته.

- الحضانة في الجنة لفترة زمنية قصيرة لاكتساب الخبرة العملية لإقامة حضارة إنسانية راقية على ضوء المنهج الإلهي العظيم، وإدارة الصراع مع الشيطان عن وعي وبصيرة، بما يحقق أهداف وغاية الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض.

حقيقة الشجرة المحرمة

تجنب الكثير من علماء التفسير الخوض في البحث عن حقيقة الشجرة التي حرم الله جل جلاله على آدم وحواء عليهما السلام الأكل منها في الجنة، لأنها من الغيب الذي سكت القرآن عن بيانه، ولأن لا فائدة عملية ترتجى من هذا البحث - بحسب نظرهم - وقد ترددت كثيرا في الدخول في هذا البحث، فكتبت ومحوت، ثم كتبت ومحوت، ثم رأيت أن في القراء من يتطلع للمعرفة في هذا الموضوع، فقررت أن أدخل وأجمل وأذكر ما هو مفيد للقارىء الكريم وأقربه للذهن.

لقد ذكرت هذه الشجرة في القرآن الكريم في ست مواضع:

- البقرة: ٣٥.

- الأعراف: ١٩.

- الأعراف: ٢٠.

- الأعراف: ٢٢ (مرتين).

- طه: ١٢٠.

ولم يذكر القرآن الكريم أسمها ولم يوضح طبيعتها أو حقيقتها، وقال عنها علماء التفسير استنادا إلى الروايات والاجتهاد في فهم الآيات الشريفة وأصول العقائد الإسلامية وقواعد البحث عندهم:

- أنها شجرة الحنطة أو التفاح أو العنب أو التين، وقيل: أنها تحمل جميع هذه الأصناف وغيرها من الثمار والفواكه، ولما كانت أقل مرتبة وأدنى منزلة وجودية مما كان عليه آدم وحواء عليهما السلام في الجنة، فقد قادتهما إلى التوجه نحو العالم المادي، فكان خروجهما من الجنة أمرا طبيعيا وحتميا.

- أنها شجرة الكافور.

- أنها شجرة من أكل منها أحدث، وأنها أثارت فيهما الغريزة الجنسية، وقادتهما إلى العالم المادي، فكان خروجهما من الجنة أمرا طبيعيا وحتميا.

- أنها رمز لكل ما هو حرام وأراد الله عز وجل للإنسان أن يتركه، فالخروج من الجنة أرض الطهارة والقداسة ومن مقام القرب والكرامة والمنزلة السامية كان أمرا طبيعيا وحتميا من الناحية الوجودية التكوينية لمجرد الوقوع في المخالفة أو المعصية بالأكل من الشجرة.

- أنها شجرة الحسد، بمعنى: أن آدم وحواء عليهما السلام بعد سجود الملائكة وسكنهما الجنة، تصورا بأنه لا يوجد فوق مقامهما مقام، ولا فوق منزلتهما منزلة، فأطلعهما الله جل جلاله على مقام محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام فتمنيا منزلتهم، وكان ذلك تعديا لحدهما، والتماسا لدرجة فوق درجتهما، فأصبح عندهما ما يشبه الحسد، فحدثت بذلك ثغرة نفذ منها إبليس (عليه اللعنة) إلى قلبيهما، فتسلط عليهما حتى أكلا من الشجرة المحرمة، فأخرجهما الله جل جلاله

عن جنته المقدسة الطاهرة، وأهبطهما عن جواره إلى الأرض.

- أنها شجرة علم محمد ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام وهي شجرة من أكل منها بإذن الله عز وجل ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم، ومن تناول منها بغير إذن من الله جل جلاله عصى ربه وخاب سعيه ومراده.

يقول الفيض الكاشاني: « فسرت الشجرة تارة بشجرة الفواكه وأخرى بشجرة العلوم، وكان الشجرة علم محمد ﷺ إشارة إلى المحبوبية الكاملة المثمرة لجميع الكمالات الإنسانية المقتضية للتوحيد المحمدي الذي هو الفناء في الله والبقاء بالله، المشار إليه بقوله عليه السلام: لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فإن فيها ثمار المعارف كلها، وشجرة الكافور إشارة إلى برد اليقين الموجب للطمأنينة الكاملة المستلزمة للخلق العظيم الذي كان لنبينا ﷺ ودونه لأهل بيته عليهم السلام، فلا منافاة بين الروايات ولا بينها وبين ما قاله أهل التأويل أنها شجرة الهوى والطبيعة لأن قربها إنما يكون بالهوى والشهوة الطبيعية وهذا معنى ما ورد انها شجرة الحسد فإن الحسد إنما ينشأ منها »[1].

الحكمة الإلهية من وجود آدم وحواء في الجنة

سؤال: إذا كانت إرادة الله عز وجل أن يعيش آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما في الأرض لممارسة دور الخلافة الإلهية فيها ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] فما هي الحكمة من دخول آدم وحواء عليهما السلام الجنة، ثم الخروج منها والنزول إلى الأرض؟

الجواب: الحكمة من ذلك تتمثل في نقاط عديدة، منها:

---

(١) تفسير الصافي.الكاشاني.ج.ص١١٨.

(٢) البقرة: ٣٠.

- مرور آدم وحواء عليهما السلام بتجربة عملية تهيئهما لتحمل مسؤولية الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، عن وعي كامل لطبيعة الصراع مع العدو الأول وهو إبليس (عليه اللعنة) الذي يقف في الاتجاه المعاكس للخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، ويسعى لإضلال الإنسان وإغوائه وإسقاطه في درك الخطيئة والمعصية، ليفقد بذلك كرامته الإنسانية التي فضله الله جل جلاله بها عليه وليكون شريكه في نار جهنم وبئس المصير.

يقول العلامة السيد فضل الله: « وهكذا أدخله الله في التجربة التي سقط فيها، ليضعه بعد ذلك في خط التجربة الأصعب في قضايا المسؤولية في الحياة في خط الخلافة، بعد أن اهتزت مشاعره بفعل الصدمة الأولى، فاجتباه إليه واختاره ليكون أول نبي في الأرض، بل ربما كانت المسألة تتجه في طبيعتها هذا الاتجاه التربوي الذي يتعرض فيه الإنسان الجديد للخطأ في تجربته الأولى ليعرف كيف يقف مع الصواب »[1].

- أن يتعرف آدم وحواء عليهما السلام بالتجربة أهمية التكليف الإلهي في تحقيق الأمن والسعادة والرخاء، ويتعرفا طريقا السعادة والشقاء والعوامل المؤثرة سلبا وإيجابا فيهما.

يقول العلامة السيد فضل الله: « فآدم لم يخالف أمر ربه من موقع التمرد، بل من حالة ضعف في وعي التجربة الجديدة التي لم يسبق له أن مر بها، أو عرف طبيعتها وخلفياتها، حيث كان تفكيره يتحرك في اتجاه صدق محدثه الذي أقسم له انه من الناصحين، فانفتح له قلبه الطاهر الطيب، وضعفت إرادته أمامه، وخيل إليه أن المسألة ليس مسألة عصيان يستتبع غضب الله، بل هي مسألة نصيحة عادية يمكن أن يتجاوز الله أمرها في حالة عدم الاستجابة لها، ولاسيما أن مسألة الالتزامات القانونية الشرعية لم تكن واردة في حسابه، لأنها ليست مطروحة في

---

(١) من وحي القرآن.ج١ .ص٢٥٧.

المرحلة التي عاشها، مما جعله لا يعيش الذهنية القانونية في عملية الالتزام بالتعاليم، فكان ينسى العهد بسرعة، ويفقد العزم على الاستجابة له من موقع الضعف الإنساني لديه بالإضافة إلى ضعف التجربة في حياته »[1].

- لكي تبدأ حياة الإنسان في الأرض مع وجود القائد والهادي المعصوم الذي يمتلك الخبرة والتجربة الكافية اللازمة لممارسة دور الخلافة الإلهية ليكون حجة الله عز وجل على الخلق، لكي لا تضيع البشرية ولا تنكسر أمام الشيطان وجنوده.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

نتائج التجربة

وتكونت لدى آدم وحواء عليهما السلام النتائج التالية من تجربة النهي عن الأكل من الشجرة ومخالفته، وهي:

النتيجة (١): المعرفة بعداوة إبليس والحذر الشديد منه في سلوك طريق العبودية لله ذي الجلال والإكرام، ومن مصاديق نسيان العهد في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[3] نسيان التحذير من إتباع إبليس عليه اللعنة.

النتيجة (٢): أن الإنسان لا يستطيع أن يرتقي في سلم الكمال الإنساني: الفردي

---

(١) من وحي القرآن.ج١ ص٢٥٧.

(٢) آل عمران: ٣٣ - ٣٤.

(٣) طه: ١١٥.

والمجتمعي، وتحصيل السعادة والفوز بالجنة، إلا من خلال مراعاة السنن الكونية، ومنها: التحكم في الغرائز والرغائب والشهوات، وسلوك طريق الطاعة والعبودية المطلقة لله ذي الجلال والإكرام.

يقول العلامة السيد فضل الله: « قد نستوحي أن الشجرة المحرمة ترمز إلى كل حرام أراد الله للإنسان أن يتركه، فقد أحل الله له الطيبات مما يأكل أو يشرب أو يتلذذ أو يلبس، وحرم عليه بعض الأشياء المتصلة بسلامته المادية والمعنوية، ولكنه أكل ولا يزال يأكل من شجرة الحرام،...، في حاجاته المتنوعة، الأمر الذي يعرضه للطرد من الجنة في الآخرة، ومن السعادة في الدنيا، وهذا مما لا بد للإنسان أن يعيه وعيا عميقا واسعا منفتحا على المصالح والمفاسد التي تتصل بحياته من الناحية الإيجابية والسلبية على مستوى الدنيا والآخرة، لأن قضية الخضوع للحس في حاجاته ليست قيمة إنسانية، بل القيمة هي حماية الإنسان في إنسانيته المنفتحة على رضوان الله ونعيمه في الدنيا والآخرة، مما يفرض عليه الدخول في عملية مقارنة بين النتائج الإيجابية الحاصلة من الامتناع عن المحرمات والاكتفاء بالمحللات، والنتائج السلبية الحاصلة من الاقبال عليها، وهو ما ترمز إليه قصة آدم الذي ترك أشجار الجنة التي تحفل بأفضل المشتهيات وألذها وأحلاها، واستغرق بوحي وسوسة إبليس في هذه الشجرة المحرمة التي قد لا يكون لها أية ميزة ذاتية »[١].

النتيجة (٣): أن وجود الغرائز لدى الإنسان جنبا إلى جنب مع العقل والوحي من شروط تحقق الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، فيجب على الإنسان أن يجعل جميع الغرائز تحت أمرة العقل والدين وفرض سيطرتهما عليها لكي تتحقق الغاية من خلافة الإنسان في الأرض وبناء حضارة إنسانية راقية ومتوازنة على ضوء المنهج الإلهي العظيم.

---

(١) من وحي القرآن. ج١٠. ٦٥ - ٦٦.

النتيجة (٤): أن الحياة في الأرض حياة اجتماعية منظمة تقوم على الهرمية في تحمل المسؤولية المشتركة، فيتحمل كل مسؤول مسؤولية من يقع تحت أمرته ومسؤوليته، فمثلا: يتحمل الزوج المسؤولية العليا في الأسرة، ويتحمل الحاكم مسؤولية المحكوم، ويتحمل الإمام مسؤولية المأموم، وهكذا، فقد نسبت الآيات الشريفة المباركة الشقاء في اكتساب المعاش لآدم عليه السلام للإشارة إلى هذه الحقيقة الاجتماعية المهمة.

والخلاصة: إن الإسلام الحنيف ينظر للإنسان على أنه كائن يمثل مرتبة وجودية في نظام الوجود، وهي مرتبة الكائن العاقل الذي يمتلك حرية الاختيار: بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبح، وهو مكلف بحمل أمانة التكليف وأمانة الخلافة الإلهية في الأرض، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1] وقد تمت حضانته في الجنة، والقيت إليه الأوامر والتعليمات، فأخطأ نظرا لنقص التجربة، وتعلم كيف يصحح الخطأ بالتوبة، ثم جيء به إلى الأرض لتبرز تلك المرتبة التي يمثلها في نظام الوجود على ضوء المنهج الإلهي العظيم.

جوانب الإعداد لآدم وحواء عليهما السلام

وقد تناولت الآيات الشريفة المباركة جوانب الاعداد المختلفة لآدم وحواء عليهما السلام في مرحلة الحضانة في الجنة، وهي:

الجانب (١): عداوة إبليس

قول الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

فَتَشْقَىٰٓ ﴾.

أخبر الله جل جلاله عبديه الفقيرين إلى رحمته آدم وحواء عليهما السلام وهما في الجنة بأمور عديدة، منها:

الأمر (١): عداوة إبليس (عليه اللعنة) لهما ولذريتهما، وأنه سيبذل كل جهده ويستفرغ وسعه للكيد بهم انتقاما لنفسه، لأنه يرى بأنهما سبب تعاسته وشقائه وطرده من رحمة الله عز وجل ومن الجنة ومنزلة القرب والزلفى.

وكان هذا الإخبار بمثابة التأكيد على هذه العداوة بعد تجربة رفض إبليس (عليه اللعنة) لأمر الله عز وجل بالسجود لآدم عليه السلام حيث أن رفض إبليس للسجود يدل على:

- استكباره ومعصيته لله عز وجل.
- عداوته لآدم وحواء عليهما السلام ولذريتهما.
- أنه يقف في الطرف المقابل لكرامة الإنسان وسعادته، ويسعى لشقائه وتعاسته في الدنيا والآخرة.

ومن جهة ثانية: فإن سجود الملائكة عليهم السلام يدل على:

- طاعتهم لله عز وجل.
- حبهم وإخلاصهم لآدم عليه السلام وذريته.
- أنهم يقفون في الطرف الذي يحقق للإنسان كرامته وسعادته.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): كل قول أو فعل يقف في طريق تقدم الحياة ورقي الإنسان فهو من وحي الشيطان.

النتيجة (٢): كل من ينتهك كرامة الإنسان ويقف في وجه سعادته ويسبب له الشقاء في الحياة الدنيا والآخرة، فهو شيطان من ضمن جيش إبليس وجنوده المجندة.

يقول العلامة السيد فضل الله: « أن نستفيد من تركيز الله على عداوة إبليس لآدم، لإثارة عمق الإحساس بالعداوة في حياتنا إزاء إبليس وجنوده، مما يجعلنا نعيش الحذر في الفكرة، وفي الكلمة، وفي الخطوات العملية، وذلك، بأن ننفذ إلى أعماق ذلك كله في شهواتنا وخلفياتها الذاتية، لأن الدوافع الشريرة قد تختبيء وراء ستار كثيف من الانطباعات السطحية الخفيفة الكامنة في زوايا النفس، وقد تتلون ببعض الألوان المحببة إلى النفس في ما تقبله أو ترفضه »[1].

الأمر (٢): أن من أهداف إبليس الإستراتيجية إخراج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة بأسرع وقت ممكن، لأن الانتقام منهما لا يتحقق إلا بخروجهما منها، وقد حذر الله جل جلاله آدم وحواء عليهما السلام من طاعة إبليس أو الغفلة عن كيده أو الاستهانة بمكره وحبائله، وأوصاهما بأن يتعاملا معه تعامل العدو مع عدوه.

ومع ذلك وقع المحذور، فقد نجح إبليس في خداعهما، وضعفا أمام إغوائه وإغرائه، فأكلا من الشجرة المحرمة، وكانت النتيجة هي الخروج من الجنة ونعيمها إلى الدنيا وشقائها. وبهذا أقامت التجربة الحجة التامة على الإنسان لكي لا يقول لا اعلم وقد أخذت على حين غرة ومن حيث لا أدري، فقد علم وثبت له بالدليل والبرهان القاطع عداوة إبليس له وخطورة كيده ومكره وحبائله، وخطورة منهجه ونتائجِه عليه.

الأمر (٣): يترتب على خروج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة مواجهتهما وذريتهما

---

(١) من وحي القرآن. ج١. ص٢٧٣ - ٢٧٤.

الصعوبات والتحديات والعذابات والمتاعب والأمراض والأحزان والآلام الكثيرة في الحياة الأرضية والسعي لتلبية متطلبات الحياة الكريمة فيها، فهي حياة أضداد وتزاحم وابتلاء، وليست حياة نعيم ومتعة، فيصيبهم الشقاء، أي: الشدة والتعب والعسر والقلق والضيق والحيرة واللهفة والانتظار في السعي لتوفير متطلبات الحياة الكريمة فيها.

الأمر (٤): أن كل إنسان يحرص على كرامته وسعادته في الدنيا والآخرة، عليه أن يقف في الضفة المقابلة لإبليس ومنهجه، وأن يقوم بمواجهته بكل ما لديه من قوة، وأن يحذر من وسوسته وتزيينه الباطل في صورة الحق، لأن طاعة إبليس موجبة للشقاء والحرمان وهتك الكرامة. وأن هذا الحذر لا يمكن أن يتحقق إلا بالإخلاص لله عز وجل والطاعة المطلقة له في كل ما يأمر به وينهى عنه بدون أي استثناء في أي أمر من الأمور صغر أم كبر.

الجانب (٢): معصية الله ظلم وشقاء

إن مخالفة الأوامر والنواهي الإلهية هي ظلم حقيقي للنفس وشقاء يوردهما الإنسان على نفسه، لأن جميع الأوامر والنواهي الإلهية تنبع من الحكمة الإلهية البالغة والرحمة المطلقة بالعباد، وتهدف إلى خير الإنسان وتقدمه وسعادته في الدنيا والآخرة، على طريق التكامل والقرب من الله ذي الجلال والإكرام والفناء فيه والبقاء به، وأن أية مخالفة: كبيرة أو صغيرة، فهي تقف في وجه تكامل الإنسان وسعادته، وتكون سببا لتأخره وسقوطه وهلاكه وشقائه في الدنيا والآخرة، فإن آدم وحواء عليهما السلام لم يرتكبا معصية بمعناها الشرعي، ولكن ترك الأولى أنزلهما من مقامهما الرفيع واستوجب حط منزلتهما، ولولا التوبة لكانا من الخاسرين.

قول الله تعالى: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

نقاط أساسية تتضمنها الآية

تتضمن هذه الفقرة من الآية الشريفة المباركة نقاط عديدة، منها:

النقطة (١): الإشارة إلى تجربة التكليف الإلهي، وبيان عواقب المخالفة، مما يجعل الإنسان بين أمرين:

- طاعة الله عز وجل، وجزاؤها الجنة، حيث العيش فيها بأمن وأنس وراحة وأمان وهناء وصفاء، لا جوع ولا عطش ولا ظمأ ولا مرض ولا قتل ولا دماء ولا حزن ولا دموع ولا ألم ولا ضياع ولا تشرد ولا موت ولا فقد ولا مفارقة للأهل والأحبة.

- معصية الله عز وجل، وجزاؤها في الدنيا الشقاء والتعب والعناء وفي الآخرة النار والعذاب.

النقطة (٢): أن الظلم حقيقة واقعية تترتب على مجرد المخالفة لأمر الله والانحراف عن خط المسؤولية في طاعته جل جلاله، بغض النظر عن كون المخالفة لأمر مولوي أو إرشادي.

النقطة (٣): أن الحياة الرغيدة لا تمنع الإنسان من المعصية تحت تأثير الحرص والطمع لطلب المزيد من المال والثروة والجاه والسلطة بما يفوق حاجته الفعلية في الحياة، وهذا الخلق السيء مخالف للعقل والفطرة السليمة، ويعتبر:

- المصدر للكثير من المشاكل والمفاسد والجرائم والحروب الدموية والمنزلقات الخطيرة في حياة الإنسان وسحق المبادئ والقيم الإنسانية في العلاقات

---

(١) الأعراف: ١٩.

بين البشر من أصغر نقطة اجتماعية وهي الأسرة إلى أكبر نقطة فيها وهي العلاقات الدولية.

- أنه يورث الإنسان التعب والحرج والعناء، ويسلبه الطمأنية والهدوء والوقار، ويورطه في السعي الدؤوب من أجل تأمين رغبات وهمية ضارة، فيعيش حياته في عذاب روحي وقلق مزمن.

- يورط الإنسان في الذنوب، مثل: الكذب والظلم والخيانة وغصب حقوق الآخرين، وعدم مراعاة الحلال والحرام، ويهدم مروءة الإنسان، وقد يذهب الأمر إلى البعيد، فيغلق باب التوبة والرجوع إلى الله عز وجل فيكون الإنسان من الهالكين.

فالحرص هو الذي دفع آدم وحواء عليهما السلام إلى قبول وساوس الشيطان ونسيان التحذير الإلهي ونهيه عن الأكل من الشجرة المحرمة.

وهذا الخلق السيء يعتبر من تزيين الشيطان الرجيم ووسوسته وإغوائه، ويعد من أقوى الموانع في تهذيب النفس وإعاقة مسيرة تقدمها على خط التكامل الروحي والمعنوي، ويجب على كل إنسان عاقل أن يحذر من الوقوع في وحله وبراثنه.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

- أن التكليف الإلهي لابدي في تربية الإنسان وتحصيل كماله وسعادته.

- أن مجرد المخالفة لأمر عز وجل ونهيه يستلزم الابتعاد عن مقام القرب من الله ذي الجلال والإكرام، وسقوط الإنسان عن مكانته الإنسانية السامية، والخروج من جنة الأمن والطمأنية الروحية، والوقوع في قلق الحياة المادية المضنية

وشقائها.

- أن تجربة التكليف لآدم وحواء عليهما السلام في الجنة، كانت يسيرة سهلة لا مشقة فيها ولا تعب ولا حرمان، ولكنها كانت كافية في بيان عواقب المخالفة.

- يجب على الإنسان بما هو إنسان أن يخضع كافة رغباته وشهواته لحكم العقل والدين لكي يصل إلى كماله وسعادته.

- أن التكليف الإلهي وإخضاع الشهوات للعقل والدين هما من مميزات الإنسان على الحيوان، فإذا تنازل عن هذه الميزة، إنسلخ عن إنسانيته وهدم كرامته، وأصبح لا فرق بينه وبين الحيوان إلا في الشكل والصورة، وأن مصيره إلى النار وسوء العذاب.

الجانب (٣): الشروط المادية لراحة الإنسان في الحياة

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾.

تتضمن الآيات الشريفة المباركة: الإشارة إلى الشروط المادية والحاجات الضرورية الأساسية التي يحتاجها الإنسان في حياته من أجل سلامته واطمئنانه وراحته، وقد ضمنها الله عز وجل لآدم وحواء عليهما السلام في الجنة، ومنها:

- الأمن والاستقرار.

- احترام كافة حقوق الإنسان الطبيعية في الحياة.

- توفر أسباب العيش الكريم، مثل: الغذاء الصحي الكافي من الطعام

والشراب، واللباس المناسب الذي يستر الجسم ويحميه من الحر والبرد، والسكن المناسب ونحوها.

– عدم الشقاء في طلب العيش وتوفير الظروف الصحية للعمل: فقد قرن الظمأ بحر الشمس ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ لما بين العطش وحر الشمس من علاقة، وقد خص الضحى بالذكر لأن حر الشمس يكون في أشده، ويكون التعرض لأشعتها لفترات طويلة في هذا الوقت يؤدي إلى أضرار صحية في الجسم، مثل: قابلية الإصابة بعتمة عدسة العين (الماء الأبيض) وقابلية الإصابة بالحصوات الكلوية الكالسيومية، وهرم الجلد وفقدان نضارته، وظهور الجاعيد والترهلات، وغيرها، ولهذا تلجأ بعض الدول إلى منع العمل في الشمس في هذا الوقت من النهار في فصل الصيف، نظرا لشدة خطر أشعة الشمس في هذا الوقت على سلامة الإنسان وصحته.. والخلاصة: يجب على الدولة توفير أسباب الرزق وفرص العمل والظروف الصحية الملائمة للعمل وزيادة الإنتاج.

وتشير الآية الشريفة المباركة: إلى أن هذه الحاجات الأساسية الضرورية قد يحرم منها الإنسان في الحياة الدنيا لأسباب عديدة، منها: ظلم الحكومات وسوء توزيع الثروة.

ولهذا نصت المواثيق الدولية على تحمل الحكومات مسؤولية توفيرها للمواطنين بصورة مناسبة تتناسب مع كرامة الإنسان، وفق ما يقتضيه الزمان والمكان الذي يعيش فيهما المواطن، وإلا عدت الحكومات مقصرة في واجباتها، ومخلة بالزاماتها وحقوق المواطنين عليها، وتجب محاسبتها على ذلك.

الجانب (٤): أهمية العفة

قول الله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن

وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

بعد أن أكل آدم وحواء عليهما السلام من الشجرة المحرمة، سقط عنهما لباس الجنة وظهرت عورتهما، وظهرت عندهما أيضا الغريزة الجنسية والشعور المتبادل بينهما من هذه الجهة، وأدركا وظيفة العورة وحقيقتها، فأخذا يسترانها بورق الجنة، وذلك لصفاء فطرتهما، فلا يرغب في التكشف والعري إلا كل من فقد سلامة الفطرة وصفاء النفس.

وقد يكون اللباس الذي سقط عنهما: ليس لباسا ماديا، فلم يكونا عاريين وإنما كانا مستورين بلباس الجنة، وإنما هو لباس معنوي يتمثل في شعور البراءة والطهارة قبل ظهور الرغبة الجنسية لديهما بعد الأكل من الشجرة. لقد تعلم آدم وحواء عليهما السلام من أكل الشجرة ثلاثة أمور:

الأمر (١): وظيفة الأعضاء الجنسية.

الأمر (٢): ضرورة العفة التي تعتبر من أهم الفضائل الأخلاقية لدى الإنسان، وتقوم بدور أساسي في:

- حفظ النفس من الاضطراب والقلق وغلبة الميول والشهوات الحيوانية.
- اجتناب القبائح وعدم التورط في الإثم والمعصية.
- المحافظة على الحياء والشرف والكرامة الإنسانية.
- المحافظة على سلامة النسل والمجتمع.

الأمر (٣): ضرورة الحجاب كإجراء احترازي واجب من أجل السيطرة على

الغريزة الجنسية وعدم السماح لها بالخروج عن حدودها المشروعة، وقد أثبتت التجارب: العلاقة الوثيقة بين عدم الحجاب والتزين، وبين التلوث بالخطايا الجنسية والتحلل الأخلاقي بالنسبة للرجال والنساء

والخلاصة: تعتبر العفة والحجاب شرطان أساسيان للطمأنية والسير الهادئ نحو الكمال الإنساني، وصيانة النفس والمجتمع، والقرب من الله ذي الجلال والإكرام والفناء فيه والبقاء به.

الجانب (٥): المنافذ التي يدخل منها إبليس للتأثير على الإنسان

قول الله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

لقد خسر إبليس (عليه اللعنة) حظه من الآخرة، حيث لم يمتثل أمر الله عز وجل له بالسجود لآدم عليه السلام وكان ذلك بدافع الحسد الذي ملك عليه مشاعره كلها، وأخذته العزة بالإثم، وأصر على إضلال بني آدم عليه السلام وغوايتهم، وبهذا ظهر الصراع هائلا مرعبا بين: الحق والباطل، والكفر والإيمان، والخير والشر، والعدل والظلم، والحرية والاستبداد، وغيرها، ونزل إبليس (عليه اللعنة) الميدان نزول المحارب الشرس المستميت، الذي تشربت نفسه بالكفر، وتأصل الشر في طبعه، وتسلح بالمكر واللؤم والخداع، وواجه آدم وحواء عليهما السلام في معركته الأولى بهدف إخراجهما سريعا من الجنة، من أجل الانتقام من ذريتهما، وهما عنوان البراءة والفضيلة وطهارة النفس وحسن السريرة، ولا خبرة لهما بالمعصية والخطيئة وبأساليب المكر والخداع الملتوية التي يمتلكها إبليس، فلم يعدم الحيلة إلتي ينفذ بها إلى قلبيهما الطاهرين، ففكر وقدر، وأحاطهما بأسوار المكر والخداع، ونجح في

التأثير عليهما من خلال عوامل عديدة، منها:

العامل (١): القسم ليبعث فيهما الثقة به، فليس من الطبيعي أن يقسم أحد بالله عز وجل كاذبا، لاسيما أنهما لا يعرفان الكذب في التجربة الواقعية، فكان إبليس عليه اللعنة هو أول من تجرأ على اليمين الكاذب.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « لما خرج آدم من الجنة نزل عليه جبرائيل فقال: يا آدم! أليس خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وزوجك حواء أمته، وأسكنك الجنة وأباحها لك، ونهاك مشافهة أن تأكل من هذه الشجرة، فأكلت منها وعصيت الله؟

فقال آدم: يا جبرائيل! إن إبليس حلف لي بالله إنه لي ناصح، فما ظننت أن أحدا من خلق الله يحلف بالله كاذبا! »[١].

العامل (٢): نقاط الضعف البشري المتمثلة، في:

- غريزة البقاء وكراهية الموت وأحلام الخلود.

- الرغبة في التحول إلى شخصية ملائكية تمتلك الخلود والقوة والتأثير وطول الأجل، وتتمتع بالكمالات الفطرية، مثل: الاستغناء عن الأطعمة والأشربة وغيرها.

- غريزة حب الجاه والتملك والسيطرة والرفعة والسلطة.

عموم الغرائز وما يحبه الإنسان: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٢].

وبهذا يتجلى لنا بوضوح دور الإغراءات في سقوط الإنسان أمام التحديات الصعبة، وانحرافه عن الصراط المستقيم تحت تأثيرها، وربما انزلاقه الأبدي

---

(١) الميزان. ج٨. ص ٦١ / عن الكافي.

(٢) الحجر: ٣٩.

نحو الهاوية.

العامل (٣): نقص التجربة لدى آدم وحواء عليهما السلام في:

- معرفة المسؤولية أمام الأمر والنهي الإلهي بشكل دقيق وعواقب المخالفة.

- المعرفة بخصائص إبليس الشريرة، فلم تكن عندهما تجربة سابقة مع مخلوق يحلف بالله ويكذب، أو يؤكد النصيحة ويخون ويغش من استنصحه!!

- التعامل مع الأعداء الشرسين الحاقدين.

العامل (٤): الكذب وتغيير صورة الحقائق وقلبها رأسا على عقب، فقد أقسم انه لهما من الناصحين وهو في الحقيقة العدو اللدود لهما، وأقسم لهما بأن يكونا من الخالدين وهو يعلم بأن أكلهما من الشجرة سوف يؤدي إلى خروجهما من الجنة ومواجهتهما وذريتهما لصعوبات الحياة والشقاء والموت في الأرض!!

العامل (٥): الظهور بمظهر المحب الناصح، والدخول إليهما من ناحية رغائبهما العميقة الراسخة في النفس، وكان الدخول بصورة خبيثة وغير مكشوفة.

لقد سقط آدم وحواء عليهما السلام في الامتحان، ونجح إبليس (عليه اللعنة) في التأثير عليهما، ونسيا تحت تأثير القسم والشهوة تحذير الرب الجليل: بأن إبليس عدوهما اللدود، وأنه لا يمكن أن يدلهما على خير أبدا، فلم تكن النتيجة خسران الخلود والملك الذي لا يبلى فحسب، بل:

- سقطا في درك الخطيئة.

- وهبطا من عليائهما ومنزلتهما الرفيعة عند الله جل جلاله.

- وابتعدا عن مقام القرب الإلهي والكرامة في الجنة.

وهذا هو الفرق دائما بين طريقي: الحق والباطل، والطاعة والمعصية.

الدروس التي تعلمها آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما من هذه التجربة

- وجوب طاعة الله عز وجل في كل ما يأمر به وينهى عنه، سواء عرف المكلف الحكمة من الأمر أو النهي أو لم يعرف.

- أن مخالفة الله عز وجل شر مطلق، وأن كل من يدعو إلى مخالفته فهو عدو مطلق بغض النظر عن الحجج والذرائع التي يتذرع بها وبأي وجه أتي.

- أن إبليس وجنوده يقومون بصناعة الأعذار للإنسان من أجل جره إلى معصية الله عز وجل ومخالفة أمره، ولكنها في الحقيقة ودائما أعذار واهية لا حقيقة لها ولا أصل.

- أن إبليس وجنوده يقومون باستغلال الرغبات الذاتية لدى الإنسان، مثل: حب الخلود والقوة والسلطة والرقي والكمال، وكلها رغبات طبيعة ومشروعة، ولكنهم يقومون بحرفها عن مواضعها الطبيعية، وإدخالها في دائرة الخراب والفساد والهلاك، بقلب الحقائق، وإخراج الرغبات عن دائرة سيطرة العقل والدين.

- أن لله عز وجل الحكمة البالغة في الخلق، وأن كل موجود لا ينال من المكانة والكرامة والشرف إلا ما قدره الله جل جلاله له، فعلى الإنسان أن يطلب الكرامة والشرف عن طريق الطاعة لله عز وجل لا غير، وكل طريق آخر يسلكه الإنسان من أجل الكرامة فهو من ضعف النفس والشيطان، وأن نتيجته الهلاك والخسران.

- الحذر الشديد في التعامل مع الأعداء الكبار، وتحكيم العقل والحكمة والواقعية في التعاطي معهم، وعدم الركون إلى العواطف النبيلة والذهنية البريئة، لاسيما إذا تقدمت واجهة المصالح والإغراء، فهو وضع للشيء في غير محله، وهو خلاف العقل والحكمة، ومن شأنه أن يؤدي إلى الخسائر المادية والمعنوية وهلاك النفوس وضياع المصالح الحيوية والجوهرية للناس.

والمطلوب في هذه الحالة: البحث عن السلبيات الكامنة خلف واجهات الإغراء، ودراستها بعمق من أجل صيانة الموقف من الضعف وحفظ المصالح من الضياع.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1].

هذا هو الفرق: من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا وهو ألد الخصام، ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، وقد يمارس النقد والنصيحة بحرقة وقسوة، ولكنه صديق ومحب، فالصديق من صدقك لا من صدّقك، إلا أن بعض المؤمنين قد يخطأ فيخلط بين الفريقين، وقد يبلغ حدا أكبر فيجعل أحدهما مكان الآخرة.

يقول العلامة السيد فضل الله: « إن علينا أن نضع أمامنا حقيقة العداوة مع الأعداء، فلا نستسلم لحالات الاسترخاء الطيب في نفوسنا للعلاقات الطارئة التي تعيش في جو حميم، لأن العدو الذي يعيش الإحساس بالفواصل الفكرية والروحية والعملية التي تفصله عنا، لابد له من التخطيط الفكري والعملي الذي يشل معه قدرتنا عن التحرك، ويوحي لنا بالانحراف من حيث لا نريد أو لا نشعر، فنستسلم للسذاجة الطيبة، وللكلمات المعسولة، وللأجواء الحميمة التي يتنامى فيها الشعور بحسن الظن، إن علينا أن نستحضر هذا الإحساس بالفواصل الفكرية والشعورية لنخطط لعملية الثبات على الإيمان من خلال الثبات على القواعد الفكرية والعملية، لنحفظ خطواتنا من الزلل، ومشاعرنا من الذوبان، وأفكارنا من

---

(١) البقرة: ٢٠٤- ٢٠٧.

الانحراف »[1].

– ثمة فرق كبير بين العلم والمعرفة النظرية وبين التجربة التي تصقل الإنسان وتجعله حكيما وذا حنكة وخبرة عملية في الحياة. فقد كان آدم عليه السلام عالما كبيرا ومعلما للملائكة عليهم السلام إلا أن هذا العلم الجم لم يحصنه أمام إغراءات إبليس (عليه اللعنة) وإغواءاته، وذلك لنقص الخبرة والتجربة العملية لديه.

وبهذا يثبت أن: الفكر الذي يمتلكه الإنسان لا يقوى على مواجهة التحديات في ساحة الصراع وقيادة الحياة بشكل صحيح، إلا إذا كان مزودا بالخبرة والتجارب العملية التي تجعل الإنسان قادرا على فهم حقائق الأمور كما هي في الواقع من خلال التجربة الحية، لا كما يتوهمها الخيال وتفرضها البراءة الذهنية والفكرة المجردة والتعامل بعفوية مع الخصم في حركة الحياة، فيقع في قبضة الغش والخداع في ساحة المواجهة والصراع.

والمطلوب التزود بالخبرة العملية لمواجهة الأعداء وصعوبات الحياة وتحدياتها – لاسيما لدى القيادات العليا – وعدم الاكتفاء بالمعرفة النظرية، ومن يفتقر إلى الخبرة يخسر ولو كان عالما معلما للملائكة الكرام.

يقول العلامة مكارم الشيرازي عن آدم عليه السلام: « كان واقفا على أسرار الخلقة،...، وكان يعد معلم الملائكة، وإذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإن ذلك لم يكن بسبب جهله، بل استغل الشيطان صفاء نيته، وطيب نفسه »[2].

– أن أهم أسباب المعصية هي الغفلة الروحية عن النتائج السلبية للمعصية، والمطلوب من الإنسان أن يعيش الوعي العميق في كافة خطواته ومواقفه في الحياة، فيكون بصيرا بمنطلقاتها وبواعثها ومعادها ومنتهاها، ليسير إلى غايته

---

(١) من وحي القرآن. ج١. ص٢٧٤.

(٢) الأمثل. ج٤. ص٥٤٦.

وجوده وهدف حياته على أساس الرؤية الجلية الواضحة، والإرادة الحرة المستنيرة، لينتهي به المطاف إلى جوار ربه ذي الجلال والإكرام والفناء فيه والبقاء به من واقع الطاعة الواعية المستقيمة على الصراط السوي إليه جل جلاله.

- أن الشيطان وجنوده يدخلون للإنسان من أجل التأثير عليه من المداخل التي يحبها والأمور التي يشتهيها، فيقومون بعزله عن الواقع وإغماض عينيه عن المصير والعواقب، والتأثير فيه من موقع الغفلة والسذاجة في فهم الأمور وتقدير العواقب.

- أن الشيطان وجنوده يدخلون للإنسان المؤمن في البداية من أجل التأثير عليه من جهة الحق والخير والعدل والفضيلة وما يؤمن به ويقدسه، ثم يجرونه إلى الهاوية والهلاك بصورة تدريجية.

وهذا يفرض على الإنسان:

- إخضاع كافة تصرفاته لأحكام العقل والدين.

- التحلي بالتقوى وكثرة الذكر من أجل التغلب على نقاط الضعف.

- التحلي باليقظة والتفكير باستمرار في عواقب الأمور واستحضار المبادئ والقيم قبل الإقدام على أية خطوة - لاسيما في الأمور المهمة والمصيرية - من أجل تعزيز المواقف الثابتة في الحياة وترسيخها.

- بناء المواقف العملية في الحياة على أساس الدراسة الموضوعية لكافة الأمور ذات الصلة ودراسة العواقب، والحذر من الانسياق وراء الأحلام الوردية والأفكار غير الواقعية واتباع هوى النفس في إدارة والمواقف واتخاذ القرارات.

- التحلي بالصبر والحكمة والحذر من الانفعال ومن الغفلة في اختيار الأساليب والوسائل، لاسيما في القضايا المهمة والمصيرية، فقد يختار الوسائل

والأساليب التي تبعده عن أهدافه ومقاصده بدلا من أن توصله إليها.

الجانب (٦): أهمية التوبة والعودة إلى الله عز وجل بعد المعصية

قول الله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١].

وقول الله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[٢].

وقول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٣].

لقد ترتب على مخالفة آدم وحواء عليهما السلام للأمر الإلهي بالأكل من الشجرة المحرمة:

- الهبوط من منزلة روحية عالية إلى منزلة أدنى.
- الخروج من الجنة أرض الطهارة والقدس ومكابدة التحديات والصعوبات والعذابات في الحياة على وجه الأرض.

وقد أدرك أدم وحواء عليهما السلام بفطرتهما الصافية النقية خطأهما، وأصيبا بالحسرة والخيبة والمرارة، وأدركا فداحة الخطأ وعواقبه الوخيمة، وأحسا بالذعر من سوء العاقبة والمصير فيما لو تخلت عنهما يد الرحمة والمغفرة، وعاتبهما الرب

---

(١) الأعراف: ٢٣.

(٢) طه: ١٢١ - ١٢٢.

(٣) البقرة: ٣٧.

الجليل على مخالفة أمره وطاعة عدوه وعدوهما اللدود الشيطان الرجيم الذي رفض السجود لهما ووقف موقف التحدي والعناد وأظهر عداوته للإنسان وأصر على غوايته وقيادته إلى نار جهنم ليكون شريكه فيها!! فندما واعتذرا لما صدر عنهما من المخالفة، وتابا إلى الله عز وجل توبة نصوحا، وأكدا: التزامهما بالطاعة المطلقة لله ذي الجلال والإكرام فيما يأمر به وينهى عنه، لكي لا تكون خسارتهما بالمعصية التي بدرت منهما خسارة للكرامة والمصير الأبدي الخالد، كما كان حال إبليس (عليه اللعنة) وإنما تكون خسارة لفرصة تعثر فيها الحظ بسبب النسيان لله جل جلاله وسوء الاختيار، وأنها يمكن أن تتبدل برحمة الله جل جلاله إلذي يبدل السيئات حسنات إلى ربح في فرصة أخرى ببركة التوبة النصوحا.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢).

قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا بمخالفتك وطاعة الشيطان عدونا وعدوك، وإن لم تغفر لنا وترحمنا وتستر ذنوبنا، لنكونن من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة السيد فضل الله: « وتلك هي روحية الإنسان المؤمن في حالة الاعتراف النادم بالذنب أمام الله، من أجل مواجهة الموقف بالتوبة للحصول على المغفرة والرحمة »(٣).

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) الفرقان: ٧٠.

(٣) من وحي القران. ج١٠. ص٥٧.

وهذا الموقف من آدم وحواء عليهما السلام كان يمثل قمة التذلل والابتهال والتأدب أمام الله جل جلاله، حيث لم يسألا الله عز وجل في دعائهما شيئا من حاجات الدنيا، وإنما ذكرا حاجتهما إلى المغفرة والرحمة الإلهية، وتهديد الخسران الدائم لهما ما لم تنالهما رحمة ربهما الجليل، فقبل الله جلا جلاله توبتهما وغفر لهما:

- لأنه عرف منهما صدق التوجه وإخلاص النية إليه في التوبة، وأظهرا الأسف والندم لما صدر منهما من المخالفة.

- ولأنه يريد أن يظهر شديد الاهتمام باستصلاح الإنسان مهما توغل في تشويه طبيعته الإنسانية، وسيطرت عليه ظلمات الجهل والباطل، وخرج عن ذل العبودية وأمعن في الإساءة والتنكر والتطاول على مقام الربوبية وعزتها.

قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثير، من مات قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال: إن يوما لكثير، من تاب قبل أن يعاين (أي يعاين ملك الموت) قبل الله توبته »[1].

ويقول العلامة الشيخ حسين كوراني: « تبقى الأم مثلا حريصة على استصلاح ولدها مهما تراكمت إساءاته لأنه مشروعها وفلذة كبدها. وسيشكل منعطفا تاريخيا في حياتها ونضارة شجرة أحلامها أن تلوح بارقة رغبة ابنها في فتح صفحة جديدة »[2].

أقول: كل ما في قلب الأم من الرحمة على ولدها، فالله جل جلاله هو الذي أودعه في قلبها، وهو الذي أودع كل رحمة في قلب كل أم وكل أب وكل أخ وكل

---

(١) الكافي. الكليني. ج٢. ص٤٤٠.

(٢) في المنهج. ص١٨٧.

صديق وكل إنسان وكل مخلوق في الأرض والسماء، فرحمة الله ذي الجلال والإكرام أعظم من مجموع الرحمة لدى جميع الخلائق، وهو قطعا أرحم بالإنسان من أمه وأبيه.

- ولأنه يريد أن تبقى الطبيعة الإنسانية الطيبة باقية لتأخذ بيد الإنسان من جديد إلى السعادة الأبدية الخالدة.

يقول العلامة الشيخ حسين الكوراني: « بل تكشف بعض مستويات قبول التوبة، عما يذهل اللب، ويعري كل أنماط التعامل القانوني مع أصحاب السوابق، ليظهرها شوهاء تعجز عن التعامل مع سفح القمة التي هي الإنسان »[١].

- لأنه يريد أن يثبت منزلة الإنسان ومكانته لديه ومحبته له، وأن غايته من خلقه هي سعادته والإفاضة عليه من عظيم نعمه التي لا تحصى ولا تعد.

- لأنه يريد أن يقيم الحجة البالغة التامة على الإنسان، ولكي لا يبقى عذر للأشقياء الغاوين.

وبهذا تعلم آدم وحواء عليهما السلام:

- أن مجرد المخالفة لأمر الله عز وجل ونهيه يترتب عليه الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة ما لم يتب العبد من ذنبه ويعود إلى ربه جل جلاله.

- أن للمعصية الكبيرة والصغيرة آثار وضعية ونتائج طبيعية في نفسية الإنسان وروحيته، وهذا يتطلب من الإنسان جهادا نفسيا ومعاناة صادقة من أجل محو آثارها التي انطبعت في القلب والتكفير عنها بأضدادها من الطاعات ورد الحقوق إلى أصحابها، فإن نور الحسنات يمحو ظلام السيئات، كما يمحو نور النهار ظلامات الليل الدامس.

---

(١) في المنهج. ص١٨٨.

– أن المعصية يجر بعضها إلى بعض، فالسقوط في معصية قد يجر المكلف إلى معصية أخرى، وهكذا، مما يتطلب تحصين النفس ضد المعصية أصلا.

– أن الوسوسة الشيطانية مهما بلغت من القوة والتحدي، لا يمكنها أن تسلب الإنسان حرية الإرادة والاختيار وتجبره على المعصية، ولو كان الحال كذلك لسقط التكليف عن الإنسان، وإنما الإنسان يستطيع أن يقاوم الوساوس الشيطانية ويقف في وجهها بقوة العقل والإيمان، وأن يسلك طريق الطاعة ليكون أفضل من الملائكة ويفوز بالجنة والسعادة – وربما تطلب ذلك تحمل الألم والعذاب – وإذا ضعف واتبع خطوات الشيطان كان أخس من البهائم وكان مع إبليس في جهنم.

– ضرورة المسارعة للتوبة بعد المعصية قبل أن يتراكم الرين / الصدء على القلب فلا يقبل المحو والإزالة، وقبل أن تقتل سموم الذنوب روح الإيمان ويتجاوز الأمر الاختيار، وقبل أن يعاجل المرض أو الموت الإنسان فلا يجد مهلة للاشتغال بمحو الذنوب والتكفير عنها، ويجب ترك التسويف وعدم اليأس أو الاستسلام للمعصية، لكي لا تكون المعصية سقوطا أبديا إلى الهاوية.

يقول العلامة السيد قطب عن الإنسان: « إنه ينسى ويخطىء.. إن فيه ضعفا يدخل منه الشيطان. إنه لا يلتزم دائما.. ولكنه يدرك خطأه، ويعرف زلته، ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة.. إنه يثوب ويتوب، ولا يلح كالشيطان في المعصية »[١].

– أن الله عز وجل يقبل برحمته التوبة من عباده، لأنه هو الذي خلق في عباده نقاط الضعف التي قد يسقطون بسببها في الخطيئة ليبتليهم، وأراد لهم أن يرجعوا إليه بعد المعصية، ليستقيموا في الخط الصحيح، وليقبلهم من جديد في ساحة طاعته.

---

(١) الظلال.ج٣.ص١٢٦٩.

- أن التوبة من الذنب ترجع الإنسان إلى طريق النجاة والسعادة، ويعود كالصفحة البيضاء الناصعة التي لا ظلمة فيها ولا سواء، فإن آدم وحواء عليهما السلام فقدا منزلة القرب بالمعصية، وأنهما عادا إلى مكان أرفع بالتوبة الصادقة النصوحة. فصدور المعصية لا يمثل نهاية المطاف للإنسان، لأن باب التوبة مفتوح، وأن الله عز وجل يبدل السيئات حسنات، ففي وسع الإنسان أن يعيد بناء حياته من جديد، وأن يتخذ من الهزيمة قاعدة للانتصار في المستقبل. فيجب على الإنسان عدم الاستسلام للخطيئة، والعمل الجاد والفوري للعودة من جديد إلى عالم الطاعة والاستقامة، فلا يأس مع الانجراف المؤقت مع المعصية، ولا عذر لم أغفل دخول باب التوبة بعد فتحه.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[1].

- ضرورة الاحتراز عن الذنوب والخطايا، وتحصين النفس وحراسة السيرة الذاتية من العودة مجددا إلى المعصية.

- أن للتوبة شروط يجب أن يلتزم بها التائبون لكي يتحقق أثرها في حياة العبد، وفي مقدمتها: الصدق والإخلاص في التوبة، والاعتراف البناء الواعي المفيد بالخطأ، والندم على ما صدر من المعصية، والعزم والتصميم على عدم العودة إلى المعصية وقطع العلائق معها، والتأسيس لبناء جديد قائم على العدل والتقوى، وتعويض ما فات من الفرائض، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، والاستغفار وكثرة الذكر، والسعي لمحو آثار الذنوب من صفحة القلب وتطهير الروح بنور الطاعات والانفتاح على العمل الصالح، وطلب الرحمة من الله ذي الجلال والإكرام مع اليقين بأنه لا حول ولا قوة إلا به وحده لا شريك.

قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « التوبة على أربعة دعائم: ندم بالقلب،

---

(١) طه: ٨٢.

واستغفار باللسان، وعمل بالجوارح، وعزم على ألا يعود »[1].

وقال ﷺ: « أما علامات التائب فأربعة: النصيحة لله في عمله، وترك الباطل، ولزوم الحق، والحرص على الخير »[2].

– على الإنسان أن لا يكتفي بإخفاء نقاط ضعفه، وإنما يجب عليه أن يعالجها ويسعى إلى إلغائها من كيانه وإبعادها كليا عن حياته، وعليه أن يأخذ بأسباب القوة الروحية في شخصيته، ويستعين بها في مواقفه وتحديد مصيره المادي والمعنوي في الدنيا والآخرة.

– ضرورة مراعاة مطالب الروح والحذر من الحرص والطمع والانسياق وراء الشهوات ورغبات الجسد والاستجابة إليها خارج دائرة العقل والدين.

يقول العلامة السيد فضل الله: « بأن تجربة الاستغراق في الشهوة في جانب، قد يؤدي إلى الوقوع في تجربة ثانية أو إلى الانفتاح على عالم الشهوات، مما قد يثير في النفس بعض المشاعر والأحاسيس الحميمة الخفية التي قد تعد الإنسان للوقوع في الحرام »[3].

مفاهيم تتعلق بالتوبة

– أجمع المسلمون على وجوب التوبة عن كل معصية، وقال أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأن التوبة تصح إذا كانت عن ترك مندوب، وعليه تحمل توبة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

---

(١) البحار. ج٧٨.ص٨١.

(٢) تحف العقول. ص٣٢.

(٣) من وحي القرآن. ج١٠. ص٦٦.

- أن قبول التوبة من الله عز وجل وإسقاطه العقاب عن العبد، قيل: أنه مجرد تفضل وليس بواجب على الله جل جلاله، وقال جميع المعتزلة وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأنه وإن كان تفضلا إلا أنه واجب على الله عز وجل لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد.

- قال أكثر المتكلمين: بأن التوبة من معصية تكون صحيحة حتى مع البقاء على معصية أخرى، وقال الأشاعرة: أنها لا تكون صحيحة.

تمام التجربة

وبهذه الجوانب التي تعلمها آدم وحواء عليهما السلام مجتمعة:

- تمت التجربة، وتكشفت لهما خصائص الإنسان، وطبيعة الضعف في تكوينه، والعوالم المحيطة به والعوامل المؤثرة فيه، وكيف تتحرك المعصية في نفسه، وكيف تدفعه بعيدا عن الله ذي الجلال والإكرام.

- وتعرفا المنهج الذي يرضاه الله تعالى لهما ولذريتهما من بعدهما، والمصير الذي ينتظرهم جميعا، والطريق الذي يجب أن يسلكوه من أجل نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

- وتعرفا على الأساليب الملتوية التي يبتدعها الشيطان وجنوده في الإغواء والإضلال، وتعلما بالتجربة الحية كيف يواجهان إبليس (عليه اللعنة) الذي أعلن عداوته لهما ولذريتهما وأصر على إضلالهم وغوايتهم مع جنوده ليهبط بهما وذريتهما إلى درك الخطيئة التي وقع هو فيها ليفقدا كرامتهما وبيعدهما وذريتهما عن الله ذي الجلال والإكرام وعن الجنة ونعيمها التي حرم منها، وليكونوا معه شركاء في نار جهنم التي وعد بها مع جنوده.

لقد عاش آدم وحواء عليهما السلام التجربة بكل تفاصيلها، وحفظت نتائجها ونقلت لذريتهما من بعدهما من خلال الأنبياء عليهم السلام لكي يزاول الإنسان مهام الخلافة في الأرض على أكمل وجه، وهو على نور وبصيرة من أمره.

يقول العلامة السيد قطب رحمه الله: « لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا، استعدادا للمعركة الدائبة »(١).

عصمة آدم عليه السلام

اتفق المسلمون على أن آدم عليه السلام من الأنبياء، والأنبياء معصومون في كل ما يتصل بالتليغ باجماع المسلمين، واختلف المسلمون في عصمة الأنبياء في الأفعال:

- قال الحشوية: يجوز على الأنبياء فعل الذنوب الكبيرة عمدا وسهوا.

- وقال الأشاعرة: يجوز على الأنبياء فعل الذنوب الكبيرة سهوا لا عمدا، ويجوز عليهم فعل الذنوب الصغيرة سهوا وعمدا.

- وقالت المعتزلة: لا يجوز على الأنبياء فعل الذنوب الكبيرة لا سهو ولا عمدا، ويجوز عليهم فعل الذنوب الصغيرة سهوا وعمدا.

- وقالت الإمامية: الأنبياء معصومون في كل ما يقولون ويفعلون قبل النبوة وبعدها، فلا تجوز عليهم الذنوب: الكبيرة أو الصغيرة، لا عمدا ولا سهوا، فلا يقولون إلا الحق، ولا يخالف فعلهم قولهم، لأن الفعل تبليغا كالقول، وأنهم

---

(١) الظلال. ج١. ص٥٩.

معصومون عن الخطأ في أمر الدين والدنيا معا، ويجوز عليهم مخالفة الأمر الإرشادي لأن مخالفته غير منافية للعصمة.

وقالوا في أكل آدم عليه السلام من الشجرة: أن النهي لم يكن نهي تحريم، لأن آدم غير مكلف في الجنة، فهو نهي إرشاد ونصيحة، والمخالفة هنا ليست معصية بمعناها الشرعي، وإنما ترك الأفضل والأرجح عقلا.

البَابُ السَّادِسُ

« أفكار وقضايا تتعلّق بالإنسان »

الفَصْلُ الأَوَّلُ: ماهيّة الإنسان

الفَصْلُ الثَّانِي: تكوين الإنسان وطبيعته

الفَصْلُ الثَّالِثُ: حقوق الإنسان في الإسلام

الفَصْلُ الأَوَّل

ماهيّة الإنسان

تعريف الماهية

لفظ الماهية مأخوذ من عبارة (ما هو أو ما هي) التي تقال في السؤال عن حقيقة الشيء. فإذا سؤلت: ما هو الإنسان؟ فأجبت: حيوان ناطق، كان هذا الجواب معبرا عن ماهية الإنسان. فالماهية: ما به الشيء هو هو. وتطلق غالبا على الأمر المتعقل بغض النظر عن الوجود الخارجي، والأمر المتعقل في جواب ما هو له عدة وجوه وأسماء:

- فمن حيث هو، يسمى: ماهية.
- ومن حيث ثبوته في الخارج، يسمى: حقيقة أو ذاتا.
- ومن حيث امتيازه عن الغير، يسمى: هوية.
- ومن حيث يستنبط من اللفظ، يسمى: مدلولا.
- ومن حيث أنه محل للحواث، يسمى: جوهرا.

ويعتبر تفكير الإنسان في ماهيته صفة إنسانية مميزة له عما سواه من الحيوانات، فلا نعرف عن أي حيوان غير الإنسان أنه يهتم بمعرفة ماهيته أو هويته.

التعريف بالإنسان بيولوجيا

الإنسان – من الناحية البيولوجية – حيوان ثديي، من فصيلة البشريات، ويعتبر قمة الرئيسات العليا، وهو حيوان:

- ذو حرارة عالية نسبيا وثابتة فلا تتغير بتغير حرارة البيئة.
- وله قلب رباعي الحجرات وحجاب حاجز.
- وله دماغ متطور يجعله قادرا على التفكير والكلام واستخدام الرموز المجردة.
- وله جهاز عصبي متطور جدا.
- ويتميز عن سائر الرئيسيات بانتصاب قامته، وبقدرته على استعمال يديه ببراعة فائقة.
- ويتمكن من نقل المعرفة وإنشاء الجماعات البشرية والمؤسسات.

الإنسان في اللغة

هو الكائن الحي المفكر من بني آدم وحواء عليهما السلام.

وجه التسمية إنسانا

قيل في وجه تسميته إنسانا أقوال عديدة، منها:

- من الأنس مقابل الوحشة.
- من الإيناس أي الإبصار وقوة الإدراك.

- من النواس أي الحركة مقابل السكون.
- من النسيان مقابل الذكر.

وجه التسمية بشرا

وقيل في وجه السمية بشرا أقوال عديدة، منها:

- لأنه أحسن الحيوانات هيئة.
- لظهور بشرته.
- مشتق من البشارة.

والخلاصة: يسمى إنسانا بالنظر إلى جانبه النفسي، ويسمى بشرا بالنظر إلى جانبه الجسدي الظاهر.

الإنسان في الاصطلاح

هناك أسئلة عديدة يثيرها العقل البشري لمعرفة ماهية الإنسان وخصائصه ومميزاته، منها:

- ما هو الإنسان؟
- هل هو ملك أم حيوان؟
- وما الذي يجعل الإنسان مختلفا عن سواه من المخلوقات؟

وقد عرف العلماء والفلاسفة الإنسان تعريفات عديدة للكشف عن خصائصه المميزة له عن سائر المخلوقات، منها:

التعريف (١): حيوان ناطق

حيث يتميز الإنسان بصفتين أساسيتين، وهما: النطق والتفكير المجرد، وهما وسيلة الإنسان إلى تحصيل المعرفة ونقلها. وهما مرتبطان ارتباطا وثيقا، وبهما تعرف حقيقة الإنسان وماهيته، في مقابل بعض الحيوانات التي تقوم:

- ببعض عمليات التفكير ولكنها لا تنطق، مثل: الشمبانزي، فهي تصدر بعض الأصوات والحركات كالرقص بطريقة غريزية تدل على اللذة والألم والفرح والحزن وربما المكان والمسافة، إلا أنها لا تستطيع التعبر عن معاني، مثل: الشجرة والمنزل والزمان والحق والعدل والخير والجمال والخوف والحب وغيرها .

والخلاصة: أن الفرق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان هو الفرق بين العلامة والرمز، فالإنسان هو الحيوان الوحيد صاحب اللغة الرمزية الفريدة، وهي رموز متنوعة وشاملة في مضمونها، فهي لا تقتصر على نشاط بذاته أو مجال بنوعه، وإنما هي لغة مطلقة تدخل إلى كل المجالات والعوالم: المرئية والمعقولة، وهي لغة منقولة وليست مرئية، ولا يوجد مقابل لها عند غيره من الحيوانات على الاطلاق.

- أو تنطق ببعض الكلمات ولكنها لا تفكر، مثل: الببغاء.

ورغم نجاح بعض التجارب في تدريب عدة قرود من نوع الشمبانزي في المختبرات على:

- التخاطب بإشارات الصم والبكم المستعملة في أمريكا.

- واستعمال قطع بلاستيكية دائرية ذات ألوان مختلفة بترتيبات عدة ليعني كل ترتيب معنى معينا .

- والتخاطب على أزرار لوحة رقابة عقل اليكتروني خاص.

فإن أي جنس من الحيوان لا يقارب الإنسان في المدى والعمق في عمليتي:

التفكير والتعبير، فالإنسان وحده الذي يجمع بين هاتين الصفتين (التفكير والتعبير / اللغة) بصفة كاملة، وهما متصلتان ويكمل كل منهما الآخر:

- فاللغة كحروف وكلمات وجمل ذات دلالات على معاني فكرية محددة، وتمثل شكلا خاصا من أشكال التفكير، بل هي نظام متكامل للتفكير. فالإنسان حينما يرتقي في مستوى تفكيره ويكون المعاني المختلفة في ذهنه، فإنه يحتاج إلى وسيلة للاحتفاظ بهذه المعاني والتمييز بينها ونقلها واسترجاعها وقت الحاجة، وهذه الوسيلة هي اللغة، التي هي عبارة عن مجموعة رموز حسية، مثل: الكلمات والأعداد والعلامات والأرقام والمعادلات الرياضية والمنطقية وغيرها، يستخدمها الإنسان للقيام بهذه الوظائف العقلية وتسهيل عملية التفكير.

- واللغة وسيلة للتعبير عن أفكار الإنسان ومشاعره ونقلها للآخرين، مما يعمل على التقارب والتآلف بين أفراد المجتمع، فهي محور رئيسي للحياة الاجتماعية، وجزء من ثقافة المجتمع، وبدونها يفقد التفكير وظيفته الاجتماعية.

- وهي خزانة ضخمة تضم الإدراكات والمعاني والقيم والأفكار والمفاهيم والمشاعر التي توصل إليها الإنسان، مما يساعد على تنامي المعلومات لدى الإنسان وتكاثرها باستمرار، ونقلها إلى خارج حدود الزمان والمكان، لتبقى وسيلة للتواصل بين الأمم المختلفة والأجيال المتعاقبة، مما يساعد كثيرا على تطوير الثقافة تطويرا مدهشا: كما ونوعا، بل تمثل إمكانية مفتوحة للتطور غير المحدود وغير المتناهي في عملية التفكير.

- أنها وسيلة يلجأ إليها العقل ويستفيد منها في عمليات التفكير نفسها، فكثيرا ما تتم عمليات التفكير المعقدة من خلال رموز اللغة، حيث يسمي العقل الأشياء من خلال اللغة، ويحتفظ العقل بالكلمات الدالة على الأشياء، ويتعامل معها تعامله مع الأشياء ذاتها نيابة عنها، ويجرب عليها عقليا الاحتمالات المختلفة، ويجمعها مع غيرها، الخ، مما يساعد على تطوير عمليات التفكير وتقدمها

وانسحابها إلى مجالات واسعة وبعيدة جدا عن الزمان والمكان والحواس الخمس، ويفكر بصورة مجردة في الفضاء أو في عالم الملكوت الأعلى المجرد عن المادة.. والخلاصة: أن اللغة هي أداة التفكير العميق والواسع، وبدون اللغة يستحيل التفكير الإنساني المجرد.

– أنها وسيلة إلى إيجاد أنماط من السلوك في المجتمع الإنساني لا يمكن أن توجد عند غيره من الحيوانات، مثل: قواعد الحلال والحرام، والأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والعبادة أو الاتصال بعالم الملكوت الأعلى.

– أنها وسيلة للتعبير عن الآمال والطموحات والتصورات المستقبلية، مما يرتفع بالإنسان فوق القيود، ويلعب دورا متميزا في إيجاد الحضارة الإنسانية وتطويرها باستمرار.

دور اللغة في عملية التفكير

نستخلص مما سبق دور اللغة في عملية التفكير فيما يلي:

– أداة تنظيم لعملية التفكير.

– أداة مساهمة في عملية التفكير نفسها، حيث يكون التفكير من خلال اللغة كأداة لاستحضار المعاني والأفكار ومعالجتها، ولا تتم عملية التفكير إلا بها.

الوظيفة الاجتماعية للتفكير (التفاهم) من خلال نقل نتاج عملية التفكير للآخرين، والتعرف على نتاج تفكيرهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1]. فلدينا:

– الألفاظ الدالة على المعاني.

---

(١) البقرة: ٣١.

- والمعاني الموجودة في الذهن.

العلاقة بين الألفاظ والمعاني

- أن العلم بالمعاني سابق على دلالة الألفاظ على المعاني.

- قد توجد معاني دون استخدام اللغة، مثل: الطفل الذي يدرك معنى السخونة والحرارة في النار أو الماء ويعبر عنها بالحركات والانفعال بدون أن يتكلم أو يستخدم اللغة.

والنتيجة: العلم بالمعاني هو الأساس.

أهميّة التفكير

وقد اعتبر علماء المنطق التفكير هو الحد الفاصل بين الإنسان وسائر الحيوانات، فهو الكائن الوحيد القادر على التفكير، وقد خص الله عز وجل به الإنسان، وبه:

- يدرك الحقائق المجردة، مثل: الله والعالم، ويميز بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، وغيرها.

- ويختار طريقه ومنهجه وسلوكه ومواقفه في الحياة بإرادة حرة واعية.

- ويكتشف أسرار الطبيعة وأسرار نفسه.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

---

(١) فصلت: ٥٣.

- يقوم بابتكار الأساليب والوسائل (الصناعات والتكنولوجيا) للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها من أجل خدمة أغراضه المختلفة في الحياة.

- ويبتدع مختلف الفنون: كالرسم والشعر والموسيقى للتعبير عن مشاعره وذوقه الجمالي.

- ويخطط وينظم ويدبر أمور حياته ويحل ما يواجهه من مشاكل وصعوبات.

العلاقة بين التفكير وحل المشكلات

لقد ارتبط التفكير في حياة الإنسان بحل المشكلات التي تواجهه وتعيق تحقيق رغباته: الجسمية والنفسية والفكرية والاجتماعية وغيرها.

مثال: حينما يجوع الإنسان فهذه مشكلة، ويحتاج للتفكير وابتداع الوسائل المختلفة لإشباع جوعه، فيكون الجواع دافع يحفز الإنسان على التفكير والبحث عن حل لإشباع مشكلة الجوع. وحينما يحتاج إلى الراحة والسكن، فإنه يفكر كيف يوفر لنفسه السكن المناسب ووسائل الراحة والاستقرار، وحينما يحتاج لضبط علاقاته المختلفة وتنظيمها، فإنه يفكر في الوسائل المناسبة لذلك، فيقوم بوضع الأنظمة والقوانين وتشكيل المؤسسات لذلك، وحينما يحتاج إلى التواصل والانتقال وقطع المسافات، فإنه يفكر كيف يتواصل وينتقل من مكان إلى آخر، فيخترع وسائل الاتصال والمواصلات، وهكذا.

وتعتبر الدهشة وحب الاستطلاع من أهم الدوافع التي تحفز الإنسان على عملية التفكير.

والنتيجة: التفكير لا يحدث إلا إذا سبقته مشكلة ما تكون بمثابة الدافع الذي يحفز الإنسان على التفكير والبحث عن الحل المناسب الذي يشبع رغباته

المختلفة ويحقق له الاستقرار والرضا النفسي.

والمراد بالمشكلة: كل موقف يحول دون تحقيق غرض أو رغبة لدى الإنسان، وهي عديدة لا حصر لها ومتنوعة، وتجعل الإنسان في مواجهة نفسه ومحيطه الطبيعي والاجتماعي. فهو يحاول أن يفهم كافة الظواهر التي تتعلق بنفسه: الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية (الآيات الأنفسية) وكافة الظواهر التي تتعلق بالطبيعة (الآيات الأفقية).

نشأة العلوم والتكنولوجيا

ولهذا أنشأ الإنسان علوما مختلفة بهدف التعرف على مختلف الظواهر المحيطة به: الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية والثقافية وغيرها، والكشف عن القوانين التي تحكمها، واخترع الصناعات المختلفة من أجل السيطرة عليها وتوظيفها لسعادته وتطوير حياته، فاخترع على وجه المثال:

- العلوم الطبيعية: الفيزياء والكمياء والفلك والأحياء.
- العلوم الرياضية: الحساب والهندسة والجبر.
- العلوم الإنسانية: الاجتماع والاقتصاد والسياسة والإدارة والتربية وعلم النفس.
- المنطق والفلسفة.
- وقام باختراع الوسائل والأساليب: القوانين والأنظمة والمؤسسات والتكنولوجيا.

محاور عملية التفكير

التفكير نشاط عقلي يسعى الإنسان من خلاله لحل مشكلة أو ظاهرة أو موقف غامض، ويعتمد على محورين أساسيين، وهما:

- الإدراك الحسي.
- العمليات العقلية الداخلية.

حيث يستمد التفكير مقوماته الأولى من العالم الخارجي بواسطة الإدراكات الحسية، ثم يقوم العقل بعد ذلك بعمليات عقلية داخلية استنادا إلى الإدراكات الحسية، ولا يمكن أن يقوم التفكير بدونها.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

وهذه بعض الحقائق التي تتعلق بهذا الموضوع:

- يغلب على الإنسان في مرحلة الطفولة التفكير الحسي ثم تأخذ العمليات العقلية الداخلية بالظهور تدريجيا.

- مهما كان موضوع التفكير مجردا، فإنه يستمد بعض مقوماته الأساسية من العالم الحسي.

- كلما ارتقى التفكير وأصبح أكثر تجريدا قل اعتماده على الصور الحسية، وكلما كان بسيطا وساذجا كثر اعتماده على الصور والمدركات الحسية.

---

(١) النحل: ٧٨.

مزايا التفكير

التفكير كنشاط عقلي يقوم باستخدام الرموز بدلا من الأشياء نفسها، وقد أعطى الإنسان مجموعة من المزايا الأساسية المهمة، منها:

- الاستفادة من خبرات الآخرين مهما ابتعدوا عنه زمانا ومكانا.

- الاحتفاظ بتجاربه المختلفة ونتاج تفكيره.

- التفكير في الحاضر والماضي والمستقبل.

- التفكر في القضايا غير الحسية.

- تسهيل عملية التفكير وزيادة الفاعلية والإنتاج واختصار الجهد والوقت، فمثلا: يستطيع استخدام جدول الضرب بدلا من الحصى والأصابع، ومعرفة عدد الأشخاص في مكان معين من خلال معرفة مساحة المكان، وهكذا.

- القيام بعملية التفكير في كل زمان ومكان، فهو يستطيع أن يفكر في حل مشكلة وهو في مكتبه أو على فراشه بدون الحاجة إلى معالجتها في العالم الخارجي.

- ضمان سلامتها وعصمتها من الخطأ من خلال الالتزام بالقواعد والقوانين اللازمة لذلك والتي يحتفظ بها في ذهنه.

- القدرة على تصور الغاية والأهداف والتبصر في عواقب الأمور.

- القدرة على تخيل الوسائل وابتكار الحيل التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه قبل أن يجربها بالفعل، مثال: يستطيع أن يستعرض مختلف وسائل النقل ويقارن بينها ويختار أفضلها للوصول إلى المكان الذي يريد الوصول إليه بدون أن يحتاج إلى تجريبها بالفعل.

العقل واستخلاف الإنسان

وعلى أساس العقل والتفكير اختار الله جل جلاله الإنسان لخلافته في الأرض، وفرض عليه الحلال والحرام، والثواب والعقاب.

قال الإمام الباقر عليه السلام: « لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب »[1].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): كلما كان الإنسان أكثر علما كلما كان أغنى في إنسانيته، فالعالم أغنى في إنسانيته / أكثر إنسانية من الجاهل.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

النتيجة (٢): يجب على الإنسان أن يستخدم عقله في كل تصرف، فلا يتصرف بدون تعقل للأمور، وكل تصرف لا يخضع للعقل فهو تصرف غير إنساني.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ

(١) الكافي. ج١. ص١٠.

(٢) الزمر: ٩.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1].

النتيجة (٣): أن الكثير من الميزات التي تفرد بها الإنسان أو تقدم فيها تقدما نوعيا على غيره من الحيوانات، مثل: استخدام الأدوات وصناعتها، واختراع الانظمة الاجتماعية والسياسية وإنشاء المؤسسات، فإنها وليدة عملية التفكير واحد نتاجاتها العظيمة.

التفكير موضوع للعلوم

وقد أخضع الإنسان ظاهرة التفكير نفسها للبحث والدراسة، شأنها في ذلك شأن الظواهر الأخرى، بهدف الكشف عن القوانين التي تحكم هذه الظاهرة وتعصم العقل من الوقوع في الخطأ، واستخدام هذه القوانين من أجل إحكام عملية التفكير وتطويرها وتسهيل عملية الكشف عن الحقائق في مختلف العلوم والمجالات، وهذه صفة إنسانية مميزة. وكان التفكير الإنساني مادة خصبة لعدد من العلوم، مثل:

- **علم النفس**: الذي يهتم بدراسة التفكير بوصفه نشاط يبذله العقل لحل مختلف المشاكل التي تعترض الإنسان والوصول إلى حلول مناسبة، مستخدما أنواعا شتى من العمليات العقلية، مثل: التذكر والتخيل والاسترجاع والتعرف وغيرها.

- **علم المنطق**: الذي يهتم بدراسة الأسس العقلية العامة التي يسير عليها الفكر الإنساني الصحيح في سبيل الوصول إلى الحقائق.

- **علوم اللغة**: تهتم بالنطق من حيث تركيبه اللفظي وقواعده النحوية.

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

صورة الفكر ومادّته

إذا حللنا التفكير الإنساني وجدناه يتكون من قسمين:

- صورة الفكر: والمقصود بها القوالب الثابتة التي توضح العلاقات المنطقية القائمة بين الكلمات والمعاني من حيث أن لها شكلا خاصا بها.

- مادة الفكر: والمقصود بها الموضوعات أو المضامين المتغيرة محل التفكير.

مثال (١) صورة التفكير: أ إما ب أو ج. مادة التفكير: الوقت إما ليل أو نهار.

مثال (٢) صورة التفكير: أ فوق ب. مادة التفكير: القلم فوق الطاولة.

الخطأ في التفكير

لدى الإنسان قابلية الخطأ والصواب في التفكير، وهذا الخطأ يعود لأسباب عديدة، أساسية وغير أساسية.

الأسباب الأساسية: سببان، وهما:

- أن تكون المقدمات التي توضع كأساس والتي تعطي النتيجة (المعلوم) خاطئة أو لا صلة لها بالموضوع أو ليس للشخص الذي استخدمها الفهم الصحيح لها.

- أن يكون ترتيب المعلومات ونظم العلاقة بينها خاطئًا.

الأسباب غير الأساسية: كثيرة منها:

- التسرع في الحكم: بحيث يعطي الرأي بدون روية وقبل الفحص

والتحقيق، أو ينظر للموضوع من جانب واحد، أو يستنتج من حالة فردية حكما عاما.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إنما أهلك الناس العجلة، ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد »[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « مع التثبت تكون السلامة، ومع العجلة تكون الندامة »[2].

وفي القول المأثور: « من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ».

- الذاتية: ويراد بها تحكم الرغبات والميول والعقد النفسية في الرأي، كأن نربط بين الصواب والخطأ من جهة والحب والكراهية من جهة أخرى، فنرى ما نحبه صوابا وما نكرهه خطأ، أو نتعصب فنصور الحق باطلا أو العكس في سبيل مصلحتنا الخاصة، أو نركز على أخطاء الآخرين ونتجاهل أخطاء أنفسنا كما يحصل بين الزوج وزوجته أو الصديق وصديقه.

والمطلوب: أن يتسم الإنسان بالموضوعية في الرأي (أي أن ينبع الرأي من الموضوع نفسه) بحيث يكون ثمرة للبحث الموضوعي متجردا عن الميول والعواطف والعقد النفسية.

- التعصب والعناد: كأن يصر الشخص على حل مشكلة بطريقة معينة دون غيرها من الطرق، أو يعتبر فلان من الناس معيارا للحق والصواب، فلا بد أن يفشل في معرفة الحقيقة، لأن التعصب والعناد يحولان دون رؤيته للحق والصواب.

- سوء استخدام اللغة: تدل اللغة على الأفكار والمعاني، مما يتطلب تحري الدقة في التعبير عن الأفكار والمعاني المقصودة، بإحكام صياغة الجمل والتراكيب،

---

(١) البحار. ج٧١. ص٣٤٠.

(٢) البحار. ج٧١. ص٣٣٨.

والتدقيق في فهم دلالة الألفاظ والجمل بالنسبة إلى المتلقي.

- صعوبة المشكلة: إذا عرضنا على الإنسان أمورا لا تتناسب مع ذكائه ومستواه العلمي، فمن الطبيعي أنه يخطىء، فالمطلوب: تناسب المشكلة مع المستوى العلمي للشخص لكي لا يقع في الخطأ.

- نقص الخبرة: كأن يواجه الشخص مشكلة معينة لأول مرة، فتكون قدرته على حلها أقل من قدرة الأشخاص الذين مرت عليهم مشكلات مشابهة - مع تساوي القدرات والاستعدادات العقلية المختلفة - وقد يقع في أخطاء كبيرة.

- نقص المعلومات وسوء الفهم: قد يكون الموضوع يتناسب مع ذكاء الشخص ومستواه العلمي، ولكن لا تتوفر لديه البيانات والمعلومات اللازمة للتفكير الصحيح في الموضوع وإيجاد الحل للمشكلة، أو يكون فهمه للمعلومات غير دقيق، فيكون عرضة للخطأ.. مثال: حينما يجهل المعلم ضعف السمع عند الطالب المتخلف دراسيا، فيرجع التخلف الدراسي لأسباب أخرى.

قوانين الفكر الأساسية

لقد حاول علماء المنطق الكشف عن القوانين العامة الأساسية التي تسير عليها عملية التفكير بكل أنواعه، في سبيل مساعدة الإنسان على التفكير الصحيح. وتمتاز هذه القوانين:

- بأنها قوانين أولية بديهية واضحة بذاتها بحيث نذعن لها ونسلم بها بمجرد تصورها بشكل صحيح.

- بأنها دعامة المنطق وأساس البرهنة والاستدلال، وعليها يعتمد القياس والاستقراء وجميع مناهج البحث العلمي.

وتسمى بـ (قوانين الفكر) وقد حصرت في ثلاثة قوانين أساسية، وهي:

القانون (١) الذاتية: تتعدد الكائنات وتتباين فيما بينها، فلكل كائن وجوده الخاص الذي يعرف به ويتميز به عن غيره في مختلف الظروف والأوضاع، وهذا هو قانون الذاتية، ويعبر عنه: الشيء هو نفسه (الإنسان هوالإنسان – أ هي أ) ولا يمكن أن يكون شيئا آخر غير نفسه.

وبحسب قانون الذاتية: يوجد في جميع الكائنات نوعان من الصفات:

- الصفات الجوهرية الثابتة، مثل: التفكير عند الإنسان.
- الصفات العرضية المتغيرة، مثل: اللون والجنس واللغة والدين عند الإنسان.

وتتحقق الذاتية بواسطة الصفات الجوهرية الثابتة التي تميز الكائن عن غيره من الكائنات.

القانون (٢) عدم التناقض: لا يمكن أن يوصف الشيء بصفة ونقيضها في وقت واحد، مثل: (موجود وغير موجود – أ ولا أ) ويعبر عنه: الشيء لا يمكن أن يكون هو ولا هو في وقت واحد، وهو يرتبط ارتباط وثيقا بقانون الذاتية، فإذا قررنا أن الشيء هو هو، فلا يمكن هو ولا هو في آن واحد، فهذا تناقض لا يقره العقل ولا يقبل به.

القانون (٣) الوسط الممتنع أو الثالث المرفوع: حيث لا يوجد طرف ثالث بين الشيء ونقيضه، فالوسط مرفوع بين النقيضين، فالشيء إما أن يوصف بصفة معينة أو نقيضها ولا وسط بينهما، مثل: (الشيء إما أبيض أو غير أبيض – أ أو لا أ) ويعبر عنه: الشيء إما أن يكون هو أو لا هو ولا ثالث لهما.

أما مناهج البحث: فتتعدد بتعدد العلوم.

التعريف (٢) حيوان أخلاقي

إن لدى الإنسان حاجات مادية تنبع من الغرائز المرتكزة في وجوده، وهو يسعى لإشباعها شأنه في ذلك شأن سائر الحيوانات، ولكنه الحيوان الوحيد الذي:

- يبحث عن الحقيقة للسير على هديها في حياته، فهو في صراع دائم ضد الأكاذيب والخرافات والأوهام والأخطاء: الحسية والعقلية، آملا أن يصل إلى الحقيقة ويحدد مصيره من خلالها، ليكون بحق: سيد مصيره.

- يمتلك نظاما قيميا، فهو يراقب دوافعه وغرائزه ويستطيع التحكم فيها والسيطرة عليها وتوجيهها، وهو يستطيع أن يرتفع إلى أسمى درجات التضحية وإنكار الذات وفق نظامه القيمي، ليكون بحق: ربيب الفكر وحليف الأخلاق.

- ويمكن أن تحل القناعة النفسية لديه جزئيا محل الإشباعات الغريزية لتلبية حاجاته البيولوجية، أي: استبدال النظام الحيوي بنظام قيمي.

- يخلع على الأحداث دلالات ومعاني ينتزعها من أفكاره وأخلاقه، ويحاول بقوة العقل والإيمان تجاوز الواقع لتحقيق ما ينبغي أن يكون، فهو الكائن الوحيد القادر على توجيه قواه وملكاته: الحسية والعقلية والنفسية والاجتماعية لتحقيق المثل والقيم الإنسانية العليا التي يؤمن بها، فهو لا يقتنع أبدا بالظاهر وما يقدمه له الواقع، وإنما يسعى دائما للتحكم فيه وتوجيهه وتطويره نحو تحقيق المثل والقيم العليا التي يؤمن بها، سواء كان الواقع مرتبط بنفسه أو بالخارج.

وهذا هو معنى الإنسان حيوان أخلاقي.

الحاجة إلى الأخلاق في حياة الإنسان

إذا تأملنا في عالم الحيوان وجدنا أن غريزته تتولى هدايته في تنظيم حياته

وتدبير أمره: منفردا ومجتمعا.

مثال (١) النمل: حيث تعمل جماعة النمل في فصل الصيف في تعاون واتساق وفق نظام غريزي دقيق، لجمع أقواتها وادخارها في جحورها إلى فصل الشتاء.

مثال (٢) النحل: حيث تقوم مملكتها على: ملكة، وعاملات، وذكور، ويقوم كل بدوره في نظام المملكة بدقة واتساق.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١].

أما الإنسان: فغرائزه متنوعة ومعقدة:

- فمنها الفردي الذي يدفع إلى الأنانية والأثرة، ويقابله الاجتماعي الذي يدفع نحو التعاون والإيثار.

- ومنها الذي يهبط به إلى حضيض الشهوة والمادة، ويقابله ما يسمو به إلى أفق الروح والملكوت.

وذلك لأن الإنسان مركب يوجد في كيانه:

- أرضي وسماوي / ملك وملكوت.

- جسد وروح.

- عقل وشهوة.

---

(١) النحل: ٦٨ - ٦٩.

- شيطان وملك.

ولهذا عرف بعض الفلاسفة الإنسان بأنه: مواطن في عالمين.

ولهذا فهو بحاجة ماسة إلى الأخلاق لتوحي له بالأهداف وتحدد له قواعد التصرفات.

دور الأخلاق في المجتمع

فإذا فقد المجتمع البشري الأخلاق، فإنه يتحول إلى مجتمع حيوانات، لا يردعها رادع عن أفعالها الضارة، مما يهدد وجود المجتمع ويقوده إلى الانهيار، لأسباب طبيعية وأسباب غيبية، وكلها تدخل ضمن السنن الكونية في الكون والحياة.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[2].

ولن تجدي القوانين والعقوبات الاجتماعية في إلغاء هذه النهاية المأساوية للمجتمع، وذلك للأسباب التالية:

---

(١) الإسراء: ١٦ - ١٧.

(٢) الأنعام: ٦.

- لأن سلطة القانون على الظاهر لا على الباطن، والإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره.

- وموضوعه الشؤون العامة لا الشؤون الخاصة.

- والقوانين الوضعية تعاقب المسيء ولا تكافئ المحسن.

- وتردع عن المخالفة ولا تدفع نحو الحق والخير والعمل الصالح.

- ويمكن التحايل على القانون وتطويع نصوصه للأهواء والهروب من العقوبة.

هذا فضلا عن فساد الحكومات القائمة على تنفيذه.

ومن جهة ثانية: فإن نشر العلوم والثقافات لا يعد بديلا عن الدين والأخلاق، وذلك لأن العلم سلاح ذو حدين فهو يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير، ويحتاج لحسن استخدامه إلى رقيب أخلاقي يوجهه نحو الخير والصلاح بدل الشر والفساد، والرقيب الأخلاقي هو العقيدة الصالحة والإيمان.

- فالدين هو المصدر المعصوم الذي يحدد الأخلاق الحسنة والأخلاق القبيحة.

- وهو الذي يربط الإنسان بمثله الأعلى الذي يؤمن به ويرنو إليه ويعمل من أجله.

- وهو الذي يحد من أنانية الفرد ويكبح طغيان غرائزه.

- وهو الذي يربي في الإنسان الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق.

قال القاضي البريطاني دينتج: « بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك

أخلاق، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون! »[1].

وتعمل الأخلاق في المجتمع كما تعمل القوانين المادية في الطبيعة من أجل حمايته وتحقيق أهدافه السامية.

مثال: الصدق: يوجد البر في النفس، والطمأنينة في القلب، والاستقامة في السلوك، ويمنع النفاق والازدواجية في الشخصية، ويؤدي إلى الثقة بين أفراد المجتمع، فيورث القوة والتماسك والبناء الايجابي في الحياة.

أما الكذب: فيوجد الفجور والخيانة، ويؤدي إلى الأضطراب والخلل في الشخصية، والانحراف في السلوك، ويضعف الثقة بين أفراد المجتمع، فيورث الضعف والتفكك ويهدد وجود المجتمع ويقوده إلى الانهيار والزوال.

والخلاصة: إذا أراد الناس أن يعيشوا حياة سعيدة مقرونة بالحب والسلم والتعون المشترك، فعليهم أن يعلموا بأن الطريق إلى ذلك هوالرشد الأخلاقي.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « سوء الخلق نكد العيش وعذاب النفس »[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « إن البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار »[3].

أصول الأخلاق

تنتهي الأخلاق الإنسانية إلى ثلاث قوى عامة في النفس تنتهي إليها أفعال الإنسان، وهي:

---

(١) الايمان والحياة. القرضاوي. ص٢٠٩.

(٢) غرر الحكم.

(٣) البحار. ج٦٨. ص٣٩٥.

- **القوة الشهوية**: وهي المسؤولة عن سعي الإنسان لجلب المنفعة لنفسه، مثل: الأكل والشرب والملبس والمسكن والنكاح وغيرها.

- **القوة الغضبية**: وهي المسؤولة عن سعي الإنسان لدفع الضر عن نفسه، مثل: الدفاع عن المال والعرض والمكانة وغيرها.

- **القوة الناطقة**: وهي المسؤولة عن الأعمال الفكرية لدى الإنسان، مثل: تكوين التصورات وإقامة الحجة على صحة أو خطأ قضية معينة.

حدود القوى الثلاث

ولهذه القوى الثلاث ثلاثة حدود (الاعتدال والإفراط والتفريط) والمطلوب من الإنسان أن يسلك بها حد الاعتدال، والحدود هي كالتالي:

حدود القوة الشهوية:

- حد الاعتدال: العفة.
- وحد الإفراط: الشره.
- وحد التفريط: الخمود.

حدود القوة الغضبية:

- حد الاعتدال: الشجاعة.
- وحد الإفراط: التهور.
- وحد التفريط: الجبن.

حدود القوة الناطقة:

- حد الاعتدال: الحكمة.

- وحد الإفراط: الجربزة.

- وحد التفريط: البلادة أو البله.

وقد أشار الله جل جلاله إلى هذه الفضائل الثلاث في صفات المؤمنين في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1].

- الإيمان بالله عز وجل وبرسوله ﷺ من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة.

- والمجاهدة بالمال هو السخاء والكرم الذي يرجع إلى ضبط القوة الشهوية.

- والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال.

ملكة العدالة

وتحصل ملكة رابعة في النفس - بالنظر إلى القوى الثلاث مجتمعة - تمثل حالة مشتركة بينها، وهي ملكة العدالة، ولها ثلاثة حدود أيضا:

- حد الاعتدال: العدالة، والمراد بها: إعطاء كل قوة من القوى الثلاث حقها على ضوء العقل والدين.

- وحد الإفراط: الظلم.

---

(١) الحجرات: ١٥.

- وحد التفريط: الانظلام.

والخلاصة: أصول الأخلاق أربعة: (العفة والشجاعة والحكمة والعدالة) ولكل منها فروع تنشأ منها وترجع إليها بحسب التحليل، وتمثل جميع الملكات الأخلاقية لدى الإنسان والمسؤولة عن جميع أفعاله.

تربية النفس على الأخلاق

وتكون تربية النفس على الأخلاق عن طريقي: العلم والعمل، أي:

- إذعان النفس بأن الصفة الأخلاقية المعينة جميلة، ثم يعمل على تكرار العمل بها حتى تصبح هيئة راسخة في النفس.

- أو إذعان النفس بأن الصفة الأخلاقية المعينة قبيحة، ثم يصر على تجنبها حتى تزول عنه تماما.

العلاقة بين الأفعال والأخلاق والأفكار

لقد ثبت بالتجربة:

- أن الأعمال الصالحة هي التي تحفظ الأخلاق الحسنة.

- وأن الأخلاق الحسنة هي التي تحفظ الأفكار الصحيحة.

- وأن انحراف الأخلاق يؤدي إلى حجب الحقائق الإلهية وانحراف الأفكار.

مثال (١): المسرفون في الشهوة: (أي: في لذائذ الطعام والشراب والنكاح والسلطة وغيرها) لا يستطيعون التفكير في معالي الأمور، لأن إشباع بطونهم

وإرضاء ملذاتهم وملء جيوبهم وفرض سيطرتهم على الناس هو الهدف الأسمى الذي يعيشون من أجله في الحياة، فيؤدي ذلك إلى انحراف تفكيرهم من هذه الجهة.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[2].

مثال (٢):الطغاة المستكبرين الذين قسة قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، لا يتأتى لهم التفكير في الرأفة والرحمة والشفقة، فيؤدي ذلك إلى انحراف تفكيرهم من هذه الجهة.

قول الله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾[3].

ولهذا اشترط القرآن الكريم التقوى في التفكير، ودعا إلى مقارنة العلم بالعمل للحصول على الاستقامة في التفكير والحصول على العلم النافع وخلوصه من شوائب الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ

---

(١) سبأ: ٣٤.

(٢) الزخرف: ٢٣ – ٢٤.

(٣) الأعراف: ١٤٦.

سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

مصدر الأخلاق لدى الإنسان

والأخلاق والقيم الفاضلة لا تنبع إلا من أشواق الروح وتطلعاتها، فالحاجات البيولوجية / الحاجات الجسمية للإنسان لا تمنح الإنسان الأخلاق والقيم الفاضلة.

- فإذا كان الإنسان ذو خلق كريم ونفسية فاضلة، فإنه يضفي على أساليب إشباع حاجاته البيولوجية ووسائل الحياة المختلفة الطابع الخلقي.

- أما إذا كان الإنسان ذو خلق سيء وطابع لئيم، فإنه يحولها إلى وسائل تقزز النفوس التي تمتلك الفطرة السليمة، وتزكم أنوفها بروائحها المعنوية السيئة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) الأنفال: ٢٩.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) العنكبوت: ٦٩.

خَبِيرٌ﴾[1].

ولهذا فإن الإسلام الحنيف: قد بدأ الرحلة مع الإنسان ببناء العقيدة الصالحة، فوجهه إلى ربه ذي الجلال والإكرام، وجعل غايته مرضاته، وجعل سبيله إلى ذلك عبادته، مما يربي الإنسان على الفضيلة والأخلاق الحميدة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[2].

قال الفيلسوف الألماني فيختة: « الأخلاق من غير دين عبث »[3].

وقال الزعيم الهندي غاندي: « إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال، ولا يفترقان بعضهما عن بعض. فهما وحدة لا تتجزأ. إن الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجو للروح. وبعبارة أخرى إن الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها، كما أن الماء يغذي الزرع وينميه »[4].

وقال العلامة الطباطبائي: « الأخلاق الفاضلة... تحتاج في ثباتها واستقرارها إلى ضامن يضمن حفظها وكلاءتها وليس إلا التوحيد أعني القول بأن للعالم إلها واحدا ذا أسماء حسنى خلق الخلق لغاية تكميلهم وسعادتهم وهو يحب الخير والصلاح، ويبغض الشر والفساد وسيجمع الجميع لفصل القضاء وتوفية الجزاء فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ».

وقال: « وأما ما يتوهم – وكثيرا ما يخطي فيه الباحث – من الروادع المختلفة كالتعلق بالوطن وحب النوع والثناء الجميل ونحو ذلك فإنما هي عواطف

---

(١) آل عمران: ١٨٠.

(٢) الكنز. الهندي. ج٣. ص١٦. الحديث: ٥٢١٧.

(٣) الايمان والحياة. القرضاوي. ص٢٠٩.

(٤) نفس المصدر.

قلبية ونزوعات باطنية لا سبب حافظا عليها إلا التعليم والتربية من غير استنادها إلى السبب الموجب فهي إذن أوصاف اتفاقية وأمور عادية لا مانع معها يمنع من زوالها فلماذا يجب على الإنسان أن يفدي بنفسه غيره ليتمتع بالعيش بعده وهو يرى أن الموت فناء وبطلان؟ »[1].

إن ميزة الأخلاق في الإسلام: أنها موصولة الأسباب بالله ذي الجلال والإكرام، فيأتي بها المسلم قاصدا وجه الله ذي الجلال والإكرام، دون النظر لما قد يأتي من ورائها من ربح أو منفعة، مما يجعلها تتميز عن الأخلاق النفعية المادية:

- بأنها دائمة العطاء وليست آنية.

قال الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

- وأنها في غاية السمو والرفعة لأنها ترتبط بالصدق والإخلاص وتخلص النفس من أنانيتها فتكون في غاية التمام.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقد يشكل البعض بالقول: أن الأخلاق الأسمى هي الأخلاق التي تبنى على ذاتها ولذاتها، وأن الأخلاق التي تبنى على الإيمان أقل سموا من الأخلاق التي تبنى على ذاتها ولذاتها، لأنها ترتبط بغيرها وبالثواب والعقاب.

والجواب على هذا الإشكال يقع في نقاط عديدة أساسية، وهي:

---

(١) الميزان.ج٤ ص١١١.

(٢) النحل: ٩٦.

(٣) النحل: ٩٥.

النقطة (١): أن بناء الأخلاق على ذاتها ولذاتها طرح غير واقعي، وذلك لأنه:

- لا يطرح سببا واقعيا لظهور الأخلاق وتنميتها.
- ولا يمتلك بوصلة تحديد الاتجاه التي ينبغي أن تتجه إليها الأخلاق.
- ولا يمتلك معايير واقعية لوزن وتثمين القيم الأخلاقية وتقييمها.

وينتج عن ذلك:

- أنه يطمح في ظهور المعلول بدون وجود العلة.
- وفي ظلمة الطرح المعتمة، وغياب البوصلة التي تحدد الاتجاه، يمكن أن تتجه الأخلاق في كل اتجاه بغير هدى ولا نور.
- لا يمكن أن توجد في ظل هذا الطرح أية قيمة أخلاقية واقعية.
- لا يمكن أن توجد في ظل هذا الطرح قيم أخلاقية إيجابية من المعيار الثقيل.

والخلاصة: هو طرح مبني على الوهم والخيال، وبعيدا كل البعد عن الواقع، ولا يمكن أن يثبت أمام التحديات الفعلية المحركة لقوتي الشهوة والغضب.

النقطة (٢): أن وجود الذات العلية مطلق، والارتباط بالموجود المطلق، كما يتصف بالواقعية، فإنه يحرر الذات العاشقة لها من كل قيد في سيرتها التكاملية، ويجذبها بقوة نحو الكمال في الذات والصفات والأفعال.

النقطة (٣): لقد ثبت بالتجربة أن الارتباط بالذات العلية المطلقة قد نجح في خلق نماذج بشرية كاملة، لم تنجح الفلسفة المذكورة في خلق مثيل لها ولا قريب منها، وأن هذه النماذج قد تقدمت في سيرتها التكاملية على الذوات العاشقة بطبيعة تكوينها مثل الملائكة.

النقطة (٤): أن الارتباط بالذات العلية على ثلاثة أنماط:

- الخوف من العقاب: حيث أن الابتعاد عنها ومعصيتها ينتج عنه بصورة طبيعة الألم والعذاب والشقاء.

- الطمع في الثواب: حيث أن القرب منها وطاعتها ينتج عنه بصورة طبيعية السرور والنعيم والسعادة.

- العشق للذات: وهذا يحرر العاشق من قيود الثواب والعقاب وغيرهما من القيود، ويجذبه بقوة ولطف نحو المطلق في رحاب العشق المفتوح / غير النهائي الذي لا يقف عند حدود في السير والعطاء.. فالشهيد مثلا: لا يطلب الجنة ولا يحذر من النار فحسب، لأنه يستطيع أن يحصل على الجنة ويتجنب الوقوع في النار بأقل من الشهادة وبذل الدم في سبيل الله تبارك وتعالى، ولكنه يقع تحت تأثير العشق لله ذي الجلال والإكرام، فالهدف هو القرب من الذات العلية ورضاها ومحبتها، وليس الحصول على مجرد الثواب وتجنب العقاب، وهذا يمثل قمة الإنسانية وذروتها، وليس فوقه في سماء الإنسانية الفعلية شيء، وكل ما يقال أنه فوقه فهو وهم لا حقيقة له ولا وجود.

ولهذا تكفل الله عز وجل بمباركة الأعمال الصالحة التي يعملها الإنسان بنية خالصة لله ذي الجلال والإكرام، وزيادة ثمراتها وعطاءاتها في حياة الإنسان: الفردية والمجتمعية، والمجازاة عليها بأحسن الجزاء يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١].

ونتوصل مما سبق إلى أن الأخلاق التي تتولد بسبب الارتباط بالذات العلية، تتصف:

---

(١) النحل: ٩٧.

- بالواقعية.

- والقدرة على النمو.

- والقدرة على التأثير والعطاء على المستويين: الفردي والمجتمعي.

- وأنها منجية في الآخرة من النار، وسبيلا إلى الفوز بأرفع الدرجات في الجنة، وإلى الرضوان.

وتتميز الأخلاق التي تتولد عن الارتباط بالذات العلية عن الأخلاق الاجتماعية التي تبنى على مراعاة المجتمع، بأنها:

- مطلقة.

- وعادلة.

- وغايتها وجه الله ذي الجلال والإكرام، وتحقيق السعادة الحقيقية للإنسان.

أما الأخلاق الاجتماعية، فهي:

- نسبية تختلف باختلاف المجتمعات.

- وغايتها تحصيل الثناء الجميل من المجتمع، ولهذا قد يتورط الإنسان في الظلم من جهة التحيز للمجتمع الذي ينتمي إليه والرغبة في إرضائه.

- لا تمتلك القابلية لتحقيق السعادة الحقيقية للإنسان (الموجود الخالد) لأنها تقف عند ضفاف المجتمع، وتزول آثارها وتنتهي بانتهاء المجتمع وزواله.

متطلبات عملية البناء الخلقي

وتتطلب عملية البناء الخلقي:

- اليقظة الدائمة ومراقبة النفس ومحاسبتها.

- الممارسة اليومية الدؤوبة والمعاناة النفسية المتواصلة من أجل صقل النفس وتدريب الجوارح.

- تضافر المجتمع وتقديم الدعم للأفراد من أجل اكتساب النفس للأخلاق الفاضلة.

ونستطيع تلخيص جهد الإسلام في تنمية الأخلاق الفاضلة، في:

- تنمية الإيمان بالله ذي الجلال والإكرام وباليوم الآخر.

- التوجيه نحو بذل الجهد المستمر من أجل تزكية النفس وتطهيرها من أوساخ الذنوب والخطايا.

- بناء المجتمع الإسلامي الذي تترعرع فيه عقيد التوحيد والأخلاق الفاضلة.

أما تكليف الإنسان المسلم فيتلخص، في:

- فهم عقيدة التوحيد فهما صحيحا وملأ القلب والعقل بها ورؤية الأمور من خلالها وصيانتها من التحريف.

- بذل الجهد في إصلاح النفس وتزكيتها وتكميلها من خلال الاستقامة على نهج الإيمان والتزود من رحيقه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1].

---

(١) فصلت: ٣٠.

- بذل الجهد مع إخوانه المؤمنين لإقامة المجتمع الإسلامي بإيجاد مؤسساته وتطبيق أنظمته الشرعية والقيمية.

التعريف (٣): حيوان اجتماعي

اعتبر بعض الفلاسفة كلمة مجتمع مرادفة لكلمة الإنسانية حيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده بدون جماعة منظمة من جنسه.

والمستفاد من القرآن الكريم أن الإنسان اجتماعي بالطبع، أي: أنه جبل على ذلك من أصل فطرته وخلقته، وأن الناس عاشوا في حياة اجتماعية منذ نشأتهم الأولى.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[٢].

قال الله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[٣].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الفرقان: ٥٤.

(٣) الزخرف: ٣٢.

المجتمعات الحيوانية والمجتمعات الإنسانية

يشترك الإنسان مع الحيوان في العيش ضمن مجموعة، إلا أن المجتمعات الحيوانية تقوم على أساس الغريزة فقط، بينما تقوم المجتمعات الإنسانية على الغريزة أولا، ثم يقوم العقل الإنساني بتنظيمها بحيث تتحول إلى نظام اجتماعي يقوم على التفكير، وتختلف الأنظمة الاجتماعية باختلاف المبادئ والقيم التي تسود كل مجتمع.

وقوام النظم الاجتماعية:

- **الفكرة:** التي هي عبارة عن المبادئ والقيم والاهتمامات والآراء المقننة والمعترف بها والمتوافق عليها في المجتمع.

- **البناء:** وهو الجهاز الذي يساند الفكرة ويزودها بالوسائل التي تتجه بها إلى عالم التطبيق الذي يخدم مصالح المجتمع.

وظائف التنشئة الاجتماعية

يولد طفل الإنسان وهو في غاية الضعف، فلا حول له ولا قوة، ولا يستطيع أن يعتمد على نفسه في شيء من الأمور الخارجية لكي يعيش، ونموه بطيء جدا، ولا يستطيع أن يعيش إلا في ظل أسرة ترعاه ولفترة طويلة نسبيا إذا قيست بتلك الفترة التي يحتاجها صغار الحيوانات الأخرى عادة.

وتؤدي الحياة الاجتماعية الوظائف التالية:

- تساعد على البقاء والاستمرار: للفرد والنوع، حيث يمد المجتمع الإنسان بالحماية والراحة والاستقرار وتوفير الغذاء والمسكن والملبس وفرص التناسل وتحقيق السعادة العامة لأبنائه، وبدونها لا يستطيع الفرد الاستمرار

في الحياة.

فقد توصل باحث في التحليل النفسي في (عام:١٩٥٨م) إلى أن انعدام عناية الأم وإثارتها لأحاسيس طفلها وإظهار حبها له يؤدي إلى تخلف جسماني وعاطفي وإلى معدلات عالية في الوفيات. وقد وجد من مجموع (٩١: طفلا) كانوا موضوع دراسته في بيوت حضانة في الولايات المتحدة الشرقية وكندا، أن (٣٤: طفلا) منهم مات رغم الطعام الجيد والعناية الطبية الفائقة[١].

يقول بيترفارب: « وصحيح أننا نرث عن والدينا وأهلنا شكلنا الأساسي ونسب أجسامنا وأجهزتنا التي تبقى الحياة مستمرة فينا، ولكن الأمر يحتاج شيئا آخر غير ذلك ليصبح الواحد منا إنسانا كاملا فعالا. وهذا الأمر هو الاتصال بأفراد آخرين من نوعنا الإنساني. فالأطفال الذين يعزلون عن غيرهم من الأطفال ليسوا في واقع الأمر بشرا غير أنهم يحملون في أعماقهم الإمكانيات الإنسانية »[٢].

- قيام الثقافة والتنشيئته الإنسانية للفرد والنوع، حيث يتدخل المجتمع في مضمون أفكار الفرد الذي ينتمي إليه وأخلاقه وميوله وطموحاته وتنظيم سلوكه. والثقافة لا يمكن أن يصنعها الفرد منفردا، وإنما تتم صناعتها في وسط اجتماعي، وأن الكثير من المفاهيم الأساسية في حياة الإنسان، مثل: الخير والشر والجمال والقبح والعدل والظلم، لا يمكن أن تبرز إلا في هذا الوسط الاجتماعي. كما أن الثقافة تمكن الإنسان من الحصول على المعلومات والقيم وخزنها وتبادلها ونقلها للجيل اللاحق، بحيث لا يحتاج الجيل الجديد إلى أعادة اكتشافها وتعلمها من جديد، وإنما يتلقاها من مجتمعه، فالجيل الجديد يأخذ من المعلومات والقيم من المجتمع أكثر بكثير مما يتعلمه بالتجربة الذاتية وحدها.

---

(١) سلسلة عالم المعرفة.بنو الإنسان.بيترفارب.ترجمة: زهير الكرمي.ص١٢.

(٢) نفس المصدر.

فقد أكدت الكثير من الدراسات: بأن المهارات والصفات التي ترسم معالم شخصية الفرد وهي مميزات إنسانية، لا تبرز إلا نتيجة الاختلاط والتعايش مع أناس آخرين، لاسيما في السنوات الأولى من حياة الإنسان.

يقول الطبيب الفرنسي فيتشه (١٦١٣- ١٦٦٧): « الإنسان لا يصير إنسانا إلا بين الناس ».

- المحافظة على التوازن النفسي والعقلي للإنسان، فإن عزل الإنسان عن بني جنسه إلى فترة طويلة من الزمن، يؤدي إلى الاضطراب النفسي والعقلي لديه.

- تعطي الإنسان القوة وتقوم بإسناده في سلوكه وتصرفاته واتجاهاته، وتساعده على تحقيق الأهداف والطموحات والآمال الكبيرة والرقي والتكامل المادي والمعنوي وتحقيق الأفضل للفرد والنوع، وتهيئة الوسط الاجتماعي الذي يشبع فيه الفرد حاجاته المختلفة ويمارس تأثيره في الآخرين.

والخلاصة: الإنسان لا يستطيع أن يتقدم ماديا ومعنويا ويشبع حاجاته المختلفة ويحقق أهدافه وطموحاته الكبيرة بدون الحياة الاجتماعية.

وقد لاحظ علماء الاجتماع والدراسات البشرية (الانثروبولوجيا) أن أطفالا تركهم ذووهم في أحراش استراليا والهند التي يقطنها بعض الأقوام البدائية، وكانت تتعهد هؤلاء الأطفال بعض الحيوانات بعاطفتها الطبيعية بعيدا عن أي وسط إنساني، فكان هؤلاء الأطفال ينشأون مزودين بعادات تجعلهم أقرب للحيوانات منهم للإنسان:

- فلا لغة لهم إذ هم يصدرون أصواتا تشبه أصوات الطيور والحيوانات المحيطة.

- لا يعرفون المشي على قدمين، بل يمشون على أربع أو يزحفون على بطونهم.

- تدني مستوى الذكاء لديهم، فذكاؤهم أقرب لذكاء الحيوانات لاسيما القردة.

ويسمى هؤلاء الأطفال: بالأطفال الجن أو الأطفال الذئاب.

قصة الصبي فكتور في فرنسا

في شتاء (عام: ١٧٩٩م) القارس، اضطر صبي متوحش للخروج من الغابة تحت تأثير البرد القارس واستسلم للناس، وكان قد قضى في الغابة حتى بلغ (١٢: سنة) من عمره، ولم يكتشف أمره إلا عندما رآه بعض الجيران في (سنة: ١٧٩٨م) إلا أنه نجح في تحاشي الذين حاولوا جاهدين الإمساك به طوال ذلك العام، وقد وجد أنه:

- قذر إلى حد يثير الاشمئزاز.
- كان يهز جسمه كالقرد في حديقة الحيوان.
- كان يعض ويخدش بأظفاره كل من كان يحاول إطعامه.
- لم يظهر أي محبة أوعاطفة نحو أي إنسان.
- كان يتصرف كما يتصرف الإنسان الأبله.

وقد ذهب الناس في النظر إلى حالته إلى مذاهب عديدة، منها:

- اعتبره البعض دليلا على صحة ما وصفه روسو بـ (المتوحش النبيل) حيث كان ذا بنية قادرة - بشكل يفوق المعتاد - على تجاوز الصعوبات المادية والمعنوية، حيث استطاع العيش عاريا في جو قارس، ومتمتعا بصحة جيدة، ولم يتعرض لرذائل المجتمع العديدة.

- ورأى فيه البعض درسا موضوعيا يوضح المدى الذي يمكن أن ينحط إليه الإنسان إذا حرم من الضوابط والرعاية الاجتماعية.

- ورأى آخرون أنه يمثل الماضي حينما كان الإنسان يعيش في توافق ووحدة مع الطبيعة كلها.

- ورأى البعض - والرعب يملأ قلوبهم - أنه تجسيدا للطبائع البهيمية غير المهذبة للإنسان.

- ورأى المؤمنون أنه شهادة بنعم الله تبارك وتعالى على الإنسان إذ يسخر لهم من يرعاهم حينما تحرمهم الحياة من الأبوين والمجتمع.

- **إنه دليل قاطع على أهمية تعليم الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام** واحتضانه في الجنة وتمريره بتجربة قاسية (الأكل من الشجرة) لكي يتعلم من التجربة تعلما ميدانيا ويكتسب الخبرة اللازمة - بالإضافة إلى التعليم النظري - لكي تبدأ مسيرة الإنسان في خطواتها الأولى في الحياة بداية حضارية راقية. ثم تعهد المسيرة بالرعاية والتوجيه من خلال الأنبياء والرسل عليهم السلام لكي لا تتعثر، وقد ساهمت رسالات الأنبياء في تهذيب مسيرة الإنسان وحضارته، وإعطائهما دفعات قوية للتقدم إلى الأمام، ولولا ذلك، لكان لمسيرة الإنسان وحضارته على الأرض شأن مخالف كثيرا لما هو عليه الآن.

وقد قام الدكتور (جين مارك كاسبار ايتار) بمحاولة إعادة الصبي فكتور إلى الحظيرة الإنسانية، فأطلق عليه اسم (فكتور) واعتمد أساليب جديدة في البحث العلمي تعتمد على المحاولة والخطأ - نظرا لعدم وجود حالة مماثلة سابقة - وتوصل في غضون سنوات إلى النتائج التالية:

- تعلم فكتور كيف يلبس ملابسه.

- وتعلم كيف يتصرف بشكل معقول.

- واستطاع فهم اللغة الفرنسية ولكنه لم يستطع التحدث بها.

وأكد الدكتور ايتار: أن فكتور لم يكن متخلفا بأي شكل من الأشكال، ولكن العزلة الاجتماعية التي فرضت عليه كانت السبب في مصيبته، وأن أثرها غير قابل للإصلاح.

وقال الدكتور ايتار: « يأتي الإنسان إلى هذه الكرة الأرضية بدون قوة جسدية، وبدون أفكار تولد معه، وغير قادر بذاته على متابعة قوانين طبيعته الأساسية التي ترفعه إلى قمة المملكة الحيوانية. ولا يستطيع الوصول إلى المركز المرموق الذي اختصته به الطبيعة إلا إذا كان في وسط مجتمع. وبدون حضارة يكون الإنسان واحدا من أضعف الحيوانات وأقلها ذكاء »[١].

عقوبة السجن

ولهذا يعد عزل الإنسان عن المجتمع من أكبر أنواع العقوبات التي ينزلها المجتمع على الفرد، وعلى هذا الأساس جاءت فكرة السجن، ومنها: الإقامة الجبرية في المنزل، فإنها عقوبة قاسية حتى لو كانت الاقامة في قصر من أفخر وأفخم قصور الدنيا مع توفر كل أسباب المعيشة الهاديئة فيه، ويعتبر السجن الانفرادي أقسى أنواع السجن والعقوبة.

تعريف الجماعة

هناك تعاريف كثيرة للجماعة عند علماء الاجتماع، كل تعريف يتناول جانبا من الجوانب المختلفة التي تتعلق بالجماعة وخواصها الرئيسية، مثل: الضوابط

---

(١) سلسلة عالم المعرفة. بنو الإنسان.بيترفارب.ترجمة: زهير الكرمي.ص.١٠- ١١،

السلوكية، والتفاعل بين أفرادها، والأهداف المشتركة بينهم، وسوف اتجاوز كل تلك الاختلافات لأضع تعريفا واضحا مشتركا للجماعة.

الجماعة هي كل مجموعة من أفراد البشر، يقوم بينهم الترابط والتفاعل والتأثير المتبادل، ولهم مجموعة من المبادئ والمفاهيم والقيم والعادات والتقاليد والقوانين الواحدة، ويجمعهم مصير مشترك، وتلفهم روابط الألفة والانسجام والمحبة، ويتعاونون بشكل منظم في سبيل سد حاجاتهم وتحقيق مصالحهم وطموحاتهم وأهدافهم القريبة والبعيدة بوسائل مرسومة. فالحياة الاجتماعية تقوم على أمور أساسية عديدة، أهمها:

- المصير المشترك.
- المصالح والآمال والمعاناة والأهداف المشتركة.
- تقسم الوظائف بين الأفراد والمؤسسات المجتمعية.
- العقائد والأخلاق والعادات والتقاليد والقوانين المشتركة التي تقوم بتنظيم حياة المجموعة وضبطها.

ولا يشترط في الجماعة الإقامة في بقعة معينة من الأرض، فقد تكون الجماعة البشرية عبارة عن قبيلة مترحلة وراء الكلأ والماء.

أقسام الجماعة

ذكر علماء الاجتماع الكثير من التقسيمات، أذكر منها:

(١) المجتمع المحلي: وهو جماعة من الناس تقطن في إقليم جغرافي مشترك بصورة مستمرة مما ينتج عنه الإحساس بالانتماء إلى المكان، ويمكن النظر إليه باعتباره جزءا من مجتمع أكبر، مثل: مجتمع المدينة والقرية، من خصائصه:

- له خبرات متصلة وتاريخ مشترك.

- تجمعه وحدة ثقافية من خلال القيم والعادات والتقاليد والأعراف والمعايير والمصالح والأهداف المشتركة، والروابط والشاعر المتبادلة التي تلف جميع أفراده وتستثير فيهم الشعور بالانتماء لمجتمعهم والولاء له والدفاع عنه بدون أن يلغي ذلك التنوع الديني والسياسي بين الأفراد.

- عنده عدد من المؤسسات: الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والدينية والإدارية وغيرها تعمل على تنشيط الحياة فيه والمحافظة على وحدته وتماسكه.

- يزاول أفراده نشاطات اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية متنوعة يكمل بعضها بعضا استجابة لمتطلباتهم اليومية ولتحقيق مصالحهم وأهدافهم المشتركة.

(٢) المجتمع الحضري: وهو مجموعة كبيرة من الأفراد تسكن في البيئة الحضرية (المدينة) من خصائصه:

- يتمتع أفراده – عامة – بمستوى تعليمي واقتصادي عالي نسبيا.

- تتوفر له الخدمات الأساسية: الصحية والتعليمية والقانونية وغيرها بشكل أفضل.

- للمجموعة التي تسكنه أسلوب من الحياة يتناسب مع خصائص المدينة وظروفها، مثل: الحجم الكبير، والكثافة السكانية، والتنوع الفردي، والتمايز المهني والطبقي، والتعقيد، وضعف الروابط الاجتماعية، وتحكم آليات الضبط الرسمي: القانون وقوات الأمن والمحاكم بأنواعها.

(٣) المجتمع الريفي: وهو مجموعة صغيرة من الأفراد تسكن القرى والأرياف، من خصائصه:

- يتسم ببساطة الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

- يغلب عليه تجانس العمل وغياب التنوع المهني.

- قلة الفروق بين الأسر، وعمق العلاقات الاجتماعية وتماسكها.

- قوة الروح الدينية، وسيطرة روح المحبة والمودة والشفقة على عقول أبنائه.

- تمحور وسائل الضبط الاجتماعي حول الدين والعادات والتقاليد والأخلاق والأعراف الاجتماعية المحلية.

- زيادة الرقابة الاجتماعية على الأفراد، وقلة الانحراف السلوكي.

- بروز التضامن الاجتماعي لاسيما في الظروف الحرجة.

- إبعاد عناصر النزاع والتنافس غير الشريف.

- تغلب المصالح المجتمعية المشتركة على المصالح الفردية.

- حماية الأفراد عندما يتعرضون للخطر.

ملاحظة: كثيرا ما تتداخل خصائص المجتمع الحضري مع خصائص المجتمع الريفي في كثير من المجتمعات، فنجد السمات الريفية في بعض المدن إلى جانب خصائص ووظائف الحياة المدنية، ونجد مظاهر النشاط العمراني والتقدم العلمي والثقافي والتكنولوجي في بعض القرى لاسيما القرى المجاورة لحدود المدن والداخلة في نطاقها، بحيث يبدو التمييز بين المدينة والقرية تمييزا نظريا أو تعسفيا أكثر منه تمييزا واقعيا يستند إلى طبيعة الحياة الاجتماعية فيهما. وقد تحولت بعض المجتمعات الريفية إلى مجتمعات مدنية، وترتب على ذلك تحولات وتغيرات جوهرية في مظاهر الحياة الاجتماعية وأنماط العلاقات والتفاعل والسلوك وطريقة الحياة فيها، مما دفع عدد من علماء الاجتماع إلى دراسة هذه التغيرات التي لا

تزال تحدث باستمرار.

(٤) المجتمع البسيط: وهو المجتمع الذي يمثل وحدة واحدة ولا ينقسم إلى أجزاء، وهو أول أنماط المجتمعات الإنسانية، مثل: المجتمعات البدوية والرعوية والزراعية، من خصائصه:

- يتشابه الأفراد في مكانتهم وأدوارهم إلى حد كبير، مما يؤدي إلى تقوية المشاركة الوجدانية بين أفراده، وخلق نوع من التضامن الاجتماعي يفنى فيه الفرد في الجماعة.

- يكون المستوى المعاشي واطئا عادة، ودرجة التطور الحضاري محدودة.

- ليس للمجتمع البسيط قوانين مدونة.

(٥) المجتمع المركب: هو المجتمع المتحول من المجتمع البسيط بعد زيادة عدد السكان وتنوع العمل، من خصائصه:

- يتمتع بمستوى مهني متقدم: في الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من الأنشطة الاقتصادية.

- ينقسم فيه الأفراد إلى فئات مهنية، تختص كل فئة في جانب من جوانب النشاط الاقتصادي والاجتماعي، وتعتمد على غيرها في بقية الجوانب، ولهذا تأخذ العلاقات في المجتمع المركب الطابع التعاقدي الذي يقوم على تبادل المصالح.

- له مستوى تعليمي وثقافي وإقتصادي جيد.

(٦) المجتمع المعقد: هو المجتمع المتحول من المجتمع المركب بعد تطوره ودخول التعقيدات الاجتماعية فيه بصورة كبيرة، وفيه نشأت الحضارات العريقة، مثل: حضارة وادي النيل والرافدين والإغريق والرومان والحضارات الحديثة، وظهرت

فيه إمبراطوريات وحكومات مركزية. من خصائصه:

- يتميز بارتفاع مستوى المعيشة وتطور أساليب الإنتاج وتقسيم العمل.
- نضوج النظم القانونية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.
- له قوات أمن وشرطة تحمي الأمن الداخلي، وجيش قوي يحمي الحدود من الاعتداءات الخارجية.

(٧) المجتمع المختلط: وهو المجتمع المتكون من أقليات دينية وعنصرية مختلفة، وقد تكون لكل أقلية فيه: دينها ولغتها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها الخاصة بها.

وتواجه هذه المجتمعات خطر الفرقة والانقسام، ولذا: فإن من أهم أولويات السلطة أو الحكومة الوطنية فيه تعزيز الوحدة الوطنية على أساس المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين، بهدف المحافظة على تماسك المجمتع، وضمان قدرته على تحقيق أهدافه المشتركة المنشودة لأبنائه، وأن كل تمييز بين المواطنين على أساس الدين أو العرق أو اللغة، من شأنه أن يهدد وحدة هذا المجتمع ويهدد مستقبله ومصيره.

(٨) المجتمع المغلق: هو المجتمع الذي يعتمد النظام الطبقي الجامد، فلا يعطي المجال للفرد بالانتقال الاجتماعي من طبقة إلى طبقة أخرى غير التي كان ينتمي إليها في بداية حياته، فالفرد يبقى في الطبقة الاجتماعية التي ولد فيها طيلة حياته بغض النظر عن القدرات التي يمتلكها والجهد الذي يبذله في العمل، مثل: المجتمع العبودي الروماني والمجتمع الاقطاعي في اليابان قبل تحضرها وتصنيعها.

(٩) المجتمع المفتوح: وهو المجتمع الذي يتسم بالمرونة الطبقية، فيعطي المجال للفرد بالانتقال الاجتماعي من طبقة معينة إلى طبقة أخرى غير التي ولد فيها. فالفرد المجد يستطيع تحسين أحواله الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية فينتقل

إلى الطبقة العليا، بينما ينخفض الفرد الخامل والكسول إلى الطبقة الأدنى لأنه لا يستطيع الحفاظ على وضعه في الطبقة الأعلى.

وسوف يأتي المزيد من البحث حول الحياة الاجتماعية للإنسان في فصول قادمة.

الفصل الثاني

تكوين الإنسان وطبيعته

المبحث (١): تكوين الإنسان

تركيب الإنسان من عنصرين

الإنسان مركب من عنصرين: روح وجسد، ولكل منهما رغائب يتوق الإنسان إلى تحصيلها:

- **الجسد**: وهو عنصر مادي ينمو ويتحرك وله رغائب مادية، مثل: الطعام والشراب والجنس وغيرها، وبه يتهيأ الإنسان للتفاعل مع الطبيعة وتسخيرها وإقامة حضارة إنسانية على وجه الأرض.

- **الروح**: وهي موجود غير مادي مستقل عن الجسد وله تعلق به، وللروح خصائص العلم والقدرة والإرادة والحب والبغض، وبها يتهيأ الإنسان للتفاعل مع أمر الله وملكوته، ولها مدارج في الترقي والتكامل ينال منها الإنسان حظوظا بحسب سعيه ومجاهدته.

ويعتبر هذا التركيب والمزج العجيب: بين الروح والجسد (عالم المادة وعالم الملكوت) هو الأساس في حركة الإنسان في الأرض وابتلائه في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ۚ قَلِيلاً مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾[1].

وبسبب هذا التركيب العجيب تختلف توجهات الناس وسلوكياتهم ومواقفهم في الحياة:

- فبعض الناس يصبحون عبيدا لشهواتهم، فلا همّ لهم في الحياة إلا الطعام والشراب والنكاح والمال والجاه والسلطة وغيرها من الشهوات الحيوانية، إلى درجة الانسلاخ من إنسانيتهم والهبوط إلى حضيض الحيوانية.

قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَ ۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَـٰمِ ۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[2].

وهؤلاء يسيرون في الحقيقة وراء السراب الذي يحسبه الظمآن ماء، إذ ليس للحياة الدنيا بقاء ولا استقرار، فلا يلبث ما يتهافتون عليه أن يزول وينتهي، وتبقى بعده الخيبة واليأس والحسرة والندامة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « لو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما، ولدفع الموت سبيلا، لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سُخر له ملك الجن والأنس مع النبوة، وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته واستكمل مدته رمته قسي الفناء بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطلة وورثها قوم آخرون »[3].

ولهذا فهؤلاء يعيشون في حالة من الضياع والقلق والأزمات والامراض والاضطرابات النفسية.

---

(١) السجدة: ٧ - ٩.

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) البحار.ج١٤.ص٨٠.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

– وبعضهم يتعلق بالرغائب الروحية، ويسمو في وجوده الروحي والمعنوي إلى أعلى الدرجات، ويصبح إنسانا صالحا في نفسه ونافعا للمجتمع الذي يعيش فيه، من خلال مجاهدة النفس الأمارة بالسوء وكبح الشهوات والتحلي بالصفات الحسنة، مثل: الحكمة والعدل والعفة والشجاعة.

فالتطلعات الروحية هي الوسيلة لحفظ التوازن في نفس الإنسان والمجتمع والدولة، والارتقاء بالحياة من خلال الاتصال بالحقيقة المطلقة في الوجود، واستلهام النور الذي لا تراه الحواس، وبهذا النور العلوي تستطيع أن تسمو الروح وترتقي بالنفس والمجتمع والدولة.

ولهذا نجد أن الإسلام العظيم: قد جاء برؤية كونية قوامها الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده، وبتشريع يروض الإنسان على أتباع الحق وفعل الخير والالتزام بالعدل، ويصفي نفسه من كدارة المادة ويشفيها من الأمراض الخطيرة كالبغض والحسد ويطهر قلبه من أدران الشهوات، ليجمع قلوب الناس على الإيمان والمحبة والعدل والتعاون، فيسلك الإنسان طريق الحق والسمو والارتقاء في معارج الرفعة والكمال الروحي والمعنوي.

وإن ما تعانيه البشرية اليوم من مشاكل وجرائم يكشف عن حاجتها الماسة إلى الثقافة الروحية الراقية، حيث فشل التقدم المادي: العلمي والتقني ووسائل الترفيه في إسعاد الناس، وجلب لها بدلا من السعادة التعاسة والخراب من خلال الحروب الظالمة والصراعات الدامية.

---

(١) طه: ١٢٣ – ١٢٤.

- فالحكومات الدكتاتورية المستبدة تستأثر بالسلطة والثروة دون الشعوب، وترمي بالمواطنين الشرفاء المطالبين بالحقوق العادلة المشروعة إلى أقبية السجون والمعتقلات (قبور الأحياء) وإلى قبور الآخرة بالشهادة.

- وقوى الاستكبار العالمي الغاشمة وفي مقدمتها أمريكا - الشيطان الدموي الأكبر - تسعى لفرض هيمنتها بالقوة على الدول الصغيرة والمستضعفة، وتعمل على إثارة الحروب بينها، وإثارة النزاعات الداخلية من أجل إضعاف قوتها والتدخل في شؤونها الداخلية وسلب خيراتها وثرواتها بغير وجه حق.

- وأصحاب رؤوس الأموال والشركات العالمية العملاقة يحلبون اللبن والدم وينهبون لقمة العيش من الفقراء: شعوبا وأفرادا ويغرقونهم في الديون مدى الحياة.

والخلاصة: القوى يفترس الضعيف دائما في ظل الفلسفة المادية للحياة وغياب القيم الروحية.

يقول الشاعر الهندي (طاغور): « فالإصلاح العلمي والاجتماعي والاقتصادي قد يهذب من أحكام الطبيعة وقد يلطفها ويصقلها ولكنه لن يجعل من الإنسان إلا حيوانا ممتازا، ولن يرسم للفرد كوحدة مستقلة سبيلا واضحا إلى الكمال الروحي المنشود إذ الكمال الروحي لا يتقيد في عرفي بالتقدم المادي وإنما هو جوهر أبدي كامن في نفوسنا سواء أكنا متأخرين في الرقي المادي أم متقدمين، والواجب أن نبحث في أرواحنا ما استطعنا عن هذا الجوهر الأبدي، أن نبحث عن مظاهره فينا، وعن قواه المشتركة بيننا وبين الآخرين، وعلى قدر إحساسنا بهذه القوى يكون اتجاهنا نحو الكمال »[١].

---

(١) روح الدين الإسلامي. طباره.ص١٥٩.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): لسلوك الإنسان في الحياة طريقين: طريق السعادة وطريق الشقاء،،

- أما طريق السعادة: فهو يأخذه تدريجيا إلى الملكوت الأعلى.

- وأما طريق الشقاء: فيأخذه تدريجيا إلى الدرك الأسفل: الشيطانية والحيوانية.

ولكل طريق درجات متفاوتة ينال منها الإنسان بحسب علمه وعمله الصالح أو الطالح في الحياة.

النتيجة (٢): أن للقيم الروحية والأخلاقية أهمية عظمى في سعادة الإنسان، تتقدم على أهمية التقدم العلمي والتقني:

- إذ الكمال الروحي لا يتقيد بالتقدم المادي وإنما هو جوهر أبدي كامن في نفوسنا سواء أكنا متأخرين في الرقي المادي أم متقدمين.

- أن المشكلة العظمى التي تعاني منها البشرية اليوم هي مشكلة أخلاقية تتمثل في تحديد الأسلوب الذي ينبغي أن نتعامل به مع بعضنا البعض كبشر، وتحدد لنا كيف نستخدم التقدم العلمي والتقني في خدمة البشرية وسعادتها بدلا من توظيفهما في تدمير البشرية وشقائها.

يقول الباحث الفرنسي (جورج مجوار): « وعندي أنه يجب أن ندرس للصبيان فوائد المحبة بجانب فوائد الكهرباء ومنافع الطيبة والرحمة بجانب منافع الفحم والحديد. أي يجب أن نقرن في نفوسهم العواطف الأبدية بالمعارف وتطبيقاتها العملية، وإلا جاءت هذه المعارف وتطبيقاتها بعكس الغرض المنشود

منها فاكتسحت العواطف وردت الإنسان إلى وحشيته الأولى »[1].

وقد كشفت التجارب: أن الأنظمة والقوانين لا تكفي لوحدها في ترقية الإنسان وتهذيبه، ولا بد من القوى الروحية والقيم الأخلاقية، مثل: المحبة والإيثار والتضحية، كي يعيش المجتمع البشري في سلام ويسوده العدل والإخاء.

التوازن بين الروحية والمادية في الإسلام

لقد سيطرة على العالم فكرة أن الروح والجسد يتعارضان في مطالبهما ورغائبهما، فلا يمكن بحسب هذه الفكرة ترقيتهما وازدهارهما جنبا إلى جنب:

- لأن الجسد سجن الروح، وأن لذائذ الجسد هي الأصفاد والأغلال التي تقيد انطلاقة الروح ورقيها وتكاملها.

- أن التوجهات الروحية تعني الزهد في الحياة الدنيا وترك بنائها وتنظيمها وتطويرها وترقيتها.

وكانت نتيجة هذه الفكرة وجود طريقين في الحياة:

- **طريق المادية:** وهو طريق أصحاب النظرة الحسية للإنسان، الذين يضعونه في حدود هذا العالم المادي. وهو طريق الذين يئسوا من مسايرة الروح ورغائبها وتطلعاتها، فانغمسوا في عبودية الشهوات والملذات الحسية، وابتعدوا كل الابتعاد عن الروحانية والملكوت.

- **طريق الروحية:** وهو طريق أصحاب النظرة المثالية للإنسان، الذين يرون أنه روح أو عقل جاء من عالم آخر، وهو كائن غريب في هذه الحياة، وعليه أن

---

(١) روح الدين الإسلامي. طبارة. ص١٦٠.

يعود إلى عالمه الذي جاء منه. وهو طريق أصحاب الأديان الذين آثروا الرغبات الروحانية وتطلعاتها، وكمال النفس وصفائها، على الشهوات المادية، فأهملوا مطالب الجسد، واشتغلوا بمجاهدة اللذات الحسية، ومالوا إلى تعذيب الجسد وإهماله، واخترعوا لأنفسهم رياضات شاقة ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان، بهدف كسر رغبات الجسد، وانقاذ أنفسهم في الآخرة، حتى وصل الحال ببعضهم: أن أكل الكلأ والحشيش، ونام في المقابر، ومشى على أربع كالأنعام، وتأثم من بالنساء، ورأى بأن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن - ولو كن أمهات أو شقيقات - تحبط الأعمال وتفسد أشواق الروح وتألقها!!

أما الإسلام الحنيف: فلم يغفل مطالب الروح من أجل الجسد، ولم يغفل مطالب الجسد من أجل الروح، بل سلك الطريق الوسط، فزاوج بينهما في وحدة متسقة ملتئمة، فأعطى الروح حقه، وأعطى الجسد حقه، في غير إفراط ولا تفريط، أي: سلك طريق التوازن والاعتدال بين الروحية والمادية، وبين الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٢).

فلم يتجاهل مطالب الجسد، ولم يأمر المسلمين بأن يحرموا على أنفسهم الاستمتاع بملذات الحياة وشهواتها، وإنما دعاهم إلى التجمل وإشباع شهوة الطعام والشراب والجنس وغيرها من الشهوات الحسية، ولكن من طريقها المشروع وبحد الاعتدال.

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) القصص: ٧٧.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

وذلك على أساس:

- أنها فطرية في وجود الإنسان ولها وظيفتها في الحياة على ضوء الحكمة الإلهية العالية.

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾[3].

وقد سمى حرمان النفس من طيبات ما أحله الله عز وجل اعتداء، أي: خروجا عن طريق الوسط والعدل بين الطبيعتين: الروحية والجسمية.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[4].

- أن الاستجابة إلى مطالب الجسد هي السبيل للمحافظة على الأفراد

---

(١) الأعراف: ٣١ - ٣٢.

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) الكهف: ٤٦.

(٤) المائدة: ٨٧.

وعلى النوع الإنساني، وبدونها يهلك الأفراد وينقرض النوع.

- أن الحياة الاجتماعية للإنسان تتطلب الاستجابة لمطالب الجسد، وبدونها لا تقوم الحياة الاجتماعية أبدا.

- أن الرهبانية تجعل الصالحين من الناس لا يهتمون إلا بنجاة أنفسهم، فينزوون في الصوامع والمساجد، ويتركون زمام أمور العالم بأيدي من لا هم لهم إلا الفساد في الأرض.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لا رهبانية في الإسلام »[1].

- أن الله عز وجل قد سخر العالم المادي بأكمله لمنفعة الإنسان وإقامة حضارة إنسانية راقية ومتوازنة على ضوء المنهج الإلهي العظيم، وهذا لا يتحقق مع تجاهل مطالب الجسد.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

ومن جهة ثانية: أمر الإسلام بالاستجابة إلى مطالب الروح بالطاعة والعبادة والتحلي بالفضيلة ومكارم الأخلاق، وأن يوازن بين مطالب الطرفين: الروح والجسد وعدم الاعتداء على حقوق أحدهما.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا

---

(١) النهاية لابن الأثير. مادة: رهب.

(٢) البقرة: ٢٩.

(٣) الجاثية: ١٣.

تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[1].

التوازن والفطرة الإنسانية

والحق أن طبيعة الإنسان مركبة من خصائص التراب وخصائص الروح، وأنه لا انفصال في هذا التركيب، فلا يتصرف الإنسان بحالة الطين أو التراب الخالص في لحظة، وبحالة الروح الخالص في لحظة أخرى، وإنما يتصرف في جميع الحالات بحكم التركيب الذي لا يقبل الانفصال، وأن ما ذهب إليه الإسلام الحنيف من خلق التوازن بين الروحية والمادية هو:

- الطريق الأمثل الذي ترسمه الفطرة الإنسانية السليمة، حيث أن الله جل جلاله لم يخلق القوتين: الشهوية والغضبية عبثا أو من أجل إخمادها بالرياضات الروحية، وإنما خلقهما لغاية سامية، ومن أجل السيطرة عليهما وتوجيههما نحو المثل العليا في الحياة.

- وهو الطريق إلى الطمأنينة في الحياة وتجنب الكبت والاضطرابات والأمراض النفسية وتحقيق السعادة والتكامل للإنسان.

- وهو الطريق للمحافظة على سلامة المجتمع واستقراره وتقدمه وازدهاره.

ومن الواضح:

- أن السير في طريق التكامل الروحي لا يمكن أن يتحقق على الأرض إلا من خلال العناية بمطالب الجسد والاستجابة لها، حيث يعجز الإنسان بدونها عن

---

(١) المائدة: ٨٧ - ٨٨.

القيام بأداء الفروض الشرعية، مثل: الصلاة والصيام الحج والجهاد في سبيل الله عز وجل وغيرها.

- أن كمال الإنسان وفلسفة وجوده تقوم على أساس الاستجابة لمطالب الروح والجسد معا على حد الاعتدال وعدم الإفراط أو التفريط.

ويدل هذا الطرح على:

- إدراك طبيعة الإنسان وتركيبه.
- وإدراك فلسفة الحياة ومتطلباتها وأبعادها.

تفضيل الآخرة على الدنيا

إلا أن ذلك لا يعني المساواة بين مطالب الروح والجسد في الأهمية والقيمة (الدرجة) فمطالب الروح أهم وأعلى درجة قطعا من مطالب الجسد، وأن الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتجه إليها الإنسان في حياته.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) النحل: ٣٠.

ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ولهذا يحذر القرآن الكريم من الركون إلى الحياة الدنيا والاغترار بها، لأن كل ما فيها متاع زائل، وأن الآخرة هي دار الحيوان (الحياة الحقيقية) الباقية، فلا يجوز أن يلتهي الإنسان العاقل بمتاع الدنيا الفانية عن نعيم الآخرة الباقية.

قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[3].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

- أن التوازن بين الروحية والمادية يستلزم التضحية بكثير من رغبات الجسد وملذاته.

- ضرورة السعي للتخفيف من شرور المال والجاه والسلطة والحذر من الانقياد الكلي لفتنتهما.

قال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) فاطر: ٥.

ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1].

تسامي الإنسان

الإنسان في نظر الماديين عبارة عن:

– قبضة من تراب: نشأ من الأرض، وعليها يمشي، ومنها يأكل، وإليها يعود.

– وهو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة البيولوجية والغدد والخلايا، وما التفكير والإرادة إلا مادة يفرزها المخ كما تفرز الكلية البول.

– أنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض، وهو من جنس الهوام والحشرات والزواحف والقردة، غاية ما في الأمر: أنه تطور بمرور الزمن فأصبح هذا الكائن المعقد والمتطور.

– أن الأرض التي يحيا عليها الإنسان، ما هي إلا كوكب ضئيل في المجموعة الشمسية التي هي واحدة من المجموعات الشمسية التي لا تحصى في هذا الكون الهائل الجبار الذي لا نهاية له.

والنتيجة: أن الإنسان لا يخرج عن كونه ظاهرة عابرة لا معنى لها ولا غاية، وأن الطبيعة لا تكترث باختراعات الإنسان وقيمه ومثله العليا، حتى قيل: « إن سقوط امبراطورية بأسرها، أو انهيار مثل أعلى بأكمله، هما في نظر الطبيعة أمران لا يزيدان أهمية عن انهيار بيت صغير من بيوت النمل تحت أقدام عابر سبيل

---

(١) النور: ٣٧.

غير مكترث »[1].

يقول سير جيمس جينز: « ولكن أخوف ما يخاف العالم من أجله أنه لا يعنى - كما يلوح - بحياة مثل حياتنا، وكأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته »[2].

وقد أنتجت النظرة المادية لدى الإنسان مشاعر مختلفة وخطيرة، منها:

- الشعور بالتفاهة والحقارة والضياع حيث نظر إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة.

- الشعور بالغرور والكبر، ذلك الشعور الذي ينتهي بالإنسان إلى حد تأليه نفسه، حين يسقط وجود الإله الحق من اعتباره، ويتصرف وكأنه إله لا يسأل عما يفعل.

- الشعور بالضعف أمام الصعوبات والتحديات التي تواجه الإنسان في الحياة، مما ينتهي بالإنسان إلى الاستسلام والانتحار في كثير من الأحيان.

- غياب الشعور بالمسؤولية وضياع الحدود القيمية بين الأشياء، حيث تتساوى الحشرة مع الإنسان ونحوه.

النظرة الإسلامية للإنسان

أما النظرة الإسلامية للإنسان فهو مخلوق كريم على الله عز وجل، خلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن تصويره، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد

---

(١) مبادئ الفلسفة والأخلاق. زكريا إبراهيم. ص ٤١.

(٢) الكون الغامض. الترجمة العربية. ص٣.

له ملائكته، وجعله خليفته في أرضه، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

فمكانة الإنسان:

- في الملأ الأعلى: هي المكانة العليا التي اشرأبت إليها أعناق الملائكة المقربين فما أوتوها، حيث جعله الله سبحانه وتعالى خليفته في الأرض دونهم.

- وفي العالم المادي: هو السيد المتصرف الذي سخر كل شيء في هذا الوجود من أجل إصلاحه وسعادته.

قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[3].

---

(١) إبراهيم: ٣٢.

(٢) الجاثية: ١٢ - ١٣.

(٣) لقمان: ٢٠.

سرّ تميّز الإنسان

وتميز الإنسان على سائر الحيوانات وأحتل هذه المكانة المرموقة في الوجود ببركة النفخة الروحية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1] التي هي من روح الله تبارك وتعالى، والتي جعلته:

- مستعدا للاتصال بالملكوت الأعلى.

- وليكون خليفة الله عز وجل في الأرض وحامل سره.

- وليكون مثله: يقول للشيء كن فيكون.

- وقادرا على حمل أمانة التكليف الكبرى، حيث تميز بالعلم والإرادة والاختيار، وامتلك القدرة والاستعداد لصناعة ماهيته بنفسه وتحديد مصيره بيده، بعد أن يسر الله عز وجل له سبل الهداية، وأزاح عنه كل الحجج والأعذار.

وللإنسان بحسب تركيبه العجيب من الروح والجسد (عالم المادة وعالم الملكوت) ملكات ووظائف عديدة: حسية ونفسية وعقلية واجتماعية، والمطلوب منه الاهتمام بتنمية ملكاته العليا لكي يسمو بالجانب الأعلى في طبيعته ويحقق إنسانيته الفاضلة، وهذا ما يسمى بالتسامي.

فالإنسان مطالب على ضوء ذلك بـ:

- تنمية ملكات الفكر والإرادة والذوق الجمالي وغيرها من الملكات العليا بحيث تجذب وراءها الملكات الدنيا وتجعلها في حالة أنقى وأرقى.

- والسيطرة على ميوله الحسية وغرائزه النفسية وشهواته الحيوانية وجعلها إنسانية من خلال السمو بها على ضوء إرشادات العقل والدين.

---

(١) الحجر: ٢٩.

- تخطي الحدود الطبيعية وصبغ الكون بصبغة عقلية وروحية، ليكون بحق (أعني الإنسان) الجزء الذي يتردد فيه الكل، أو البعض الذي يفسر الكل، أو العالم الصغير الذي يفهم ويفسر العالم الكبير ويخلع عليه طابعا عقليا وروحيا، في الوقت لا يدري العالم الكبير عن أمر نفسه شيئا.

يقول بيترفارب: « ولكن الأمر الغريب الذي يبدو متناقضا هو أن أهم تخصص لنا هو في عدم تخصص سلوكنا. فنحن أخصائيون في عدم الالتزام. بمعنى أن بني الإنسان يستطيعون القيام بتكيفات لم تكن موجودة لمواءمة ظروف متغيرة طارئة، ثم الإفادة من هذه التكيفات »[١].

فقد استطاع الإنسان التكيف في بيئات مختلفة:

- استوائية وقطبية.
- منخفضة تحت سطح البحر وعالية آلاف الأمتار فوق سطح البحر.
- واستطاع تطوير أساليب حمل من خلالها بيئته معه إلى أعماق البحر وإلى أعالي الفضاء.

فظروف التسامي متوفرة في الطبيعة البشرية، وللتسامي درجات بحسب القصد والهدف الذي يسعى من أجله الإنسان:

- فقد يكون الهدف الوصول إلى إنتاج أعلى: فكري أو فني أو أدبي أو صناعي، وذلك بالنظر إلى الطاقة الروحية التي تنتج عن التسامي.
- وقد يكون الهدف الوصول إلى درجة أعلى في الوجود تسمو فوق الواقع المادي المحسوس، ليدرك الإنسان بعقله وقلبه من المدركات مالا تدركه الحواس، وليعيش بروحه في عالم أرقى في الحياة الدنيا والآخرة.

---

(١) سلسلة عالم المعرفة. بنو الإنسان. بيترفارب. ترجمة: زهير الكرمي. ص١٤.

والتسامي الأخير هو الأفضل والأسمى، ويستلزم:

- التعلق بالمثل العليا والتطلع نحو معالي الأمور والنهوض بالواجبات الكبرى، مثل: الدفاع عن الدين والوطن والشرف والكرامة ابتغاء رضوان الله تعالى.
- التطهر والتعفف وأن يحيا مستعليا فوق الشهوات والمطامع المادية.
- تنقية القلب والفكر والشعور من الشوائب.
- التحرر من الذات والأنانية وعدم الركون إلى الدعة والذل والهوان.
- العمل الجاد في الحياة وترقيتها وإفاضة الخير والبر على الناس.

والخلاصة: أن للإنسان غاية عليا ينتهي إليها وجوده، وهو مطالب بأن يسمو بحياته الواقعية ليحقق الحكمة والغاية من وجوده في الحياة الدنيا، وقد اشتدت الحاجة أكثر إلى التسامي في الوقت الحاضر، حيث تقدم الإنسان تكنولوجيا وملك وسائل القوة التي أصبحت تهدد وجوده، وقد غفل عن مصيره المحتوم وراء هذه الحياة.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإنسان موجود ناقص، وهو يشعر بهذا النقص ويسعى لتكميل ذاته.

النتيجة (٢): أن الإنسان قد يصيب في مسعاه في بناء الذات وتكميلها، وقد يخيب، وأن العلم والأخلاق الحسنة والتقوى ركائز أساسية في البناء الصحيح للذات،

والجهل والأخلاق السيئة والمعصية لله من أسباب فقدان الإنسان لإنسانيته وخسارة دنياه وآخرته.

النتيجة (٣): أن الإنسان يسعى دائما لتطوير الواقع ولا يقبل الجمود، فكلما عاش الإنسان الجمود كلما فقد قسطا من إنسانيته.

النتيجة (٤): يجب على الإنسان أن يسخر العلوم والمعارف من أجل بناء إنسانيته (تلبية كافة احتياجاته المادية والمعنوية) وأن التقصير في أي جانب منها يضر بإنسانية الإنسان.

البحث (٢): حول الرهبانية

الرهبانية في اللغة

الرهبة تعني الخوف والخشية، والرهيب والمرهوب: ما يخاف منه، وترهب: صار راهبا، والراهب: من اعتزل عن الناس في صومعة أو دير طلبا للعبادة خشية من الله عز وجل، والجمع: رهبان، والمؤنث: راهبة، وجمعها: راهبات، والرهبنة: اتخاذ طريقة الرهبان.

الرهبانية في الاصطلاح

حياة جماعية منظمة تضم الرجال والنساء لغرض ديني، يعيش أهلها عادة في دير خاص، وأساسها النذور الثلاثة:

- نذر الطاعة لرئيس الدير.
- ونذر الفقر.
- ونذر البتول.

تاريخ الرهبانية

عرفت الرهبانية في البوذية قبل المسيحية، وبدأت الرهبانية المسيحية في

مصر وفلسطين في القرن الرابع الميلادي، وأساسها التعاليم الصوفية المأثورة، ثم انتقلت إلى الغرب في القرن السادس الميلادي.

ونُظم الرهبانية متعددة ومتنوعة، وقد ضعفت في القرن الخامس عشر الميلادي على أثر الإصلاح الديني ومحاربة البروتستانتية لها، الأمر الذي دعا إلى قيام اليسوعيين المعارضين للبروتستانتية والمؤيدين للرهبانية، وقد ظهرت رهبانية جديدة في القرن السابع عشر الميلادي للرجال والنساء وانتشرت بين المسيحيين في شتى أنحاء العالم.

موقف الإسلام من الرهبانية

الرهبانية التي تعني التقشف والمبالغة في العبادة والرياضة الروحية الشاقة، والاعتزال عن الناس وهموم المجتمع في صومعة أو دير من أجل التفرغ للعبادة، والامتناع عن النساء ولذيذ الطعام والشراب والطيبات من الرزق، مرفوضة في الإسلام.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم

---

(١) الأعراف: ٣١ - ٣٢.

بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

وقال الرسول الأعظم ﷺ: « لا رهبانية في الإسلام »[2].

وقال ﷺ: « إن الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله »[3].

الرهبانية المحمودة

وللإسلام نظرة إيجابية للرهبانية بمعناها الايجابي المحمود، وهو شدة التعبد رهبة وخشية من الله عز وجل، والإلتزام بطاعته الكاملة، والبساطة في الحياة، والزهد فيما حرم الله عز وجل، والابتعاد عن الكماليات غير اللازمة في الحياة، وعدم الاغترار بزخارف الحياة الدنيا ونسيان الآخرة، وعدم الجري وراء المال والشهرة والجاه والسلطة والبحث عن الشهوات والملذات الحسية.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾[5].

---

(١) المائدة: ٨٧ – ٨٨.

(٢) النهاية لابن الأثير. مادة: رهب.

(٣) البحار. ج٧٠. ص١١٥.

(٤) فاطر: ٥.

(٥) النور: ٣٧.

الرهبانية المسيحية في القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(1).

ذكرت الآية الشريفة المباركة صفات عديدة لاتباع عيسى بن مريم عليهما السلام بعضها حميدة وبعضها مذمومة:

الصفة (١) الرأفة والرحمة: جعل الله عز وجل الرأفة والرحمة في قلوب حواري المسيح عليه السلام وأصحابه الحقيقيين الصادقين في إيمانهم برسالته، من خلال القيم الروحية القائمة على الإيمان الصادق بعقيدة التوحيد، والداعية إلى العفو والتسامح والخير الشامل بين جميع الناس، وهي الثمرة الطبيعية الطيبة لدعوة المسيح عليه السلام وروحها السمحة وتطهرها الروحي الرفيع وشفافيتها الوضيئة، فكانوا يعيشون مع الناس جميعا في سلام وتعاطف ومحبة وتعاون، كما فعل النجاشي حينما آوى المسلمين اللاجئين إلى بلاده وعاملهم بإحسان ومحبة وتسامح.

قال الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(2).

يقول العلامة السيد قطب: « والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين

(١) الحديد: ٢٧.

(٢) المائدة: ٨٢.

حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ممن أحسنوا اتباعه. وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم، كما حفظ منها التاريخ صورا يرويها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق، مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم بحق »[1].

ومن الطبيعي ألا يكون المقصود في هذه الآية الشريفة المباركة: من يدعي اتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وقد جعل من الأديرة والكنائس مراكز للفساد وأوجد الانحراف في تعاليم المسيح عليه السلام وشن الحروب المدمرة واستخدم القنابل الذرية ومارس أقذر الأعمال وأكثرها بشاعة وإجراما وانحطاطا بحق الشعوب المستضعفة ونصب المكائد لها وقد صبغ حياتها بصبغة الدم والاستعباد والحرمان والظلام.

الصفة (٢) الرهبانية: وهي انقطاع الإنسان لعبادة الله جل جلاله خشية منه ورغبة في الحصول على رضاه والوصول إلى أعلى مراتب القرب منه والفناء فيه.

وقد ذكر الله عنهم بخصوصها أمور عديدة، منها:

الأمر (١): بأنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، أي: أن الله جل جلاله لم يفرضها عليهم ضمن التشريع العبادي الواجب، وأنهم أتوا بها من عند أنفسهم بتوفيق من الله جل جلاله لهم كاستيحاء فكري وروحي من القيم الروحية والأخلاقية العظيمة التي أكدتها مفاهيم الإنجيل كمنطلق للسمو الروحي وطلبا لمرضاة الله ذي الجلال والإكرام.

الأمر (٢): أنها سنة حسنة مرضية عند الله تبارك وتعالى لم يسبقهم إليها أحد من الناس.

الأمر (٣): أنهم لم يحافظوا عليها، وذلك:

---

(١) الظلال. ج٦. ص٣٤٩٥.

- لأنهم لم يحافظوا على مقتضاياتها من التطهر والترفع والقناعة والعفة والذكر والعبادة، مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ذي الجلال والإكرام الذي هو مقصودهم الأصل منها.

- لقد انتهت إلى كونها مجرد طقوس وشعائر خالية من الروح والحقيقة وفاقدة للتوازن والواقعية التي تفرضها حاجات الإنسان المشروعة في الحياة.

- اقترنت بممارسات قبيحة، مثل: تحريم الزواج: للنساء والرجال، والانزواء الاجتماعي، وإهمال المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، وتعدوا حدودها المشروعة فحرموا على أنفسهم الطيبات من الرزق.

- لأن بعضهم من أصحاب النوايا السيئة اتخذها وسيلة للشهرة وتولي المناصب والسيطرة على الناس بغير وجه حق وبدون حجة من كتاب.

الأمر (٤): أنهم قسمين:

- مؤمنون مأجورون على صدقهم وإخلاصهم في معاناتهم الفكرية والعملية على خط الإيمان والبحث عن الحقيقة المطلقة والتمسك بها.

- وفاسقون مآخذون على فسقهم وخروجهم عن روحية الإيمان في مضمونه الفكري والعملي وتمسكهم بالقشور وبحثهم عن الشهرة والسلطة والألقاب والمكاسب المادية وارتكابهم الجرائم المروعة ضد الإنسانية.

يقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرا، وهم العيسويون حقا وصدقا الذين يعتقدون قولا وعملا أن المسيحية محبة ورحمة، ونزاهة وإنسانية، لا تعصب وأحقاد، ولا ظلما واستغلال، ولا حروبا وانقلابات، ولا إثارة الفتنة والنعرات، ولا قنابل ذرية وأسلحة كيماوية، ولا شعارات كاذبة للدفاع عن الحرية، ولا نشر الهلع والقلق والخوف في قلوب عباد الله وعياله، وكثير منهم فاسقون، وفي طليعتهم قادة الاستعمار الجديد وأعداء الإنسانية رقم (١) الذين

تنطلق عليهم جميع الصفات التي سلبناها عن العيسويين حقا وصدقا »[1].

سبب ظهور الرهبانية الحقة

قيل عن سبب ابتداعهم الرهبانية الحقة، أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى بن مريم عليه السلام وعملوا بالمعاصي، فقاتلهم المؤمنون وهُزم المؤمنون ثلاث مرات حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم.. وقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا عن آخرنا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله عز وجل النبي الذي وعدنا به عيسى بن مريم عليه السلام.

فاختاروا: العزلة والانقطاع عن الناس، والتفرق في الصحاري وقلل الجبال، فكانت الرهبانية، وأهدافهم من وراء ذلك:

- الفرار بالدين من أجل صيانته والمحافظة من الضياع في ظل الارهاب الذي كانت تمارسه السلطة ضدهم.

- التفرغ للعبادة الصادقة الخالصة لله سبحانه وتعالى.

- الانتظار للفرج الواقعي الموعود.

- تهيأة الأجواء الصحية والسعي الجاد للوصول إلى أعلى درجات القرب من الله ذي الجلال والإكرام.

والخلاصة: أن الرهبانية الحقة، حالة إيمانية لا يمكن أن توجد إلا في ظل الصدق والإخلاص للحقيقة المطلقة والاستغراق فيها.

فالرهبانية على قسمين:

---

(١) الكاشف. ج٧. ص٢٥٨.

– الرهبانية الصحيحة المحمودة: وهي الخوف والخشية من الله جل جلاله، والمحافظة على الدين الحق، والالتزام بطاعة الله سبحانه وتعالى الطاعة الكاملة فيما يأمر به وينهى عنه، وهي رهبانية ممدوحة ومرغوبة عند الله جل جلاله وأهل الدين والإيمان الحق، ولأهلها الذكر الحسن في الدنيا، الأجر والثواب العظيم عند ربهم في يوم القيامة.

– الرهبانية المنحرفة المذمومة: وهي العزلة والإعراض عن الطيبات من الرزق، والتمسك بالقشور في الدين والعبادة جهلا وغرورا، والبحث عن الشهرة والسلطة والألقاب الزائفة، والتورط في ارتكابهم الجرائم المروعة ضد الإنسانية باسم الدين والإله. وهي مذمومة ومرفوضة عقلا وشرعا، وتصنف في دائرة الإساءة للدين الحق والإله المتعال والرهبانية الصحيحة، وأصحابها خارجون عن طاعة الله عز وجل، ولهم في الدنيا الفضيحة والعار، ولهم في الآخرة الخزي الأعظم العذاب الأليم في نار جهنم وبئس القرار.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[١].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري »[٢].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

---

(١) الكهف: ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) كنز العمال. الهندي. ج٢. ص: ٤٥٨. الحديث: ٤٤٩٦.

النتيجة (١): المذموم عقلا وشرعا ليست الرهبانية التي هي الخشية من الله جل جلاله والالتزام بطاعته الكاملة، وإنما عدم رعايتها حق رعايتها بتفريغها من محتواها وحقيقتها بتحريم الطيبات من الرزق وباتخاذها وسيلة للشهرة وفرض السيطرة على الناس، ولو رعوها حق رعايتهما لكانت سنة حسنة مرضية عند الله تبارك وتعالى.

النتيجة (٢): أن الله عز وجل لا يؤاخذ الناس على المظاهر والأشكال، وإنما يؤاخذهم بما يعتقدون حقا وواقعا، وبأخلاقهم وصفاتهم النفسية الفعلية، وبأعمالهم التي تصدر عنهم في الحياة: السلوك والمواقف.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم »[١].

النتيجة (٣): أن الرهبانية الحقيقية ترتبط بصفاء العقيدة، وبالعدل والإحسان وحسن المعاملة مع الناس وحفظ حقوقهم، وعدم التعدي على الحدود الشرعية، وعدم الاخلال بالواقعية والاعتدال والتوازن، والالتزام الكامل بالواجبات الأساسية في الحياة، ومنها: المسؤوليات العامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله عز وجل، وأن الإخلال بأي شيء من ذلك يدل على بطلانها.

النتيجة (٤): يجب على المؤمنين مراقبة النفس والحرص الشديد على صفاء النية في العبادات، والحذر من إدخال الهوى فيها، ومن الإفراط والتفريط بشأنها، والحذر من تحويلها إلى حالات شكلية فارغة من المضمون والحقيقة، فتفقد بذلك قيمتها الروحية والعبادية، وقد تتحول إلى حجاب بين العبد وربه وسببا لبعده عنه وهلاكه.

النتيجة (٥): يجب على المؤمنين الأعزاء أن يتحلوا بالصدق والاستقامة في الدين،

---

(١) رواه أحمد.ج٢.ص٢٨٤.

وأن يكونوا أقوياء في مواجهة مصاعب الحياة وتحدياتها من خلال مقاومتها بالصبر والعمل المقاوم والتوكل على الله عز وجل، وليس بالهروب عن المسؤولية والانزواء عن الحياة العامة بحجة الزهد وغيره من وساوس الشيطان الرجيم، فإن ذلك:

- تخلي عن المسؤوليات الشرعية والوطنية والقومية والإنسانية.

- السبيل إلى النقوص والتراجع في المنزلة والمقام. وتشكيل عائق عن كمال النفس وتهذيبها.

- السبيل إلى ظلمة الروح والقلب، والشعور بالتيه والضياع في عالم الوجود.

- السبيل إلى سوء الظن بالله عز وجل وظهور العقد والأمراض النفسية والانحراف عن الفطرة والعقيدة الصحيحة.

- خذلان الحق والعدل والفضيلة، وإتاحة الفرصة لتحكم الطواغيت والشياطين والمفسدين في شؤون الحياة، مما يؤدي إلى هزيمة أهل الحق وانتصار الباطل وظهور الفساد وانتشاره في البر والبحر والجو.

النتيجة (٦): إذا وجدت سنة حسنة مبنية على الأصول الكلية في الدين، فليس ذلك بالأمر القبيح ولا الحرام شرعا، مثل: مراسيم الأعياد والوفيات، والاحتفال بيوم الاستقلال الوطني وإحياء ذكرى الشهداء ونحوه، ويمكن عدها ضمن مصاديق تعظيم شعائر الله عز وجل.

قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[1] بغض النظر عن الجزئيات والتفاصيل التي قد يختلف حولها الفقهاء والمؤمنون.

---

(١) الحج: ٣٢.

يقول العلامة مكارم الشيرازي: « وكلما أنجزت هذه المراسم بدون تجاوز للحدود الشرعية وعدم تدنيسها بالخرافات والممارسات اللاشرعية، فإنها - من المسلم - مصداق لابتغاء رضوان الله، ومصداق سنة حسنة، وفي غير هذه الصورة فإنها ستكون بدعة الشؤم والسنة السيئة »[1].

وقال الجزري: « البدعة بدعتان، بدعة هدى وبدعة ضلال، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه رسوله فهو في حيز المدح، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة »[2].

---

(١) الأمثل. ج١٨. ص٧٨.

(٢) النهاية لابن الأثير. مادة: بدعة.

المبحث (٣): مشكلة الحرية

إن مسألة حرية الإنسان في أفعاله ليست مسألة فكرية مجردة، وإنما هي مسألة فكرية تتصل بواقع حياة الإنسان ومآله ومصيره، ولهذا شغلت اهتمام الفلاسفة والمفكرين وعموم الناس.

الحرية في اللغة

الحر من الأشياء أفضلها، ومن القول أو الفعل أحسنة، وتأتي الحرية بمعنى:

- الشرف، تقول: حر الأصل، أي: شريفه.
- والخلوص من القيود: أي: تصرف الشيء وفق لإرادته وطبيعته، مثل: حرية الجسم الساقط إلى الأرض وفقا لطبيعته مع غياب المانع.
- والخلوص من الرق، أي: طليق من كل قيد سياسي أو اجتماعي.
- والخلوص من الشوائب، تقول: ذهب حر، أي: لا نحاس فيه.
- والخلوص من اللؤم، تقول: إنسان حر، أي: كريم لا لؤم فيه.

الحرية في الاصطلاح

لها معاني عديدة، منها:

- **الحرية المدنية:** أي ممارسة الإنسان لحقوقه المدنية، مثل: حرية العقيدة والضمير وإقامة الشعائر الدينية وحرية الانتقال وحرية الكلام والكتابة والنشر وما يقوم مقامها من نقل الأفكار والمشاعر وحرية الصحافة وحق الطوائف الدينية في تأسيس المدارس الخاصة وغيرها دون تدخل من جانب الدولة، على أن يكون الأفراد والجماعات مسؤولين عن أعمالهم في الحدود التي يعينها القانون.

والغرض من التقييد بالقانون: المحافظة على حقوق الغير وضمان حرياته، وتحقيق ما يقتضيه النظام العام في الدولة من شروط العدالة.

وتعتبر حرية التعبير عن الآراء من المستلزمات الضرورية للنظم الديمقراطية والإسلامية، لأنها الوسيلة الوحيدة لتنوير الرأي العام الذي يوجه الحياة السياسية، ويساهم في الاختيار الواعي للقيادات والنواب ومحاسبتهم بما يخدم مصلحة الدين والنظام والدولة ويصون حقوق المواطنين وحرياتهم الطبيعية والمكتسبة.

- **الحرية السياسية:** وتعني استقلال السلطات الثلاث: (التشريعية والقضائية والتنفيذية) عن بعضها، وممارسة المواطنين لحرياتهم السياسية المعترف بها في الدولة ويضمنها الدستور، مثل: تكوين الاحزاب واشتراك الأفراد في إدارة شؤون بلادهم مباشرة أو بواسطة ممثليهم وحمايتهم من تعسف الحكومات، وإذا أطلقت على الدولة دلت على سيادتها واستقلالها.

- **الحرية الأدبية:** وتعني علية النفس العاقلة وسموها واستقلال إرادتها، فالشخص العاقل الذي يتمتع بحرية الإرادة، يتصرف بشكل مسؤول، ويتقيد في تصرفاته بعقله وإرادته، ولا يقدم على أي فعل إلا بعد دراسته والتفكير فيه وحساب ما له وما عليه.. فالحرية الأدبية: ضد اتباع الهوى والشهوات، وضد الاندفاع غير المدروس، وضد التخلي عن المسؤولية الدينية والقانونية والخلقية ونحوها.

- **الحرية الاقتصادية**: وتعني تخلي الدولة عن ممارسة الأعمال الصناعية والتجارية وعن التدخل في العلاقات الاقتصادية بين الأفراد والجماعات، وعدم فرض القيود على الملكية وانتقال السلع بين الدول، وهو نقيض سيطرة الدولة على الأنشطة الاقتصادية المقررة في النظام الاشتراكي، وللإسلام رأي ثالث، وقد توجه العالم بعد ظهور الأزمة المالية العالمية في العام (٢٠٠٨م) إلى تعديل توجهاته الرأسمالية، وأخذ يقترب كثيرا من الرأي الإسلامي، الذي: يضمن الحرية الاقتصادية، وفي نفس الوقت يفرض قيود لضمان مشروعية الممارسة الاقتصادية وسلامتها بما يخدم المصالح العامة: الوطنية أو القومية أو العالمية، ويعطى الدولة الحق بالتدخل في الأنشطة الصناعية والتجارية بما يخدم النشاط الاقتصادي العام ولا يؤثر سلبا على حقوق الأفراد والأنشطة الاقتصادية الفردية ودورها في تنشيط الاقتصاد، ويحمل الدولة مسؤولية ضمان الحقوق والخدمات الأساسية للمواطنين وغيره.

- **حرية الإرادة والاختيار**: حيث يتم التمييز لدى الإنسان بين الأفعال الاضطرارية، مثل: ضربات القلب، والأفعال الاختيارية، وهي الأفعال التي تصدر عن تعقل وتدبر وتقدير للأمور، مثل: الذهاب إلى العمل أو السوق، وهي أفعال تصدر عن كامل إرادة الإنسان واختياره، فهو يستطيع أن يذهب إلى السوق أو لا يذهب، وهو مسؤول في الحالتين، وتقع عليه تبعة الاختيار.

وقد تشعبت الآراء حول هذه الحرية إلى ثلاثة مذاهب رئيسية:

المذهب (١) القدرية أو المفوضة: ويرى أتباع هذا المذهب بأن الإنسان هو الذي يقدر أفعاله ويوجدها ولا دخل لله عز وجل فيها من قريب أو بعيد.

المذهب (٢) الجبرية: ويرى اتباع هذا المذهب بأن الله جل جلاله هو الذي يخلق أفعال العبد كما خلق جسمه، وليس للعبد أي تأثير في خلق أفعاله.

المذهب (٣) الوسطية: ويرى أتباع هذا المذهب بأن الله عز وجل والعبد يشتركان معا في إيجاد أفعال العبد، وهو رأي مدرسة أهل البيت عليهم السلام والمعتزلة.

قيمة الحرية

تدرك الذات البشرية بأنها تعمل بإرادتها الخاصة، وفي هذا يظهر الفارق الكبير بين الإنسان والحيوان، حيث يخضع الحيوان لغرائزه وهو لا يتصف بالحرية والإرادة في أفعاله، أما الإنسان فيشعر بأنه قوة فاعلة وإرادة حرة، وهو مطالب بالتحكم في غرائزه وانفعالاته، ومسؤول عن كل تصرفاته ومحاسب عليها: قانونيا وأخلاقيا.

والخلاصة: أن الإنسان الحر هو الشخص الذي يملك نفسه، ويخلص عقله وإرادته من قيود الأهواء والشهوات، وتتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، فلا ينطلق وراء أهوائه وشهواته، ولا يذل نفسه ولا يقبل بالمهانة والصغار، ولا يعتدي على حقوق الآخرين، ولا ينزل إلى سفاسف الأمور وصغائرها.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الصلة وثيقة بين الحرية والأخلاق والمسؤولية، فلو لم يكن في وسع الإنسان أن يختار بمحض إرادته، بين: الحق والباطل، والخير والشر، والجميل والقبيح، لما كان للعقود بين الناس والإلزام الخلقي أو القانوني أي معنى أو أثر.

فوجود التشريع والثواب والعقاب: قائم على أساس الايمان الراسخ بالحرية.

والخلاصة: أن المطالبة بالحرية المطلقة للإنسان، والانعتاق من كافة القيود الأدبية والأخلاقية في تصرفاته الخاصة أو العامة، تعتبر مفسدة ليس بعدها مفسدة لمجتمع الإنسان وشخصه.

النتيجة (٢): أن المجتمع الإنساني لا يكون مجتمعا حرا إلا بوجود القوانين العادلة التي تضع حدودا لتصرفات الإنسان بما يخدم النظام ويحفظ مصالح الأفراد والجماعات:

- أما القوانين غير العادلة فتسحق كرامة الإنسان.

- وأما غياب القانون مطلقا فيحول المجتمع الإنساني إلى مجتمع حيواني يسحق فيه القوي الضعيف.

- والقانون العادل أداة للتحرير والتنظيم.

- والعدالة هي الميزان في الحياة الاجتماعية الإنسانية الذي يحفظ لها الاستقرار والاستمرار ويوجد الأرضية المناسبة والقوية لصيانة حقوق الإنسان والتنمية المستدامة.

- والحرية خاضعة لميزان العدالة على قاعد: لا إفراط ولا تفريط، والدكتاتورية عدو حقيقي للإنسانية والكرامة، ولا تكون الأمة حرة كريمة إذا قبلت بالاستعباد أو مارسته ضد أمة أخرى أو جعلت لنفسها من الحقوق على غيرها أكثر مما لها.

- وجود الحكومة ونظام العقوبات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورات اجتماعية وإنسانية لابد منها.

النتيجة (٣): أن حرية الإنسان تزداد تزايدا مطردا بتزايد معرفته العلمية وتطور قدراته الفنية، حيث يستطيع تحويل العوائق إلى وسائط لتحقيق أهدافه.

مثال: كلما زادت معرفة الإنسان بقوانين الطبيعة وتقدم تكنولوجيا، كلما أصبح أكثر حرية أمام الطبيعة، وأصبح سيدا فعليا لهذا الكون، ولهذا ربط الله جل جلاله بين خلافة الإنسان في الأرض وبين العلم بالأسماء.

والخلاصة: أن الحرية عملية روحية وفكرية تشير إلى مدى قدرتنا على التحكم في ذواتنا والسيطرة على الطبيعية وبيئتنا الاجتماعية، وأن وجود المجتمع والنظام والدولة والقوانين الطبيعية والسنن الكونية يسهم في حرية الإنسان وتربيته وتكامله المادي والمعنوي.

النتيجة (٤): الإنسان الحر يقيد نفسه بالقيم والقوانين العادلة، والذي لا يقيد نفسه يجب أن تفرض عليه القيود بالعقوبة الزاجرة عن الطغيان من أجل تثبيت دعائم العدل والمحافظة على أمن الناس وحقوقهم وحرياتهم وصيانة كرامتهم من الاعتداء عليها من قبل هؤلاء المنفلتين من عقال العقل والقيم والدين.

البحث (٤): كرامة الإنسان

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١).

بيان المفردات

ولقد كرمنا بني آدم: قد: حرف لا يدخل إلا على الأفعال، فيدخل على الفعل الماضي فيفيد التأكيد والتحقيق والتقريب، وعلى الفعل المضارع فيفيد التوقع والتقليل والتكثير، وكرم: أعطى وجاد بسخاء، فهو كريم وهي كريمة، والجمع: كرام وكرماء وكريمات وكرائم، وكرّمه: فضله ونزهه وشرفه، وكرم الشيء: عز ونفس، وأكرمه: أعطاه بسخاء وأعظمه، وأكرم نفسه: صانها ونزهها، وتكرم: تكلف الكرم، واستكرم: اختار الكرائم والنفائس من كل شيء، والكريم: الصفوح والجود ومن كل شيء أحسنه وصفة لكل ما يُرضى ويُحمد في بابه، واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الصفوح عن الزلات والجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، والمكرام: كثير الكرم، وكريم قومه: شريفهم وأفضلهم، وكرائم المال: نفائسها وخيارها، والإكرام: الإنعام والإحسان، والأكرومة والمكرمة: فعل الكرم، والجمع: مكارم.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى قد كرم بني آدم عليه السلام وفضلهم - بحسب ذواتهم - تكريما وتفضيلا شاملا لبرهم وفاجرهم، وأعلى قدرهم وشرفهم بالعقل

---

(١) الإسراء: ٧٠.

والنطق وحرية الاختيار، وجعلهم ذوي سعة ومراتب في الوجود، وأعطاهم الاحاطة - بالقوة أو بالفعل - بكل الأشياء، وفضلهم باعتدال الخلقة، وحسن الصورة، وبتسخير الأشياء لهم، وتمكينهم من الصناعات والابتكارت والاختراعات المختلفة.

حملناهم في البر والبحر: حمل الشيء: أستقله ورفعه، والحمل: ما تحمل الإناث في بطونها فهي حامل، والحمل (بالكسر): ما يحمل، والجمع: أحمال، والمحمل: ما يحمل فيه، والجمع: محامل، والحمال: الذي يحمل الأحمال، وحمل على نفسه: أجهدها، واحتمل الشيء: أطاقه وصبر عليه، واستحمل: قوي على الحمل، وحملوا التوراة: علموها، وحمل الكتاب: حفظه، والحمولة: الدواب الكبيرة الصالحة للحمل، والبر: الأرض اليابسة، والجمع: برور، وأبر: سافر بالبر، والبرية: الصحراء، والجمع: براري، والبراني: خلاف الجواني، وفي الحديث " من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه " أي: من أصلح باطنه أصلح الله ظاهره، والبحر: الماء الواسع العميق الملح وكل نهر عظيم، والجمع: بحور وأبحر وبحار، والبحر المحيط: المحيط بالقارات الخمس، وأبحر: ركب البحر، والبحار: الملاح وصائد الأسماك، والجمع: بحارة، وتبحر في العلم: تعمق وتوسع فيه.. والمراد: نقلناهم من مكان إلى آخر على ظهور الدواب والسيارات والقطارات والسفن والطائرات والمركبات الفضائية والمراكب الملكوتية كالمركبة التي حُمل عليها الرسول الأعظم الأكرم ﷺ في الإسراء والمعراج والمركب الذي حمل عليه من عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من صنعاء في اليمن إلى القدس في الشام في أقل من طرفة عين، قول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[1] وهذا مما يُظهر السلطة الواسعة للإنسان في الوجود بأسره: عالم الملك وعالم الملكوت.

رزقناهم من الطيبات: الرزق: العطاء من الخير وما ينتفع به، والجمع: أرزاق، ورزقه: أوصل له الرزق، والرزاق: الرازق، واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه:

---

(١) النمل: ٤٠.

خالق الارزاق والمتكفل بامداد خلقه بها، وطاب الشيء: زكا وطهر وحسن وجاد ولذ وصار حلالا، والطيب من كل شيء: أفضله وأحسنه وضد الخبيث، والطيبون: الصالحون المتحلون بالفضائل، والطيبات: الأعمال الصالحة ومؤنث الطيبين، وطوبى: شجرة في الجنة، وطوبى لهم: العيش الطيب الكريم.. والمراد: أعطيناهم من فنون النعم وضروب المستلذات الحلال (المطاعم والمشارب والمناكح والمشاهد الجمالية وغيرها) مما يتنعمون به ويستلذونه وترتاح إليه أنفسهم، مما تمنحهم إياه الطبيعة بصورة مباشرة أو مما يحصل بصنيعهم مما يصدق عليه اسم الرزق، ليعيشوا الحياة في رخاء ورفاهية وراحة، بعيدا عن الضيق والتعب والمشقة وشظف العيش.

فضلناهم... تفضيلا: فضل: اتصف بالفضل والفضيلة، وذا فضيلة: ذا سمعة طيبة وفضل وشكر وإحسان وحسب وشرف، فهو فاضل، والفاضل: ما بقي زائدا عن الحاجة والمتصف بالفضيلة، والفاضلة: النعمة العظيمة ومؤنث الفاضل، وفضله: جعله أو عده أفضل من غيره، وفضل عليه: زاد عليه في الفضل، والفضل: الابتداء بالإحسان وما زاد على الحاجة وما بقي من الشيء وضد النقص والنقيصة، وتفاضل القوم: تنافسوا في الفضل.. والمراد: أعطيناهم العقل وقوى الوعي والإدراك، والانفتاح على كل جوانب العلم والمعرفة من أجل:

- التمييز به بين الحق الباطل، والحسن والقبح، والكدح في ذات الله ذي الجلال والإكرام والفناء في وجوده.

- تقدم العلوم الطبيعية (معرفة ما السماوات والأرض) وتطوير الصناعات المختلفة وتسخير الطبيعة.

- إدارة الواقع وتطوير مختلف جوانب الحياة بواسطة: وضع الأنظمة وبناء المؤسسات، من أجل تحقيق أهداف الخلافة الإلهية في الأرض.

وأعطيناهم حسن الصورة واعتدال القامة والقدرة على الحركة، وركبنا في فطرتهم من الاستعدادات، ومنحناهم من خصائص الكمال والمواهب والقدرات والقابليات، ما يجعل منهم مخلوقا فذا متميزا على جميع الخلائق، ويعلو قدرهم وتعلو منزلتهم على جميع الخلائق: (الحيوان والجان والملائكة) فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم في تحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة والتزام الطاعة المطلقة لله ذي الجلال والإكرام فيما يأمر به وينهى عنه والسير في مدارج الكمال وطريق السعادة الأبدية الخالدة بالكدح في ذات الله ذي الجلال والإكرام، ويرفضوا الشرك والمعصية، فهما من الرذائل القبيحة التي لا يقبلها عاقل سليم الفطرة لما فطر عليه من حب الحق والعدل والخير والجمال والتحرك نحوها.

الفرق بين التكريم والتفضيل: التكريم معنى نفسي ناظر إلى المواهب والخصائص والاستعدادات الذاتية التي منحها الله تبارك وتعالى للإنسان دون غيره للتنويه بالعناية الإلهية الخاصة به وتشريفه بما يختص به ولا يوجد في غيره.

أما التفضيل فهو معنى إضافي ناظر إلى المقارنة بين ما وهبه الله تبارك وتعالى للإنسان من الاستعدادات والمواهب والقدرات والخصائص وما وهبه لغيره لإثبات زيادة العطاء والتقدم للإنسان على غيره مع اشتراكه معهم في أصل العطاء.

مضامين الآية الشريفة المباركة

الآية الشريفة المباركة في معرض بيان نعم الله سبحانه وتعالى: المادية والمعنوية على الإنسان، منها:

النعمة (١): نعمة العقل والتفكير الذي يميز بهما الحق من الباطل، والخير من

الشر، والنافع من الضار، ولولاهما لم يعرف الإنسان ربه وخالقه، ولم تكن له منزلة متميزة بين المخلوقات، وتتم هذه النعمة بنعمة النطق، ولولا هذه النعمة لم يكن للإنسان حضارة وتاريخ.

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: « فالكون عظيم، والعقل عظيم.. والكل لا شيء أمام عظمة الحقيقة الكبرى.. والطريق الوحيد لمعرفة هذه العظمة، عظمة الله والكون والإنسان هو العقل.. »[1].

النعمة (٢): نعمة الإرادة وحرية الاختيار والنمو وسط المتضادات، والقدرة على التنوع في الحركة في مجالات:

- السير إلى الله ذي الجلال والإكرام: الصعود والهبوط.

- والنمو والإبداع في إدارة الحياة وقيادتها: التقدم والتخلف، الحرية والاستبداد، ونحوها.

مما يقرر به الإنسان مصيره في الحياة الدنيا والآخرة بمحض إرادته.

بالإضافة إلى المؤهلات الروحية والنفسية الأخرى، والجامعية لمراتب الوجود، وما تختزنه الإنسانية في داخلها من الخصائص والاستعدادات والقدرات والمواهب غير المحدودة للتكامل والتقدم بشكل غير محدود، وقد حقق الإنسان في جميع وجوه حياته تقدما ملموسا وتكاملا فريدا وسار إلى غايات بعيدة ولا زال يسعى ويرقى، فهو سيد الوجود، وحامل الرسالة، ومستودع علم الله تبارك وتعالى، وخليفته في إدارة الكون والحياة وإظهار تجليات الجمال والجلال.

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: « الإنسان مستودع حافل بالغرائز والأسرار: علم وجهل. دين وكفر. حب وبغض. حلم وغضب. خوف وجرأة.

---

(١) الكاشف. ج٥. ص٦٨.

بخل وكرم. تواضع وعظمة. أمانة وخيانة. ثبات وتقلب.. إلى مالا نهاية.. ولست أدري هل بالغ من قال: ليس الإنسان كائنا واحدا، وإنما هو ملايين الكائنات العاقلة والمجنونة، والمتحضرة والمتوحشة »[1].

النعمة (٣): نعمة التكليف وإرسال الرسل عليهم السلام ودور الخلافة في الأرض.

النعمة (٤): نعمة حسن الصورة والخلقة السوية المتزنة والقامة المعتدلة المرفوعة والمؤهلات الجسمية العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[3].

يقول الكسيس كاريل: « إن جسم الإنسان من المتانة والإحكام والدقة بحيث أنه يقاوم كل أشكال التعب والعقبات التي يتعرض لها الوجود الإنساني من قلة غذاء، وسهر، وتعب، وهموم زائدة، وأشكال المرض والألم والمعاناة، وهو في ثباته ومقاومته للأشكال الآنفة يبدي استعدادا استثنائيا يبعث على الحيرة والعجب، حتى أننا نستطيع أن نقول: إن الوجود الإنساني في تكوينه الروحي والجسدي هو أثبت الموجودات من ذوي الأرواح وأكثرها نشاطا واستعدادا في مضمار الفاعلية الفكرية والجسدية التي يتضمنها والتي أدت إلى تشييد المدنية الراهنة بكل مظاهرها »[4].

النعمة (٥): نعمة تسخير عالم الطبيعة (الأرض والسماء والنبات والحيوان والتمكن من الإبداعات والصناعات المختلفة: الفن والأدب والتكنولوجيا وغيرها) وهو

---

(١) الكاشف. ج٥. ص٦٨.

(٢) غافر: ٦٤.

(٣) التين: ٤.

(٤) الإنسان ذلك المجهول. ص ٧٣ – ٧٤.

تسخير مرن مطرد تتجلى فيه قدرات الإنسان وخواصه الفكرية والنفسية التي استحق بها مقام الخلافة الإلهية دون غيره من الخلائق، وليس تسخيرا جامدا، كما هو الحال في تسخير جوانب من الطبيعة للجن والحيوان والنبات، أو تسخير جوانب الطبيعة لبعضها البعض في دائرة التفاعلات الطبيعية: الفيزيائية والكيميائية والحيوية.

وقد انعكس ذلك على تنوع وتقدم مأكل الإنسان ومشربه وملبسه ومسكنه ومنكحه ووسائل نقله (من الدابة إلى الدراجة والسيارة والقطار والسفن والطائرات والمركبات الفضائية) وصنوف تدبيره في السياسة والاقتصاد والاجتماع، مما يشبع حاجاته الروحية والعقلية والنفسية والجسمية والاجتماعية وغيرها.

وهي علاقة تختلف في حيويتها واطرادها عن علاقة التدبير التي هي للملائكة، فهي علاقة مرنة متنوعة، يمتاز بها الإنسان عن جميع الخلائق، مما يؤدي بطبيعة الحال إلى حياة رغيدة مرفهة وراقية: ماديا ومعنويا.

وهذا بدون شك مما أكرم الله تبارك وتعالى به الإنسان وفضله على جميع خلقه تفضيلا، وهو يدل على عناية خاصة من الله جل جلاله بهذا الكائن المتميز، والمتقدم في وجوده على جميع الكائنات.

يقول العلامة السيد قطب: « والحمل في البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات، ولولم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية، وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية في البر والبحر. ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها، ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها. وكله من فضل الله »[1].

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٢٤١.

والخلاصة: أن الكرامة هي للإنسان بما هو إنسان، فهي لعامة البشر من المؤمنين والكفار والفساق وغيرهم، وهي تختلف عن الكرامة الروحية الخاصة التي يحصل عليها المؤمنون من خلال التقوى.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

يقول العلامة السيد فضل الله: « أن الله إذا كرم بني آدم في إعدادهم التكويني والعملي، فإننا نستفيد من ذلك أنه يريد لهم أن يؤكدوا هذه الكرامة على مستوى وجودهم الحياتي وفي علاقتهم الاجتماعية التي تحكم تصرف كل واحد منهم تجاه الآخر، سيما وأن التصرف السلبي المخالف لذلك يتنافى مع خط الكرامة الإلهية للإنسان، لأنه ينتهي إلى الإهانة لمن يريد الله احترامه.

أما ما ثبت في الشرع من جواز التعدي على أنفس بعض الناس وأموالهم واعراضهم، فلأنهم أهدروا احترام إنسانيتهم بالانحراف عن الخط الذي أراد الله لهم أن يحترموا أنفسهم ودورهم فيه، فابتعدوا عن مواقع الكرامة باختيارهم، فلا مجال لاحترامهم بعد ذلك »[2].

وقال: « إننا نريد إثارة هذه المسألة، لما يترتب عليها من آثار شرعية عملية، ولما تثيره من مفهوم إسلامي أصيل حول الخط الإنساني في الإسلام »[3].

أيهما أفضل: الإنسان أم الملائكة؟

الحديث هنا عن خصوص المؤمنين، أما الكفار وإخوان الشياطين من

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) من وحي القرآن.ج١٤. ص١٨٠.

(٣) نفس المصدر. ص١٨١.

الطغاة والظالمين والمستكبرين، فهم أضل من الأنعام بحسب الرؤية القرآنية.

قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[1].

وقول الإمام الباقر عليه السلام: « إن الله لا يكرم روح الكافر، ولكن كرم أرواح المؤمنين »[2].

وقد ورد في الروايات أن المؤمن أكرم على الله عز وجل من الملائكة، منها قول الإمام الباقر عليه السلام: « ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم على الله عز وجل من مؤمن، لأن الملائكة خدام المؤمنين، وأن جوار الله للمؤمنين، وأن الجنة للمؤمنين، وأن الحور العين للمؤمنين »[3].

وهذا ما تراه مدرسة أهل البيت عليهم السلام والأشاعرة بوجه عام مع الاختلاف في بعض التفاصيل.. واستدلوا على ذلك: بأن الملائكة مطبوعون على الطاعة ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[4] وإن لم يكونوا مجبورين عليها، وذلك لفقدانهم غرائز الشهوة والغضب، ونزاهتهم عن هوى النفس، أما الإنسان فهو مركب من قوى رحمانية وقوى شيطانية (عقل وشهوة وغضب) ويملك حرية الإرادة والاختيار، فتتساوى لديه نسبة الطاعة والمعصية، وأنه في حالة صراع دائم (جهاد) بين القوى الرحمانية والقوى الشيطانية، وأن الإنسان المؤمن ينتصر بقوة العشق لله ذي الجلال والإكرام على القوى الشيطانية، فتطهر نفسه، وتسمو ذاته فوق ما لدى الملائكة من بهاء ذاتي، مما يجعله أفضل منهم.

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) كنز الدقائق. المشهدي. ج٧. ص٤٥٤.

(٣) كنز الدقائق. المشهدي. ج٧. ص٤٥٧.

(٤) التحريم: ٦.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإنسان بما هو إنسان يمتلك من القدرة والاستعداد ليكون أفضل من جميع الملائكة، ولكن الكافرين والعصاة لم يستفيدوا من هذه القابلية العظيمة المودعة فيهم، وسقطوا إلى الهاوية، فكانوا أخس من البهائم بالكفر والمعصية.

النتيجة (٢): أن المؤمنين درجات، والملائكة درجات، مما يجعل بعض الملائكة أفضل من بعض المؤمنين، وبعض المؤمنين أفضل من بعض الملائكة، ومن المؤمنين من هو أفضل من جميع الملائكة، وهم الأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم سيد الخلائق أجمعين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم بدليل:

- حديث المعراج وبلوغ الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم السبحة التي هي الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق، وقول جبرائيل عليه السلام له بعد أن بلغ معه سدرة المنتهى: « تقدم فقد وطئت موطأ لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل ».

- والخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، التي اختصه بها دون غيره من المخلوقات، وقد تطلعت إليها الملائكة ولم تحصل عليها لعدم لياقتها للمقام وحصل عليها الإنسان بشهادة الرب الجليل له باللياقة لها رغم ارتكاب بعض أفراده للفساد والجرائم الشنيعة.

- وعلم آدم عليه السلام بالأسماء دون جميع الملائكة.

- وسجود الملائكة لآدم عليه السلام خضوعا منهم لمقام الكمال الإنساني وليس بصفته الذاتية.

ولا ينفي ذلك ما يحظى به الملائكة من القرب والزلفى، والسكن في حظائر القدس ومنازل الأنس، باستحقاق من ذواتهم، فإن لبعض المؤمنين من ذل العبودية

وخلوص النية، ولذواتهم من الطهارة والبهاء والنور والكمال المكتسب تدريجيا، وفي قلوبهم من العشق ما يتقدمون به على جميع الملائكة في الفضل والكرامة، وأنهم يسكنون بحق وحقيقة في دارجات أرفع من درجات الملائكة في حظائر القدس ومنازل الأنس.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « إن الله عز وجل ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم »[١] وقد سبق البحث في تفاصيل الموضوع.

هل توجد كائنات عاقلة في الكون غير الإنسان؟

الجواب: تعتبر الأرض واحدا من بلايين الكواكب التي لا يعرف العلم الحديث عددها في هذا الكون الواسع المترامي الأطراف، ولا يستبعد العلماء وجود كواكب تسكنها كائنات ربما تكون أعقل وأرقى من الإنسان، ويعتبر الوصول إليها من الطموحات التي يعمل العلماء ويجهدون بالليل والنهار من أجل تحقيقها.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[٢].

يقول العلامة الطباطبائي: « وظاهر الآية أن في السماوات خلقا من الدواب كالأرض »[٣].

---

(١) البحار. ج٦٠. ص٢٩٩.

(٢) الشورى: ٢٩.

(٣) الميزان. ج١٨. ص٥٨.

وقال: « ولا دلالة في قوله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ حيث أتي بضمير أولى العقل على كون ما في السماوات من الدواب أولى عقل كالإنسان، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1] »[2].

إلا أن الفرض يدخل في الممكنات العقلية والعلمية، ويمكن الجدال فيه بحسب الرؤية القرآنية، ولو صدق الفرض فإن الإنسان ليس سيد المخلوقات كلها.

إلا أني أفهم حتى الآن:

- بحسب نظرية الخلافة التي سبق بحثها بالتفصيل.

- وبحسب شخصية الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وكماله الذي رسم صورته وبين حقيقته المعراج، حيث بلغ الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق المعبر عنه في الحديث الشريف بـ (السبحة) وهو حد لم يبلغه أحد من الخلائق قبله، ولن يبلغه أحد منهم بعده، وسوف يبحث هذا الموضوع بالتفصيل في بحث غاية خلق الإنسان.

- ارتباط قيامة الإنسان بانهيار النظام الكوني قاطبة، مما يدل على محورية وجود الإنسان في الكون بأسره، وسوف يبحث هذا الموضوع بالتفصيل في بحث عالم الآخرة.

أن الإنسان هو السيد الأكبر في هذا الكون وما فيه قاطبة.

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) نفس المصدر.

الفصل الثالث

حقوق الإنسان في الإسلام

تعتبر قضية حقوق الإنسان من أهم القضايا التي احتلت الصدارة في الاهتمام العالمي في الوقت الحاضر، ومن نتائجه:

- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة في عام (١٩٤٨م) الذي وضع على عاتق الأمم المتحدة مسؤولية تأكيد احترام حقوق الإنسان واعتبارها التزاما دوليا تحترمه كل دولة داخل حدودها بالنسبة إلى مواطنيها وغيرهم، وأعطى للمجتمع الدولي الحق في التدخل لحماية هذه الحقوق، فمسائل حقوق الإنسان تعتبر شركة بين الدولة والمجتمع الدولي ومنظماته الدولية، ويكون من واجب أجهزة الأمم المتحدة التدخل في شؤون أية دولة تمس حقوق الإنسان، فالقبول واستمرار العضوية في الأمم المتحدة تقوم أساسا على تعزيز واحترام حقوق الإنسان والشعوب.

- العهدان الدوليان: العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، الصادران في عام (١٩٦٦م) وهما يفصلان القواعد القانونية لحقوق الشعوب وحقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وقد دخلا حيز التنفيذ في عام (١٩٧٦م) بالتوقيع والتصديق عليهما من جانب العدد اللازم من الدول.

وبهذا أصبحت مسألة تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية

وحماية الإنسان من التعسف، مسألة عالمية تتبناها المؤسسات الدولية والقومية والوطنية في مواجهة الاستبداد الحكومي والاستكبار العالمي والاستعمار وكل أشكال الاضطهاد والاستغلال والتمييز بين البشر.

وقد أخذت هذه المؤسسات على عاتقها:

- نشر الوعي الحقوقي والكشف عن الخروقات التي تقوم بها السلطات الحاكمة وقوى الاستكبار والاستعمار هنا أو هناك، والتنديد بها باعتبارها جرائم دولية تمس المجتمع الإنساني، والسعي لإلزامها باحترام حقوق الإنسان.

- العمل على تعديل الدساتير والقوانين الداخلية/الوطنية بما لا يتعارض مع حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، مما انعكس بصورة إيجابية على كافة التشريعات في دول العالم.

وقد فرض ذلك على المفكرون الإسلاميون - لاسيما في العقدين الأخيرين - الانطلاق في عملية التأصيل الإسلامي لحقوق الإنسان وفق الرؤية الإسلامية: الكونية والتشريعية والأخلاقية، والسعي لإثبات أصالة الحقوق وشموليتها في الرؤية الإسلامية، وسبق الرؤية الإسلامية وتفوقها على غيرها من التشريعات والمواثيق الوضعية في مجال حقوق الإنسان.

وقد صيغت النتاجات في مواثيق وإعلانات أنجزتها هيئات إسلامية معروفة، وهي تتفق في كثير من بنودها مع المواثيق الدولية، ولكنها تختلف في التفاصيل والأبعاد نظرا لاختلاف المرجعية الفكرية والتشريعية والأخلاقية للمنظومة الإسلامية والمنظومات الوضعية.

الأرضية الفكرية لمنظومة حقوق الإنسان في الإسلام

ينظر الإسلام الحنيف إلى الإنسان على أنه:

- أكرم المخلوقات على الإطلاق.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١).

- وأنه خليفة الله في الأرض دون سائر المخلوقات.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٢).

وقد سعى الإسلام الحنيف إلى تحقيق أفضل حياة سعيدة ممكنة للإنسان على وجه الأرض في البعدين: المادي والروحي، مما يشكل الأرضية الصلبة المتازة لبناء المنظومة الحقوقية للإنسان في الرؤية الإسلامية، وعليه:

- جعل الإسلام العظيم تحرير الإنسان من العبودية لغير الله جل جلاله وحمايته من كل أشكال الظلم والإجحاف والاضطهاد في مقدمة أهدافه الأساسية وغاياته النبيلة.

- حرم على الإنسان بعض الممارسات الشاذة، مثل: الانتحار والشذوذ الجنسي والإضرار بنفسه ونحوه، وهي الحقوق الوهمية التي أثبتتها الرؤية الغربية في منظومتها الحقوقية، واعتبرها الإسلام خارج دائرة حقوق الإنسان المعترف بها لديه.

- قرر له حقوقا ثابتة ودائمة في كل زمان ومكان، وقرن حقوقه بكرامته، فلا يجوز أن تسلب منه بغير وجه حق، ولا يجوز له السكوت والتنازل عنها بأي حال من الأحوال، فكل نقص فيها يأتي على حساب كرامته الإنسانية وصلاح واقعه. ويؤدي إلى الإخلال بالتوازن في الحياة، وإلى ظهور الفساد العام على وجه

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) البقرة: ٣٠.

الأرض، ولهذا يعاقب الإنسان في الآخرة على السكوت والتنازل عن الحقوق، ولم تذهب المنظومات الحقوقية الوضعية إلى هذا المستوى من الالتزام بالحقوق.

منظومة الحقوق الأساسية في الإسلام

وهي كثيرة جدًا، أهمها الحقوق التالية:

الحق (١): الحياة الآمنة الكريمة

جعل الإسلام حق الفرد في الحياة حقا مقدسا، واعتبر الاعتداء عليه اعتداء على الإنسانية برمتها. فالله تبارك وتعالى هو الذي وهب الحياة للإنسان، وليس من حق الآخرين ولا من حق الإنسان نفسه سلبها أو الاعتداء عليها أو الإضرار بها إلا بسلطان الشريعة والقانون.

قال الله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[٣].

---

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) الإسراء: ٣٣.

ولهذا حرم القتل والانتحار والإجهاض وتوعد عليها بأشد العذاب في جهنم.

ومن أجل المحافظة على هذا الحق من الاعتداء:

- شرع القصاص في القتل العمد.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

- وشرع الدية والكفارة في القتل الخطأ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[2].

- أكد على احترام مواثيق الأمان.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « من قتل معاهدا لم يرى رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين خريفا »[3].

وقال الشوكاني: المعاهد: هو الرجل من أهل دار الحرب يدخل إلى دار الإسلام بأمان، فيحرم على المسلمين قتله بلا خلاف بين أهل الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه.

---

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) النساء: ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الديات.

وحرم الإسلام وفي الحروب والمنازعات: قتل أطفال الأعداء وشيوخهم ونسائهم أو التعرض لرجال الدين غير المحاربين.

كما أكد الإسلام العظيم على حق الإنسان الطبيعي في التمتع بالأمن، فلا يجوز لأحد أن يعكر صفو حياته، وجعله أسير الحزن والخوف والأسى من خلال التهديد والوعيد أو بالاعتداء على حياته أو عرضه أو ماله أو حرياته ونحوها من الحقوق.

وفرض على الدولة مجموعة من الحقوق تتصل بالأمن، منها:

- الأمن الاجتماعي الذي يتصل بتوفير الخدمات الأساسية كالغذاء والصحة والتعليم والكهرباء والمواصلات والاتصالات وغيرها.

- والأمن السياسي المتمثل في حق التعبير وتقرير المصير.

- والأمن على الحياة من خلال منع الجريمة ومعاقبة المجرمين.

- وحقوق أخرى سوف أذكرها ضمن قائمة الحقوق.

الحق (٢): الحرية

تعتبر الحرية وفق الرؤية الإسلامية الوضاءة خاصية إنسانية وركيزة أساسية من ركائز التكريم الإلهي للإنسان، تقتضيها:

- ذاته وطبيعته: ما يمتلك من العقل والإرادة وحرية الاختيار.

- ومركزه في الوجود ودوره في الحياة: خليفة الله ذي الجلال والإكرام في الأرض ومظهر تجليات جماله وجلاله.

فلا يمكن أن تتحقق إنسانية الإنسان بدون حريته، فمن يسلب الإنسان

حريته بغير حق، إنما يسلب إنسانيته.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا »[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « خمس خصال من لم تكن فيه خصلة منها فليس فيه كثير مستمتع، أولها: الوفاء، والثانية: التدبير، والثالثة: الحياء، والرابعة: حسن الخلق، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال: الحرية »[2].

مظاهر الحرية في الإسلام

وللحرية المقررة في الإسلام مظاهر عديدة، منها:

- أن الله جل جلاله قد أعطى الإنسان حرية اختيار عقيدته وتقرير مصيره، فحبب إليه الدين ولم يكره عليه.

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[3].

- وجعل أمر الثواب والعقاب مبنيا على قاعدة الحرية في الاختيار، وأعطى الإنسان حق الدفاع عن النفس في يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) البحار. ج٧٧. ص٢١٤.

(٢) البحار. ٧٤. ص١٧٥.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤) النحل: ١١١.

- تقرير مجموعة من الحقوق الأساسية للإنسان، مثل: حرية الفكر والتعبير عن الرأي وامتلاك الوسائل التي تمكنه من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1].

إجراءات إسلامية لضمان حق الحرية

وترتب على هذا ضمان هذا الحق مجموعة من الإجراءات المهمة في الإسلام، منها:

- سمح بالاختلاف في الرأي ومنع الاستبداد واحتكار الحقيقة.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

مما أنتج مناهج الاجتهاد العلمي المتعددة في الفقه والأصول وعلم الكلام وغيرها.

فالإنسان لا يمكن أن يبدع ويبتكر وتظهر مواهبه ويتقدم للأمام - كما أراد الله عز وجل له - إلا في ظل الحرية والعدالة، وبدونهما يكون الكبت والفساد والتخلف وعدم الاستقرار.

وتعتبر العقائد من الأمور الوجدانية التي تنبع من وعي الإنسان وفهمه، ولا يمكن ممارسة القهر والإرغام فيها، فالإكراه إنما يؤثر في الأفعال المادية وليس في الأمور الاعتقادية.

نعم يمكن الإرغام على التظاهر بالأقوال والأفعال المطابقة للاعتقاد المراد

---

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) سبأ: ٢٤.

فرضه إلا أن هذا ليس بدين ولا عقيدة، فالعقيدة الصحيحة إنما تأتي كثمرة طيبة للإقناع الكامل والتصديق الثابت، ولا قيمة لعقيدة تأتي كنتيجة للقهر والتسلط، لأنها سوف تزول وتضمحل بزوال أسباب القهر والتسلط ويعود صاحبها إلى ما كان عليه قبلهما.

- استحدث الإسلام العظيم حق الإجارة العقائدية التي تسمو فوق حق اللجوء السياسي المعروف اليوم في الدول المتحضرة بدرجات.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

- حرم العنف ومنع الإرهاب الفكري والسياسي والإيذاء الجسدي والنفسي للإنسان بغير وجه حق.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2].

أما عن أحكام الردة: فلا علاقة لها بحرية العقيدة، وإنما بالنظام السياسي للدولة وترتبط أحكامه بأحكامها، ولهذا لا يعاقب إذا احتفظ بالشكوك والشبهات لنفسه أو طرحها بموضوعية للنقاش العلمي وخاطب بها أهل العلم والخبرة بحثا عن الحقيقة ولم يخاطب بها العامة الذين لا يملكون المعرفة والقدرة الذهنية التي تؤهلهم للمناقشة في هذه الأمور ولم يرجف بها بهدف التحريض والإفساد.

ويعاقب إذا أصر على البقاء في داخل الدولة الإسلامية ومارس دوره العدائي وتجميع الأنصار ضد نظام الدولة والمجتمع، فيتحول بذلك إلى محارب

---

(١) التوبة: ٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ومفسد في الأرض وليس مجرد صاحب رأي وعقيدة، فيكون العقاب بسبب الحرابة وليس لمجرد التغيير في العقيدة.

والخلاصة: أن حرية الاعتقاد والتعبير الواجب صيانتها، هي الحرية التي لا تشكل تجاوزا أو عدوانا على الآخرين، لأن الحرية ليست مطلقة وإنما مقيدة بالعدالة والمصلحة العامة للإنسان، وهذا ما يحكم به العقلاء: (الحرية حسنة ما لم تشكل عدوانا على الآخرين).

- منح أتباع الأديان السماوية حرية العبادة وحق الاحتفاظ بلغة أديانهم والعمل على أساسها في أحوالهم الشخصية والاجتماعية مع مراعاة شؤون المسلمين وحقوقهم.

وهنا يتجلى احترام الإسلام العظيم لكرامة الإنسان وإرادته، وتركه يحدد مصيره بنفسه فيما يتعلق بالهدى والضلال في العقيدة، وتحميله تبعات اختياره أمام رب العالمين، وليس للناس محاسبة الناس على عقيدتهم.

قال الله تعالى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[1].

- أقر حق الانتخاب والمشاركة السياسية وتولي المناصب القيادية وإبداء الرأي والمشاركة في التجمعات السلمية لكي تكون السلطة تعبيرا صادقا عن إرادة المواطنين وفي خدمة مصالحهم، بل ذهب الإسلام إلى ما هو أبعد من ذلك: فقرر أنه تكليف شرعي تحت عنوان: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الذي هو فرض كفاية وقال بعض الفقهاء: أنه فرض عين.

- وأعطى حق المعارضة والرقابة على أعمال السلطة ومحاسبتها

(١) الأنعام: ٥٢.

ومعاقبتها وعزلها في حال فقدها للشروط، وفي مقدمتها العدالة والكفاءة وحسن استخدام السلطة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1].

قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق: « أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم ».

وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: « أيها الناس من رأي في اعوجاجا فليقومه » فقال له إعرابي: « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا ».

وفي حادث آخر قال: « يا معشر المسلمين! ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا - وميل رأسه - فقام له رجل فقال: أجلّ كنا نقول بالسيف كذا - وأشار إلى القطع - فقال عمر: إياي تعني بقولك؟ فقال الرجل: نعم! إياك أعني بقولي، فقال عمر: رحمك الله! الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجت قومني »[2].

وهو أمر سبق به الإسلام العظيم كل الفلسفات والأنظمة الوضعية.

وقد رفض الإسلام الحنيف الحياد السلبي في الشأن العام، لأن الحق والعدل إنما يخنقان وينصر الباطل والظلم بالسكوت عن نصرة الحق والعدل.

قال الله تعالى: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف

---

(١) الإمام أحمد. ج١. ص ١٣١.

(٢) الرياض النضرة.ج٢.ص٥٠.

(٣) المائدة: ٥٤.

ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله عز وجل أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »[1].

فحرض الناس على ممارسة حق المعارضة وإدانة الباطل والظلم والاستبداد وكافة أشكال الرذيلة، ولم يقيد ممارسة هذا الحق بإذن الدولة ورضاها، بل هو حق ثابت أصيل ليس للدولة الحق في تعطيله أو منعه.

- وأعطى الإسلام العظيم للمواطنين حق التنظيم والتكتل وإنشاء الأحزاب.

قيود الحرية في الإسلام

مع التأكيد على أن الإسلام الحنيف إنما يمنح الإنسان على ضوء رؤيته الكونية والتشريعية والأخلاقية الحرية المسؤولة المهذبة، ويرفض إعطاء الحرية البهيمية السائبة، ويرى بأن الحرية المطلقة حرية وهمية لا حقيقة لها في الوجود، فلا حرية في الوجود كله بلا حدود ولا قيد.

يقول الفيلسوف الألماني ليبنتز: « إن الله وحده هو الحر الكامل، أما المخلوقات العاقلة فلا توصف بالحرية إلا بقدر خلوصها من الهوى ».

ولهذا فإن الإسلام الحنيف رغم إقراره بأصالة الحرية وأنها مطلبا للفطرة الإنسانية، إلا أنه قيدها بولاية الله سبحانه وتعالى وولاية الحاكم الشرعي، ورفض أن تكون وسيلة للإضرار بالنفس أو بالآخرين، ووسيلة للانغماس في الشهوات وارتكاب المنكرات واستباحة محارم الله عز وجل، ووضع لها قيودا وضوابط لكي يسلك الإنسان طريق الكرامة والتكامل والسعادة، وتحقق الحرية الغاية من وجودها لدى الإنسان.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه.

الجدير بالذكر: إن الإنسان قد يوضع في القيود وغياهب السجون، ولكنه يعيش حرا في حقيقة نفسه، لأنه رفض الذل والقهر والهوان، واختار بإرادته الواعية القيود وغياهب السجون على الذل والقهر والهوان، فهو حر لأنه يعيش بروح الحرية وقيمها ومبادئها ومثلها.

وقد يكون الإنسان طليقا من كل قيد مادي، ولكنه يعيش العبودية الواطئة في حقيقة نفسه، لأنه استسلم لهواه وشهواته، أو لأنه استسلم للقيود الاجتماعية التي تكبح انطلاقة الروح والعقل والضمير وتهتك معالم إنسانيته العظيمة.

الحق (٣): التكسب والملكية

الملكية هو كل ما يمكن امتلاكه وحيازته والانتفاع به على وجه معتاد، مثل: النقود والحيوان والعقار وغيرها، وهي رابطة شرعية بين المالك وما يملكه. والإسلام الحنيف يعطي أهمية قصوى للملكية لأنها وسيلة لإقامة الحياة وإدارتها وتحقيقة إرادة الله التشريعية في الأرض.

ويؤكد الإسلام العظيم بأن الثروات الطبيعية هي في الأساس ملك حقيقي خالص لله جل جلاله، وانه جل جلاله قد منح الإنسان حق الانتفاع بها، مما يدل على أن ملكيته مجازية وليست حقيقية، وذلك بغية:

- إثارة عواطف الكدح والكسب في نفس الإنسان.
- وبعث نشوة الطموح والتنافس المشروع.
- التأكيد على وجوب الالتزام بالأساليب والوسائل المشروعة في التكسب.
- تأكيد حق الله في المال وتوجيهه الوجه الصحيحة النافعة في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[2].

مظاهر حق التكسب والملكية في الإسلام

وهي ضوابط عديدة، منها:

- لا يجوز في الإسلام لأحد أن يمنع أحدا من الانتفاع - وفق الشريعة والقانون - مما في الطبيعة من مصادر الرزق. فلكل إنسان وفق الرؤية الإسلامية: حق العمل والإنتاج والتكسب وتطوير إمكانياته الاقتصادية بالوجوه المشروعة، واعتبر ذلك من الفرائض الدينية، فحض على العمل والكسب والإنتاج مثلما حض على الفرائض الدينية الأخرى.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكُل من عمل يديه، وإن نبي الله داود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده »[4].

- أقر الإسلام الحنيف حق الملكية الخاصة للأفراد بالإضافة إلى الملكية العامة للدولة والأمة، وحرم أخذ المال من أصحابه بالحرام.

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الواقعة: ٦٣- ٦٤.

(٣) الجمعة: ١٠.

(٤) رواه البخاري.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1].

- أعطى المرأة نفس الحقوق الاقتصادية التي أعطاها للرجل، فأعطاها حق الكسب والملكية والاستقلال بالتصرف في أموالها.

والخلاصة: أن الإسلام يهدف بنظامه الاقتصادي إلى حفظ كرامة الإنسان، وإطلاق حرياته في الاجتهاد بالعمل وقطف ثمار هذا الاجتهاد والتمتع بخيرات الحياة، ومنع الفساد في الأرض.

القيود والحقوق التي فرضها الإسلام على المال العام والخاص

في الوقت الذي يحمي الإسلام الملكية الفردية، فإنه يقيدها بقيود قانونية وأخلاقية تمنعها من الطغيان ومجاوزة الحدود، حيث جعل لها ضوابط والتزامات شرعية وأخلاقية، مثل:

- اكتساب المال بطرق الحلال، مثل: الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن الشريفة. وفرض قيودا تضمن طاهرة النفس وشرف الوسيلة في طلب الرزق، فحرم الاغتصاب، والمضاربات الربوية، والغش، والرشوة، والاحتكار، والإعلان الكاذب عن السلع، والتجارة بالحرام، مثل: بيع الخمور ولحم الخنزير والتجارة بالأجساد (الرقيق الأبيض) وغيرها، مما يضر بشرف الإنسان وكرامته ومصالح المواطنين ويتنافى مع قيم السماء، وبهذا حد الإسلام الحنيف من الطغيان المادي المستبد بصاحبه المفضي إلى الجشع والتسلط والاستغلال والفساد.

- أعطى الإسلام للفرد الحرية في إنفاق المال، شريطة أن ينفق في محله

---

(١) النساء: ١٠.

فلا إسراف ولا تبذير.

قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[1].

- حرص على حفظ المال من الضياع والإتلاف، فدعا إلى الحجر على السفهاء والصغار القاصرين، وأسند أمرهم إلى من يقوم بشؤونهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[2].

- أوجب للفقراء حقا في أموال الأغنياء نظمته الحقوق الشرعية المفروضة والمستحبة.

- أوجب توظيف مصادر الثروة ووسائل الإنتاج لمصلحة المواطنين، فلا يجوز إهمالها ولا تعطيلها ولا يجوز للقائمين على السلطة الاستئثار بها، فهم مجرد أمناء عليها ينفقونها في الأوجه المشروعة المقررة.

- أقر حق المواطنين في الضمان الاجتماعي والحصول على كفايتهم من مقومات الحياة الكريمة في حالة العجز عن العمل والمرض والشيخوخة وغيرها.

الحق (٤): الزواج وتكوين الأسرة

لقد حث الإسلام العظيم الإنسان على الزواج وتكوين الأسرة ورغب فيه كثيرا.

---

(١) الإسراء: ٢٦ - ٢٧.

(٢) النساء: ٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

وجعله سنه دينية، ونظم الحياة الزوجية تنظيما بديعا، ابتداء من الخطبة وانتهاء بحقوق الزوجين (ما لهما وما عليهما من الحقوق والواجبات) مما يهيئ لهما الاستقرار والطمأنينة والنجاح في تحقيق الأهداف.

وجعل الإسلام الزواج فرضا شرعيا في بعض الحالات، واعتبره واجبا اجتماعيا تنهض به الدولة والمجتمع إذا عجز عنه الأفراد.

وقد أجاز الإسلام العظيم للمسلمين أن يتزاوجوا بينهم مع اختلاف مذاهبهم بشرط احترام الخصوصية المذهبية لكل واحد من الزوجين، وأجاز للمسلم أن يتزوج من الكتابية ولم يجز للمسلمة الزواج من غير المسلم، ويمكن تعليل ذلك مع بعض التحفظات:

- بأن المسلم يعترف بدين أهل الكتاب: ولهذا لن يجبر المسلم زوجته الكتابية على تغيير دينها ولن يمنعها من أداء عباداتها.

- أما غير المسلم فهو لا يعترف بالإسلام: فلا يؤمن أن يجبر زوجته المسلمة على تغيير دينها أو لا يمكنها من تأدية عباداتها بحرية تامة، وفي هذه الحالة لا يكون الزواج متكافئا، ولا يتوقع له الاستقرار والاستمرار.

كما حرم الإسلام الحنيف الزواج من المحارم، وأباح تعدد الزوجات، وأباح الطلاق، وفاوت بين الرجل والمرأة في الميراث كما فاوت بينهما في النفقة، ولا يعني ذلك أن أحدهما أفضل من الآخر، فالتفاوت مبني على رؤية اجتماعية محكمة، مع التنبيه إلى أن المرأة قد تتساوى مع الرجل في بعض الحالات، وقد يزيد نصيبها

---

(١) الروم: ٢١.

على نصيبه في حالات أخرى، وأجاز أن يضاف إلى نصيبها الثلث من التركة بالوصية.

وقد حث الإسلام العظيم على رعاية الطفل وتوفير الرعاية الشاملة له وتربيته التربية الصالحة، وفرض له الحضانة على الأبوين بتفصيل سبق ذكره.

كما حث على بر الوالدين ورعايتهم في حال الكبر.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1].

الحق (٥): العدل والمساواة

العدل هو الحق الذي يقضي بإعطاء كل ذي حق حقه، العدو والصديق، الغني والفقير، الحاكم والمحكوم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3].

---

(١) الإسراء: ٢٣- ٢٤.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) الأنعام: ٨٢.

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « أعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه »[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه لإقامة الحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه »[2].

وقد دل واقع المسلمين التشريعي - وبخاصة عصر الرعيل الأول من الصحابة والتابعين والفقهاء - على أصالة تحقيق العدالة والإنصاف بين المتخاصمين في الدعوة الإسلامية.

أما حق المساواة: فلا ريب أن كثيرا من نصوص القرآن والسنة تنص على هذا الحق وتدعو إليه، ويعني المماثلة في الحقوق والواجبات بين المواطنين، ويعد حقا فرعيا من حق العدالة، فلا تتحقق العدالة ويظهر أثرها إلا بتحقيق المساواة.

والعدل والمساواة من المبادئ الأساسية في الرؤية الإسلامية: حيث أن الناس سواسية في الحقيقة الإنسانية بنظر الإسلام العظيم، فلا ميزة لإنسان على أخيه الإنسان إلا بميزات فاضلة مكتسبة، مثل العلم والتقوى.

وعلى هذا الأساس:

- كفل الإسلام العظيم المساواة في ظل الدولة الإسلامية وفي المجتمع الإسلامي بين المسلمين وغير المسلمين (ذميين ومعاهدين) إلا فيما يتصل بقواعد دينهم.

- وساوى بين أبناء الأمة في الحقوق والواجبات وفي الجزاء: الثواب والعقاب (في الدنيا أمام المجتمع والدولة، وفي الآخرة أمام الخالق).

---

(١) البحار. ج٧٥. ص٢٥.

(٢) غرر الحكم.

أما التقوى والعلم وغيرهما من الميزات الفاضلة التي حث عليها الإسلام الحنيف ورغب فيها، فإنما هي ميزات يظهر أثرها في الآخرة.

- فرض سيادة القانون على الجميع، وجعله أساس الحكم في الدولة، فجميع المواطنين أمام القانون سواسية، لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، ولا بين العالم وغيره، ولا بين الحاكم والمحكوم.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »[2].

ويعتبر العدل والمساواة من الركائز الأساسية لتحقيق:

- الأمن والاستقرار.
- حفظ الحقوق لكافة المواطنين دون تمييز بينهم.
- ومنع الحروب والتسلط والاستبداد والاستكبار والاستعمار.
- وتحقيق المحبة والسلم الأهلي والعالمي.
- وتحقيق التقدم والازدهار والرخاء الوطني والعالمي.

وقد سعى الإسلام العظيم:

- لتحرير الإنسان من الرق والاستعباد والاستضعاف.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) رواه الإمام أحمد.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[1].

- وأعطى المرأة حقوقها ورفع من شأنها كالرجل وفرض كرامتها.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[2].

وفي الحديث الشريف: « إنما النساء شقائق الرجال ».

وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات والجزاء: الثواب والعقاب.

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[4].

ولم يفرق بينهما إلا فيما تقتضيه طبيعة كل منهما ومهمته في الحياة.

وقد منح المرأة حق اختيار الزوج والاحتفاظ بهويتها الشخصية بعد الزواج، فهي تعرف بعد زواجها باسم عائلتها الأصلية حتى لا تفقد هويتها الشخصية وحقوقها الإنسانية الأصيلة، بالإضافة إلى حقوقها الاقتصادية.

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

(٣) النحل: ٩٧.

(٤) النور: ٢.

الحق (٦): الدفاع عن النفس

لقد كافح الإسلام العظيم الظلم بكافة أشكاله، وجعل محاربته واجبا دينا على الحاكم، والتصدي له حقا دينيا للمظلوم، وتوعد الظالمين بأشد العذاب.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[٢].

وقد أقر الإسلام العظيم مجموعة إجراءات لحفظ هذا الحق من الانتهاك، منها:

- أقر للإنسان بحق الدفاع عن نفسه ضد أي ظلم أو اعتداء يقع عليه أيا كان مصدره، فإن قتل عد عند الله عز وجل شهيدا.

في الحديث الشريف: أن رجلا جاء إلى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ يسأله: يا رسول الله! أرأيت إذا أراد رجل أن يأخذ مالي؟

فقال الرسول: لا تعطه.

قال الرجل: إذا قاتلني؟

قال الرسول: قاتله.

قال الرجل: أرأيت إذا قتلني؟

قال الرسول: فأنت شهيد.

---

(١) إبراهيم: ٤٢- ٤٣.

(٢) الشعراء: ٢٢٧.

قال الرجل: أرأيت إذا قتلته؟

قال الرسول: فهو في النار.

فالإنسان مفطور على عشق الحرية والعدالة ورفض الاستبداد والظلم بكافة أشكاله، فالحرية والكرامة وسلامة الجسد والعقل من العدوان من أهم الحقوق الإنسانية، وهي حقوق متلازمة ومترابطة، فلا حياة كريمة مع القهر والظلم ووأد الحرية وإضاعة الكرامة بالتعذيب وهتك الأعراض.

وفي الحديث الشريف: « إن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق أمام سلطان جائر ».

- ومنع إلقاء القبض أو الحبس أو النفي لإنسان بغير حق.

- وأوصى بحسن معاملة المتهمين، ومنع تعريضهم للتعذيب أو المعاملة المهينة.

- وأوجب التزام الشرعية في المعاقبة والتجريم، فلا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون، وأن التقاضي حق مضمون ومكفول لكافة الناس، فلكل مواطن حق اللجوء إلى القضاء، ولا حصانة لأي عمل أو قرار أداري من رقابة القضاء.

- ودعا إلى استقلالية القضاء ونزاهته، وإلى العدالة في الحكم والمساواة بين الخصوم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[1].

- واعتمد قاعد: براءة الذمة (المتهم بريء حتى تثبت إدانته).

---

(١) النساء: ٥٨.

- وأعطى للمتهم حق الدفاع عن نفسه أمام القضاء وغيره مما يضمن تأكيد حقوق وحريات المواطنين العامة.

- ومما تميز به الإسلام العظيم على الأنظمة الوضعية: حق المجرمين في التوبة إلى الله عز وجل، وقد رغبهم فيها وحثهم عليها ووعدهم بالقبول والمغفرة.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

الحق (٧): حفظ كرامة الميت

لم يكتفِ الإسلام الحنيف بحماية الإنسان في حياته، بل أكد على احترامه وتقديره والمحافظة على كرامته بعد موته، فأمر بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه ودفنه في مكان مناسب، وحرم نبش قبره قبل العلم باندراسه وصيرورته ترابا، إلا في حالات، منها: توقف إثبات حق من الحقوق على مشاهدة جسده، وفيما لو دفن في مكان يوجب هتكه (كما لو دفن في مزبلة) أو خيف عليه من سباع أو سيل أو عدو ونحوه، ونهى عن الاعتداء على جسده (المثلة به) والإساءة إليه من قبل الأحياء.

خصائص الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان

تمتاز الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان بمجموعة خصائص رئيسية، منها:

الخاصية (١) الشمولية والتوازن: لقد تضمنت منظومة الحقوق الإسلامية استنادا

---

(١) المائدة: ٣٩.

لرؤيته الفكرية والتشريعية والأخلاقية مجموعة من الحقوق لم تتضمنها المنظومات الوضعية لحقوق الإنسان، مثل:

- حق الله سبحانه وتعالى على الإنسان.
- وحق الجار.
- وحق الجنين.
- وحق الميت.
- وغيرها من الحقوق التي اختص بها الإسلام الحنيف دون غيره من الشرائع.

بالإضافة إلى خلق التوازن بين الحقوق، من خلال:

- مراعاة حاجات الإنسان الجسدية والروحية.
- ومراعاة حقوق الأفراد بوصفهم أعضاء في الجماعة، فيمارس الأفراد حقوقهم بطريقة لا تضر بمصلحة الجماعة، في الوقت الذي لا تجحف الجماعة بحقوق الأفراد.
- ومراعاة التوازن بين الواقعية والمثالية من خلال النظر إلى الظروف في عملية التفكير والتشريع وأخذها بعين الاعتبار، فلا تتجاهل مثالية التشريع خصوصية الزمان والمكان.
- ومراعاة متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة، هذا في الوقت الذي تركز فيه المنظومات الوضعية على الحقوق المادية والدنيوية بشكل عام.

الخاصية (٢) انبثاقها من التشريع الإسلامي: تعتبر منظومة حقوق الإنسان في الإسلام منظومة أصيلة، فهي من مستلزمات العقيدة وجزء لا يتجزأ من التشريع الإسلامي الحنيف، لأن الله سبحانه وتعالى قد وهبها للإنسان وفرضها على

العباد، فلم توضع استجابة لتطور تاريخي، أو كثمرة لنضالات مريرة خاضتها الشعوب، أو كردة فعل لواقع سيء مرير، كما هو الحال في أوربا حيث أصل مفكروها لحقوق الإنسان من أجل الوقوف في وجه الاستبداد السياسي والديني للدولة والكنيسة في العصور الوسطى، والسعي لتحرير الإنسان من استبدادهما وإسقاط المفاهيم التي تنكر على الإنسان استقلاله وحقوقه الطبيعية الأساسية في الحياة.

فمنظومة حقوق الإنسان أصيلة في الرؤية الإسلامية، ومستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولهذا لا يوجد تخالف أو تناقض فيما بينها، لأنها من نسق تشريعي / فكري واحد.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[(١)].

والدولة ملزمة بتوفيرها للأفراد والجماعات ويحرم عليها منعها أو الاعتداء عليها، فهي من الضروريات التشريعية الغير قابلة للتعطيل جزئيا أو كليا، ولا تسقط حصانتها الذاتية لا بإرادة الفرد بالتنازل عنها، ولا بإرادة المجتمع ممثلا فيما يقيمه من مؤسسات أيا كانت طبيعتها (تشريعية أو قضائية أو تنفيذية) وكيفما كانت السلطات التي تخولها، فرعايتها عبادة، وإهمالها أو العدوان عليها منكرا، ويتحمل المكلف (الأفراد منفردين والأمة متضامنة) مسؤولية فرضها وحمايتها من الاختراق وعدم التفريط فيها بأي حال من الأحوال بوصفها تكليفا شرعيا ملزما.

قال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[(٢)].

وهذا يوفر ضمانات تشريعية وأخلاقية واجتماعية أشد من أجل التطبيق لو عمل بها بحق وحقيقة.

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) الصافات: ٢٤.

الخاصية (٣) انسجامها مع الفطرة وغاية الوجود: تنسجم منظومة الحقوق الإسلامية مع الفطرة الإنسانية التي فطر الله عز وجل الناس عليها ومع غاية وجود الإنسان في الحياة، ولهذا حرم الإسلام العظيم الانتحار والشذوذ الجنسي وممارسة الجنس والإنجاب خارج عش الزوجية وحرم الإضرار بالنفس وغيرها من الممارسات المنحرفة عن الفطرة وتتعارض مع غاية وجود الإنسان في الحياة.

الفهرس